

وزارة
التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البصرة
كلية الآداب / قسم اللغة العربية

التجديد في الفكر البلاغي المعاصر "الدراسات البديعية تحليل وموازنة"

أطروحة تقدّم بها الطالب
طارق محمد حسن مطر

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة البصرة، وهي جزء من
متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ المساعد الدكتور
فالح كامل اسكندر

صفر ١٤٣٥ هـ

كانون الأول ٢٠١٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَائٍ كُلُّهُ نَباتٌ وَاحِدٌ لَنُغْنِيَنَّكَ اللَّهُ بِذَلِكَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُ لَهُ أَكْثَرَ ذَلِكَ أَشْأَاءَ لَقَالَ إِنَّي فَاعِلٌ بِمَا تَسْأَلُ﴾

قرآن الكريم - كتاب الله تبارك وتعالى (الحشر 21)

الإهداء

- إلى الأمل الذي نغدو ونرجو

شأببه ونرئو لمقتليه

ألا فاندق لراجيك المعاني

وطيئه وهنيء نشأتيه

- وإلى نبع الطفولة الذي حفر في الانسانية جرحاً لن يبرأ
أبدًا...

(إبراهيم ومحمد ولدي مسلم بن عقيل، عليهما السلام)

- وإلى والديّ فضلاً وامتناناً...

- وإلى سكتي وولديّ (محمد تقي وحسين)، بضعة
وحناناً...

أهدي جُهدي المتواضع هذا

طارق

"شكر وتقدير"

مبتدأ الشكر ومنتهاه لله تعالى، فالحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها، الذي يُذهل عن إقامة شكره
تتابع طوله وترادف فضله ...

ولازم قبول هذا الشكر منه تعالى علّقه بالشكر للوالدين، وها أنا ذا أشكرهما على ما أبدياه نحوي من رعاية وعناية
وعونٍ ودعاء، ما لا يجازي إلا باليد الطولى من الله تعالى، فأسأله عز وجل أن يوفقهما لكل خير وإحسان ومعروف
...

وشكري موصولٌ إلى من تكفل بجثي وترسم معي دليله ومشى معي في سبيله أستاذي العزيز الأستاذ المساعد
الدكتور فالح كامل اسكندر، فمتابعته ومراجعته لم ينفكا عني متى ما جمعتني به لقاء، وما مدّتي أياديه من مصادر
يقوم عليها البحث أو ما أبداه بيانه من ملاحظات وآراء رافدة ناقدة، كانت راحة من عناء، فأنا شاكرٌ له جميع
ذلك.

وشكري لأساتذتي في قسم اللغة العربية.

وشكري أيضاً لإخواني وأخواتي، وخصوصاً من باشر منهم بجثي وشارك جهدي فيما أحتاحه وأطلبه.
ولزملائي - دراسياً - وأخلائني - اجتماعياً - موفور الشكر ودوام الذخر على إسنادهم وتمنيهم خيري.
وأخصّ منهم الزميل الكريم والأخ العزيز الدكتور أحمد رسن على رحابته وسعته فيما أمدّني به من مصادر تخصّ
البحث كانت خير عونٍ لي عليه، فدعائي له بدوام الرقي والترقي في مدارج الكمالين وسعة الدارين.
وعموم شكري وختامه إلى كل قلب نبض نحوي بخير وكل ذي إحسان رفدني بإحسانه، جميع ذلك تما صاحب
البحث فشكري لهم جميعاً.

﴿ إقرار لجنة المناقشة ﴾

نشهدُ – نحنُ أعضاء لجنة المناقشة- أننا قد اطلعنا على أطروحة الطالب "طارق محمد حسن" الموسومة (التجديد في الفكر البلاغي المعاصر/ الدراسات البديعية تحليل وموازنة) وناقشناه في مضمونها، وفيما له علاقة بمحتواها، ونعتقد بأنها جديرة بالقبول لنيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها وبتقدير (جيد جداً).

التوقيع:

التوقيع:

الاسم : عدنان عبد الكريم جمعة/

الاسم: رحمن غركان عبادي/جامعة القادسية

جامعة البصرة

اللقب العلمي: أ.د

اللقب العلمي: أ.د

التاريخ: 2013/12 /15 م

التاريخ: 2013/ 12/ م

عضواً

رئيساً

التوقيع:

التوقيع:

الاسم : عواد كاظم لفته/جامعة ذي قار

الاسم : عبد الجبار عبد الأمير هاني/جامعة

البصرة

اللقب العلمي: أ.م.د

اللقب العلمي: أ.م.د

التاريخ: 2013/12 /15 م

التاريخ: 2013/ 12/ م

عضواً

عضواً

التوقيع:

التوقيع:

الاسم: حامد ناصر عبود الظالمي/جامعة

الاسم: فالح كامل اسكندر/جامعة البصرة

البصرة

اللقب العلمي: أ.م.د

اللقب العلمي: أ.م.د

التاريخ: 2013 / 12/ م. عضواً ومشرفاً

التاريخ: 2013 / 12/ م عضواً

التوقيع

عميد كلية الآداب- جامعة البصرة

صدقت من قبل مجلس كلية الآداب –

أ.د. عبد الله سالم عبد الله المالكي

جامعة البصرة

التاريخ: 1435/ / هـ

2013/ / م

﴿ إقرار المشرف ﴾

أشهد أن إعداد هذه الأطروحة جرى تحت إشرافي في كلية الآداب -
جامعة البصرة، وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في
اللغة العربية وآدابها.

المشرف

التوقيع:

الاسم : فالح كامل اسكندر

اللقب العلمي : أ.م.د

التاريخ: / / 2013م

/ / 1435هـ

بناءً على التوصيات المتوفرة نرشح هذه الأطروحة للمناقشة.

التوقيع

أ.د عبد الواحد زيارة اسكندر

رئيس قسم اللغة العربية / كلية الآداب /

جامعة البصرة.

التاريخ: / / 1435هـ

/ / 2013م

التوقيع

أ.د

رئيس لجنة الدراسات العليا في كلية

الآداب - قسم اللغة العربية- جامعة

البصرة . التاريخ: / / 1435هـ

/ / 2013م

”فهرس المحتويات”

رقم الصفحة	الموضوعات
3-1	المقدمة
17-4	التمهيد
12-5	التجديد / المفهوم والممارسة
13-12	البديعيات
14	مقدمة معرفية
15	صورة عن حياة العرب في الجاهلية
16	مكانة الشعر لدى العرب
17	ثقافة العرب العقائدية
68-18	الفصل الأول: الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى
19	البلاغة والإعجاز بين النشأة والوظيفة.
23	أوليات النقد وأثرها في بلورة الأصل الشعري / نظرة عامة في النسق اللغوي
25	نسق السلطة وأثره في بلورة الأصل الشعري
27	نسقية الذوق الفني
29	التدوين وهيمنة النسق الشعري
30	النسق الدلالي للحديث النبوي
34	الاحتجاج بالحديث النبوي
39	الحدث القرآني
40	منزلة القرآن عند النبي والأنمة (عليهم السلام)
44	فاعلية الوجه اللغوي في الكشف الدلالي
46	دلالة التطابق
48	إضافة خارجية للحديث يكشفها السياق

الموضوعات	رقم الصفحة
أنموذج في الأصل اللغوي	52
النسق الإعجازي للقرآن الكريم	56
الفصل الثاني / البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي	69
البديع والفضاء اللغوي	70
دلالة لفظة البديع في الشعر	72
تطور المصطلح واستقرار الدلالة / بحث في النشأة والتسمية والانصراف الدلالي	73
الفضاء الدلالي للمصطلح	76
البديع بين مصطلحي البلاغة	82
استقرار المصطلح البديعي	87
البديع بين أصالة البناء والأداء التحسيني	95
المقابلة والانعكاس مقارنة الأداء الوظيفي للتحسين	104
السيرورة الأدبية أو (النسق المرجع)	111
الفصل الثالث: مصادر التجديد / تحليل وموازنة	116
مصادر التجديد: تحليل وموازنة / توطئة	117
النظرية اللسانية / مدخل	118
الدراسة / البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: د. جميل عبد المجيد	119
معايير المعالجة النصية / المعيار الأول: البديع من تحسين اللفظ إلى سبك النص	123
التأسيس لمعيار السبك.	124
المعيار الثاني: البديع من تحسين المعنى إلى حيك النص	136
البلاغة العربية قراءة أخرى: د. محمد عبد المطلب / النظرية التحويلية- التوليدية لنعوم تشومسكي	142

رقم الصفحة	الموضوعات
148	بنية التحول
151	أسلوبية التحول
156	الاجراء البديعي/ وصف الظاهرة البديعية
156	مقاربة النظرية
162	البديع والتوازي/ د. عبد الواحد حسن الشيخ
163	التأسيس لفهوم التوازي
165	وظائف التوازي وفقاً لمعطيات هذه النظرية عند رجالها البارزين ومناقشتها
167	مقاربة البديع للتوازي
170	العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي/ د. عبد الواحد حسن الشيخ/ مبنى الدراسة
171	بين يدي الدراسة
173	العلاقات الدلالية
176	البديع والعلاقات الدلالية
177	دراسات منهجية في علم البديع/ د. الشحات محمد أبو ستيت
190	البديع تأصيل وتجديد/ د. منير سلطان
211	التكرير بين المثير والتأثير/ د. عز الدين علي السيد
216	البلاغة العربية تأصيل وتجديد/ د. مصطفى الصاوي الجويني
220	الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية/ د. محمد العمري
234	الخاتمة ونتائج البحث
238	ملحق / ثبت تعريفي بالمصطلحات البديعية
266-246	مصادر البحث ومراجعته
A-C	الملخص باللغة الانكليزية

المقدمة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الحمدُ لله على بادئ النعم وصلاته وسلامه على محمد وآله مصابيح الظلم وسادة العرب والعجم، حمداً وسلاماً يملأ الخافقين، ويُنير ما بين المشرقين، وبعد...

فإنَّ للبحث البلاغي خصوصيةً في الفكر اللساني بعامة؛ لما فيه من قدرةٍ على تقويم اللسان الإنساني وصياغته صياغةً محققةً لغايته في الإبانة والكشف عن المقصود، ومعابنة الجمال اللغوي على أفضل حالٍ وأقوم مقال، وإنَّ للبلاغة العربية سهماً فريداً، ومجالاً رحباً في حركة اللسان الإنساني نحو تلك الغاية، فمنزلةً بيانها من بيان الأمم كمنزلة الدرّة من التاج، وسدادُ الرأي لدى الاحتجاج؛ لأنَّ لها قناةً كبرى تستقي عنها، بل لها غمداً يحتضنُ سيوف أقوالها، ألا وهو القرآن الكريم.

ومما لاشكَّ فيه أنَّ التراث العربي بحاجةٍ إلى معالجةٍ في هذا الميدان، كي يتمَّ عرضُ مادّته عرضاً يتناسب وما وصلت إليه قدرةُ البيان والتواصل القولي واللساني، مع الاحتفاظ بمقوماته الأساس التي بُني عليها، ومعالجة ما يُعدُّ ضرورياً للمعالجة، فمن هنا تأتي أهمية التجديد، فإنَّ طريقه في نظرنا يمرُّ بجادة التراث، لا المعالجة القائمة على إدخال ما للغير في منظومتنا الخاصة، مع غضِّ النظر عن الواقع البيئي والثقافي الذي تولّد عنه ذلك الجديد.

ولهذا فقد تتابعت الدراسات، والمعالجات للبلاغة العربية، شعوراً من البعض بضرورة تجديد مطالبيها وتبديل دمائها؛ لتنبض بها الحياة، فجاءت تلك الدراسات متفاوتة في عمقِ معالجتها بين المعالجة الحقيقية الواعية، وبين المعالجة الفجة العقيمة القائمة على محض التأثير بالآخر، دونما تحكيمٍ لدقّة ما طُرِح في التراث، وما قدّمه من معالجات.

من هنا جاءت دراستنا هذه، والموسومة "التجديد في الفكر البلاغي المعاصر، الدراسات البديعية تحليلٌ وموازنة"، لمعالجة تلك الدراسات التي تعاطت التجديد وحاولت تبديل الدماء - حسب زعمها-، والوقوف على أبرز مقولاتها، ومعطياتها، مع موازنتها بما قدّمه التراث من نظراتٍ في المجال ذاته. وقد وقع اختيارنا على البديع من علوم البلاغة، وإنّما وقع اختيارنا عليه دونَ أخويه البيان والمعاني، لسببين: الأول: توقّر كثير من دراسات التجديد التي عالجت بصورة مستقلة عن أخويه، والثاني: كون البلاغة اليوم اتّجهت اتجاهاً بديعياً، معيدة الاعتبار لهذا العلم من علوم البلاغة الذي حُكم بهامشيته المعنوية، فحاولت الدراسات الحديثة إعادة الرّواء والرّواج له، إذ اعتُبرت انطلاقة البلاغة العربية في نموّها عنه، بوصفه أوّل ما طُرِح في ميدانها، من خلال تلك الصياغات الفنيّة والأساليب التعبيريّة المبتكرة.

فجاءت دراستنا في معالجة تلك الدراسات وبيان مدى ما حقّقته من ثمار دعوى التجديد، وبيان الجدوى العلميّة لبعض المعالجات، إذ إنّ بعضها قد جاء فجاً خالياً عن الأصالة، وأخرى يُمجّها الذوق؛ لأنّها ادّعت ولم تفِ بدعواها، فبين ذي وهذه جاءت دراستنا.

وقد انتظمت في تمهيدٍ وثلاثة فصول وخاتمة وملحق.

أمّا التمهيد فقد جاء في مقدّمتين، الأولى عالجت الأفق العام للتجديد وشيء من دواعيه ومبرراته، مستعرضة اتجاهات التجديد وبعض المحاولات الرائدة في هذا المجال، والمقدّمة الثانية تتعلّق بخصوص الفصل الأول؛ لمعالجته بعض الأسس المعرفية التي طبعت البلاغة العربية الموروثة، وهو في هذا الطرح يُعطي الأسس التي ينبغي مراعاتها عند التجديد مؤكّداً محوريّة القرآن الكريم الذي عنه كانت البلاغة، ولكنّه غاب عن عموم منهجها؛ لذا فإنّ أيّ محاولة تمتطي التجديد في البلاغة العربية لابدّ لها من أن لا تتنكّب عن بلاغة هذا النصّ العظيم، بل أن تجري في ركابه وتمتّح من نميره، بأن تلقي دلاءها لتستقي من عيونه الصافيّة.

فعليه بُني الفصل الأول، إذ عالج فيه البحث غياب النّسق القرآني في التّأصيل البلاغي، وحضور نسقٍ بديل وهو الشعر، إذ انطلقت عنه معظم المقولات البلاغيّة، وانصبّت عليه الجهود والهمم، على الرّغم من كون القرآن الكريم هو المؤصّل للبلاغة، إذ بفضل بيان إعجازه تحرّكت الهمم لتلقّيه ومعالجة نصّه فجاد لهم بهذا العلم. وفي الوقت نفسه، قد غابت النصوص الموازية لهذا النصّ، كالحديث النبويّ، وكلام أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم عدلُ القرآن، والمأمور بالتمسكّ بهم من قبل النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله)، مع تحكّم الذوق الفني القائم على النسبيّة المحدودة جداً، والمحكومة بعوامل التعصّب والهوى حيناً، والزعامة والرئاسة حيناً آخر.

وخلّص الفصل الثاني معالجاً لمصطلح البديع قيد الدراسة، مبيناً دلاليته اللغوية والاصطلاحية، وتطوّر نشأته من ابن المعتز حتى استقراره عند الخطيب القزويني، كما عالج الأفق التحسيني الذي وُسم به البديع، وتوفّر عليه حدّه الاصطلاحي مبيناً أنّ النظرة التحسينيّة الخالصة للبديع نظرة ظالمة، بل إنّّه ينطوي على قدرة كبيرة في إنتاج وحضن الدلالة لا تقلّ عن أخويه المعاني والبيان، بل به تتحقّق الديمومة والاتصال والتواصل البلاغيّ.

وجاء فصلها الأخير في معالجة أهمّ المصادر التي تناولت التجديد البلاغيّ، فانتخب البحث جملةً مصادر أساس، عالجاها معالجة محلّلة ومقارنة؛ لكون أغلب هذه المصادر متعاطاة في البحث العلميّ اقتباساً وتضميناً، فبيّنت الدراسة في هذا الفصل جملةً من المآخذ على تلك الدراسات، مقارنة بما جاء من أفكارٍ عن الأوائل في هذا الميدان، مقاربين وجهة

النَّظَر، ومبينين جملةً من الملاحظات المنهجية التي عثر بها البحث، مدعين تقويم ما رآه البحث مائلاً عن النظرة البلاغية الحسنة، واضعين القلم على جملةً من تلك الدراسات التي ظهر من بعضها تبني الدعوى من دون إقامة البرهان عليها، وتفصيل تطبيقاتها، فغدت جعجةً دون طحن، كما في المثل، ودُيِّلت الدراسة كعادة البحث الأكاديمي، بجملةً من النتائج، فُصِّلت في الخاتمة، كان من أهمها، أنَّ أيَّ محاولةٍ للتجديد ينبغي أن لا تُغفل النصوصَ الرائدة في الميدان البلاغي، وأعني بها القرآن الكريم وخطابات عدل القرآن بعد النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) الذين هم جواهر البلاغة، وعوالي اللآلئ، ودلائل الإعجاز، وسرُّ الفصاحة، وأهل الصناعتين، العلم والعمل، فلا بدَّ أن تُطرح نماذجُ تلكم البلاغة بقوة البحث النظري، كيما يتسنى تطهير البلاغة من كثيرٍ من الزيف، والخلل، فضلاً عن ذلك فقد خرج البحث بإجراءات تقويمية لجملةٍ من الدراسات المتداولة على مستوى البحث الأكاديمي، موضحةً بعض المؤخذات المنهجية، تمثيلاً مع البحث العلمي، كما ارتأينا أن ندرج ثباتاً تعريفياً لجملةٍ من المصطلحات البديعية التي تم استعراضها في البحث من دون سردٍ حدها بسببٍ من منهجية البحث، ليتسنى الرجوع إليها من قبل المطلع، ليقف على حدودها، وليس من الشكوى أن نقول إنَّ جملةً من المصاعب اعترت البحث، كان أهمها اختيار مصادر التحليل، ولكنها بحمد الله قد تذلت، وفي ختام هذا العرض، أقدم بالشكر والثناء لمن وهب لنا الطاقة ودفع عنا العناء طول هذه المسيرة، فأحمدك اللهم وأشكرُك، على تتابع طورك وتنامي رفدك، ثم شكري موصولاً لأوليائ نعمتي، وأدلتني إلى حقيقتي، محمد وآل محمد عليهم صلوات المصلين، ومن مراتب المخلوقين شكري لأستاذي الذي رعى هذه المسيرة بصبرٍ وتحملٍ جليلين على طالبه، أعني الأستاذ الفاضل المفضل، الدكتور فالح كامل اسكندر، فله جزيلُ الشكر ووافر الذخر، واعتذر عن ما قد يرد من هفواتٍ، أو زلاتٍ، أو نقصٍ، أو تقصير، في طوايا البحث، إذ الكمال لواهب الكمال، وإذا قيل لشيءٍ تمَّ فقد بان نقصه.

وآخرُ دعواي أن الحمد لله ربَّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الباحث

التمهيد

- ✓ التجديد / المفهوم والممارسة.
- ✓ البديعيات ومسار التجديد البديعي
- ✓ مقدمة معرفية:
- 1. صورة عن حياة العرب في الجاهلية.
- 2. مكانة الشعر لدى العرب.
- 3. ثقافة العرب العقائدية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدءاً، سيتشكل التمهيد من مقدمتين:

الأولى، التجديد / المفهوم والممارسة:

يُعدُّ التغييرُ والتجديدُ مظهرين من المظاهر الإنسانية العامة التي فُطر عليها التفكيرُ البشري. وإنَّ هذا التجديد والنزوع إلى التغيير هو ثمرةٌ من ثمار العقل والتفكير الإنساني، فطبيعة العقل هي التفكير في ابتكار الوسائل والطرائق التي تضمن بالضرورة العقلية للإنسان أن يعيش بمستوى أرقى وأرفع من المستوى الذي هو فيه، وهذا الأمر بالضرورة يستدعي من الإنسان أن يكون له تصوُّرٌ عن الأفق التكاملي الأرقى الذي ينشده، لكي يحققه على أرض الواقع، وإلا فلا يُتصوَّر من الإنسان أن يتطوَّر ويغيَّر واقعه من دون أن يكون له أفقٌ تصوُّريٌّ عن أفضل كمالٍ كي ينشده، ومن ثَمَّ يمكن عدَّ نزوع الإنسان إلى التفكير (أصل النزوع) مظهراً ثابتاً لا يمكن أن يتغيَّر أو يتبدَّل؛ لأنَّه إذا تبدَّل أو تغيَّر، إنَّما يتبدَّل أو يتغيَّر إلى الضدِّ، وهذا ما سيهوي بالوجود الإنساني؛ لأنَّه آنئذٍ سيتوقف عن نموِّه ونشْدان كماله.

وكما أنَّ التغيُّر والتبدُّل ينطلق من أسسٍ ومبادئ ثابتة قارَّة، تحكمها الأسس العقلية والمسلمات المنطقية، التي ستكون بمنزلة القاعدة التي سيَتَكَيُّ عليها البُنيان الإنساني، وإلَّا فإنَّ التناقضات لا يمكن أن يؤسَّس عليها بنيان، كالرسم على الماء، أو البناء على الرمال؛ لذلك فإنَّ نشْدان الكمال وازعُّ ثابتٌ لا يمكن إنكاره.

إنَّ التكامل يختلف عن التقدُّم، فالتكامل حركةٌ عموديَّةٌ متعالية، من مستوى إلى مستوى أعلى، على حين أنَّ التقدُّم حركةٌ ضمن مستوى واحدٍ وأفقٍ واحدٍ؛ ولذلك نقول: تقدُّم الجيش ولا نقول: تكامل^(١)، ومن هنا فالتكامل هو بلوغ الثمرة من الوجود كالنبته التي تنمو من البذرة، فتنصاعد إلى أن تبلغ من وجودها وجوداً له خصائص محدَّدة ووظائف خاصَّة.

وعلى مستوى الأفكار والقناعات الداخلية، فإنَّها تتطوَّر عن أصلٍ ثابتٍ وتنمو وتفرَّع، فالعقائد الدينية مثلاً، تكاملت على مرِّ العصور كالصناعات والقضايا المادية الأخر بفضل الأنبياء، والفكر الديني قد تحوَّل وتغيَّر وانتقل من دورٍ إلى آخر ضمن توسُّع الأصول الفكرية والعلمية، كاللغات ووسائل الحياة تماماً، إذ لم تبقَ أطره على الكيفية الفكرية الأولى^(٢).

(١) ظ: التكامل الاجتماعي للإنسان، الشيخ مرتضى المطهري: ٢١.

(٢) ظ: أصول العقائد في الإسلام، السيد مجتبی الموسوي: ١٢-١١/١.

من هنا كان لابد للغة، وهي من أبرز المظاهر الإنسانية بعد العقل، بل هي ترجمانه، أن تتطور وتتكامل في سلمها الوجودي، للتعبير عن مقتضيات الوجود الإنساني ومتطلباته، تبعاً للتطور في المجالات الإنسانية المختلفة، ومن هنا أيضاً اختلفت طرائق التعبير باللغة عن المواقف والحالات النفسية والاجتماعية، وإن احتفظت اللغة بمفردات شكلت قاموساً خاصاً لكل لغة من اللغات ضمن سياقها التطوري.

إن التراث البلاغي العربي ليس ببدع من الظواهر والنشاطات الإنسانية، بل هو نشاط فاعل ومحرك لكثير من المجريات. وقد مرت الفكرة البلاغية عند العرب بمراحل تطورية، إلى أن بلغت قمة تبلورها التقني على أعتاب القرن السابع الهجري، فمن الملاحظات الجزئية والأحكام الذوقية الفطرية المتأصلة، إلى المناقشة والمتابعة والإحصاء، إلى التقعيد والتقنين، وهي في سلم تنقلها بين هذه المراحل تعرضت للظروف والعوامل المختلفة التي وجهت سيرها، وحكمت قولها بقولاب معينة، وقد كان للقرآن الكريم - كما سنأتي عليه - الأثر الأكبر في تبلور الفكرة البلاغية ونموها، إذ عنه انبثقت فكرها الأساسية، ولإثبات إعجازه تحركت الفهوم للتأسيس البلاغي، وإن كانت الدفة قد توجهت لجنس أدبي معاش، ابتعدت به البلاغة عن رافدها الأساس الذي أمدها بالحياة، وللبحث مظانه حول ذلك، فلا نطيل.

إن الدلالة اللغوية للتجديد تحيل على الشيء المقطوع بالأصل، فجددت الشيء أجده، قطعه، وحبل جديد، مقطوع، وثوب جديد، هو الثوب المقطوع عن (كله) حديثاً^(١)، فدلالة الجدة دلالة فرعية، أو دلالة ثانية تشاركية إذا ساغ التعبير، فطعت الدلالة الفرعية على الدلالة الأصل بحكم التوسع اللغوي، واستعملت لكل شيء محدث، ولعل تسمية الليل والنهار بالجديدين، نظراً للتجدد الذي يضيفانه على الزمن، وإن كان متكرراً ظاهراً.

لقد ارتفعت الأصوات منذ أوائل القرن الماضي للدعوة إلى التجديد في البلاغة العربية، وفي نظرنا أن نسبة كبيرة من آفاق هذه الدعوة جاءت متأثرة بالانفتاح الذي شهدته بعض البلدان العربية على الثقافات الأوروبية عن طريق البعثات والترجمة، والتي عكست آفاق تلك الأمم الثقافية والحياتية، ونحن لا نريد بهذا أن نلغي أهمية التجديد وضرورته في الحقل البلاغي، وإنما لحظنا أن كثيراً من محاولات التجديد جاءت محاولة إحداث قطيعة معرفية مع الماضي^(٢) ليتحقق بذلك التجديد المنظور، بمعنى أن التجديد يقتضي الانسلاخ عن الماضي تماماً ولبس لبوس الثقافات الأخرى، ولسنا نبتغي ههنا الكلام حول هذا الأفق، فقد

(١) ظ: تاج العروس، الزبيدي: ٣٧٧/٤-٣٧٨.

(٢) ينظر بهذا المجال كتاب "المرايا المقعرة" للدكتور عبد العزيز حمودة، فقد تبني فيه نقد كثير من مظاهر التفاعل مع الغرب الحدائي بغية إنتاج حداثة عربية، ولكنها صورة مستنسخة، إن لم تكن مشوهة عن آداب وثقافة تلك الأمم: ٣١ وما بعدها.

عُنيت دراسات كثيرة بهذا المجال، ولكنّ كلامنا حول التجديد في البلاغة العربية، وخصوصاً علم البديع منها.

لعلّ من الخطأ أن يُنظرَ إلى التجديد من زاويةٍ واحدةٍ، وهي زاوية الإتيان بشيء لم يُسبق إليه، في وسطٍ من الأوساط، فهذه دائرة ضيقة انطلق منها كثيرٌ من الدارسين، فسَخّوا بذلك كثيراً من الدراسات؛ لأنها بنظرهم خالية من التجديد، ولتصحيح هذا المسار، يُقدّم حاجي خليفة، أطروحةً قيّمة، استقصى من خلالها آفاق النتاج الفكري، وحدود ما يصدر عن العقل الإنساني، وتعكس اختلاف المشارب والاتجاهات بوصفها سمةً ضروريةً للفكر الإنساني بعامّة، إذ يقول: " .. ثمَّ إنّ التّأليف على سبعة أقسام، لا يؤلّف عالمٌ عاقلٌ إلا فيها، وهي:

- إمّا شيءٌ لم يسبق إليه فيخترعه.
- أو شيءٌ ناقصٌ يُتمّمه.
- أو شيءٌ مغلقٌ يشرّحه.
- أو شيءٌ طويلٌ يختصره دون أن يُخلّ بشيءٍ من معانيه.
- أو شيءٌ متفرّقٍ يجمعه.
- أو شيءٌ مختلطٌ يرتّبّه.
- أو شيءٌ أخطأ فيه مصنّفه فيُصلّحه .

وينبغي لكلّ مؤلّف كتابٍ في فنٍّ قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمسٍ فوائد:

- استنباط شيءٍ كان معضلاً.
- أو جمعه إن كان مفرّقاً.
- أو شرحه إن كان غامضاً.
- أو حُسنِ نظمٍ وتأليف.
- أو إسقاطِ حشوٍ وتطويل^(١).

من هذا يظهرُ أنّ نسبة التجديد بمعنى الابتكار هي نسبة ٧/١ من مجموع وسائل التعاطي العقلي مع النتاج العلمي والثقافي، وبهذا ستكذب مقولة: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وتصدق مقولة:

يقول من تفرغ أسماعه كم ترك الأول للآخر^(٢)

والمُلاحظ أنّ البلاغة العربيّة تتّسع للمجالات السابقة جميعها، وتفرشُ تراثها للآفاق الفكرية السبعة، ولذلك فلا وجه لقصر التجديد على الإتيان بالجديد، الذي اقتصر في كثير

(١) كشف الظنون: ٣٥/١.

(٢) شرح الصولي على ديوان أبي تمام: دراسة وتحقيق، د. خلف رشيد نعمان: ٥١٦/١.

من الدراسات على إسقاط نتائج بعض الدراسات الغربية على التراث العربي من دون ملاحظة أنساقها الثقافية والتاريخية، وهذا ما دعا أحد الباحثين إلى ضرورة إطالة النظر بمنطقة التفاعل تلك، وضرورة الدقة في استعمال الأجهزة المفهومية استعمالاً يحترم خصائص التراث، والسياق التاريخي الذي ينتزل فيه، والأسس المعرفية القائم عليها؛ لكون الآخر ينطلق عن تيارات فكرية وإيديولوجية ورؤية للعالم تختلف عما هو موجود لدينا، وبهذا يُضمن عدم الاستلاب الثقافي^(١)، من هنا تتحرك مقولة الشيخ أمين الخولي للباحثين والمحققين " بأن يفهموا هذا القديم حتى يقتلوه فهماً"^(٢)، تحركاً فاعلاً في التأسيس لمنهجية كبرى في التجديد، وفي التأصيل لوسائله، فالقديم هو الذي يمتلك مفتاح التجديد، وبالنظر في القديم، فحسباً ونقداً ورفضاً وقبولاً، هو الذي سينتج منهجية في التعاطي المعرفي والثقافي، ضمن سياقهما الخاص.

ولعل لهذه المقولة تاريخاً يعود إلى عبد القاهر الجرجاني، وربما – والله العالم- يكون الخولي، قد استفادها عنه، وهذه المقولة تأتي في سياق حديث الجرجاني عن النظم وبيان مزيتته وفضيلته لدى العلماء، وما لا ينبغي أن يتصف به العاقل المدرك لمزيتته من صفات، فيقول: " وأن يربأ بنفسه، وتدخل عليه الأنفة من أن يكون في سبيل المقلد، الذي لا يبت حُكماً ولا يقتل الشيء علماً."^(٣)، فهذه الرؤية تعكس منهجية جوهرية في التعاطي العلمي، وهو ضرورة أن لا يكل المتعاطي للمعرفة من فلي وفري، وعندها سيكون ظفره بالجواهر المكنونة، أما تعاطي الجاهز من القول والحاضر من الفكر، فإنه مما يأتي سريعاً ليذهب سريعاً.

ومن جميل ما استُشرف عن البيان في كلمات القدماء، قولهم، إنَّ علمَ البيان والتفسير علمٌ لا نضج ولا احتراق^(٤)، إشارة إلى اكتنازهما لآفاق معرفية جمّة تحتاج إلى كشفٍ وتجلية.

ولما كان حديث البحث عن التجديد في علم البديع، فلا بدّ لنا أن نتصور مبدئياً الآفاق التي من الممكن أن يجري ضمنها التجديد بما يتناسب ودوائر اشتغال هذا العلم من علوم البلاغة، ففي نظر البحث أن الآفاق المتصورة للبحث في البديع لتحقيق جدواه العلمية تنحصر في:

١- إخراجها من دائرة التحسين إلى دائرة الاشتغال البلاغي الفعلي، ولو على نحو المعالجة التجزيئية، لخلوص جملة من فنونه للتحسين المحض.

(١) ظ: التفكير البلاغي عند العرب، د. حمادي صمود: ١٣.

(٢) نقلها عنه تلميذه شكري محمد عياد، وأثبتها الأخير في تحقيقه لكتاب أرسطو طاليس في الشعر، تنظر كلمة المحقق من الكتاب، نشر دار الكتاب العربي بالقاهرة، ص ١.

(٣) دلائل الإعجاز، تعليق، محمود محمد شاكر: ٨١.

(٤) " قالوا: العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق، وهو علم النحو والأصول، وعلم لا نضج ولا احتراق، وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحتراق وهو علم الحديث والفقه"، ظ: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للسيوطي: ٣.

- ٢- تخفيف التوتر الاصطلاحي الحاصل في فنونه من جهتي **التعّد والخلط**، لتنمايز المصطلحات من جهة، وتخفض نسبتها العددية بما يسهّل دراستها فنياً ودلالياً.
- ٣- تصنيفها موضوعياً ضمن حقول محدّدة؛ لمعرفة موقع اشتغال كلّ فنٍّ من تلك الفنون، مع إقصاء الفنون التي تخرج عن تلك الدوائر المحدّدة، وخصوصاً إذا كان ناتجها الدلالي محدوداً وضئيلاً.
- ٤- من الممكن الاستفادة من التطوّر في النظريات العلميّة الحديثة، ونتائجها اللغوية شرط أن تتناسب مع الدرس البياني العربي، فكراً، واستخداماً، وبيئةً، ولسناً مع عمليّة النقل الجاهز التي تعاطتها بعض الدراسات لبعض النظريات، كما سنلاحظ، إذ ظهر النقل محض استعراض لتلك النظريات من دون مقارنة تطبيقاتها بدقّة.
- ٥- إعادة النظر بدقّة وتمحيص في التراث البديعي، مصطلحاً وتطبيقات، وبيان الخلفيات الفكرية لنشوء المصطلح وتبلوره عند رجاله، ما سيحسم التعددية والاختلاف في الاصطلاح؛ لينتج اصطلاحاً مقبولاً فنياً وعقلياً، ذوقاً ووجداناً.
- ٦- رصد التجربة البديعية عند رجالها، انطلاقاً من كون البديع هو أساليب صياغية خاصة، ومن ثمّ فإنّ لكلّ شاعر استعمالاً خاصاً لها، يُفرز بالضرورة إمكانيات إبداعية ستفاوت من شاعر إلى آخر، ما سيطبع البديع بطابع الحركة المستمرة والتوالد، وهذا ما يُفسّر كثرة فنونه، وإنّ هذه التجربة هي التي دعت جملةً من الباحثين لأن يتناولوا البديع عند شاعر بعينه، كدراسة منير سلطان، البديع في شعر شوقي، ودراسة محمّد عبد المطلب للبديع عند المتنبي، ومن قبلهما ما دار من معركة نقدية حول بديع أبي تمام أفرزت جملةً من الدراسات النقدية، كالموازنة للآمدي، وما جمعت من أخبار حول أبي تمام استعرضت أحكام معاصريه حول مذهبه الشعري، كأخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي^(١).

ومما تنبغي الإشارة إليه في باب التجديد، هو أنّ رفع دعوى التجديد سهل التحقق، وأنّ التهذيب مطلوبٌ عقليٌّ وجدانيٌّ، إذ إنّ كثيراً من المسائل العقلية بحاجة إلى تهذيب، إلا إنّ المتصدّي لعلم من العلوم لابدّ أن تكون دعواه مدعومة بمقدّمات مبسّطة يبيّن فيها الميزان في إدخال مسألة في العلم، أو حذف أخرى عنه، إذ إنّ الأمور المستقرّة التي أخذت فترة طويلة من تعاطي العقول لا يمكن أن تدرى ذرو الريح الهشيم وتتسّف بكلمة أو مقالة، بل

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين، وهو من أصل تركي، ولد في بغداد سنة ثلاث وأربعين ومانتين ونشأ فيها، من عائلة متقدمة في العلم والأدب والسلطنة وسعة العيش، زاحم بلاط العباسيين زمن المكتفي والمقتدر والراضي، وصحب مجلس ابن المعتز، وما لبثت تلك العلاقة أن توترت فانقطعت مع الراضي، وأثر العزلة، توفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة على قول المرزباني، له مؤلفات عديدة، منها: كتاب الأوراق، وأدب الكاتب، وأخبار أبي تمام، وأخبار البحري، وشرح ديوان أبي تمام، وكتاب الشامل في علم القرآن، وأخبار ابن هرمة ومختار شعره..... وغيرها. ظ: مقدمة تحقيق شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٦٩.

لابدّ من أساسٍ وميزان واضح، يطرح بقوة ما يكون جوهرياً في المعالجة لا سطحياً، وعلى مستوى النقد المحض.

وتأتي في هذا السياق مظاهر الانتقاء الجزئي المتمثلة "في اعتماد مباحث بلاغية دون غيرها بدعوى تبسيط البيان وتيسير فهمه، ثمّ ما رافق هذه الدعوات من توجهات أخرى من قبيل إقصاء علاقة البلاغة بعلوم العربية.

وبناءً على ما سبق، فقد غاب التجديد عن المحاولات المدروسة بسبب انعدام العمل بتحديد مفهوم للتجديد يؤسّس للتصوّر السليم في الممارسة التجديدية، وانعدام الاهتمام بتحصيل الأدوات المعرفية الكفيلة بتقوية القديم لاستمرار حياته، وتشذيب فروع الدخيل من كلّ تعميم، ثمّ انعدام العمل بالمنهج التكاملي الذي يخدم الممارسة التجديدية، ويحفظ التوازن للعلاقات بين القديم والحديث"^(١).

وعلى الرغم من ارتفاع دعوات التجديد في البلاغة على مستويات مختلفة، إلّا إنّنا لم نحظّ بإشارة إلى ما يتعلّق بالبلاغة القرآنية (الأصل، والامتداد، والوجدان)، بل إنّ أولى المحاولات ارتبطت بالتيسير، والتسهيل، والدمج، والحذف، فإذا أمكن عدّ محاولتي أحمد الشايب وأمين الخولي أولَ محاولتين جادتين في هذا الباب فإنّنا نجد أنّ أحمد الشايب يرى أنّ البلاغة العربية في فنونها المعروفة عند الأقدمين لا تسائر الأدب الإنشائي العصري في أساليبه وفنونه، ولذلك يجب أن يوضع علم البلاغة وضعاً جديداً يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها العلمية والإنشائية، فيقترح أن يدمج علم البلاغة في بابين: هما باب الأسلوب ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات، على أن تدرس درساً مفصلاً دقيقاً يعتمد علوم الأصوات والنفس والموسيقى، وما إليها، ما يقدم الأسلوب على أنّه صورةٌ فنيةٌ أدبية، وفي هذا الباب تدخل علوم البيان والمعاني في البديع، لا على أنّها علومٌ مستقلة بل على أنّها في باب الأسلوب، وأمّا الباب الثاني، فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعراً ونثراً، (الخطبة والمقالة والرسالة والوصف والقصة والملحمة)، وما إلى ذلك من الفنون ممّا زخرت به الآداب العالمية، ولم تحظْ بلاغتُنا النظرية لحدّ الآن إلا بإشاراتٍ عنها^(٢).

أمّا أمين الخولي فقد حدّد دعوته في غرضين: الأوّل قريب، وهو تسهيل دراسة الموادّ الأدبية، والثاني بعيد: وهو التجديد في علوم الأدب وعلوم العربية بحيث تكون مادّة هذه الدراسات من موادّ النهوض الاجتماعي، تتّصل بمشاعر الأمة، وتُرضي كرامتها الشخصية، وتسائر حاجتها الفنية المتجدّدة؛ فتكون اللغة لغة الحياة في ألوانها المختلفة وأداة

(١) ظ: محاولات التجديد في البلاغة العربية في العصر الحديث، د. عبد الله مسّاوي/ ملخّص أطروحة، شبكة الإنترنت، ملتقى البلاغة العربية.

(٢) ظ: الأسلوب، أحمد الشايب: ٣ و ٤.

التفاهم، فلا يعيش الناس بلغة ويتعلمون لغة أخرى، ولا يفكرون بلغة ويدونون أفكارهم بغيرها، ويشعرون وينثرون ويمثلون ويخطبون بغيرها^(١).

وقد توزعت اتجاهات التجديد في البديع على ثلاثة أنحاء: الأول، الاتجاه الكلاسيكي المتضمن لدراسة البديع ضمن الاشتغال التراثي مع محاولة تذليل بعض صعوباته وتليين مظاهر خشونته، إذ انحصرت في الغاية التعليمية تارةً، ومحاولة نقد بعض فنونه واستثنائها من منظومته، أو جمع بعض فنونه مع بعضها؛ لاشتراكها في المعنى، تارةً أخرى، ولسنا بصدد بيان هذا النمط من الدراسات فقد سلطت عليها كثير من الأضواء، وليس ثمة ثمرة عمليّة في كثير من تلك الدراسات؛ لتمثلها التراث تمثلاً يكاد يكون تاماً، مع تعقيبه بملاحظات، الكثير منها قائم على الذوق المحض، الذي يجانب الصواب أحياناً لمخالفته بديهية غابت عن كثير من الباحثين، وهي بديهية حاكمية التعبير القرآني وأساليبه الحاكمة على القبول والرفض لجملة من الفنون، فعلى سبيل المثال، يمكن عدّ دراسة الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة "البلاغة الاصطلاحية"، نوعاً لهذا الاتجاه، فعندما يتحدث المؤلف عن العكس، يقول: "هذا هو العكس ولولا أنّ التمثيل للوجهين الأخيرين فيه من القرآن الكريم، لقلتُ الوكس... والّف والنّشر، والمزاوجة، والجمع، والتفريق، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق و التقسيم، والتفريع، والاستتباع، والجّد الذي يراد به الهزل إلى آخر ما في البلاغة العربيّة من وكس"^(٢)، فإذا كان هذا الفن قد وردت شواهد من القرآن الكريم فما هو الوجه في تسميته بالوكس^(٣)؟ وكذا غيره، بل المفترض تتبّع مظاهر بلاغته في سياقه القرآني، وبيان وجه إبداعها الصياغي، ويشركه في الحكم، الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه البديع في ضوء أساليب القرآن، فعلى الرغم من كون كتابه - ووفقاً لعنوانه - خاصاً بتقصّي بديع القرآن، إلا إنّنا لم نظفر بهذا النوع فيما تناوله، على الرغم من تعدّد استعمالات القرآن له!، في حين ظلت الثقافة الشعرية حاكمة على المؤلف، إذ تناول في نهاية كتابه السرقات الشعرية، والبديعيات، فما علاقتها ببديع القرآن؟^(٤).

الاتجاه الثاني، يتمثل في الاتجاه العام في التجديد البلاغي، بمعنى معالجة البلاغة بصورة عامّة لتجديدها، ومن ضمنها البديع، ومثال ذلك كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى للدكتور محمّد عبد المطلب، إذ اعتمد على النظرية اللسانية التوليدية وطبقها على البلاغة العربية، فنال البديع منها نصيباً.

والاتجاه الثالث، هو اتجاه توجّهت غايته للبديع خاصة، لاستثماره في الدخول إلى التجديد في البلاغة العربية وعلومها، ومن هذه الدراسات دراسة د. جميل عبد المجيد، "البديع بين

(١) ظ: فن القول، تقديم صلاح فضل: ٦٤-٦٥.

(٢) البلاغة الاصطلاحية: ٣٥٨. وتنتظر: ٣٥٩.

(٣) الوكس: النقص، أو كس في تجارته، خسر. ظ: الصّاح: ٩٨٩/٣.

(٤) ظ: البديع في ضوء أساليب القرآن: ١٧٨ وما بعدها.

البلاغة العربية واللسانيات النصّية"، إذ استثمر نظرية اللسانيات وطبّقها على البلاغة، ويدخل ضمن هذا الإتجاه دراسات في الظواهر البديعية، كالتوازي، والالتفات، والجناس ونحوها، وسنسلط الضوء في دراستنا على أهم وأبرز الدراسات التي جعلت همّها إنشاء نقلة نوعيّة في البديع البلاغي، ودراسة نتائجها في ضوء التحليل المنهجيّ القائم على المقارنة.

ومما لاحظته البحث أنّ جملةً من المؤلّفات عُنونت بالتجديد، إلا أنّها خلصت للتأصيل، أو نقل التراث بمنظومته المعرفيّة، أمثلةً واصطلاحات، فأين التجديد؟ والذي نراه أنّ هذه المحاولات أرادت أن تجذب القراء والطلبة إلى التراث وتشدّهم إليه، فلجأت إلى محاولة التدليس في العنوان، وهذا بنظرنا بمنزلة ردّة الفعل على طغيان الاتجاه المجدّد الداعي إلى الإلغاء والاستبدال، وهو بدوره متطرّف في دعوته، فكلّ فعلٍ ردٌّ فعلٍ يُساويه في المقدار ويُعكسه في الاتجاه، وفقاً للقانون الفيزيائيّ المعلوم، ولسنا بصدد استعراض تلك المؤلّفات، إذ إنّ جُلّها معروف .

البديعيّات في مسار التجديد البديعي:

شكّلت البديعيّات مظهراً من مظاهر الانتقال النوعي والكمّي في علم البديع، وبؤرةً من بؤر التجديد في هذا العلم، إذ بها اتّجه البديع نحو التحديد والتقنين، كما ساعدت على حفظ أساليبه وفنونه وتداولها، إذ يضمّن الشاعر البديعي كلّ بيتٍ من منظومته البديعيّة محسّناً، أو فناً بديعيّاً، فتطول حتّى تمتدّ إلى مائة وخمسة وأربعين بيتاً^(١)، " فهي منظومات تشبه منظومات العلوم كالألفية ابن مالك في النحو، والشاطبية في القراءات"^(٢)، وعلى الرّغم من كون كثيرٍ من الباحثين يعدّونها محاولةً عقيمةً تميّزت بالإفراط في تلك الفنون، والمبالغة بالتشقيق الاصطلاحي، بل كونها "صناعة عبث أضعفت الشعر وجردته من روائعه وهوت به إلى هاوية الإسفاف"^(٣)، إلا إنّنا نرى أنّها كانت مرآة عصر تألّق فيه البديع لأسبابٍ معيّنة لسنا بصدها، وإذا كان الباحث المشار إليه قد عدّها بمنزلة الألفية لابن مالك، والشاطبية في القراءات، وهي قصائد تعليميّة، فلا أقلّ من أن تُجعل البديعيّات ضمن هذا السياق، فهل تلك قد أضعفت الشعر وهوت به؟؟، والملاحظ أنّ هذه القصائد البديعيّة ارتبطت بفنّ المدحة النبويّة، وقد اختلف في أوّل بديعيّة نظمت في هذا الغرض بين عليّ بن عثمان الإربلي (ت ٦٧٠هـ) وبين صفّي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ)، وإن كان الأخير مرجّح في نظر كثيرٍ من الباحثين^(٤)، ومع غضّ النظر عن هذا الاختلاف، نرى من الغريب أن يتأخّر فنّ المدحة

(١) ظ: البلاغة والتطبيق: ٤٠٠، وينظر: علم البديع، عبد العزيز عتيق: ٤١، و علم البديع ، بسيوني عبد الفتّاح: ٩٣ و ٩٤.

(٢) علم البديع، د. بسيوني عبد الفتّاح: ٩٣ و ٩٤.

(٣) م.ن: ٩٦.

(٤) ظ: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها: ٦٣.

النبويّة في هذه الأمة الشاعرة، ما يقرب من سبعة قرون زمنيّة فارقة بين صاحب المدحة (صلى الله عليه وآله)، وبين وجدان هذه الأمة، إذا ما استثنينا ممدّح أبي طالب لشخصه الكريم (صلى الله عليه وآله)، ولدينه، في أوائل الدعوة، وكذلك ما نُسب للأعشى الكبير من مدحة كانت سبباً في إسلامه لولا تغرير قريش وتمويهها وسوء طالعها، والتي مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداً وعادك ما عاد السليم المسهداً! (١)

فهذا الموضوع بحاجة إلى مزيد نظر، إذ على الرغم من كثرة من مدح من الخلفاء والأمراء والحكّام والولاة، بل الأدنى من ذلك، طول هذه المدّة الزمنيّة، لا تلفينا نجد رائعة مدحيّة للنبّي الأكرم (صلى الله عليه وآله) إلا نادراً، فما سبب هذا الانزياح؟.

وقد توسّعت دائرة البديعيّات حتى استأثرت بالأدب، فارتأى ابنُ حُجّة الحموي تسمية مشروعه البديعي بخزانة الأدب لخوضه في القضايا الأدبية على جهة التوسّع (٢)، وقد اعتبر عمل ابن أبي الاصبع (ت ٦٥٤هـ) في تحرير التعبير قمة ما وصل إليه الجهد البديعي، لأنّه لم يتّكل على النقل دون النقد، وأنّ الذين أتوا من بعده لم يأتوا بجديد بشهادة الصفيّ الحلي (٣)، ثمّ استقرّ النظم البديعي عند ابن معصوم المدني (ت ١١١٧هـ)، ناظماً في البديع، وشارحاً في "أنوار الربيع في أنواع البديع"، فكان خلاصة الجهد البديعي، نظماً وشرحاً وتفرّيعاً، وقد ساعدت هذه الفورة البديعيّة، على تأصيل الجانب الأدبيّ للبلاغة العربيّة، مقابل الجانب الكلاميّ والمنطقي، وتعميم البلاغة ونشرها، وترسيخ أسس البديع (٤)، كما أنّها أسهمت في تأصيل استقلاليّة البديع لا بوصفه علماً مستقلاً عن قسيميه البيان والبديع (٥)، بل بوصفه أساليب صياغة وطرائق تعبير، لها خصوصيّة في الأداء.

(١) ديوان الأعشى الكبير: ٦٨.

(٢) ظ: البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري: ٦٣.

(٣) ظ: م.ن: ٦٤.

(٤) ظ: البديعيّات في الأدب العربي، علي أبو زيد: ٢٤٩ - ٢٦١.

(٥) ظ: م.ن: ٨ و ٢٥٥.

الثانية/ مقدمة معرفية^(١):

تشكّل دراسة الأسس المعرفية التي يقوم عليها علم من العلوم نتيجة من نتائج العلم الحديث، وإن كانت لها جذور عميقة في التفكير الإنساني، الباحث بأصالته عن مرجعيات الأشياء، وهذا بدوره سيرتبط بالبحث عن الأساس المعرفي الأوّل الذي نتجت عنه المعرفة " فإذا كنت المعرفة الانسانية مستنتجة بعضها من بعض بطريقة استنباطية أو استقرائية، فيجب أن تكون لهذه المعرفة بداية تتمثّل في معارف غير مستنتجة بأيّ صورة من صور الاستنباط أو الاستقراء، لأننا لو لم نفترض هذه البداية لواجهنا متراجعة لا نهائية، ولتوقّف التوصل إلى معرفة على حصول عدد لا نهائي من المعارف ومن ثمّ تُصبح المعرفة مستحيلة"^(٢)، من هنا ينطلق العمل المعرفي (الابستمولوجي)، إذ يعنى بدراسة مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها لغرض تحديد أصلها المنطقي، وبيان قيمتها الموضوعية^(٣)، بمعنى دراسة البنية التحتية التي تشكّل منها علم من العلوم، والتي أفضت إلى نتائجه الحالية.

ووسيلته في ذلك كما يرى البحث هو اعتماد الاستقراء والمقارنة والتحليل، لرصد البناء الداخلي الذي تشكّل منه ذلك العلم. وقد جرت معالجتنا في الفصل الأوّل ضمن هذا الأفق المعرفي، لملاحظة أنّ الأساس المعرفي الذي انطوت عليه معظم الدراسات البلاغية اعتمد أنساقاً ثقافية ومعرفية خالفت أصل نشوء ونمو الدرس البلاغي الذي وُلِد وترعرع بين أفياء النصّ القرآني، وإنّما دعا البحث إلى تناول هذه الدراسة هو كون كثير من الدراسات حاولت التجديد متجاهلة بحث الأساس المعرفي، ومن أين ينبغي أن تكون انطلاقة التجديد؟، وما الذي دعا البلاغة العربية إلى الوصول إلى مرحلة من الجمود والتوقف؟، ولماذا انقطعت البلاغة عن رافدها الأساس وهو القرآن الكريم، والنصوص البلاغية المنشعبة عنه كالحديث النبوي، وخطاب الإمام علي (عليه السلام) المشهود له بعلوّ الكعب في البلاغة، حتى وصف ابن أبي الحديد المعتزلي كلامه قائلاً: بأنّه "دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين"^(٤)، واعتمدت رافد الشعر ونسقه الثقافي المتأصل في وجدانها لتوليد مقولاتها، ما أدى إلى تضارب جملة من آرائها، يُضاف إلى ذلك أنّ جملة من الآراء التي تبناها بعض الباحثين بسبب من التمسك بأنساق البلاغة العربية تلك جاءت متسقة مع منظومة البلاغة العربية بما هي عليه من محمولات دلالية، فكان لابدّ من تقديم هذا العرض التحليلي لأنساق البلاغة العربية؛ ليكون انطلاقة قويمّة -كما يدّعي البحث- نحو تجديد صحيح وسليم للبلاغة العربية، يتقصّى مقولاتها بوسائل معرفية سليمة مضمونة النتائج مرتبطة بالمبدأ الذي انبثقت عنه البلاغة العربية، ومن باب التمهيد هذا سنقدّم استعراضاً مبسطاً للأسس العامة التي كانت

(١) هذه المقدمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمنهجية الفصل الأوّل، ارتأينا وضعها في التمهيد نظراً لعمومية أفكارها.

(٢) الأسس المنطقية للاستقراء، السيد محمد باقر الصدر: ٥٦٩.

(٣) ظ: الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية: ٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي: ٢٤ / ١.

تطبع الواقع الثقافي للمجتمع العربي؛ لنتبين مدى القطيعة المعرفية التي تحققت معه بظهور الإسلام، ومدى تأصل الواقع الثقافي الجديد، وانطباع معارفه، وحمل مقولاته الفكرية .

١. صورة عن حياة العرب في الجاهلية:

القرآن الكريم:

- قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشيةً أُملاقٍ نحنُ نرزقهم وإياكم﴾ (سورة الإسراء، ٣١).

- ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إِملاقٍ نحنُ نرزقكم وإياهم﴾ (سورة الأنعام، من الآية ١٥١).

- ﴿وإذا الموؤدة سئلت بأيِّ ذنبٍ قُتلت﴾ (سورة التكويد، الآيتان ٨ و ٩).

- ﴿وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيمٌ يتوارى من القوم من سوءٍ ما بُشِّرَ به أبتُرْكُهُ على هُونٍ أم يدُسُّهُ في الترابِ ألا ساءَ ما يحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل الآيتان ٥٨ - ٥٩).

نهج البلاغة: " وأنتم معشر العرب على شرِّ دين، وفي شرِّ دار تنيخون بين حجارة خُشن وحياتٍ صُمَّ تشربون الكدرَ وتأكلون الجشِب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنامُ فيكم منصوبة، والآثامُ فيكم معصوبة "، " فالأحوالُ مضطربة والأيدي مختلفة والكثرة متفرقة، في بلاء أزل وإطباق جهل من بنات موؤدة، وأصنامٍ معبودة، وأرحامٍ مقطوعة وغاراتٍ مشنونة" (١).

التاريخ: من قول للمغيرة بن زرارة الأسدي ليزدجر: " وأما ما ذكرت من سوءٍ، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يُشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان، والحيات، ونرى ذلك طعامنا، أما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً وأن يبغي بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه!" (٢).

من خلال جميع ما تقدّم، ومن كثير غيره، يظهر مدى مبلغ العرب من العلم وما تنطوي عليه ضمائرهم من المعرفة، جميع ذلك حجة دامغة على من حاول التكلف في نسبة العلم والمعرفة للعرب الجاهليين المتخطفين من حولهم، إلا مقداراً لا يُسمن ولا يُغني من جوع. أمّا المرأة فمكانتها عندهم، ما يرويه عمر بن الخطاب، الذي يقول: " والله إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهنّ ما أنزل، وقسم لهنّ ما قسم" (٣).

(١) نهج البلاغة : صبحي الصالح: الخطبة ٢٥ و ١٨٧.

(٢) تاريخ الطبري: ١٨/٣، وفي البداية والنهاية لابن كثير، عن المغيرة بن شعبه، ٤٩/٧.

(٣) صحيح البخاري: ٦٩/٦.

٢. مكانة الشعر لدى العرب:

الشعر علم العرب الأوائل وديوان مآثرهم، وعليه دارت ثقافتهم العامة، وبه احتشدت دواوينهم، وبسبب من سحره بالتصوير والتخييل والوصف مدحاً وهجاءً ورثاءً، حرّك دواخلهم وأهاج مشاعرهم وتحكّم بذواتهم، فأقام بذلك القبيلة وأقعد الأخرى وأفسد بين قوم وأصلح بين آخرين. وهو بعد ذلك سجل مفاخرهم، يعرّكه الكبير ويحرص على تعلّمه الصغير وتهنّئ له العواصف وتستبشر به القبيلة وتعقد الأفراح إذا ما نبغ من بينها شاعر، وأنتها القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة... وكانوا لا يهنئون إلا بسلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تُنتج^(١)، وبعد ذلك أيضاً فهو "علم قوم لم يكن لهم أصحُّ منه" كما يقول ابن سلام^(٢)، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "واعلم أنّ فنّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب؛ ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكّمهم"^(٣).

وقال عمر: أفضل صناعات الرجل، الأبيات من الشعر يقدّمها في حاجاته يستعطف بها قلب الكريم ويستميل لها قلب اللئيم^(٤)، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: "مُرْ مَنْ قَبْلَكَ فَلْيَتَعَلَّمِ الشَّعْرَ، فَإِنَّهُ يُدَلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَصَوَابِ الرَّأْيِ وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ"^(٥). وغيرُها كثير ممّا يدل على عظيم شأنه عندهم^(٦).

وللشعر فوائد جمة في الحياة الاجتماعية العامة منها:

١. إثارة حماس الجند في الحروب: والذي يتكفل بهذه المهمة (الرجز) وإن لم يعد شعراً في ذاته ولكن؛ لبراعة ما يطرحه الرّاجز في الحروب وحماسته في الافتخار وتصوير نفسه وتعريفها يشكّل دافعاً لمن وراءه لاقتفاء أثره واستلهاب مشاعره.
٢. إثارة حماسة الجماهير لعقيدة دينية أو سياسية أو إثارة عواطفهم لتوجيههم إلى غاية ما.
٣. هياج اللذة والطرب وبعث السرور والابتهاج، أو إهانة الحزن والبكاء والتوجّع والألم.
٤. إهانة الشوق والحنين بالتشبيه والغزل والوصف للبلاد ونحوها.

(١) ظ: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني: ٥٣/١.
 (٢) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي: ٢٢، ونسب القول إلى عمر بن الخطاب، ابن رشيق في العمدة: ١٨/١.
 (٣) المقدمة التاريخية: ٥٧٠/١.
 (٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٢٧٤/٥.
 (٥) العمدة: ١٩/١.
 (٦) ظ: م. ١٢/١-٥٥.

٥. الاتعاض عن فعل المنكرات وإخماد الشهوات وتهذيب النفس وترويضها كالحكم والآداب والمواعظ^(١).

٣. ثقافة العرب العقائدية:

كان دين العرب في الجاهلية هو الوثنية، ولم يكن يدين بالحنيفية إلا طائفة قليلة من الناس، وفي مقدمتهم رجال بني هاشم المبرزين كعبد المطلب سيد الوادي وأبي طالب شيخ البطحاء وعبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله، وآخرين، وكانت اليهودية والنصرانية منتشرة في بقاع الجزيرة العربية، وكانت يثرب مستعمرة يهودية، وكما كانت النصرانية منتشرة في المناذرة والحيرة، وكذلك في غساسنة الشام^(٢).

وقد كان العرب يعانون من فراغ عقائدي وضلالٍ وحيرة، وكانوا يؤمنون بأهل الكتاب وينظرون إليهم نظر التلميذ إلى معلمه، ويعتوّنهم مصدر الثقافة والمعرفة، مع ملاحظة أنّ اليهود والنصارى كانوا يجيدون القراءة والكتابة، وهذان العاملان شكّلا مظهرًا من مظاهر الهيمنة الفكرية على العرب الذين كان أغلبهم أميًا، فضلاً عن كون الكتابة عند بعضهم تعدّ عاراً، فقد ورد في الشعر والشعراء، " قال عيسى بن عمر، قال لي ذو الرمة: ارفع هذا الحرف، فقلتُ له: أكتُبْ؟ فقال بيده على فيه، أي: أكتُم عليّ؟ فإنه عندنا عيب"^(٣)، ومن ذلك رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله التي أرسلها إلى بني بكر بن وائل، فلم يجدوا من يقرأها في القبيلة كلّها حتى قرأها لهم رجل من بني ضبيعة^(٤)، حتّى ورد أنّ العربي كان إذا أراد الإسلام يستشيرُ حبراً أو راهباً في ذلك، وقد يكون ذلك فعل قبيلة برمتها، كما حدث لكعب بن عدي وقد أسلم مع وفد أهل الحيرة، فلما توفي النبي صلى الله عليه وآله ارتابوا! فتبّت كعب على الإسلام، قال كعب: ثمّ خرجت أريد المدينة فمررت براهب كنّا لا نقطع أمراً دونه إلخ^(٥)، وأثر الهيمنة اليهودية واضح من قوله: " كنّا لا نقطعُ أمراً دونه". وسيستبين لنا أثر هذه الثقافة في طيات البحث المقبلة.

(١) ظ: المنطق، الشيخ المظفر: ٤٠٢.

(٢) ظ: الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي: ١١٨/٢، وينظر أيضاً:

جواهر الأدب، أحمد الهاشمي: ١١/٢.

(٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ٥٢٥/١.

(٤) ظ: مجمع الزوائد: ٣٠٥/٥.

(٥) ظ: الإصابة، لابن حجر: ٢٩٨/٣، وينظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، جعفر مرتضى

العاملي: ١٢٠/٢.

الفصل الأول

”الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى”

- ✓ البلاغة والإعجاز بين النشأة والوظيفة.
- ✓ أوليات النقد وأثرها في بلورة الأصل الشعري.
- ✓ نسق السلطة وأثره في بلورة النسق الشعري.
- ✓ نسقية الذوق الفني.
- ✓ التدوين وهيمنة النسق الشعري
- ✓ النسق الدلالي للحديث النبوي.
- ✓ الاحتجاج بالحديث النبوي.
- ✓ الحدث القرآني.
- ✓ منزلة القرآن عند النبي والأئمة (عليهم السلام)
- ✓ فاعلية الموجه اللغوي في الكشف الدلالي.
- ✓ دلالة التطابق.
- ✓ إضافة خارجية يكشفها السياق.
- ✓ أنموذج في الأصل اللغوي.
- ✓ نسق الإعجازي للقرآن الكريم.

البلاغة والإعجاز بين النشأة والوظيفة:

من المعروف عند الدارسين أنَّ البلاغة العربية والنقد توأمان نشأ جنباً إلى جنب، إذ كانت مرحلة الإشارات والملاحظات العابرة القائمة على الذوق الفطري الخالص هي النقطة المركزية والمنطلق، أو الرحم الذي وُلِدَت منه البلاغة، فكان وعيهم بخصائص اللغة - وإن كان على المستوى الذوقي والفطري- متجسداً في تلك الملاحظات والأحكام النقدية الجزئية، ومن خلال الروايات الأدبية التي تناقلتها كتب الأدب عن مظاهر البلاغة والنقد لتلك الفترة من مثل محاوره حسن والناطقة، وما جرى بين علقمة وامرئ القيس، وغيرهما، يظهر أنَّها " تدلُّ على بداية الوعي بضرورة انطلاق الأحكام من الشعر نفسه بالنظر في خصائص لغته، والإقناع بأنَّ الألفاظ وإن كانت من نفس الحيز الدلالي فإنَّ بعضها ألصق بالموضوع من بعضها الآخر وأكثر ملاءمة للمعنى الذي قصده الشاعر"(١)، كما يظهر أنَّ جنس الشعر هو النمط الوحيد الذي كانت تدور حوله أحكامهم النقدية والبلاغية إذ لا عهد لهم بجنس أدبيٍّ متميِّز آخر تتوجّه إليه أفكارهم وتتناوله أحكامهم، فكان الاهتمام بالشعر وتطويره وتهذيبه وإخراجُه إخراجاً فنياً متميِّزاً وإعطائه الألقاب والسّمات والصفّات، هو الحاكم على جميع ملاحظاتهم وأحكامهم .

واستمرَّ اهتمامهم بالشعر حتى مرحلة التدوين والتأليف التي كانت -على شمولها وسعتها - قد جاءت متأخرة في الفكر الإسلامي لأسباب سياسية وثقافية سنشير إلى بعضها لاحقاً.

فكانت الرحال تُشدُّ إلى مختلف القبائل لغرض رواية الشاهد والمثل(٢) عنها وتقصي معاريض كلامها في (مرحلة الجمع)، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول عقلية عربية عمدت إلى تصنيف أول معجم عربيٍّ يضمُّ كلام العرب والفاظها، وتتابعته بعده الجهود المماثلة مع اختلاف المنهج مكّملة لهذه السبيل، فكان هذا العمل إيذاناً ببروز أول معيار نقديٍّ في الفكر العربي النقدي، وهو المعيار اللغوي، وضرورة الجري في الصياغات والألفاظ ضمن ما تكلمت به العرب من اشعارها والفاظها، وكانت أولى ثمار هذا الجمع هو تفريع مسائل النحو وتتبعها باستقراء كلام العرب(٣)، "وكان هؤلاء النحاة ينتبعون كلام العرب؛ ليستنبطوا منه قواعد النحو أو وجوه الاشتقاق والأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجرُّهم بالضرورة إلى نقد الشعر، لا من حيث عذوبته أو رِقته أو جماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم اليها من إعراب أو وزن أو قافية، فأظهروا بعض ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في الصياغة، وما وقع فيه

(١) التفكير البلاغي، حمادي صمود: ٢٦.

(٢) م.ن: ٢٩، وينظر: البيان والتبيين: ١٠٥/١، و ٢٦٨/٢.

(٣) ظ: الأصول في النحو، لابن السراج: ٣٥/١.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الإسلاميون^(١). والغريب أنَّ التأسيس العلميَّ في مراحلهِ الأولى بالنسبة للنحو، وكذلك البلاغة - على ما سنتأتى عليه- قد جعل المعيار اللغوي الشعري حاكماً في التقنين وتأسيس القواعد وتحليل الخطاب، والنظر في أعطافه، في الوقت الذي يعدُّ القرآن الكريم بأسلوبه اللغوي المتميّز وبألفاظه اللامتناهية بالفصاحة، وببلاغته غير المعهودة التي كسرت جناح الشعر وأخضعته لحكمها، لم يحظَ بنصيبٍ يذكر في ذلك التأسيس، في حين تعدّ المفردة القرآنية والأسلوب القرآني تركيباً ودلالةً أمتن وأقوم وأشمل في الإحاطة بدلالات الألفاظ على معانيها، بشهادة العرب أرباب البيان الذين تُحثُّوا به، فبهرتهم بلاغته، وأقعدتهم فصاحتها، واستحيوا من نظم قصائدهم ما دام برهانه ساطعاً ونوره زاهراً، حتى أجهَرَ قائلهم: "والله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوةً وإنَّ عليه لطلّوةً وإنَّه لثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله وإنَّه ليعلو ولا يُعلَى وإنَّه ليحطُّ ما تحتهُ..")^(٢). فهل حطم ما تحته؟.

ومن المعلوم أنَّ نزول القرآن الكريم كان سابقاً على زمن تقنين القواعد العربية في النحو والصرف خاصّة، وكان أيضاً داخلاً ضمن عصر الاحتجاج بالاستشهاد، مقتيداً بابن هرمة^(٣) (ت ١٥٠هـ) حيناً وبيشار^(٤) (ت ١٦٨هـ) حيناً آخر^(٥) في الحواضر، وبأواخر القرن الرابع الهجري في البوادي المغلقة^(٦) التي لم تمتزج مع القوميات والجنسيات المختلفة التي كانت سبباً لشيوع اللحن المتقدم نسبياً، فلماذا لم يُجعل القرآن الكريم مصدراً من مصادر الاحتجاج؟، وكذلك الأمر بالنسبة للبلاغة النبويّة التي نسبوا لها أنَّه (صلى الله عليه وآله) أفصح من نطق بالضاد، ومثلها في القياس كلام الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام)، وقد ثبت أنَّهم قد صدرت عنهم كلماتٌ تُبين أنَّهم أفصح العرب، فهل ناقش النقاد والبلاغيون هذه الدعوى ومحصّوها؟، وقد ظهر هذا الأمر في عدّة موارد نذكر منها ثلاثة:

١- كلمة الإمام عليّ (عليه السلام): ((بل اندمجتُ على مكنونٍ علمٍ لو بُحثُ به، لاضطربتم اضطرابَ الأرشية في الطوى البعيدة))^(٧).

- (١) تأريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم: ٦٢.
- (٢) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٣١٣/٢.
- (٣) أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة القرشي المدني، أحد الشعراء المخضرمين، كان حياً سنة ١٤٦هـ، وفاته بعد الخمسين ومائة، وكان ممن اشتهر بالانقطاع إلى الطالبين، وقد أكثر من مدانهم ورثانهم، وكان ذلك دليلاً واضحاً على تشييعه وهو القائل: فمهما ألام على حبهم * فاني أحب بني فاطمة، بني بنت من جاء بالمحكمات * والدين والسنن القائمة، ولست أبالي بحبي لهم * سواهم من النعم السائمة، ظ: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠٧/٦، وطبقات الشعراء، لابن المعتز: ٢٠-٢١، وخزانة الأدب: ٤٠٥-٤٠٦.
- (٤) أبو معاذ بشار بن برد، نشأ في البصرة، وقدم بغداد وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، وهو زعيم المحدثين ومن المبتدعين في مذاهب الشعر ومعانيه والمجيدون في الأساليب الشعرية، اتهم بالزندقة وقتل سنة ١٦٧ أو ١٦٨هـ.
- (٥) ظ: دراسات نقدية وبلاغية، ناصر حلاوي: ٢١٧، ولم أعثر على نصٍّ صريح في نسبة انتهاء الاستشهاد ببيشار، إذ إنَّ تصافق الآراء على انتهائه بابن هرمة، إلا ما ورد من احتجاج سيبويه بشعره؛ استكفافاً لشُرّه وتقرباً إليه؛ لأنَّه هجاه، فاحتجَّ ببعض شعره، كما في الموازنة ٢/ ٣٠٩ و ٣١٠، وخزانة الأدب للبغداد: ٣١/١، ولا نرى كثير بعد زمني بينهما، فالغريب إقصاء بشار عن دائرة الاستشهاد، وقد قضى شطراً مديداً من حياته في بادية العُقيليين!.
- (٦) ظ: النقد اللغوي عند العرب، نعمة رحيم العزاوي: ٣٨.
- (٧) نهج البلاغة صبحي الصالح خ ٤ ص ٥٢.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

- ((وهم موضع سرّه ولجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه))^(١).

- ((فأين تذهبون؟ وأنى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم وكيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم وروّد الهيم العطاش))^(٢).

- ((ألا وإنّ اللسان بضعة من الإنسان فلا يُسعدّه القول إذا امتنع، ولا يُمهله النطق إذا اتسع، وإنّا لأمرأء الكلام وفينا تنسّبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه))^(٣).

٢- كلمة الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مجلس يزيد بالشام: ((أيها الناس أعطينا ستاً وفضلنا بسبع، أعطينا العلم والحلم والسماحة (والفصاحة) والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأنّ منّا المختار، ومنّا الصديق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سبطا هذه الأمة ومنّا مهديها))^(٤).

٣- كلمة معاوية للكوفي الذي قصده للشام قائلاً: جئتُك من عند أعيان الناس! فقال: ويحك: وهل سنّ الفصاحة لقريشٍ غيره^(٥).

فلو لم يكن القرآن وحياً إلهياً- فلا ريب في أنّه كلامٌ عربيٌّ بليغ، فيكون أحد المصادر للقواعد العربية من هذه الجهة، ولا يكون أقلّ مرتبةً من كلام البلغاء المعاصرين لنبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله)، فلو خالفت القاعدة القرآن عدّ نقضاً على القاعدة لانقداً لاستعمال القرآن، ولو تمّ ذلك فإنّما يتمّ ضمن ما اتفق عليه من القراءات التي هي اجتهادات من القراء، كما هو المحقّق، فإذا ورد الاعتراض فإنّما يرد على إحدى تلك القراءات دون أن يمسّ بعظمة القرآن وكرامته^(٦).

أمّا الجهود التي تبذل في سبيل تمحيص الشاهد ليخلص للقاعدة فنجدهم يقفون إجلالاً وإكباراً بأذلين منتهى جهدهم في بيت شعرٍ لشاعرٍ إسلاميٍّ محنّك، "فأتعب أهل اللغة والنحو بشرحه، منهم سيبويه ومن بعده ولم يبلغوا منه ما يُقنع ويُرضي"^(٧)، فلماذا لم تُجعل لغة القرآن حاكمةً في استنباط النحو والأساليب البلاغية المتفرّدة حتى "احتيج إلى الاحتجاج بالشعر وغيره لفهم المشتبه في القرآن، فبعضهم تسكّن نفسه، ويطمئن قلبه بذلك الشعر أو المثل أو قول بعض الأعراب، ولا يرضى بقول النبي وفصاحته؟، وكيف يُحتجّ بشعرٍ

(١) م.ن: خ ٢ ص ٤٧.

(٢) م.ن: خ ٨٧ ص ١٢٠، وينظر: خ ١٢٠ ص ١٧٦.

(٣) م.ن: المورد ٢٣٣، ص ٣٥٤.

(٤) بحار الأنوار: ١٣٨/٤٥.

(٥) ظ: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٧٩/٦.

(٦) ظ: البيان في تفسير القرآن: ٩٦.

(٧) الموشح: ١٥٢، ١٦٢، ١٦٤.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الشعراء عليه ولا يجوز أن يُحتجّ بقوله عليهم؟^(١)، والذي يقوّي ضرورة الاحتكام إلى القرآن واعتماد مرجعيته، اشتماله على مفاهيم جديدة ومعارف كبرى لا تفهم في ضوء مفاهيم اللغة ومعارفها وقواعدها^(٢)، فضلاً عن اشتمال لغة القرآن على بعض الألفاظ القانونية والحضارية والاعتبارية والشرعية التي تعكس تطوّر اللغة ضمن قفزة نوعية فريدة لم تعرفها اللغة الجاهلية، وما كانت لتستوعب تلك المضامين. فمن النماذج الحية التي توضح ضرورة استنطاق لغة القرآن وسبر غورها لتحقيق مرجعيتها في حركة المسلمين الأوائل باتجاه التقنين، ما يروى عن عمر بن الخطاب الذي تصفه كتب الأدب بأنه: "كان من أنفد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة"^(٣)، وأنه ما أبرم أمراً قط إلا وتمثل ببيت شعر^(٤)، أعيته كلمة في القرآن حار إليها سبيلاً وهي: لفظة الأب، في قوله تعالى: "فأنبئنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلًا * وحدائق غلباً * وفاكهةً وأباً" سورة عبس: الآيات ٢٧-٣١، حيث قال عندها: "إن هذا لمن التكلف، وما عليك ألا تدري ما الأب؟"^(٥)، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالم تعرفوه فكلوه إلى عالمه^(٦).

والمتدبر في السياق القرآني يكتشف الدلالة المعينة للفظ الأب، انطلاقاً من منهج "القرآن يُفسّر بعضه بعضاً وينطق بعضه ببعض"^(٧)، حيث جاءت الآية بعدها، "متاعاً لكم ولأنعامكم" (سورة عبس: الآية ٣٢)، لتبين وفقاً لأسلوب اللف والنشر البديعي بأن: فاكهة / متاعاً لكم = أباً / متاعاً لأنعامكم

فيظهر أنّ الأب هو نوعٌ من أنواع الحشائش أو النباتات التي تقضيها الأنعام والدواب. ومن خلال هذا الشاهد يظهر أثر البديع القرآني في إنتاج الدلالة، وهو مظهر بارز من مظاهر إخراج البديع من أفق التحسين إلى أفق الوظيفة الدلالية. وستأتي نماذج أخرى تعضد هذا الأمر، وخصوصاً ضمن النصوص البلاغية العالية.

ولنستأنس بما ورد في معاجم اللغة حول دلالة الأب، ففي الصحاح للجوهري: "الأب: المرعى"، قال تعالى: ((وفاكهةً وأباً))^(٨)، وفي تاج العروس: "الأب: الكلأ: وهو العشب رطبه ويابس،... وقال الزجاج: الأب: جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية..، قال أبو حنيفة: سمى الله تعالى المرعى كله أباً، قال الفراء: الأب ما تأكله الأنعام، وقال مجاهد: الفاكهة: ما

(١) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي: ٨٨/١-٨٩.

(٢) ظ: دراسة النحو العربي في ضوء الغاية المعرفية، د. أحمد رسن: ١١٦، وينظر: تاريخ العربية: ٦٥.

(٣) العمدة: ٢٣/١.

(٤) ظ: الحيوان، الجاحظ: ٥٩٥/٥.

(٥) الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحب الدين الطبري: ٣٧٩/٢.

(٦) ظ: كنز العمال: ٣٢٨/٢. وأيضاً: الدر المنثور: ٣١٧/٦، تفسير ابن كثير: ٢١٦/٦.

(٧) لم يعثر الباحث على رواية واحدة تشير إلى هذا المطلب، ولكن استخدامه شائع، ولعله ظهر من استنباط العلماء بسبب كثرة النظر في القرآن، أو أنه وضع ليقابل الأصل الثابت وهو أهل البيت عليهم السلام الذين هم عدل القرآن، وقد صرح الشيخ جعفر سبحاني في الإيمان والكفر ص ١٨٤، بأنه حديث معروف ولم يقف على سنده.

(٨) الصحاح: ٨٦/١.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

أكله الناس، والأب: ما أكلت الأنعام، فالأب من المرعى للدواب كالفأكة للإنسان.... ومنه حديث قس بن ساعدة "فجعل يرتع أبا وأصيد ضباً"^(١).

إن سبب ضعف الثقافة القرآنية للمسلمين أنهم كانوا يتحاشون ابتداء النبي (صلى الله عليه وآله) بالسؤال، وينتظرون الأعرابي والطارئ يجيء من خارج المدينة ليسأل، فيسمعون الجواب، وهذا السبب يُستظهر من نصّ كلام للإمام عليّ (عليه السلام) حاكياً لتلك الحال، يقول (عليه السلام): "وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان يسأله ويستفهمه حتى وإن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأله (عليه السلام) حتى يسمعوا، وكان لا يمرّ بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته"^(٢)، فيظهر أن عظم شخصية النبي (صلى الله عليه وآله) كانت مهيمنة، ولم يكن أحد يرقى لأخذ عنه والاستفهام منه إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وهذه المركزية والمرتکز سيفيد منه الشريف الرضي في نفي الدلالة الخارجية التي سنأتي عليها.

أوليات النقد وأثرها في بلورة الأصل الشعري:

نظرة عامة في النسق اللغوي:

مما لا شك فيه أن السياق اللغوي التداولي الذي كان يتعاطاه عرب الجاهلية هو سياق البداهة والارتجال، أو الذوق الفطري السليم الذي يصدر عفواً، فلا أثر للأصول والأحكام الكلية التي تُدرج ضمنها الظواهر الفنية والأدبية. فالإحساس الفطري بأثر الشعر وتذوقه جبلةً وطبعاً، وحاكمية السليقة، هي الأسس التي تهدي العربي إلى الجيد من القول^(٣)، ولكن تحكم هذا المقياس لا ينفي أن يكون بين الشعراء من حرّكته التجربة الشعرية حتى يصبح حكماً في المفاضلة بين الشعراء كما في النابغة الذبياني وما يروى عن محكمته الشعرية.

ولسنا معنيين ههنا في إثبات صحة هذا النقد من عدم صحته، ولكن القدر المتيقن من اهتمام العرب بالشعر وتعاطيهم إياه يجعلنا نطمئن إلى وجود معالجة نقدية لما يصدر عنهم من نتاج شعري، ولعلّ ما يُثبت ذلك هو القرآن الكريم، إذ من خلال منهجية التحدي التي لجأ إليها القرآن الكريم بعد مكابرتهم في دفع بلاغته وفصاحته الإلهية العليا، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم تنزل بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم تنزل لهم بأن يأتوا بسورة من مثله. فإن مقتضى التحدي- في عمومه- يستلزم امتلاك الخصم (المتحدي) للوسائل اللازمة للتحدي، إذ لا يُعقل أن يتحدى مؤلف موسوعي أو أستاذ جامعي مثلاً طالباً في الابتدائية بأن يؤلف كتاباً أو رسالة علمية، فلا شك في أنه سيُعاب، ويُستسَخف تحديه، ويُنتقص عقله، فكيف بالحكيم العليم بدقائق الحقائق والمحيط بأحوال الخلائق؟، فيظهر من خلال تحدي الباري عز وجل للعرب ثبوت إمكانيتهم اللغوية والأدبية وثبوت معرفتهم

(١) تاج العروس: ٢٩٣/١-٢٩٥.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح: خ ٢١٠ ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٣) ظ: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم: ١٦-١٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

بالمعالجة اللغوية والتنقيح والتهديب في القول وممارسة العمل النقدي القائم على الوعي والإدراك العقلي للعملية اللغوية والبيانية، ولعلّ هذا يظهر من قوله تعالى: "ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" (سورة الإسراء، الآية ٨٨)، فمقتضى المظاهرة هو التعاضد المستلزم لاستنفاد الوسائل والطرائق المختلفة في تقليب القول وتهذيبه وتمحيصه، بل من مظاهر احترام القرآن الكريم لقدرة العرب اللغوية وأساليبهم البيانية، هو هذا التدرّج في التحدي:

مثل القرآن ← عشر سورٍ مثله ← سورةٌ من مثله

فهذا يكشف عن:

١- لطف الله تعالى بهم وإعطائهم المهلة وعدم بكّتهم وبهتّهم بالإتيان بالشيء اليسير، علماً أنّ مباشرة التحدي بالقليل أوغل في إثبات العجز وبهرهم وإثارة حفيظتهم، فإنّ من يعرض التحدي ببناء عمارة ضخمة، فلو تحدّى الطرف الآخر ببناء خيمة لا عمارة، لكان مظهراً من مظاهر السخرية والاستخفاف والاستهانة بإمكانات الطرف المتحدّى .

٢- يظهر من بعض الآيات أنّ المشركين إدّعوا وتصدّوا وتعرّضوا بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، ونستعرض الآيات بالترتيب:

قوله تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" (الإسراء: ٨٨). " وإذا تئلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنّ هذا إلا أساطير الأولين" (الأنفال: ٣) . " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ من مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" (هود: ١٣)، " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين" (البقرة: ٢٣)، " أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" (الإسراء: ٣٨) نعم، إنّ عملهم النقدي كان يفتقر إلى المنهج الخاضع لتحكيم العقل والتعليل المستند إلى المبادئ العامة للعلوم اللغوية^(١)، وهذا- أي التعليل- إنّما يتصور في حقّ المتعلّم لا المتطبّع، فإنّ المتطبّع لا يعوزّه التعليل كمقدّمة للتعلم الذي تدعو إليه الحاجة وتستحثّه المعرفة، ودليل على ذلك نشأة النحو فإنّها كانت بمثابة ردة فعلٍ للحن، إذ إنّ النقاد الإسلاميين الأوائل لم يقفوا على استنكار اللحن أو رمي المتكلّم به بالخطأ، بل كانوا يدعمون أحكامهم بالحجج والبراهين^(٢) من استقراءهم لكلام العرب واستنباطهم القواعد، فمخالفة السياق (الطبعي) الطبيعي أدّى إلى بروز النحو، وكذلك البلاغة فإنّها إنّما كانت قائمة على البيان والتبيين والإفصاح، كما تبين لنا ذلك من استعمال العرب لمصطلحات [البيان والبلاغة و الفصاحة والبليغ ...]، وتجسّدت المؤلفات الأولى لتعكس هذا

(١) ظ: النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور: ١٧ .

(٢) ظ: النقد اللغوي عند العرب، د. نعمة رحيم العزاوي: ٦١.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الأثر الأدائي المصوّر لعملية الإفهام والإبانة، وبظهور معركة الإعجاز وبثّ الشبهات التي لم يكن لها مبرّر كما سنذكره لاحقاً بدأت بذور البلاغة في تربة الإعجاز بالنمو، فكانت البلاغة في ظهورها خروجاً عن سياق الثبوت المتمثّل بالإعجاز.

ونودُّ أن نُشير هنا إلى أنّ مصطلح البديع هو المصطلح الوحيد الذي امتلك مفهوماً إجرائياً قائماً على الصياغات الجديدة والأساليب المخترعة، فهو بهذا المعنى في نظرنا قد فتح باب البحث البلاغي عند العرب.

نسقُ السُّلطة وأثره في بلورة الأصل الشعري:

امتدَّ البعد الإجرائي للفعل اللغوي طول القرن الأول الهجري، وظلّت الأحكام الجزئية هي المهيمنة على الفعل النقدي، ويرجع هذا في نظرنا إلى سببين: الأوّل عدم الحاجة إلى التعليل لاستمرار السليقة والطبع في النفوس، الثاني: عدم توقّر وجود المادة اللغوية الكافية الداعية إلى النظر في حدودها لاستنباط كليّات القواعد والقوانين التي تكون مناراً يحتذى لمن ضعفت وسيلته في اللغة وقلّت حيلته في اللسان.

إلاّ إنّ ثمة معياراً فنياً برز على صفحة النسق الشعري بصفته حاكماً على الأنساق اللغوية الأخرى – كما أشرنا – برز في الثلث الأخير من القرن الأول وأوائل القرن الثاني يمكن تسميته (بمعيار المتلقي)، وقد تبنت الطبقة الحاكمة من الأمراء والحكام هذا المعيار فسלטوا أحكامهم النقدية على الشعراء مصوّبين لهم سياق الخطاب، وتلك الأحكام في عمومها كانت موجّهة نحو معاني الشعر دون بنيته اللغوية، فمن نماذج المعروفة:

ما خاطب به جرير عبد الملك بن مروان:

هذا ابنُ عمّي في دمشق خليفة لو شئتُ ساقمُ إليّ قطينا

قال: فلما بلغ عبد الملك قوله: ما زاد... على أن جعلني شرطياً له، أما إنّه لو قال: لو شاء ساقمُ إليّ قطينا لسقّتهم إليه^(١).

وقول ابن قيس الرقيات فيه^(٢):

وإنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العربُ
يعتدلُ التاجُ فوق مفرقه على جبينٍ كأنّه الذهبُ

(١) الموشح: ٢٠١.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، شرح وتحقيق، د. محمد يوسف نجم: ٥.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

معلقاً، تقول لمصعب :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله
تجلّت عن وجهه الظلماء
وأما لي، فتقول على جبينٍ كأنه الذهب^(١).

وقول الآخر:.... ألا قلتُم فينا كما قال أيمن بنُ خريم في بني هاشم :

نهاركمُ مكابدةٌ وصومٌ وليُلكم صلاةٌ واقتراءُ
وليتُم بالفُران وبالتركي فأسرِع فيكمُ ذاك البلاء^(٢)

وقد دار النقد في تلك الفترة حول ثلاث شخصيات شعرية هيمنت على الساحة، وهم: جرير والفرزدق والأخطل^(٣)، والظاهر أن نصَّ السلطة كان حاكماً على سلطة النصّ، فالموجّهات السياسيّة واضحة في الاستئثار بشعراء البلاط، وظلَّ النسق الشعري حاكماً على نقد هذه الفترة وبلاغتها.

ويظهر تكريس السلطة للنسق الشعري أيضاً من هذه الحادثة التي يُوردها العسكري في تصحيّفات المحدثين، يقول: "دخل الحارث بن نوفل بابنه عبد الله إلى معاوية، فقال : ما علّمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض، فقال: روه من فصيح الشعر؛ فإنه يُفْتَحُ العقل، ويُفصَحُ المنطق، ويُطلق اللسان، ويدلُّ على المروءة والشجاعة"^(٤)، ولو قارناها برواية أخرى يُوردها العسكري أيضاً في كتاب آخر له، وهي تابعة للأفق الزماني نفسه الذي صدرت عنه الرواية الأولى، فسنخرج بنتيجة كبيرة، نتركها للمتدبّر، يقول: "وفد غالب بن صعصعة في البصرة على عليّ عليه السلام، ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: مَنْ أنت؟، فقال: غالب بن صعصعة المُجاشعي، فقال: ذو الإبل الكثير؟، قال: نعم، قال: ما فعلت إبلك؟، قال أذهبتها النوائب وذعدعتها الحقوق، قال: ذاك أحمدُ سُبُلها، ثُمَّ قال: يا أبا الأخطل: من هذا الغلام معك؟ قال ابني وهو شاعر، قال: علّمه القرآن فهو خيرٌ له من الشعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسه وآلى أن لا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن، فما حلّه حتى حفظه، وذلك قوله: وما صبَّ رجلي في حديدٍ مجاشعٍ مع القدِّ إلا حاجة لي أريدها^(٥).

(١) ظ: الأغاني: ٥٢ / ٥، و خزانة الأدب، للبغداد: ٢٦٧ / ٧.
(٢) الأغاني: ٢٧٢ / ٢، و ظ: المصون في الأدب، لأبي أحمد، حسن العسكري: ٦٢.
(٣) ظ : دراسات نقدية وبلاغية ، د. ناصر حلاوي : ٢٠٦.
(٤) المصون في الأدب: ١٣٣.
(٥) تصحيّفات المحدثين، لأبي أحمد العسكري: ٤٢٢ / ٢. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩٦ / ٢٠.

نسقية الذوق الفني:

إنَّ إشكاليّة الذوق الفني والأحكام الانطباعية التي رافقت بواكير البلاغة والنقد العربيّين تعرضت للكثير من الامتحان من قبل الدارسين والنقاد؛ فكانت الملاحظات الفنيّة التي تصدر عنهم لم تأخذ حيزاً من التقييم والاعتداد الفني بسبب فطريتها - كما يدّعون- وانطلاقها من جزئية ضيقة تتمثّل بالمفردة المعجمية الواحدة ذات الدلالة المعيّنة، وقد أشرنا إلى طابع تلك الملاحظات والبيئة الفكرية والاجتماعية التي انبثقت عنها، وسبّبت في أن تُصاغ بهذا الطابع الفني، وقد تناسى كثير من الباحثين أنّ حقيقة المعيارية هي الانتهاء إلى الانطبعية وتأصيلها مهما تعقّدت أدواتها واستحكمت وسائلها التي تطورت عنها، فأصل نشأة النحو العربي والغاية من تعلّمه هو " الوصول إلى التكلّم بكلام العرب على الحقيقة صواباً غير مبدّل ولا مغير، وتقويم كتاب الله عزّ وجلّ، الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم، وإقامة معانيها الحقيقيّة؛ لأنّه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب" ^(١)، فهو "علمٌ استخرجه المتقدّمون فيه من استقرار كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة" ^(٢) أمّا البلاغة والفصاحة فالعمدة فيهما لا تخرج عن حدود تلك الغاية، ولكن تضاف لها ثمرة تتمثّل فيما دار حول القرآن من قضية الإعجاز على ما سنشير إليه، يقول ابن سنان: "إعلم أنّ الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة، والعلم بسرّها، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته؛ لتقع الرغبة فيه، فنقول: أمّا العلوم الأدبية فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح؛ لأنّ الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يُختار منه ممّا يُكره وكلا الأمرين متعلّق بالفصاحة بل هو مقصورٌ على المعرفة بها .." ^(٣)، ويقول العلوي: " على هذا يكون موضوع علم البيان هو علم الفصاحة والبلاغة؛ ولهذا فإنّ الماهر فيه يسأل عن أحوالهما وحقائقهما اللفظيّة والمعنويّة، فيحصل له من النظر في الألفاظ المفردة إدراك الفصاحة، ويحصل له من النظر في المعاني المركبة أحوال البلاغة" ^(٤)، وفي مورد آخر يجعل ثمرة البيان في مقصدين، خاصّ يتمثّل في مباحث الإعجاز ودلائل النبوة، والآخر عامّ، يتمثّل في " الإطّلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن، في منثور كلام العرب ومنظومه فإنّ كلّ من لاحظ له من هذا العلم لا يمكنه معرفة الفصيح من الكلام والأفصح، ولا يدرك التفرقة بين البليغ والأبلغ، والمنثور من كلام العرب أشرف من المنظوم.." ^(٥) فالمعيارية بهذا البيان هدفها الطبع والسليقة، كما يتحقّق " في الانطبعية

(١) الإيضاح في علل النحو، للزجاجي: ٩٥.

(٢) الأصول في النحو محمد بن السراج: ٣٥/١.

(٣) سرّ الفصاحة: ٣.

(٤) الطراز: ١٠.

(٥) الطراز: ١٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

تكثيف للموقف وترميز في الغاية من الدقة والعمل، وإن اقتران الانطباع بالارتجال لا يقتضي البشاشة أو الضحالة دائماً فالارتجال في الانطباعية اختزالاً فكرياً، إنه انبثاق معرفي محكم وليس طفرة من قبيل الأوهام، وإن لكل طور معرفي بناءية تعبيرية تلئمها^(١)، هذه المعيارية هي التي جعلت بعض الباحثين يحكم بالقول بأن الجرجاني ابتداءً بنظرية فلسفية في اللغة وانتهى إلى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا في دراسة الأدب^(٢).

والذوق الفني بعد ذلك " ظاهرة اجتماعية، اشتركت فيها كل المجتمعات، على اختلافها في النظم والعلاقات، ولون آخر من الحقائق الاجتماعية، التي تضيق بها المادية التاريخية.... وإن الفن القديم بآياته الرائعة، لا يزال في نظر الإنسانية حتى اليوم، منبعاً من منابع اللذة الجمالية، ولا يزال يُتحف الإنسان وهو في عصر الذرة، بما كان يتحفه به قبل آلاف السنين، من انشراح وسحر...."^(٣). وهذه الرؤية ترتبط بتوجيه الذوق الفني توجيهاً إنسانياً عاماً مرتبطاً بالمعركة الوجودية التي تطرحها الماركسية فيما يتعلق بوسائل الإنتاج.

(١) في النقد الجمالي د. احمد محمود خليل : ٣٤-٣٥.

(٢) في الميزان الجديد محمد مندور: ١٥٥.

(٣) اقتصادنا ، السيد محمد باقر الصدر : ١٥٠.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

التدوين وهيمنة النسق الشعري :

يُعَدُّ التدوين مظهراً من مظاهر الوعي الوجودي، ومن ثَمَّ يمثّل مظهراً حضارياً للأمم التي تتعاطاه، إذ لاشكّ في أنّه الناقل لتجاربها الحافلة بمنجزاتها التي من خلالها تأخذ موقعها الحضوري في سياق الأمم الأخرى، بل بالتدوين يثبت وجودها ومكانتها ضمن منظومة الحضارات المترامية .

والتدوين بهذه الصّفة وجودٌ اعتباريٌّ جعليّ غير الوجود الحقيقي المتحقّق من خلال معرفة الأشياء حولنا والإحساس بها، من أفرادٍ وحيوانٍ وجمادٍ وشجرٍ نجومٍ وكواكب... فالتدوين وجودٌ كُتِبَ يَتمثّلُ في تثبيت الأشياء بالاستعانة بالوجودات الخارجيّة، ليتسنى بقاءها واستمرارها لمدّة أكثر انطلافاً من وعي الزمن؛ لأنّ الحاجات والأشياء إذا اختصّت بالمشافهة والمحاورة مضت وانتهت بانتهاء مدّة الحوار أو الحديث، أمّا إذا تُبِتَتْ أو دَوِّنَتْ بأيّ وسيلةٍ كانت كأن تكون الكتابة اليدويّة، أو الخطّ أو الرسم أو النحت أو النقش أو نحو ذلك، كُتِبَ لها الديمومة والاستمرار مع السّلامة من العارض الطّبيعي أو غير الطّبيعي المستلزم لإعدامها وتلاشيها .

وقد نوّه الجاحظ إلى أهميّة الخطّ عند تصنيفه للدلالات التي تدلّ على المعاني، فجعلها خمسة: اللفظ ثمّ الإشارة ثمّ العقد ثمّ الخط ثمّ الحال التي تسمّى نصبة^(١)، مشيراً بعد ذلك إلى وعي العرب بالكتابة في قولهم: القلمُ أهدُ اللسانين، والقلمُ أبقي أثراً، وقولهم: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن^(٢) مثله للقائم الراهن^(٣)، إذ فالسيرورة الفكرية مرتبهة بالتدوين .

والملاحظ أنّ عمليّة التدوين في الفكر الإسلامي المرتهن بالسلطة والقيادة، جاء متأخراً عن صدر الرسالة الإسلاميّة المتميّزة بتفوّحها الحضاري، فالغريب أنّ الإشارات التاريخيّة تحيل على تأخر التدوين إلى فترة طويلة بعد العهد النبوي الشريف، وسنسوق مظاهر تلك العمليّة إجمالاً، مع بيان نسق الحديث النبوي في البنية المعرفيّة للبلاغة الموروثة.

(١) ظ: البيان والتبيين: ٨٢ / ١.

(٢) الحائن: الهالك، حان حيني، أي: قربت منيتي، ظ: الصّاح: ٢١٠٦ / ٥.

(٣) ظ: البيان والتبيين: ٨٥ / ١ و ٨٦.

النسق الدلالي للحديث النبوي:

يُعَدُّ الحديث الشريف من أهم الروافد الثقافية للأمة الإسلامية بعد القرآن الكريم، وهو يمثل المرتبة الأولى من مراتب الحُجَّة المتعلِّقة بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، إذ إنَّ مراتب الحُجَّة عنه (صلى الله عليه وآله) ثلاث حسب ما أفاده العلماء^(١)، وهي، قوله، ومتعلِّقه الفعل الكلامي الصادر عنه صلى الله عليه وآله، وفعله، ومتعلِّقه ما يصدر عنه من أفعال بمرأى من المسلمين، وتقريره، ومتعلِّقه ما يفعله الآخرون بمرأى منه صلى الله عليه وآله ويُضيه من دون أن يعلِّق أو يبيِّن خلافه.

وقد التزم كثير من العلماء والباحثين بأنَّ الحديث قد تأخَّر تدوينه إلى نهاية القرن الأول من الهجرة، وهم بين من يقول بأنَّ بداية التدوين كانت في أوَّل القرن الثاني، ومن يقول بتأخُّرها عن ذلك، وأوَّل أمر رسميَّ بتدوين الحديث كان زمن الملك الأموي عمر بن عبد العزيز، حيث يُذكر أنَّ ابتداءً تدوين الحديث وقع على رأس المائة في ملك عُمر بن عبد العزيز بأمره^(٢)، فكتب إلى الأفاق: انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاجمعوه^(٣)، وكتب رسالة إلى أبي بكر بن حزم يقول: أمَّا بعد، فأمر أهل العلم في أن يذكروا العلم في مساجدهم، فإنَّ السُّنة كانت قد أميتت^(٤)، وكان الزهري يذكُر تدوينه للحديث ويعتدُّ به، فيقول: لم يدوِّن هذا العلم أحدٌ قبل تدويني^(٥)، وقال: لولا أحاديث سالت علينا من المشرق ننكرها، لا نعرفها، ما كتبتُ حديثاً، ولا أذنتُ في كتابته^(٦)، وبعض الأقوال تذهب إلى أنَّ التصنيف حدث بعد موت الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) وابن المسيَّب (ت ٩٤ أو ١٠٥ هـ)^(٧)، ويرى الذهبي: أنَّ أوَّل زمن للتصنيف وتدوين السنن وتأليف الفروع، كان بعد انقراض دولة بني أمية، وقيام بني العباس (سنة ١٣٢ هـ)^(٨).

ويعتقد الكثير، أنَّ أوَّل من صنَّف هو ابن جريج (ت ١٥٠ هـ)^(٩). وهكذا نلاحظ أنَّ الملتزمين بتأخُّر تدوين الحديث عن القرن الأول يختلفون في ما بينهم في تحديد زمان البداية الأولى للتدوين، لكنَّ الرأي مستقر على أنَّ التأليف لم يكن موجوداً طول القرن الأول

(١) ظ: أصول الفقه، للعلامة المظفر: ٦١/٣.

(٢) ظ: فتح الباري، لابن حجر: ١٧٤/١.

(٣) ظ: م.ن.

(٤) ظ: أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني: ٤٤، وينظر: صحيح بخاري: ٣٣/١، وتقعيد العلم للبغدادي: ١٠٥ و١٠٦.

(٥) ظ: تهذيب التهذيب: ٤٤٩/٩، وينظر صحيح بخاري، باب كيف يقبض العلم: ٣٦/١.

(٦) ظ: طبقات ابن سعد: (الجزء المتتم) ١٦٦.

(٧) ظ: قوت القلوب، لأبي طالب المكي: ٢٨٥/١.

(٨) ظ: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، السيد حسن الصدر: ٢٧٩.

(٩) ظ: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١١١/٧. وابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج...فقيه الحرم المكي، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أوَّل من صنَّف التصانيف في العلم بمكة [وفقاً لبعض الآراء]، رومي الأصل، من موالى قريش. مكي المولد والوفاء. قال الذهبي: كان ثباً، لكنَّه يدلس! ظ: الأعلام، خير الدين الزركلي: ١٦٠/٤.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الهجري، ولكنه استقرّ بعد القرن الثاني، والقرن الثاني هو قرن معركة التدوين وخصوصاً في نصفه الأول. فلماذا أغفل أهل الإسلام هذا العمل الحضاري المهم من دين أسس للكتابة وحمل عنوان الحضارة والتمدّن؟، فامتنعوا من تدوين الحديث، أهمّ مصادر الشريعة وأعظمها بعد القرآن الكريم، أليس ترك التدوين للحديث النبويّ وتعرضه للضياع والتلف والنسيان والإبادة، فتح أبواب النقد والاعتراض، واستهدف الشريعة الإسلامية بالطعن على ثاني مصادر التشريع، بأنّه منفصل عن مصادره الأصلية الأولى ممثلة بالقرآن الكريم؟ فهل تبقى ثقة بنصوصها المنقولة؟!^(١).

فيظهر أنّ التراث النبوي قد تعرّض للحجر والمنع من سيرورته الثقافية طول مائة عام، حتى غدا كلام أفصح إنسان جاء بأفصح بيان وهو القرآن لا يُحتجّ به في اللغة والنحو والبيان!، وجعلته معرّضاً للهزّات والزلازل البيانية واللغوية، وقد تسالم علماء البيان واللغة أنّه (صلى الله عليه وآله) أفصح من نطق بالضاد^(٢) ومن أوتي جوامع الكلم.

فهناك - حتماً - حلقة مفقودة تمتد إلى مائة عام، تمثل حقيقة التواصل الفكري والثقافي لهذه الأمة مع مصادرها الأم، فمن الملاحظ أنّ المسلمين إبان إعلان المرسوم التدويني قد قبلوا هذا المشروع، - وإن أعلن بعضهم كراهته للكتابة كما ورد عن الزهري-، فإنّ هذا يمثل إقراراً بصحة المنهج الذي اتبعوه، وهذا سيقودنا إلى التسليم بمظاهر الدسّ والتشويه والوضع الذي ساد تلك العملية، ولا مجال للشكّ بعد أن أعلنها النبيّ بلمح الغيب، "ستكثر الكذابة عليّ، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٣).

إنّ عملية المنع الأولى للحديث التي بدأت بواكيرها بعد وفاة النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) آتت أكلها بعد مائة عام تقريباً، إذ جمعت أحاديث، وتعبير الزهريّ، سألت علينا من المشرق والمغرب.. ننكرها، فهل حقاً أنّ هذه الحلقة من حياة الفكر الإسلامي بقيت مفقودة؟

إنّ هذه الحلقة لم تكن فارغة قطّ بل ملئت من قبل رجالات الإسلام الواعين بمستقبل الإسلام، الذين لم يستجيبوا لمرسوم المنع، وواصلوا العمل الكتابي بأنماطه المختلفة ما سنحت الفرصة، فقد كانت خطب ورسائل الإمام علي (عليه السلام)، ومن ضمنها عهده للأشتر، تدون وتكتب بأمره وكان له كتاب خاصّون أبرزهم، أبو رافع صاحب بيت مال الكوفة في زمنه (عليه السلام)، وولده علي وعبيد الله من بعده، وهكذا الصحيفة السجادية وكتب أخرى مروية نُقلت بأسانيد موثقة عن الإمام عليّ بن الحسين (عليهما السلام) واستمرت الأحاديث والروايات تنقل إلى عهد الصادقين محمد بن عليّ الباقر وولده جعفر بن محمد الصادق

(١) ينظر في جميع ما تقدم وتفصيله تدوين السنة الشريفة، محمد رضا الجلاي، ١٤-٢٤، وفي دواعي المنع والقائلين به وأسبابه مباحث خاصة من الكتاب.

(٢) ظ: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٦/١، وبعضهم تكلم بالحديث، ينظر تاج العروس، ٥٧/١.

(٣) ظ: صحيح مسلم، ٨/١، والكافي الشريف، ٦١/١.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

(عليهما السلام)، فكانت الجامعة الكبرى بعهدهما وكثرت الرواية عنهما، حتى نجد حديث الجراح بن مليح: "سمعت جابراً يقول: عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر عن النبي كلاًها" (١) والغريب أنه لم يؤخذ عنه ولسبب غريب، فعن محمد بن عمر الرازي: سمعت جريراً يقول: لقيت جابر بن يزيد الجعفي فلم أكتب عنه، كان يؤمن بالرجعة (٢) !، ومن مظاهر تغليب الجانب العاطفي والشخصي الذي ساد عملية الجمع للحديث - والذي يتناص تماماً مع عملية الجمع والرواية للشعر التي شهدها الأدب العربي، فإنه لم يخل من أمثال هذه المقاييس، كما سنأتي ببيانه - من تلك المظاهر، أن مالك بن أنس روى عن حميد الأعرج ووثقه إلا أنه لما تحامل عمر بن قيس أخو حميد على مالك، قال مالك: لو علمت أن حميد بن قيس أخوه ما رويت عنه (٣)، والأمثلة كثيرة حول ذلك لا يسهل استقصاؤها.

وأحاديث جابر هذه متصلة الإسناد برسول الله (صلى الله عليه وآله) من الإمام الباقر (عليه السلام) وكذا من بعده من تمام الأئمة (عليهم السلام) بمقتضى حديث سلسلة الذهب المعروف (٤)، فحديثهم يمتلك السيرة الممتدة إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) حتى غدت مراسيلهم بحكم مسانيدهم، عن جابر "قلت لأبي جعفر عليه السلام إذا حدثتني بحديث فأسنده لي، فقال: حدثني أبي عن جدي عن رسول الله صلوات الله عليهم عن جبرئيل عليه السلام عن الله عز وجل، وكل ما حدثتك بهذا الإسناد" (٥) وشأنهم في الورع والتقوى والصدق والاستقامة مما شهد به المخالف فضلاً عن الموافق، فلماذا لم يحتج بحديثهم في البيان والفصاحة واللغة وقد وهب لهم البيان؟ وحديثهم بهذا الإسناد هو الذي نعتة أحمد بن حنبل بـ: "هذا سعوط (٦) المجانين إذا سعط به مجنون أفاق" (٧) وقال: "لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته" (٨). فأى وثاقة في اللغة والبيان والفصاحة بعد هذا.

إن غياب هذا النسق الفكري وما اتسق معه من علوم، وبروز نسق ثقافي موجه ضمن سياقات شخصية ومصالحية وعاطفية ومذهبية، ولدت ثغرات عميقة في المتبنيات الفكرية والمنهجية تركت بصمات واضحة على المجالات العلمية المختلفة، في اللغة والتفسير والبلاغة والأدب، هذا الغياب تنبّه إليه الدكتور جابر عصفور مؤخراً، فذهب إلى القول: "بأن التراث العربي يتوقّر على بلاغتين لا بلاغة واحدة كما تعلّمنا ودرسنا، البلاغة الرسمية

(١) ظ: صحيح مسلم: ٢٠/١.

(٢) ظ: ميزان الاعتدال: ٣٨٠/١ وما بعدها، وتهذيب التهذيب ٤٢/٢ وفي شأن رشيد الهجري أيضاً ينظر ميزان الاعتدال: ٥٢/٢.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عدي الجرجاني ت ٣٦٥: ٨/٥، و تهذيب التهذيب: ٤٣٢/٧.

(٤) ظ: معجم رجال الحديث، السيد الخوني: ٨٩/١٦، و ٢٠٥/٣.

(٥) بحار الأنوار: ١٧٨/٢ و ١٧٩، و ٣٣٧/٤٧.

(٦) السعوط، الدواء يصب في الأنف، ظ: الصحاح للجوهري: ١١٣١/٣.

(٧) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني: ١٩٢/٣، وطبقات الشافعية الكبرى: ١١٩/١-١٢٠.

(٨) الصواعق المحرقة: ٢٠٥.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

التي تعرفناها في كتب البلاغة السائدة ابتداء من منظري القرن الثالث للهجرة، وانتهاء بشرّاح "التلخيص" في القرن التاسع للهجرة، وهي البلاغة التي أنتجها البلغاء والمنظّرون الذين كانوا على وفاق مع الدولة، أو في موقع الخدمة لها، أو العمل أداة من أدواتها، وهم نقليون في الأغلب الأعم، ويؤمنون بالتقليد في كلّ الأحوال . وبلاغة أخرى مقموعة أنتجتها المجموعات الهامشيّة التي لعبت دور المعارضة، والتي كانت على خلاف مع سلطة الدولة القائمة، إبتداء من الدولة الاموية^(١)، وانتهاء بالدول المتأخّرة التي صحبت انهيار الحضارة العربية^(٢). وتأييداً لقول الدكتور جابر عصفور نورد نماذج مقتضبة سريعة عن طبيعة الطرائق ووسائل الخدمة والوفاق التي كانوا يتّبعونها، ويحملون الناس خواصّ وعوامّ، علماء وأتباعاً عليها:

١- قال أبو الفرج الإصفهاني: "وقال المدائني في خبره: وأخبرني ابن شهاب بن عبد الله، قال: قال لي خالد بن عبد الله القسري^(٣): اكتب لي النسب... واكتب لي السيرة، فقلت له: يمرُّ بي الشيء من سير علي بن أبي طالب، (صلوات الله عليه)، فأذكره؟ فقال: لا، إلا أن تراه في قعر الجحيم"^(٤).

٢- اتخذ خالد طستاً في مسجد الكوفة ميضأة^(٥)، وحفر لها قناة من الفرات، ثم أخذ بيد أسقف النصارى يمشي به في المسجد، حتى وقف على الطست، ثم قال للأسقف: أدع لنا بالبركة، فوالله لدعاؤك أرجى عندي من دعاء علي بن أبي طالب^(٦).

٤- خالد بن سلمة بن العاص بن هشام المخزومي، المعروف بالفأفاء، قال ابن حجر: "قال أحمد وابن معين وابن المديني: ثقة. وكذا قال ابن عمار ويعقوب بن شيبة والنسائي، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال محمد بن حميد، عن جرير: كان الفأفاء رأساً في المرجئة، وكان يُبغض علياً.. وذكر ابن عائشة أنه كان يُنشد بني مروان الأشعار التي هُجى بها المصطفى صلى الله عليه وآله"^(٧).

٣- يقول البلاذري: "حدّثني أبو مسعود الكوفي، قال: بنى خالد لأمه بيعة هي اليوم بسبكة البريد بالكوفة، وكانت أمه نصرانيّة، فقال الفرزدق:

لعمري لئن كانت بُجيلة زانها
جرير لقد أخزى بجيلة خالد

(١) في هذا الابتداء نظر، يراجع كتاب السقيفة لسليم بن قيس الهلالي توفي في عهد الحجاج، وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ .

(٢) المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، كتاب مشترك ، دار قرطبة، البيضاء، ط ٢ ١٩٩٣ : ٦ .

(٣) عامل بني أمية على العراق زمن هشام بن عبد الملك ، عرف بسياسته الجائرة وإفراطه .

(٤) الأغاني: ٢١/٢٢ .

(٥) بركة ماء تتخذ للوضوء .

(٦) أنساب الأشراف، أحمد البلاذري: ٦٣/٩ .

(٧) تهذيب التهذيب: ٨٣/٣ .

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

بنى بيعة فيها الصليب لأمه ولم تُبْنَ فينا إذ بناها المساجدُ

ويروى: وتُهدم للبيعات فينا المساجد".^(١) وهذا الغيظ من ذاك الفيض، وما نقل عنه من أخبار تتواءم مع هذا القبيل، فمن كان هذا شأنه لا يؤتمن على شيء، ولكن ابن حبان جعله في الثقات، وقال عنه الذهبي: صدوق.

وهذا وميضٌ من مجامرِ جمّةٍ فمرّ بها وحيّاً وإلا تَلَدَّعُ^(٢).

الإحتجاج بالحديث النبوي:

لم تكن عملية جمع التراث الأدبي المتمثلة باللغة والشعر خاصّة، بأوفر حظاً وأبقى مسلكاً من الحديث النبوي الشريف. ولسنا بصدد التعرض لمراحلها وتمحيصها، ولكننا سنستعرض ما تمسُّ به حاجة البحث.

يشكّل التراث الذي تألفه أمة من الأمم مظهراً من مظاهر الإعتزاز والتمسك وتوثق الصلّة به، خصوصاً إذا عركته أزماناً وتعاطته حُقباً، فإنّه يستمكن منها ويستأثر بعزیزها. وإنّ هذا التمسك لاريب سوف يولّد حالة من الحرص عليه والتعصّب له إذا ما نجمت سيوف طعنه ورماح وتره. وهذا ما اشتمل عليه التراث الأدبي العربي، والشعر منه خصوصاً، فإنّ الزمان الذي زاول العرب فيه الشعر ليس بالقليل، وممّا لا بدّ من ملاحظته أنّ العرب قبل أن يكونوا أمة شعر فإنهم أمة بيان امتلكوا القدرة على الإبانة عن مكنونهم بلغة فنيّة وصفية فطريّة بارعة، وقلّما تجد أمة من الأمم تشتمل على هذه القدرة.

وبعد ارتفاع أعلام القرآن خفاقة في ميدان التحدي، وانكعام الأغيار عن مناجزته، علا كعبه الظاهري إذ إنّ ما زال علياً، ومع ذلك فلا نشك أنّ الكثير من العرب ما تزال روح الشعر رجراجة في أعطافهم متمكنة في دواخلهم، فلا يأنسون بالقرآن أنسهم بفنّهم الذي ألفوه وآخرين عشقوه فلم يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا يُلام أولئك ولا أولئك:

فكلُّ يميلُ إلى جنسه فإن رام شَبهاً له قد نزل^(٣)

فاللغة بهذا نتاج العقل الجمعي^(٤) يصدر عنها الفرد بالتتابع الامتدادي بمقتضى النوع الإنساني، فالتعصّب للأصل، أو بالتعبير النقديّ التعصّب للقديم^(٥) شكّل منهجاً ودائرة أحاطت بتلك العمليّة الجمعيّة ووجهتها، فجاءت كثير من الأحكام متفرّعة عنها، وستأتي الإشارة إلى جملة منها في محلّها، ولكن نشير إلى أنّ هذا التعصّب كان مبالغاً فيه، وقد أخذ

(١) أنساب الأشراف: ٦٥، ٦٤، ٦٣/٩. (٢) البيت للباحث. (٣) البيت للباحث.

(٤) ظ: النقد اللغوي عند العرب: ١٢.

(٥) م: ٨٥ وما بعدها.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

أبعداً أخرجته عن الموضوعية، فالحديث النبوي الشريف مثلاً، كان من ضحايا عمليتين كبيرتين، الأولى منع تدوينه في عهده الأول، والثانية عملية التعصّب للقديم التي أقصته عن دخول ميادين الأبحاث اللغوية والبلاغية والنقدية والإستدلال به للقواعد النحوية، واستمرّ التشدد أخذاً بخناق اللغة عن أن تتطوّر، وتدبّ فيها الحياة بظروف قاسية مرّت بالمجتمعات العربية منعتها أن تتنبّه للغتها وتمحّكها، مع دخول الغريب وشيوع اللحن وتداخل القوميات المختلفة، استمرّ هذا التشدد حتى ارتفعت أصوات تنادي بتخفيف الوطأة، فكان ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ) وابن هشام اللخمي (ت ٥٧٠هـ) وابن بري (ت ٥٨٢هـ) قد اتخذوا موقفاً متسامحاً من اللغة وأجازوا ما ضعفت قياساته وقُلّت شواهد، وما كانت لغته قليلة مادامت العرب قد تكلمت به، وفي الحقيقة هذا النهج يساعد على تطوّر اللغة وفتح المجال لها لتأخذ سياقها التداولي فيما النجاح وإمّا الموت والتلاشي. وفي الوقت نفسه كان الحريري (ت ٥١٦هـ) قد اتخذ موقفاً متشدداً منتهجاً "نهج اللغويين القدامى الذين يأبون الاعتراف بما جدّ من صيغ وأساليب لم تُؤثّر عن عصر الإحتجاج، ولم تأت من النصوص الجاهلية والإسلامية الأولى" (١)، علماً أنّ النصوص الإسلامية لم تسلم من الطعن فالحديث الشريف - موضع الكلام - مقصّي، ثمّ روي بالمعنى، ثمّ أقصي تارةً أخرى، والشعر الإسلامي، يزنه أبو عمرو بن العلاء متحدّثاً عن الأخطل: "لو أدرك يوماً واحداً في الجاهلية ما قدّمت عليه أحداً" (٢)، وقوله: "لقد أحسن هذا المولّد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته" (٣) ولا ندري مبلغ هؤلاء الصبيان من العلم والحفظ والكتابة والإتقان؟، وقال الأصمعي: جلست إليه ثماني حجج فما سمعته يحتجّ ببيت إسلامي" (٤)، وهكذا أصبح الأصمعي موجّهاً لدفة الجمع والرواية، وجرى ابن قتيبة مع المخفّفين، فقال: "لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ قوماً دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره" (٥)، والغريب أنّ يوهان فك في كتابه "العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب" يحكي عن ابن السيد البطليوسي موقفاً مضاداً لما نقله عنه ابن رشيق، فيسند إليه إنحاء "باللائمة على ابن قتيبة لأنّه احتضن منهج الأصمعيّ في التشدد بتنقية اللغة دون أن يعنى بمذاهب الثقافات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض" (٦)، فالباحث واقع في اشتباه إمّا في فهم موقف البطليوسي، أو في فهم البطليوسي لمنهج ابن قتيبة في نظريته للجديد، فحنّ قدح ليس منها.

(١) النقد اللغوي عند العرب: ٧٨-٧٩.

(٢) الأغاني: ٢٠٤/٨.

(٣) العمدة: ٨٠/١.

(٤) م.ن.

(٥) م.ن.

(٦) ظ: العربية: ٩١، نقلا عن: النقد اللغوي عند العرب: ٧٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

وضمنَ هذا الأفق ذهب بعض فطاحل النحو وفحول اللغة، كابن مالك النحوي، والمحقق الشيخ الرضي الاستراباذي، وابن منظور الأنصاري صاحب "لسان العرب"، وابن فارس وغيرهم إلى الإحتجاج في مؤلفاتهم بحديث النبي وأهل البيت (عليهم السلام)، متنبّهين إلى هذه الثُّغرة، بل صوّب بعضهم هذا المنهج، بما يحمل في طياته تخطئة المنهج السابق على إغفاله الإحتجاج بالحديث الشريف، قال البغدادي: "الصواب جوازُ الإحتجاج بالحديث النبويّ في ضبط ألفاظه، ويلحق به ما روي عن الصحابة وأهل البيت (عليهم السلام)، كما صنع الشارح المحقق الرضي"^(١).

إنّ خلاصة دعوى النحاة الذين أسسوا لمبدأ عدم الإحتجاج بالحديث النبويّ مبنية على أساسين أو عاملين:

الأول: رواية الحديث بالمعنى، إذ إنهم ادّعوا عدم نقل حديثه صلّى الله عليه وآله باللفظ، قال سفيان: إن قلت لكم إنّي أحدثكم كما سمعتُ فلا تصدّقوني، إنّما هو المعنى".

الثاني: كون الكثير من رواته لم يكونوا من العرب، فوقع فيما روه شيءٌ من اللحن^(٢).

ولمعارضة هذا القول نقول: إنّ رواية الحديث بالمعنى وإن تحقّقت فلا بدّ أن تتحقّق على لسان العرب الفصحاء الذين هم ضمن عصر الإحتجاج، إذ لا نتصور خروج كلامهم الذي نقلوا به الحديث عن مقتضى كلام الفصحاء من العرب، بمعنى أنّ الذي يروي الحديث بالمعنى فبأيّ لغةٍ سيرويه؟ وضمن أيّ سياقٍ قوليّ يجريه؟ حتماً سيكون ضمن السياق اللغويّ العربيّ وإن تنزّل عن سياقه الأصلي بمراتب، ومن ثمّ فلا يخرج عن دائرة الاستشهاد بلحاظ جريانه ضمن الأصل اللغوي نفسه. يضاف إلى ذلك أنّه لا دليل على أنّ رواته من غير العرب إذ لا شكّ في أنّ الكثير من العرب قد روا عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) حديثه فلا يتصوّر أنّ الرواة بأجمعهم كانوا من غير العرب، ثمّ من سلّم أنّ غير العرب كانوا لا يعون مسالك اللغة ومشاربها ومآخذ القول فيها، وفي تأريخنا الأدبيّ واللغويّ كثير من الموالى برعوا في مسالكها وقوانينها كسيبويه وغيره، ونحن في هذا العصر نشاهد أنّ كثيراً من غير العرب يجيدون قواعد اللغة وفلسفتها أكثر من العرب أنفسهم، جميع ذلك يُحيلنا على القول بتحكّم الجانب الشخصي والعاطفي في تأسيس مرجعيّات البناء اللغوي، مع ملاحظة كون فصحاء العرب بين ظهرانهم ممثّلة بشخوص الأئمة (عليهم السلام) الذين لا مطعن عليهم في شموخهم العلمي وبيانهم اللغوي الرفيع، إذ هم عدل القرآن. إنّ جميع ذلك ولّد طرائق عقيمة في التأسيس المرجعي خارجة عن حدود النقل الصريح، وقد تمثّلت بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلّة ونحوها .

(١) خزانة الأدب: ٧-٤/١.

(٢) م.ن: ٥٠٦.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

بهذا أصبحت نسبة الاستشهادات بالبلاغة النبوية محدودة وضيقة، ومن لطيف تلك الاستشهادات، تصحيح ابن مالك القول على لغة "أكلوني البراغيث"، لمجيء الحديث النبوي الشريف فيها، فيما يروى عنه (صلى الله عليه وآله): "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار"^(١)، علماً أن التنزيل المجيد ورد فيها في قوله تعالى: "وأسرُّوا النَّجوى الذين ظلموا"، (سورة الأنبياء: الآية ٣)، وعليه جاء قول السيد الشريف الرضي^(٢):

سَلُوا مضجعي عني وعنهما فإننا رضىنا بما يخبرن عنا المضاجعُ

وقال أيضاً:

وما زلن العـواطلُ كلَّ يوم من العلـياء يذممن الحـوالي

وقال أيضاً:

كم من نظامٍ قد نثرن هواجسي حتى نظمتُ العذر فيه فصولاً

ومما تنبغي الإشارة إليه أن البلاغة العربية لم تكن خلواً من اشتمالها على مصنّفات بلاغية تتعامل مع النصوص البلاغية الكبرى، وتجعل وكدها تقصّي مواضع بلاغتها وجمالها الفني، منها الجهد الرباعي الذي حمل كده السيد الشريف الرضي في: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، وتلخيص البيان في مجازات القرآن، والمجازات النبوية، وفي جمعه لخطب الإمام علي^(عليه السلام) ورسائله وكلماته القصار، وعياً منه لضرورة تقصّي تلك النماذج واحتذاء حذوها في صياغة البيان وتهذيب الجنان؛ لأنّ ذلك يتضمن عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثله هذا كلُّ قائلٍ خطيب وبكلامه استعان كلُّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وتقدّم وتأخّروا؛ لأنّ كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي...، وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنّما يؤثر عنهم منها القليل النادر والشاذ الشارد، وأمّا كلامه فهو من البحر الذي لا يساجل، والجمّ الذي لا يحافل..^(٣)

(١) ظ: مسند أحمد: ٣١٢/٢، وصحيح بخاري: ١٣٩/١، وينظر: شرح الكافية، رضي الدين الإسترابادي،

ت ٦٨٦هـ: ٢٢٨/١، شرح ابن عقيل: ٨٥/٢ والشواهد التي قبلها.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٥٠١/١، ٦٩٥/٢، ٦٩٦/٢. على الترتيب.

(٣) نهج البلاغة، بتحقيق وشرح صبحي الصالح، مقدمة الشريف الرضي: ٣٤.

الفصل الأول الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

ومن تلك الكتب أيضاً يطالعنا كتاب الطراز لأبي حمزة العلوي، وهو الآخر كان ملتفتاً إلى تلك الغلبة الشعرية التي اكتسحت دراسات البلاغة والنقد، فآلى أن يطرز كتابه بالجمّ الكثير من الشواهد، منتقاة من آي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وروائع الإمام علي (عليه السلام)، وغير هذين العلمين لا نكاد نعثر على من احتذى طريقهما واستن بسننهما.

الحدثُ القرآنيُّ:

في تلك الأجواء الحالكة التي كان يعيشها العرب، ممّا أشرنا إليه في التمهيد، وفي ذروة بلوغهم البياني وبراعتهم اللسانية التي لا يملكون غيرها، نزل القرآن الكريم، وبزغ فجر الإسلام، وألقى بجرانه على جزيرة العرب، وله أثره في الشعوب العربية والإسلامية لاحقاً.

لقد نزل القرآن الكريم بمنظومة حياتية متكاملة لانتشال الإنسان، اشتملت على ثلاثة أبعاد:

الأول: أصول العقائد، من المبدأ إلى المعاد وما فيها من حقائق، وبه ترتفع مشكلة الإنسان العقلية.

الثاني: الأخلاق، وبه يُحقّق الإنسان إنسانيّته.

الثالث: الأحكام الشرعية والقوانين العملية، وبها يضمّن الإنسان نظاماً أمثلاً لعلاقاته مع الآخرين، فكان هذا النظام كفيلاً لأنّ يقلب حياة العرب إلى نموذج حياة أرقى وأعلى.

إنّ نزول القرآن الكريم كان إيذاناً بنزول ثقافة ربانية خاصة تقتضي غياب جميع الثقافات الحاضرة وقت النزول أو اندكاكها في فلكها، وهذا ما حصل في العهد النبوي الشريف، فقد انصبّ اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم حفظاً وفهماً وتفسيراً وجمعاً، وكانوا يأخذون عشر آياتٍ فلا يراجعون النبيّ بعشرٍ أخرى حتى يَتِمُّوا ما في تلك العشرة من العلم والعمل، فهماً وحفظاً^(١)، فكسد الشعر وبارت بضاعته وقلّ أنصاره، وخجل أحدهم أن يتلو الشعر أو ينظمه مع هيمنة القرآن وحضوره القدسي^(٢)، وقد بحث النقاد بعد ذلك هذه الظاهرة ضمن قضية الالتزام^(٣) وأثرها في إضعاف الشعر في تلك الفترة، انطلاقاً من معيارية خاطئة أسسها النقاد الأوائل واحتذى حذوها المتأخرون، وهي كون الشعر حاكماً على القول، وهو ما سنفيض فيه بالحديث في هذا الفصل من البحث.

إنّ هذه اللحظة التاريخية لنزول القرآن العظيم ألقت بجمالها وسحرها على فكر المسلمين وتفكيرهم، ونطقهم وتصويرهم، فدخل النصّ القرآنيّ دار فنّهم فتملّكها، ونفد نور شعاعه نوافذ جذورهم فسحّرها، ولقد كان للقرآن الكريم ولرسول الله الأمين (صلى الله عليه وآله) الأثر الأساس في تثبيت وتركيز سيرة القرآن الكريم لفظاً ومعنى؛ لغرض صقل نفوسهم وإزالة

(١) ط: مسند أحمد: ٤١٠ / ٥

(٢) كان عمر بن الخطاب يُرسل إلى الشعراء يستنشدهم ما قالوا في الإسلام، " فأرسل إلى لبيد، فقال : إن شئت ما عُفي عنه ، يعني الجاهلية، فقال: لا أنشدني ما قلت في الإسلام، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها، وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر..." ، وكان البيت الوحيد الذي قاله في الإسلام، كما عن أبي عبيدة، قوله: الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا ، ط: الأغاني: ٢٥٢ / ١٥.

(٣) يُنظر في هذا الشأن، دراسة د. يحيى الجبوري (الإسلام والشعر) ، ودراسة د. سامي مكي العاني (الإسلام والشعر)، ودراسة د. إدريس الناظوري (قضية الإسلام والشعر).

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

شوائب الجاهليّة عن ضمائرهم، وتجلّى ذلك من خلال أمرين ظهرّا جليّين في آياته القدسية وعلى لسان قلب الوجود الذي نزل القرآن على فؤاده وهما:

١. الحثّ والتأكيد على قراءته وذمّ هجرانه.

٢. التدبّر في آياته واستكناه مراميّه، موعداً الإنسان بجزيل الثواب والأثر الجليل على ذلك، وفي لسان الروايات أخذَ هذا الحضّ والحثّ نحوين مهمّين:

أ. إقامة حروفه. ب. إقامة حدوده.

وعن القرآن تفتقت لهات العرب بالعلوم.

منزلة القرآن عند الرسول (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام):

١. قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): " إذا التبست الأمور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافعٌ مشفعٌ وماحلٌ^(١) مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار".

٢. وعنه (صلى الله عليه وآله): " فضلُ القرآن على سائر الكلام كفضلِ الله على خلقه".

٣. وعنه (صلى الله عليه وآله): " مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ".

٤. عن الإمام زين العابدين (عليه السلام): " لو ماتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَا اسْتَوْحِشْتَ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعِيَ".

٥. عن الإمام عليّ (عليه السلام): " لَا تُخْلِقْهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَلَوْ جُ السَّمْعِ".

٦. عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ".

٧. الإمام الصادق (عليه السلام): " لَمَّا سُئِلَ، مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عَلَى النَّشْرِ وَالدَّرْسِ إِلَّا غَضَاضَةً؟ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لَزْمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢)".

ولمعرفة حقيقة القرآن الشاملة وأثره الكبير الذي أحدثه في نقطة نزوله في الجزيرة العربية، وما ينبغي أن تكون كيفية التعامل معه ثقافياً وفكرياً واجتماعياً .. وصيرورته القطب الذي تدور حوله رحى المعرفة، كلماتٌ لأُمير المؤمنين (عليه السلام) في صفته تتبيّن خلالها حقيقته الثقافية، والمحلّ الذي أخذه القرآن من ثقافة تلك الأمة، وما ينبغي أن تكون

(١) الماحل: الخصم المجادل، واستعير للقرآن، ظ: تاج العروس: ٦٨٩/١٥.

(٢) تخريج هذه الأحاديث على الترتيب الآتي: وسائل الشيعة: ١٧١/٦، معجم الطبراني: ١٣٥/٩، بحار الأنوار: ١٩/٨٩، م: ١٠٧/٤٦، نهج البلاغة: خ ١٥٦، مسند أحمد: ٢٢٣/١، بحار الأنوار: ٢٨٠/٢.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

عليه، يقول (عليه السلام): " ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ نُورًا لَا تَطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمَنْهَاجًا لَا يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشِعَاعًا لَا يُظْلَمُ ضَوْؤُهُ، وَفِرْقَانًا لَا يُخْمدُ بَرَهَانُهُ، وَبَيَانًا لَا تُهْدمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخْذلُ أَعْوَانُهُ، فَهُوَ معدنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَينابيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرياضُ الْعَدْلِ وَغَدْرَانُهُ، وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبَنِيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيْطَانُهُ، وَبَحْرٌ لَا يُنْزَفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعيونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلٌ لَا يُغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلٌ لَا يَضِلُّ نَهْجُهَا الْمَسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يعمى عنها السَّائِرُونَ، وَأَكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطْشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجًّا لَطُرُقِ الصِّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظِلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عُرُوتُهُ، وَمَعْقَلًا مَنِيعًا ذُرُوتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسُلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهَدًى لِمَنْ اتَّكَمَ بِهِ، وَعِذْرًا لِمَنْ انْتَحَلَهُ، وَبِرَهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَمُلْجَأًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمُطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَلَّامَ، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى"(١).

إنَّ المتأمل في الصيغة الأسلوبية الخاصة التي انطبع بها هذا المقطع من الخطبة الخاص بصفة القرآن وأثره، يجد ملاكها الأسلوبية قائماً على مظهرين أساسيين، وهما الإثبات والنفي(السلب)، بمعنى أنَّ عباراته اتَّسقت لعضد هاتين الدالتين، وهذا المظهر يتساوق مع حقيقة القرآن الكريم القائمة على الإضافة والحذف أو الزيادة والنقصان، وبالتعبير الروائي "زيادة في هدى أو نقصان من عمى"(٢)، بصفته كتاب هداية للإنسان، فنلاحظ الفقرات المتقطعة الأولى وهي بحدود العشرة، انتظمها مظهرٌ واحدٌ وهو المعمول المنصوب والمضارع المنفي الدالُّ على الاستمرارية، تدعيماً للثبوت في بنية السلب، ثم تأتي بنية الإثبات بمنزلة التعليل لحقائقه في السلب، فكأنه أراد؛ في قوله: فهو معدن الإيمان وبحبوحته.... لأنه معدن الإيمان وبحبوحته... وهكذا العبارات الأخرى، ثم يعود السياق إلى بنيته الأولى ويردِّفها ببنيته الأخرى، على نحو التناوب، مشعراً بتوازن الخطاب ومضيفاً عليه حركة حيَّة فعَّالة، والمُلاحظ أنَّ البنية الأساس التي هيمنت على النص هي البنية الاستعارية، بحيث لا نرى للتشبيه وهو البنية الأساس في البيان العربي التي هيمنت على خطاب العرب الأوائل، حضوراً على طول الخطاب، ولعلَّ سببها قرب بنية الاستعارة من الحقيقة؛ لأنها تجعل الشيء من جهة المبالغة كأنه حقيقة، أمَّا التشبيه فإنَّ موقعه أداة التشبيه في أسلوبه تضيفي إيحائية المحاكاة التي تتسم بمظهر التخيل، علماً أنَّه لاشك في كون القرآن الكريم ينطوي على تلك الحقائق ممَّا اقتضى من الخطاب أن يأتي متناصاً مع تلك المضامين الوجودية. من هنا يأتي التأكيد على امتياز النسق القرآني بخصائص تستلزم

(١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، خ ١٩٥، ص ٢٩٩، وبحار الأنوار: ٢١/٨٩.

(٢) م.ن: ٢٤/٨٩.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

اجترح قنوات خاصة لمعالجته، منبثقة من التأمل في بنيته الأسلوبية، وتأتي الاستعانة بالمظاهر البيانية الأخرى بوصفها قنوات داعمة وعاضدة لا مؤسّسة.

من خلال هذا النصّ ونصوص أخرى عاضدة وردت عن الأئمة (عليهم السلام) سنشير إلى بعضها قريباً، تأسّس منهجٌ خاصٌ في فهم الدلالة القرآنية وتفسير الخطاب القرآني، هو منهج سيرورة الدلالة أو ما اصطلح عليه (الجري والانطباق)، بلسان بعض المفسرين المعاصرين،^(١) وهذا المنهج هو من خصائص الخطاب القرآني التي تميّز بها عن غيره من ألوان الخطاب المعروفة، وأخصّها الشعر، وربما يشترك جنسُ المثل في هذه السّمة الأسلوبية، تماماً كالقرآن الكريم، إذ إنّ دلالة الوقوع لا تتحد به، بل تجري، فمتى ما صادفت شيئاً في الوقوع انطبقت عليه، ولكنّ الفارق الأساس أنّ هذه السيرورة جزئية في الزمن، بمعنى أنّها لا تستغرق الزمان كلّها، فتتجدد دلالتها الانطباقية بتجدّد فعل الحدث؛ وذلك لأننا نلاحظ أنّ كثيراً من الأمثال استغرقت حقبةً ما وماتت ونسيت بغياب أهلها، ولم يتحقّق لها التداول والسيرورة بخلاف القرآن الذي يجري ضمنّ ظرفٍ استغراقيٍّ كمجرى الشمس والقمر. والغريب أنّ الذين تناولوا إعجاز القرآن الكريم وتحليل خطابه في بداية التفتح الفكري للمسلمين عمدوا إلى إجراء مقارنة بين الخطاب الشعري والخطاب القرآني لتأكيد الإعجاز، حيث جعل الشعرُ معياراً فنياً في معظم دراسات الإعجاز وتحليل الخطاب إن لم تكن كلّها، والخصوصية العلمية لهذا المنهج مرتبطة بـ " القدرة على استنتاج باطن النصّ وكشف معانيه كشفاً يزيل عنها كلّ حجب ظاهر الألفاظ وحدودها لينطلق إلى باطن الآية وقدرتها على الشمولية وكسر قيود الزمان والمكان والقدرة على الانطباق على معانٍ متجدّدة تمثل مصاديق يشملها النصّ"^(٢)، ومن نماذج الخطابات العاضدة لمنهج الجري والانطباق كما تتبناه المدرسة الإمامية :

١. عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى " ولكلّ قوم هاد" سورة الرعد: ٧ " أنّه قال: " عليّ الهادي، ومنا الهادي، فقلت: فأنت جعلت فداك الهادي، قال: صدقت إنّ القرآن حيٌّ لا يموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكنّ هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضيين"^(٣).

٢. عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): " إنّ القرآن حيٌّ لم يمت، وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا"^(٤).

(١) هو العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان، ظ: القرآن في الإسلام، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: ٦٧ و٦٦.

(٢) مناهج المتكلمين في فهم النصّ القرآني، د. ستار جبر الأعرجي: ٩٠.

(٣) بحار الأنوار: ٤٠٤/٣٥.

(٤) م.ن.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

٣. عن الباقر (عليه السلام): "ولو أنَّ الآية إذا نزلت في قومٍ ثمَّ مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيءٌ، ولكنَّ القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض، ولكلِّ قومٍ آية يتلونها هم منها في خيرٍ أو شرٍّ"^(١).

من خلال ذلك تظهر النظرية لهذا المنهج وضوابطه في تحليل الخطاب، فهو يعتمد على التحرر من عامل الزمن وأثره الدلالي المحدود؛ ليكسر قيود أسباب النزول؛ وليكشف دلالات النصّ كشفاً خاصاً، ولكنَّ هذا التحرر وكسر القيود ليس عشوائياً وفوضوياً يقودنا إلى الدلالات السيّالة غير القارّة والمتناقضة أحياناً، بل إنّه يقوم على أساس أن "للقرآن اتساعاً من حيث انطباقه على المصاديق وبيان حالها، فالآية منه لا تختصُّ بمورد نزولها بل تجري في كلِّ مورد يتحدُّ مع النزول ملاكاً كالأمثال التي لا تختصُّ بمواردها الأول بل تتعدّاه إلى ما يناسبها"^(٢)، من هنا تظهر لنا معيارية سبب النزول في تحديد الفهم الذي سينطبق عليه الجري وتحديد المعنى المراد، فظاهر الدلالة هي المنطلق للكشف عن المعاني الباطنية و "الوصول إلى ما خفي من المعاني، أو ما خفي من المصاديق، بعد التوجّه إلى المعاني الظاهرة الحاصلة من الألفاظ المفردة وتراكيبها، ومن ثمَّ بيان شرعية بعض التأويلات ورفض بعضها"^(٣)، وهذا الفهم سيحدُّ محاولات تشطّي الدلالة وإعادة الخلق للمعنى التي تبناها غادامير ومذاهب الشعرية الغربية ومبدأ تعدّد القراءات للنصّ الواحد(الهرمونتيك) انطلاقاً من نسبيّة القراءة المفضية إلى اختلاف الأفهام وسيلانها ونسبيّتها، مؤكّدة تأثير أفق المفسّر وموقعه وتفسيره وقراءته في حصول المعنى، ومن ثمَّ فإنَّ الأثر والنصّ سيبتلى بتكثّر المعاني ولا محدودية الدلالة، وإن تناقضت!^(٤) وستكون قراءة إبليس لأمر السجود مثلاً، تمثّل منتهى العبودية وإن عصى الأمر الموجه إليه، وأبو لهب أيضاً كانت له قراءة خاصّة لمنهج النبيّ فهو غير ملام، وإلى آخر القائمة.

؛ لذلك فإنَّ اتّحاد الشروط الموضوعية أو تحقيقها في اللاحق يقتضي انطباق حكم السابق على الموضوع، وهذا الأمر شبيه نسبياً بمبدأ القياس باصطلاح الأصوليين الذي يعرفونه بـ "الاستواء بين الفرع والأصل في العلّة المستنبطة من حكم الأصل"^(٥)، ولكن الفرق هو في كون حكم الأصل في الجري منصوصاً عليه في حكم النزول، وبتحقيق الشروط الموضوعية يطبّق اللاحق على السابق ويأخذ حكمه، حيث سيكون للظاهر اللفظي معيارية في تحديد المعنى الجديد.

(١) بحار الأنوار: ١١٥/٨٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦٧/٣.

(٣) قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد فاكّر المييدي: ٣٠٠.

(٤) ظ: قراءة في تعدد القراءات، مناقشة لمبادئ التعددية في كلمات الدكتور عبد الكريم سروش، علي أحمد الكربابادي: ٢٠.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أبي علي الآمدي: ١٩٠/٣.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

فاعلية الوجه اللغوي في الكشف الدلالي :

فمن خلال هذه المركزية والهيمنة للنسق الشعري على باقي الأنساق الكلامية والتعبيرية، واستثنائ الحركة الفكرية الأدبية، نقداً وبلاغة وإعجازاً عليه، تجعلنا نظن أن هناك دقة كانت توجه مسار الثقافة الإسلامية لتأصيل ثقافة الشعر وتغليبها على ثقافة القرآن وهيمنته الفكرية؛ لإعادة البساط لأرضية الشعر كي تستقر منهجاً موروثاً عن القدماء، وقد تقدم من الشواهد ما يدل على ذلك دلالة ضافية، ونردف شاهداً آخر على الموضوع تتجلى به الصورة أكثر، وهو حديث: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خيراً من أن يمتلئ شعراً" (١)، وفي لفظ آخر: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه (٢) خيراً له من أن يمتلئ شعراً" (٣)، وفي ثالث: "لأن يمتلئ جوف أحدكم من عانته إلى هامته قيحاً يتخضض خيراً له من أن يمتلئ شعراً" وفي رابع "ما بين لبنتك إلى عانتك" (٤).

وقد أورده الشريف الرضي (رحمه الله) ضمن المجازات النبوية بلفظ ابن رشيق في العمدة، ويمكن غض النظر عن بعض الزيادات الواردة في هذا الحديث؛ لأنها لا تغير من دلالاته شيئاً، إذ من الممكن أن يكون قد صدر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عدة موارد، وربما يكون الاختلاف قد جاء من الرواة، خصوصاً بالنسبة لبعض المذاهب الإسلامية التي تجيز رواية الحديث بالمعنى، كما تقدمت إشارتنا إليه، ولكن الأشهر بين المحدثين هو رواية المجازات النبوية للرضي .

وقد شغلت دلالة هذا الحديث الكثير من العلماء وشراح الحديث النبوي والفقهاء، فوجهت دلالاته جهات شتى، كل يستدل على رأيه بموجهات وقرائن، حالية حيناً أو مقالية حيناً آخر، وأبرز تلك الدلالات هو كراهة رواية الشعر، وقد خصه بعضهم بالشاذ وشعر الهجاء والتشبيب بالنساء (٥) وكون رواية الشعر أكثر من قراءة القرآن، يقول ابن رشيق: "فإنما هو في من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره سواء" (٦)، ونوقشت هذه الدلالة بأن لا وجه للتخصيص، كما لا قرائن تصرف إلى هذا المراد، فحمل الحديث على عمومه أقوم لدلالاته وألصق بظاهر لفظه، قال الشيخ الطوسي:

(١) مسند أحمد بن حنبل: ١/١٧٧، وصحيح بخاري: ٤/٥٨، وصحيح مسلم، كتاب الشر: ٤/١٧٦٩، حديث ٩٧،

وسنن أبي داود: ٤/٧٩، حديث ٥٠٠٩، وينظر، والمجازات النبوية، الشريف الرضي: ١١١، مجاز: ٧٨.

(٢) ستاتي دلالتها ببيان الشريف الرضي.

(٣) العمدة: ٢١/١.

(٤) كنز العمال: ٣/٥٧٦، و مجمع الزوائد: ٨/١٢٠، عن الطبراني.

(٥) قال الشافعي: إذا لم يكن كذباً ولا هجواً ولا تشبيهاً بالنساء كان مباحاً. الأم: ٢/٢٠٧، والحاوي

الكبير: ٢٠٩/١٧-٢١٠، نقلاً عن الخلاف للشيخ الطوسي: ٦/٣٠٨، وينظر: عمدة القاري: ٢٢/١٨٩.

(٦) العمدة: ٢١/١.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

نحن نحمله على عموميه ولا نخصه إلا بدليل، وقوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاؤون" (سورة الشعراء: ٢٢) يدل على ذلك ^(١)، فالشيخ الطوسي يجعل من القرآن الكريم مقوماً دلالياً للحديث الشريف من خلال عرض دلالاته على القرآن، فما وافقت القرآن الكريم كانت هي الدلالة (الحجة)، في حين تفقد الدلالة المخالفة حجيتها، ومن ثم، فحتى دلالة: الحمل على الاستكثار منه، بحيث يكون الذي يتعلم منه ويحفظ أكثر من القرآن والفقه، يردها الشيخ الطوسي.

أما الشريف الرضي فإنه يثبت القول بالذهاب إلى أن المراد هو الاستيلاء والاستكثار من الشعر حتى يغلب على قلب الإنسان وعمله، ولا يكون له شغلٌ غيره: "وفي هذا القول مجاز؛ لأن المراد به النهي عن أن يكون حفظ الشعر أغلب على قلب الإنسان، فيشغله عن حفظ القرآن وعلوم الدين حتى يكون أحضر حواضره وأكثر خواطره، مشبهه عليه الصلاة والسلام بالإناء يمتلئ بنوع من أنواع المائعات، فلا يكون لغيره فيه مسرب ولا معه مذهب" ^(٢). وظاهر أن الشريف الرضي جعل من اللغة موجهاً قرائياً لكشف الدلالة، وهذه اللغة ليست دلالاتها المعجمية، بل هي لغة الحديث نفسه، مقرباً تلك الدلالة ببديع بيانه وتوضيحه، بكشف التشبيه المضمر واستجلاب جزئيات صورته فاستحضر من لفظتي (مسرب ومذهب)، دلالة الإناء وانغلاقه، بحيث لا ينفذ إليه شيء، وبهذا تنكشف دلالة الحديث السابقة انطلاقاً من مركزية لفظة (يمتلئ) الدالة على الاستيلاء والشمول في طرفي الصورة، وسنورد مقارنة دلالية لحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) توضح أهمية الفعل اللغوي بوصفه موجهاً قرائياً لكشف الدلالات الطولية.

ويمكن أن يستدل بعموم الدلالة على كراهة الشعر بأدلة وقرائن خارج نصية تدعم تلك الدلالة منها:

- عن أبي سعيد الخدري، قال: بينا نحن نسير مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إذ عرَضَ شاعر يُنشد، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): خذوا الشيطان، أو امسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجلٍ قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً ^(٣).

- عن أبي نوفل بن عقرب قال: سألت عائشة هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه ^(٤).

- عن محمد بن مروان، قال: كنتُ قاعداً عند أبي عبدالله (عليه السلام) أنا ومعروف بن خربوذ فكان يُنشدني الشعر وأنشده ويسألني وأسأله وأبو عبدالله (عليه السلام) يسمع، فقال أبو عبدالله

(١) الخلاف: ٦، هامش ص ٣٠٨.

(٢) المجازات النبوية: ١١١.

(٣) صحيح مسلم: ٥٠/٧.

(٤) المصنف، ابن أبي شيبة: ١٨٣/٦.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

(عليه السلام): إنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: لأن يمتلئ جوف الرجل قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً، فقال معروف: إنما يعني بذلك الذي يقول الشعر، فقال: ويلك أو ويحك " قد قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله " (١)، يعني قال الحديث السابق، وهو تشديد منه (عليه السلام) على قبول دلالاته الظاهرة .

يظهر من دلالة هذه المرويات أنها تجري في سياق إثبات ثقافة القرآن التي هي حديثة عهد بالمجتمع الإسلامي الذي لم ينصهر ولم يتطبع بمفاهيمها ودلالاتها، ومحاولة إضعاف السياقات الثقافية الضعيفة فكرياً وثقافياً، التي كان المجتمع الإسلامي قريباً عهد بها ومعانقاً لها حتى بعد ظهور الإسلام، كما سيتبين ذلك في حديثنا عن القصص الذي يُصوّر لنا غلبة السياق الثقافي السالف، وتأصل الطبع الشعري على النفس، وهذا سيُفسّر لنا بعض الاستثناءات الواردة في الترغيب بالشعر والحث عليه؛ لمجيئه في السياق الثقافي القرآني نفسه، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يُعجبه أن يروي شعر أبي طالب وأن يُدوّن، وقال: تعلّموه وعلمّوا أولادكم فإنه كان على دين الله " (٢) .

دلالة التطابق (٣): تمثّل هذه الدلالة مظهراً أسلوبياً من مظاهر الصياغات الكلامية، ومُفاد هذه الدلالة هو أن يستأثّر المتكلّم بصياغات أسلوبية خاصّة به نابعة من ثقافته واستئنائه ببعض الألفاظ أو التراكيب أو الصياغات أو الروح النصّية التي تجعل من النصّ وثيقة تُشير إلى صاحبه وتجرّه إليه، وهذه الدلالة مختلفة في الانطباق على مصاديقها، ويمكن أن نتصوّر منها ثلاثة أنحاء:

(١) تارة يتحقّق فيها إثبات النصّ ضمن منظومته التاريخية التي وُلدَ فيها، من خلال تتبّع الدلالات وتصيّد القرائن في الكشف عن انتمائه تبعاً لانتفاء دلالاته وألفاظه إلى أيّ واقع ثقافي ينسجم مع تلك الدلالات، ولكنّ نتائج هذا النمط ليست كلّية في التحقق إذ تختلف باختلاف الواقع العلميّ للأشخاص، ولحافظ عدم الفصل الزمني بين العصور، وكون التطوّر العلمي قد يتحقّق بنسبيةٍ أوسع من واقعية ثقافة العصر.

(٢) ويتحقّق فيها إثبات الانتساب والصدور عن الشخص، بمعنى أن يستأثّر المتكلّم بصياغات وأساليب تعبيرية خاصّة وصور فنية منتزعة من البيئة، ويكرّر استخدامها، فإنّ هذا من الناحية الفنية يعدّ مظهراً من مظاهر تأكيد وحدة الجهة الصادر عنها ذلك الخطاب، وقد تجلّى لنا ذلك في خطب الإمام علي (عليه السلام) (٤)، حيث عُدت صورة الإبل وما يحيط

(١) جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي: ١٨٩/٦.

(٢) م.ن.

(٣) ليس المقصود بهذه الدلالة التطابق البديعي وإنما التطابق الأسلوبي الظاهر من تحليل الأسلوب.

(٤) تبنى الباحث بيان هذه الدلالة في أطروحته للماجستير الموسومة: بنية الخطبة في نهج البلاغة دراسة في ضوء نظرية أرسطو في الخطابة" (مخطوطة)، تنظر: ص ١٦٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

بها من جزئيات صورها وعاداتها التي ألفتها العرب من الصور الأثيرة الاستعمال في خطب الإمام علي (عليه السلام) ، على هذا النحو:

- "فتدأوا عليّ تذاك الإبل الهيم يومَ وروِدها" ^(١)، "كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة" ^(٢).

- "دعوتكم إلى نصرة إخوانكم فجرجرتهم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأديب" ^(٣).

- "ما أنتم إلا كالإبل ضلّ عنها رُعائها ، كلما جُمعت من جانبٍ تفرقت من جانب" ^(٤).

- "...تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة، تُرمى عن حياضها، وتُذاذ عن مواردِها" ^(٥).

- "... ذاك إذا عظّمُ البلاء كما يعضُّ القتبُ غاربَ البعير" ^(٦)، وغير ذلك من الموارد .

وتتحقق هذه الدلالة من خلال استعمال وحدة معجمية في سياقٍ دلاليٍّ معيّن مثبتٍ أو نافٍ، ثم استعمال هذه الوحدة المعجمية ضمن سياقٍ دلاليٍّ مثبتٍ للضدّ من السياق السابق مع اختلاف الواقع الزمنيّ لكلا الدالّتين، ومن خلال العلاقة التواصلية التي بينها المتلقّي مع المتكلّم ^(٧) ينكشف السياق الثقافي والفكري الذي تجري نحوه كلتا الدالّتين، وإن كانتا متضادّتين ظاهراً، ومثال ذلك: الوحدة المعجمية (جوف) الواردة في الحديث النبويّ السابق، فإنّها تتقابل مع وحدة معجمية مماثلة (جوف) أيضاً، جاءت في سياقٍ دلاليٍّ نبويٍّ آخر يتمثّل في قوله (صلّى الله عليه وآله): إنّ الذي ليسَ في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيتِ الخرب ^(٨)، وقوله (صلّى الله عليه وآله): "لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجدّ مع من حدّ، ولا يجهل مع من يجهل وفي جوفه كلام الله" ^(٩)، فانساق دلّاتي (الجوف) ضمن سياقين، تجعل المتلقّي يتحوّل إلى فاعلية تابعة لمقتضى حال الباتّ وإن كان الأمر يتعلّق بتحوّلٍ دلاليٍّ يوازي الخضوع الكلي لمقصدية ^(١٠).

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح: خ ٥٤، ص ٩٠، خ ٢٢٩، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٢) م.ن، خ ٦٩، ص ٩٨.

(٣) م.ن، خ ٢٩، ص ٨٢.

(٤) م.ن، خ ٣٤، ص ٧٨.

(٥) م.ن، خ ١٠٧، ص ١٥٥.

(٦) م.ن، خ ١٨٧، ص ٢٧٧.

(٧) ظ: التواصل البلاغي، د. أحمد طايبي: ٢٨.

(٨) مسند أحمد: ٢٢٣/١.

(٩) كنز العمال، المتقي الهندي: ٥٢٤/١.

(١٠) ظ: التواصل البلاغي: ٢٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

فاستعمال الوحدة المعجمية الواحدة في سياقين مختلفين لإفادة معنى يؤكد دلالة إحداها يعكس " النية الإرادية الواعية من المتكلم - الباث، بما ينتج عنه تحديد المعاني ووصفها بشكل مسبق ونهائي" (١).

فينكشف من خلال هذا البيان أن هناك نضداً ثقافياً كان يمارسه الرسول (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام) من بعده؛ لتأكيد النسق الثقافي القرآني وتأصيل إمكاناته ووسائل فهمه ودعم مكوناته الجمالية، وهذا يظهر من خلال تتبع الروايات الشريفة الداخلة ضمن هذا الحقل (٢).

إضافة خارجية للحديث يكشفها السياق :

تنبغي الإشارة إلى أن الحديث النبوي " لأن يمتلئ جوف أحدكم ... " السابق، قد ورد بصيغة فيها إضافة يسيرة في ذيل الحديث، ولكنها تكشف عن دلالة كبيرة وغريبة في الوقت نفسه، تكشف عن ضعف المعرفة بالقرآن وصاحب القرآن صلى الله عليه وآله، والذي دعانا للحديث عنه وكشف دلالاته هو تبني الكثير من العلماء السابقين وغير قليل من الباحثين المحدثين لدلالاته، مؤسسين لنقطة دلالية جديدة ومعتمديها، غير ملتفتين إلى سقم الدلالة ورداءة الحجة وهشاشة البرهان الذي سيق من أجله تلك (الإضافة)، كما يكشف في الوقت نفسه حرص منظومة من الأفراد على تكريس النسق الشعري وبثه في الحياة ودعمه بشتى الوسائل لعدة غايات، ونحن إذ نسوق الكلام بهذا الأفق فليس القصد منه إلغاء الثقافة الشعرية، حاشا، إذ " الشعر والنثر جهد بشري متكامل البنية في الجاهلية والإسلام، والقرآن وحي سماوي يتحدى البشرية في إعجازه وكوكبة مراميه الفنية، فصاحة وبلاغة وبراعة، ويظل هذان العاملان: القرآن الكريم والأدب العربي راكبين تنهل منهما العربية معينها الذي لا ينضب، وتستهدي شعاعها الذي لا يخبو" (٣)، ولكن لتوضيح ما سنذكره لاحقاً من غلبة السياق الشعري على البيان القرآني ومحاولة تكريس ذلك السياق على القرآن الكريم حتى غدت معالجة القرآن الكريم معالجة قائمة على استحضار أنساق الشعر الإجرائية ومفهوماته المعيارية وتطبيقها على القرآن، فتعقم عند ذاك النتائج، وتضيق الموارج .

أما الحديث الشريف فقد وردت صيغته الأخرى هكذا، بعد أن نُقلت لعائشة رواية أبي هريرة للحديث بلفظه السابق، قالت: حفظ أول الحديث ولم يحفظ آخره: إن المشركين كانوا

(١) التواصل البلاغي: ٢٨.

(٢) ينظر مثلاً: أصول الكافي للشيخ الكليني ت ٣٢٩ هـ باب فضل القرآن، ومن مظاهر هذا النضد، ما روي أن شاباً أقر عند الإمام علي عليه السلام بالسرقة، فقال عليه السلام: إني أراك شاباً لا بأس بهبتك، فهل تقرأ شيئاً من القرآن؟ قال: نعم، سورة البقرة، فقال قد وهبتك لسورة البقرة، قال وإنما منعه أن يقطعها؛ لأنه لم يقرأ عليه بينة. ظ: وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي: ٤١/٢٨.

(٣) أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين الصغير: ٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(١)، وفي لفظٍ أصرح في نسبة الكلام إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لفظٌ: هُجيتُ به^(٢)، أو ممّا هُجيتُ به^(٣). ومع غضّ النظر عن مباحث علم الرجال في إثبات صحة الحديث من ضعفه، فإنّه موكولٌ إلى أهله، ولكنّا قد وقفنا على ضعفه، حيث ضعفه العقيلي (ت ٣٢٢هـ) في "ضعفاء الرجال"^(٤)، وابن الجوزي (ت ٥٧٩هـ) في الموضوعات^(٥)، واستغرب الزيادة الفتني (ت ٩٨٦هـ) في "تذكرة الموضوعات"^(٦)، فالحديث موضوع. أمّا فضأوه الدلالي، فلا نسبق الشريف الرضي في كشف دلالاته، مع اشتغالنا على تعليقٍ خاصّ سنورده من بعد، يقول الرضي في المجازات النبوية: "وقال بعضهم إنّما هذا في الشعر الذي هُجي به النبي عليه الصلاة والسلام خصوصاً، والصحيح أنّه في كلّ شعر استولى على القلب استيلاءً عموماً؛ لأنّ النهي يتعلّق بحفظ القليل ممّا هُجي به النبي صلى الله عليه وآله وكثيره يُراعى فيه أن يكون غالباً على القلب وطافحاً على اللب، وقوله حتى يريّه معناه حتى يفسده ويهيضه"^(٧)، فالشريف الرضي ينتزع من الوحدة المعجمية (يمتلئ) دلالتين، ينكشف من خلالهما فساد الكلام وسقم نسبته، والموجّه للدلتين هو سياق المخاطب الذي يمثل شخص الرسول الأكرم وعظمته صلى الله عليه وآله المرتكز بالوجدان، وهاتان الدالتان هما دلالة التّضاد، وهي دلالة خفية تنطوي تحت لفظة الامتلاء، التي تُخفي أيضاً دلالة الكثرة، فانتزعت منها دلالة كون القلّة غير محتملة فكيف بالكثرة، والأخرى، دلالة الشمول والسعة التي تقتضيها وتستلزمها لفظة (الامتلاء)، فالدلالة الأولى أبطلت الزيادة (ممّا هُجيت به)، والدلالة الثانية أثبتت رجحان الشعر في حال عدم الاستيلاء، واقتصاره على الحكمة والنادرة والطريقة، بمقتضى "إنّ من الشعر لحكمة".

وهناك توجية آخر يُنتزع من سياق المخاطب المتمثّل بالوحدة المعجمية (أحدكم)، فالمخاطب إمّا أن يكون مؤمناً وإمّا أن يكون كافراً، ومقتضى الخطاب يستلزم القرب المكاني، أي أنّ المخاطب والمخاطب يجمعهما فضاء مكاني واحد، والمشركون في مكّة، كما هو معلومٌ بداهةً والرسول في المدينة وهو معلوم أيضاً، وهذا يستلزم البعد الحاكم باستبعاد الخطاب، وعلى فرض وقوعه في معركة بدر، فلا وجه للقرب أيضاً؛ لتباعد الجيشين، وانشغال الطرفين بالقتال عن حفظ الشعر ومراجعته، فضلاً عن أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالكفّ عنه، فأنحصر في كون المخاطب هو المؤمن، وهذا المؤمن إمّا أن يكون مؤمناً غير هاجٍ للنبي أو هاجياً للنبي وتائباً عن هجائه – على فرض وقوع الخطاب

(١) عمدة القاري، العيني: ١٨٨/٢٢-١٨٩.

(٢) ظ: مجمع الزوائد، الهيثمي: ١٢٠/٨، وفتح الباري لابن حجر: ٤٥٤/١٠.

(٣) ظ: كنز العمال: ٥٧٦/٣.

(٤) ظ: ٢٨٨/٤.

(٥) ظ: ٢٦٠/١.

(٦) ظ: ١٦٨.

(٧) المجازات النبوية: ١١١.

الفصل الأول.....الأسسُ المعرفيةُ للبلاغة العربية في ضوءِ مصادرها الأولى

لاحقاً، والمؤمن لا يتصور منه أن يحفظ القليل من أشعارِ هجاء النبي فضلاً عن الكثير، والتائب لا يصح التعريضُ به، وخصوصاً من جهة مَنْ وصف بأنه لعلّ خلقٍ عظيم^(١)، فأتضح كون دلالة الحديث مع تلك الزيادة دلالة سقيمة، والزيادة واضحة الوضع.

وبصورةٍ عامّة، فإنّ ما نقلوه عن النبي (صلى الله عليه وآله) في الشعر لا يرقى لمدحه - أي الشعر - فضلاً عن رفع كعبه، بل يُوصف على نحو العموم، من ذلك قوله "إنّما الشعر كلام مؤلّف فما وافق الحقّ منه فهو حسن، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه"^(٢)، وقوله (صلى الله عليه وآله): "إنّما الشعرُ كلامٌ فمن الكلامِ خبيثٌ وطيبٌ"^(٣).

فاستعمال دلالة الحصر مع النكرة كاشف عن العموم في كلتا العبارتين، فلا وجه لشرفية التخصيص إذ لا محلّ له في الكلام، من هذا التأسيس يظهر أنّ الاطلاقات التي يستظهرها كثيرٌ من الباحثين في مدح الشعر وإعطائه نسقيّة متميّزة عن غيره من الأجناس الأدبيّة، كالخطابة والرسائل وفنّ المناظرات (الذي ظهر بوصفه نتيجة للتوجّهات الفكرية المختلفة التي ظهرت إبان الانفتاح الفكري المزامن لسقوط الدولة الأموية وبروز الدولة العباسية وقبل استقرارها وفرض سلطتها الثقافية والفكرية، وبرز من مثل تلك المناظرات، الشيعة، وكان من أبرز متكلميها زرارة بن أعين^(٤) وهشام بن الحكم^(٥) ومؤمن الطاق^(٦)، وغيرهم، والمعتزلة وكان من أبرز متكلميها النظام^(٧) وأبو هذيل العلاف^(٨) وغيرهما)، فهذه النسقيّة

(١) مضمون سورة القلم، آية ٤.

(٢) العمدة: ١٨/١.

(٣) م.ن.

(٤) هو زرارة بن أعين بن سنسن، أبو الحسن الشيباني، شيخ أصحاب الأئمة في زمانه ومتقدّمهم، وكان قارئاً، فقيهاً، متكلماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقاً فيما يرويه. مات سنة خمسين ومائة. عن رجال النجاشي: ١٧٥، وعن معجم رجال السيد الخوئي ٨/ ٢٢٦-٢٢٧: بإسناده.. عن سليمان بن داود المنقري، عن ابن أبي عمير، قال: قلت لجميل بن دراج: ما أحسن محضرك وأزين مجلسك؟ فقال: إي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان في الكتاب حول المعلم.

(٥) هو أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي الشيباني، مولى كندة، ولد بالكوفة، ونشأ بواسط وكانت تجارته بغداد، ثم انتقل إلى بغداد آخر عمره، حدّث عن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وكان عالي المنزلة عندهما روي له عنهما عليهما السلام مدائح كثيرة، برع في الكلام، ففقق الكلام وكان فيه حاذقاً حاضر الجواب، له مناظرات عديدة نقل الكشي بعضها في رجاله، وله كتب كثيرة، منها كتاب التوحيد، وكتاب المعرفة، والرد على الزندقة... توفي سنة ١٩٩ هـ على الأظهر، ظ: رجال النجاشي: ٤٣ ت / ١١٦٤، والفهرست للشيخ الطوسي: ٢٥٨، والفهرست لابن النديم: ٢٤٩.

(٦) أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي، الأحول، مولى، كوفي صيرفي، بلقب مؤمن الطاق، وصاحب الطاق، كان دكانه في طاق المحامل بالكوفة، فيرجع إليه في النقد، فيردّ رداً يخرج كما يقول. قاله النجاشي في رجاله: ٢٤٩. عده الشيخ الطوسي من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، له مناظرات معروفة ومشهورة مع أبي حنيفة، وله كتب منها، كتاب الإمامة، وكتاب المعرفة، وكتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول، وكتاب افعل ولا تفعل... ظ: رجال الشيخ الطوسي ٣٠٢ و ٣٥٩، والفهرست: ٢٠٧.

(٧) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني البصري، المتكلم، من أئمة المعتزلة، انفرد بأراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت "النظامية" له عدة تصانيف، منها كتاب "الطرفة" و"الجواهر والأعراض" و"حركات أهل الجنة" مات سنة ٢٣١ هـ. أنظر: تاريخ بغداد ٦: ٩٧ / ٣١٣١، سير أعلام النبلاء ١٠: ٥٤١، معجم المؤلفين ١: ٣٧، الكنى والألقاب ٣: ٢٥٣.

(٨) محمد بن الهذيل شيخ البصريين في الاعتزال، له كتب ومقالات، توفي سنة: ٢٢٧ هـ وغيره، قال يوماً: حمار بشر أعقل من بشر؛ لأنّ حمار بشر لو أتيت به إلى جدول صغير وضربته للعبور فإنه يطره، ولو أتيت به إلى جدول ←

الفصل الأول.....الأسسُ المعرفيةُ للبلاغة العربية في ضوءِ مصادرها الأولى

غير تامة الاستظهار من تلك الأدلة التي ساقوها عليها، بل إنها تحتاج إلى التمهين والمراجعة والتوجيه الدلاليّ الدقيق؛ لتكون النتيجة أنسبَ ملائمة لموقعيّة القرآن الكريم في قلب البنية الثقافية الإسلامية.

→ كبير لم يطفره، لأنه فرّق بين ما يقدر على طفره وما لا يقدر عليه، وبشر لا يفرق بين المقدور له وغير المقدور له ، يعني معاصره، بشر بن المعتز البغدادي ، المتوفى سنة ٢١٠ هـ .

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

أنموذج في الأصل اللغوي:

ومن أشكال فاعلية الأصل اللغوي بصفته موجّهاً للفعل القرآني الكاشف عن الدلالة الذي يُفرز معيارية خاصة بالقرآن الكريم بحكم كونه نصّاً يكتنز في داخله دلالات متعددة طولية من خلال منهج "له بطن ولبطنه بطنٌ إلى سبعة أبطن"^(١)، ما ورد من توجيه دلالة قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" (سورة الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧) .

فقد جرى الكلام في توجيه دلالة الآية في أخذ وردّ وشرقٍ وغربٍ، وهاجت القلوب وارتفعت العقائر خوفاً حيناً من أن ينطبق المصداق على المفهوم فيكون الشاعر قد دخل في المذموم، وإنكاراً حيناً آخر من أنه كيف يُنال من شرف الشعر وتهتزّ كبرياؤه؟ .

ويُروى أنّه لما نزلت هذه الآية جاءت عدّة من الشعراء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهم يبيكون قائلين إنا شعراء والله أنزل هذه الآية، فقتل النبي (صلى الله عليه وآله): "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات..."^(٢)، ووسم صاحب العمدة من يستدلّ على كراهة الشعر بهذه الآيات بأنّه لا يفهم وجه الكلام وهو غلط وسوء تأويل؛ لأنّ المقصود بهم هم المشركون الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وآله بالهجاء ومسّوه بالأذى...^(٣)، ثمّ يأتي على ذكر الاستثناء.

وأغلب ما ذكر إنّما يجري ضمن هذا الأفق الذي يعتمد على ظاهر اللفظ في بيان الدلالة، من دون أن يخالجه شكٌّ في أنّ الآيات لا ينطوي ظاهرها على أكثر ممّا اشارت إليه، فهل من الممكن أن نكلّفها بدلالة أخرى جديدة مستلّة من ذلك الظاهر نفسه؟.

إنّ فرض عدم الإمكان يحتاج إلى دليلٍ وجُزأة في قصر الدلالة على ما ذكر .

ولكن لمنهج الاثمة من أهل البيت عليهم السلام قولاً آخر يؤسّس على ذلك الظاهر - الذي يراه البعض أنّه قد استنفذ دلالاته-، معنى جديداً ودلالة حيّة متحرّكة تُشير إلى ما ذكرناه من صفة القرآن الكريم في الجري والانطباق، "مجرى الليل والنهار" .

فهناك قاعدة تفسيرية مهمّة أسّست من قبل الاثمة عليهم السلام في تفسير الخطاب القرآني، وهي من مختصات وإمكانات تحليل الخطاب القرآني دون غيره، أي أنّها من مفهوماته الإجرائية ووسائله التحليلية التي لا تنطبق على غيره من النصوص بما فيها الشعر العربي

(١) عوالي اللآلئ ، لابن أبي الجمهور الإحساني (ت ٨٨٠هـ): ١٠٧/٤ .

(٢) مسند أحمد : ٢٩٨/٤ .

(٣) ظ : العمدة : ٢٠/١ - ٢١ .

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

؛ لأنه لا يحمل أبعاداً دلالية تصاغ بأسلوب وكأنه الضفيرة التي تحيل بها العقد على أختها . وهذه القاعدة تتبين في سؤال أحد الأشخاص الإمام الصادق (عليه السلام) عن آية في القرآن وبعد بيان دلالتها يقول (عليه السلام): " له فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه نزل في شيء واحد" ^(١)، أما الحديث فهو عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: " الشعراء يتبعهم الغاؤون " قال: هل رأيت شاعراً يتبعه أحد؟، إنما هم قوم تفقهوا لغير الدين فضلوا وأضلوا" ^(٢) .

ما أكبره من سؤال وما أدله من حصر.

إن النسق الأكبر الذي يتساق مع القرآن ليكشف دلالاته هو الأئمة عليهم السلام ، لا نسق [إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي] ^(٣) .

فيبدو أثر الوحدة اللغوية (يتبعه) واضحاً في قيادة وتوجيه فعل التحليل أو التأويل والقراءة، فما هو المعنى الذي تسترّه هذه اللفظة أو ما يسمّى بالسّنن الثاني بالمصطلح الحديث ^(٤)، هذا السّنن شكّل موجهاً سياقياً نصّياً يُنطلق منه إلى فضاء دلالي جديد.

فمقتضى الاتّباع أن تتوفر منظومة [الرئيس/ المروّوس ← التابع/ المتبوع]

" فالشعر من حيث هو شعر لا يوجب الاتّباع، بل الاتّباع يُتصور في وضع الطريقة وتعيين الرئاسة وطلب المروّسية" ^(٥)، فلا بدّ لنمط بياني من أن يتحرّك ليحتضن الدلالة، فكانت البنية الاستعارية، فالاستعارة " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض... إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو التأكيد والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه" ^(٦)، والمحقّق في البلاغة أنّ الاستعارة في الحقيقة إنّما تكون متعلّقة بالمعنى لا باستعارة اللفظ، ودليل ذلك المبالغة فإنّها قرينة المعنى لا اللفظ، فلا تتحقّق بمجرد استعارة اللفظ؛ لأنّه بمفرده سيقودها إلى حقل الحقيقة، فإثبات المعنى في الاستعارة مقدّم على اللفظ ، واللفظ من بعده تابع له ^(٧).

ونوع الاستعارة في الآية الكريمة في هذا المورد هو " استعارة مجرّدة"؛ وذلك لذكر لازم المستعار له وهم المتفقهون لغير الدين، (الفقهاء بهذه الصفة)، الذين من لوازم موقعهم وشأنهم [القيادة والانقياد إليهم] وهذا الحكم تختزنه الوحدة المعجمية (يتبع) فجهة الاستعارة

(١) شرح أصول الكافي، لمحمد صالح المازندراني: ١٧/٩.

(٢) معاني الأخبار، للشيخ الصدوق: ٣٨٥.

(٣) يروي عن ابن عباس، ظ: جامع البيان للطبري: ٢٦٩/١٧، وفيه نظر بسبب ظاهره في تكريس النسق الشعري، ودلالة (فإن الشعر عربي) الذي تنطوي تحته نزعة التهميش الواضحة للشعر، ينظر: التفكير البلاغي: ٣٣.

(٤) ظ: التواصل البلاغي: ٢٩.

(٥) جامع الشتات، للميرزا حسين القمي: ٢٢٩/١.

(٦) كتاب الصناعتين: ٢٤٠.

(٧) ظ: الطراز: ١١٩.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

بنحو أدق مبتنية على أن " الشعراء لما كان أغلب كلماتهم مبتني على التشبث بالحرام كمدح العشق المجازي والتشبيث بما يوجب الميل إلى الأغلام أو على الكذب وذكر المدح لغير المستحق بما ليس فيه لأجل جلب الحُطام أو مذمة غير المستحق وهجوه لمحض التشقي والانتقام أو جلب نفع فيه أيضاً، وأغلب خيالاتهم شعريّة لا أصل لها، فكذلك هؤلاء المغيرون لدين الله المتمسكون بحجج واهية وخيالات باطلة شعريّة كاذبة لا أصل لها" (١).

فبنية الاستعارة هنا ليست وسيلة تجديد وتنويع للثروة اللغوية، أو إضفاء الإيحائية على الكلمات، ولا هي صورة كلية تضم داخلها مجموعة صور جزئية متولدة بعضها من بعض (٢)، أو إحداث الطرافة وإضفاء الجماليّة على التركيب، بل إنّها أخذت بعداً جديداً أدخلها ضمن وسائل إنتاج الدلالة وحضنها (أي بمنزلة الحاضنة للدلالات الطولية التي يتمتع بها الخطاب القرآني)، وحقيقة الاستعارة هنا ليست استعارة معنى أو لفظ، بل استعارة موقف عامّ وبنية دلالية معينة لبنية دلالية أخرى مشابهة تتحرك في المجتمع بالأفق نفسه الذي تتحرك به تلك الدلالة، وبهذا يصح القول بأن النصّ قادرٌ على إثبات دلالاته بنفسه، حسبما بيّنه المشتغلون بالحقل الدلالي.

ومما يلاحظ أن أغلب الذين تعرّضوا لبيان هذه الآية أو الآيات من سورة الشعراء سواء المشتغلون بحقل الإعجاز القرآني أو البلاغيون، لم يلتفتوا إلى هذه الدلالة القريبة في النصّ، التي أصبحت مفتاحاً للانطلاق في التأويل الذي يمثل: " حركة عمودية في طبقات النصّ وأعماقه، تعمل في نطاق ما بعد التبادر وما بعد المباشر من المعاني، لذلك فأغلبه اجتهادي وأغلب آلياته عقلية فلسفية فهو جزء من التأويل الفلسفي الإنساني" (٣)، ولكنهم أشاروا إلى الاستعارة الأخرى فيه المتمثلة في قوله تعالى: " في كلّ وادٍ يهيّمون"، حيث " استعار الأودية للمغازي والمقاصد الشعرية التي يلخصونها بأفئدتهم ويصوغونها بأفكارهم، وخصّ الاستعارة بالأودية دون الطرُق والمسالك؛ لأنّ المعاني الشعرية تُستخرج بالفكرة والروية، وفيهما خفاءً وغموض، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة" (٤). كما جعلوا "سراً الجمال الفني في هذه البنية الاستعارية، هو دقة استعمال اللفظة (أودية) الموضوع أصلاً للدلالة على المنخفض بين مرتفعين، فاستعملها النصّ القرآني للدلالة على الأغراض الشعرية التي مقرّها الأفئدة، فتحوّلت هذه المعنويات الفكرية المجردة إلى أوديةٍ سحيقة، وجاء هذا الاختيار القرآني لما بين الفكر والوادي من تناسب في العمق والبعد والخفاء والغموض" (٥)، والكلام نفس الكلام، وطراره من الطراز، والسبب معلوم في أنّ وسائل فهم القرآن تختلف

(١) جامع الشتات: ٢٢٩/١.

(٢) ظ: التفكير البلاغي في كتب الإعجاز عند المحدثين، اطروحة دكتوراه، قصي إبراهيم نعمة الحصونة ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م، جامعة البصرة: ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) مقدمات منهجية في تفسير النصّ القرآني، د. عبد الأمير كاظم زاهد: ٦٧.

(٤) الطراز: ١٠٣.

(٥) التعبير الفني في القرآن الكريم، د. بكري الشيخ أمين: ٢٠٦.

الفصل الأول الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

عن وسائل فهم الخطابات الأخرى؛ لأنَّ أنساقه الثقافية أنساقٌ فيها علمُ الأولين والآخرين، حيث وَرَدَ عن رسول الله ﷺ "من أراد علمَ الأولين والآخرين فليَتَوَرَّ القرآن" (١).

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٣٦/٩. وينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ٤٨٧/٢.

النسقُ الإيجازيُّ للقرآن الكريم:

شكّل نزولُ القرآن الكريم لحظةً تاريخيّة، وانعطافاً كبيراً في الوجود الجاهلي على مستوى الأفكار والأهداف والحقائق الوجوديّة، وعلى مستوى الأداء الفنيّ ومظاهر التعبير أيضاً، كما أنّه انفراد حتّى في تحدّيه للبشريّة، حيث تحدّاهم لا في البعد اللفظي والشكل التعبيري بأن يأتوا بمثل القرآن، بل تحدّى البشر أن ينالوه بتحريفٍ، أو يتعرّضوا له بأفة من آفات الضلال والانحراف، فصَدَحَ في أفيائهم "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (سورة الحجر: ٩) فيظهر أنّ التحدي لم يقتصر على الإتيان بمثله أو بسورة من مثله أو بعشر سور مثله مفتریات، بل تجاوز ذلك إلى مقامٍ أسمى وتحدٍّ أقوى وهو سيرورته الإعجازيّة المتمثّلة في ضمان حفظه على تعاقب الأحقاب وديمومة الزمن. ولا دليل على أنّ القرآن الكريم في تحدّيه قد لحظ جنساً أدبيّاً محدّده، فلم يكن الشعر مقصوداً في التحديّ إذ "كما أنّ القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة والمرسلين وليس بترسيل" (١) ويقرّر العلويّ أنّ "المنثور من كلام العرب أشرف من المنظوم؛ لأمرين، أمّا أولاً: فلأنّ الإعجاز إنّما ورد في القرآن بنظمه وبلاغته، ولم يرد بطريقة نظم الشعر أسلوبه، وأمّا ثانياً فلأنّ الله تعالى شرفه عن قول الشعر ونظمه وأعطاه البلاغة في المنثور من الكلام وما ذاك إلا بفضل المنثور على المنظوم" (٢)، يقصد النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله بقوله: "أوتيتُ جوامع الكلم" لا الشعر.

ولقد شكّل الإعجازُ القرآنيّ نسقاً من أهمّ الأنساق التي احتضنت البلاغة وطوّرت مقولاتها، فالمطالع لكتب البلاغة والنقد وتأريخهما يلحظ تسالم العلماء والكتّاب على أنّ العامل الدينيّ المتمثّل بمعركة الإعجاز، والبحث في الجهة التي أصبح بها القرآن معجزاً مهيمناً على تلك الدراسات، ويمثّل طرحاً من أوائل طروحاتها، يقول أبو هلال العسكري إنّ الإنسان: "إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التّأليف، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة مع سهولة كليمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها" (٣)، والعلويّ في الطراز لا يخرج عن دائرة كون المراد من معرفة البيان والفصاحة وثمرتهما هو "الاطلاع على معرفة إعجاز كتاب الله ومعرفة معجزة رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان والاطلاع على غوره..." (٤)، وتكرّر هذه المقولات إلى عهد ابن خلدون، إذ يجري في

(١) العمدة، ١٣/١ .

(٢) الطراز: ١٨ .

(٣) كتاب الصناعتين: ٧ .

(٤) الطراز: ١٨ .

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الأفق ذاته، فيقول: "واعلم أنّ ثمرّة هذا العلم إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه"^(١)، فيظهر أنّ إعجاز القرآن كان هو الملاك في نشأة البلاغة وتطوّرها وتشعّب مقولاتها، والسؤال هنا هو: إنّ القرآن الكريم تكفّل في بيان إعجازه بالتحدي الذي أصحّر به في نوادي المشركين حتى عجزوا عن مقارنته بالبيان، فالتجأوا للسنان، وعافوا السهل الذلول وركبوا الصّعب المهول، حتى انقمعوا بسيف الله وأذعنوا لحجّته مكرهين.

فإذا كان البيان قد مضى وقد تمّت الغاية من التحدي^(٢)، فما وجه البحث عن جهة الإعجاز واستنزاف الوقت والجهد في ذلك الأمر؟ وبمعنى آخر إذا كان العجز عن معارضة القرآن قد تحقّق، وأقرّ به أرباب البيان فما هو الوجه في البحث عن الجهة التي جرى بها ذلك الإعجاز بدل تكريس الجهود لتدبره وفهمه وتدارسه من أجل الانتفاع بأنوار علومه في الأولى والآخرى؟. وللإجابة عن هذا التساؤل، نقول: يكاد الباحثون يجمعون على أنّ لبيئة المتكلمين من المعتزلة خصوصاً أثراً في بلورة الفكر البلاغي ومقولاته إذ إنّ "البلاغة نشأت في أحضان بيئة المتكلمين وخاصة المعتزلة، وازدهرت وترعرعت في هذه البيئة.. وتعهّدها في أول أمرها المعتزلة... وقد كان أثر المعتزلة في ذلك عظيماً"^(٣). فالمتكلمون إذاً "أول من تحدّثوا عن إعجازه وبلاغته"^(٤)، ويُرجع الدكتور جابر عصفور تبلور الفكرة البلاغية عند المعتزلة إلى عاملين كبيرين، أولهما دراسة القرآن الكريم وتبيّن حقيقة إعجازه

(١) المقدمة: ٥٥٢/١.

(٢) ومن لطيف ما يذكر حول إعجاز القرآن وثبوت نصّه الإلهي، بعيداً عن أفق التحدي، ما يورده السيد الخوني (قدس سره) في البيان ص ٩١: "وكفى بالقرآن دليلاً على كونه وحياً إلهياً أنه المدرسة الوحيدة التي تخرّج منها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يفخر بفهم كلماته كل عالم نحير، وينهل من بحار علمه كل محقق متبحر، وهذه خطبته في نهج البلاغة، فإنه حينما يوجه كلامه فيها إلى موضوع لا يدع فيه مقالاً لقائل، حتى ليخال من لا معرفة له بسيرته أنه قد قضى عمره في تحقيق ذلك الموضوع والبحث عنه، فمما لا شك فيه أنّ هذه المعارف والعلوم متصلة بالوحي، ومقتبسة من أنواره، لأن من يعرف تاريخ جزيرة العرب - ولا سيّما الحجاز - لا يخطر بباليه أن تكون هذه العلوم قد أخذت عن غير منبع الوحي، ولنعم ما قيل في وصف نهج البلاغة: "إنّه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين". بل أعود فأقول: إنّ تصديق علي عليه السلام - وهو على ما عليه من البراعة في البلاغة، والمعارف وسائر العلوم - لإعجاز القرآن هو بنفسه دليل على أنّ القرآن وحياً إلهياً، فإنّ تصديقه بذلك لا يجوز أن يكون ناشئاً عن الجهل والاعتراض، كيف وهو ربّ الفصاحة والبلاغة، وإليه تنتهي جميع العلوم الإسلامية وهو المثل الأعلى في المعارف، وقد اعترف بنبوغته وفضله المؤلف والمخالف، وكذلك لا يجوز أن يكون تصديقه هذا تصديقاً صورياً ناشئاً عن طلب منفعة دنيوية من جاه أو مال، كيف وهو منار الزهد والتقوى، وقد أعرض عن الدنيا وزخارفها، ورفض زعامة المسلمين حين اشترط عليه أن يسير بسيرة الشيخين، وهو الذي لم يصانع معاوية بإبقائه على ولايته أياماً قليلة، مع علمه بعاقبة الأمر إذا عزله عن الولاية، وإنّ فلا بد من أن يكون تصديقه بإعجاز القرآن تصديقاً حقيقياً، مطابقاً للواقع، ناشئاً عن الإيمان الصادق، وهذا هو الصحيح، والواقع المطلوب".

(٣) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، وليد قصاب: ٥.

(٤) مناهج بلاغية: ٤٢، وظ: مصطلحات بلاغية ٢٤٨.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

ونظمه، وثانيهما، تعلّم الخطابة بما هي وسيلة كبرى للإقناع الذي تحتاجه المعتزلة لِبثِّ أفكارها بصفاتها خطاباً إقناعياً^(١).

وقد كان لمفهوم المجاز الحضورُ الأوّل في منظومة التفكير الاعتزاليّ بلاغيّاً، إذ "كان له حضور عظيم في استدلالات المعتزلة ومسالكمهم في كشف دلالات النصوص القرآنية"^(٢)، وانشعبت قضية الإعجاز إلى شعبتين تناولتا جهة إعجازه، تمثلت الأولى في مقولة النظم وبراعة التأليف كصفة لازمة للإعجاز، والثانية في مقولة الصّرفة بصفاتها جهة الإعجاز المعنوية، وصار لكل أنصار وأتباع، ولسنا معنيين ببيان تلك المقولات أو الدفاع عن إحدى المقولتين بمقدار ما يمكننا القول إنّ القرآن الكريم قد تقدّم منه التحدي، وما يزال مستمراً ما بقي لآياته الكريمة رسمٌ وأثر، ولما تحداهم فلا شك في أنّه قد لحظ جهة النظم والتأليف التي كانوا يبرعون بها ويتعاطونها، فالبحت في جهة الإعجاز لا يخدش أصل الإعجاز أو يناله بسوء.

ويُمكن القول إنّ عاملين أساسيين كانا وراء بروز معركة الإعجاز، وليس منهما كون البحث فيه لتعاطي القرآن وخدمة علومه ونشر أفكاره ومبادئه، وأوّل هذين العاملين: بروز التشكيك في عظمة القرآن بسبب من امتزاج الثقافات ودخول القوميات إلى الإسلام، ونشاط الترجمة بعد ذلك ونقل العلوم إلى اللسان العربي^(٣) من دون أن يقابل ذلك نشر الوعي الثقافي الإسلامي اللازم، إذ كان الهدف في أوائل الفتوحات الإسلامية هو توسيع الرقعة الإسلامية ومدّ النفوذ الإسلامي، وإن كان على حساب الوعي الصحيح، مع ملاحظة ما ذكرناه من تأخر تدوين السُنّة الشريفة، العامل الثاني: ظهور المقالات الفكرية المختلفة كمقالات المعتزلة والأشاعرة وتبادل الخطابات والحجج في انتصار كلّ منهما لمذهبه ضمن وسائله في فهم الخطاب القرآني وتوجيه دلالاته^(٤).

من هنا كان لدراسة النصّ القرآني ضرورة في توجيه المتبنيات الفكرية التي يؤمن بها هؤلاء وهؤلاء، ولكن ماهي الوسائل الناجعة لفهم الخطاب القرآني وتحليل دلالاته ؟ كانت أولى الوسائل وأهمّها هي معالجة مستويات اللغة في خصوص الجهاز اللغوي " فقالوا في اللغة بالظاهر والباطن وقسموا دلالاتها مستويين مترابطين بحيث نستطيع أن ننقل من مستوى إلى آخر حسب ما تُملّيه الضّرورات"^(٥)، وبلحاظ هاتين الدالتين وموقعيهما من الكلام تأسست نظرية " المواضع اللغوية أو الكلامية" بوصفها مبدأً بلاغيّاً منطلقاً من كون " للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم ولتلك

(١) ظ: الصورة الفنية: ١٠٠.

(٢) مناهج المتكلمين في فهم النصّ القرآني: ٢٥٦.

(٣) ظ: البيان العربي، طباعة ٢١.

(٤) يظهر ذلك من خلال تتبع المؤلفات البلاغية حول إعجاز القرآن الكريم ككتابات النظام والجاحظ والجرجاني والشريف المرتضى في الموضح عن جهة إعجاز القرآن الكريم.

(٥) التفكير البلاغي، حمادي صمود، ٣٩-٤٠.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل^(١).

وفي الوقت نفسه برزت نظرية النظم بوصفها الرؤية التي تنصب على خصائص النصّ القرآني لغة و تراكييب^(٢)، فما هو السبيل لاستكناه خصائص النصّ القرآني الذي يمتاز بتفرده واشتغالاته الخاصة التي تقتضي أن تفرز له وسائل تتناسب وهيمنته الكلامية؟، إذ من المعلوم أنّ الأجناس الأدبية وغير الأدبية تحتفظ لنفسها بحق إقرار وجود حدود أسلوبية فاصلة بين جنس وآخر، المقتضي للتباين واختلاف القراءة والتحليل، وتأسيس المفهومات والإجراءات داخل تلك الحدود^(٣) من خلال استقراء القراءات البلاغية الخاصة بإعجاز القرآن الكريم فإننا سنلاحظ هيمنة نسق أدبي خاص في توجيه الحدود الدلالية للقرآن الكريم ألا وهو الشعر العربي، حيث غدا الإطار الذي انبثقت عنه معظم الأصول البلاغية^(٤)، فعلى الرغم من كون نظرية النظم قرآنية النشأة والمولد، إلا إنّنا نجد تطبيقاتها وإجراءاتها ضمن النسق الشعري، والسبب الواضح في ذلك يوضّحه الجرجاني نفسه جاعلاً من الشعر مظهراً من مظاهر العقيدة!، فيرى أنّه محال أن يعرف كونه معجزاً إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، ويرى أنّ الصادّ عن الشعر صادّ عن أن تعرف حجة الله تعالى، وأنّ من يصرف الناس عن النظر في الشعر، كمن يصرفهم عن النظر في كتاب الله وأنّ الحجة قامت بالقرآن من جهة كونه بالغاً في البراعة مبلغاً تعجز عنه قوى البشر، ولا يمكن أن نعرف هذا إلا إذا عرفنا الشعر وميّزناه وأحكمنا فهمه ونقده وعبّاره وعرفنا الأمر الذي به يفضل بعضه بعضاً، والأمر الذي به يفضل القرآن كلّ شعر وكلّ كلام، وبهذا يكون صرف الناس عن الشعر صرفاً لهم عن معرفة وجه الحجة التي قامت بالقرآن!!^(٥).

من هنا تأسست جملة من النظريات النقدية والبلاغية كان الشعر جنسها الأسمى وملاكها الأقوى، وعليه دارت مؤلفات القدماء فكانت: دلائل في إعجاز الشعر وأسرار بلاغته وكانت "الصناعتين"، والشعر محورهما وكان نقد الشعر وبيان أغراضه وتفصيل القول فيها، وجاء العيار فكان معياراً له، وألقى المنهاج بجرانه على ساحة الأدب فكان منهاجاً للبلغاء وسراجاً للأدباء في الشعر، وكانت الفحولة لرجال الشعر وتأسس عمود الشعر عليه، ومن بين ذلك كانت كتب الإعجاز تتكئ على الشعر لبيان حجتها، وهلمّ جرّاً تلقّ أجراً، ولدى إجرائنا إحصاءً لاستشهادات دلائل الإعجاز وتطبيقاته، وجدنا أنّه استشهد بما يقرب من خمسمائة بيت شعري، موزعة شعراؤه على مختلف العصور الأدبية، أمّا آيات القرآن الكريم فكانت حصيلتها من استشهاداته مائة وخمسين آية، وكثير منها جاء لغير الاستشهاد والاستدلال فضلاً عن التحليل!، هذا الأفق المنهجي حمل الكثير من الباحثين المحدثين إلى القول إنّ

(١) ظ: الحيوان ١/١٥٣، وينظر: التفكير البلاغي ٤١.

(٢) ظ: التفكير البلاغي ٣٧.

(٣) ظ: البلاغة والأصول: ١٣.

(٤) م.ن: ١٧.

(٥) ظ: دلائل الإعجاز: ٩-١٠، و ظ: دراسات في البلاغة والشعر، د. محمد أبو موسى: ١٧.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

معظم الأصول الجمالية تصدر عن جنس الشعر، وكانت الغاية القصوى هي إنشاء بلاغة للشعر حصراً^(١)، فلم تكن الغاية البحث في خصائص القرآن الكريم ومكوناته الجمالية ومكوناته الأسلوبية التي تكون أكثر أساساً في استكناه أفقه الإعجازي، ويعود ذلك إلى "مكانة الشعر في نفوس المتلقين وتجذر معايير الجمالية في ذهنيّتهم وتشبّعهم بأساليبه"^(٢).

ومن خلال هذه الصّفة الشعرية الممتدّة في التراث البلاغيّ والعربيّ يمكننا أن نخلص إلى جملة من الملاحظات والنتائج التي تُفرز بوصفها نتيجة طبيعية لتلك الهيمنة النسقيّة المفردة، ونجربها ضمن النقاط الجوهرية الآتية:

١- لقد أدّت هيمنة النّسق الشعري على التحليل النقديّ والبلاغيّ إلى إفراز إمكانات ووسائل النصّ الشعري وجعلها قواعد قارّة تحكم باقي الأجناس الأدبية، ما أدّى إلى أن تختزل البلاغة جماليّات الشعر صائغةً له مكونات جمالية تحدّد هويته بوصفه جنساً أدبياً خاصاً دون الأجناس الأخرى^(٣).

٢- وبسبب من ذلك، غياب الأجناس الأدبية الأخرى كالخطابة التي احتلت مكانة عالية في المجتمع الإسلامي نظراً للتشريعات الخاصة بها ما جعلها فناً عاماً يتواصل مع المتلقي تواصلًا كلياً، وخصوصاً نماذجها العالية المتمثلة بخطابات الأئمة (عليهم السلام) في نهج البلاغة وغيره، فإنّ تلك النماذج من أعلى النماذج النثرية التي يمكن أن تفرز مكونات أسلوبية متميّزة في الشاعرية والسيرورة كما سنذكره لاحقاً، ومثل الخطابة المثل القرآني فقد مثّل المثل القرآني جنساً أدبياً مهماً وفريداً من نوعه ومتقدّماً زمنياً لو توجهت الروى النقدية إلى بيان مزاياه الفريدة وأسلوبيّته ضمن الخطاب القرآني. ومثلها في ذلك جنس القصّة التي احتلت مساحة كبيرة من النظم القرآني وتعدّ من أهمّ مظاهره الإعجازية والتربوية، فتذهب إلفت كمال الروبي إلى أنّ النقاد "لم يعرضوا لمفهوم واضح ومتكامل للقصّ بوصفه جنساً أدبياً له وجوده المستقل بين الأجناس النثرية الأخرى فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاتهم لأشكال النثر المختلفة"^(٤) علماً أنّ جنس القصّ انتشر في الفكر الإسلامي في وقت مبكر، ولكن ليس القصص القرآني، بل القصص الذي ينسج من الخيال والوهم الإنساني لغرض الإثارة، حيث، تعتبر ظاهرة القصّ من الظواهر اللصيقة بالصبغة الإنسانية، فالإنسان ميّال بطبعه إلى الإنشداد والانجذاب نحو هذا النمط من الحوار، فالقصّة قديمة قدم المجتمع الإنساني لأنّها طبيعة في الحياة تسدّ حاجة في نفس الراوي ونفوس السامعين؛ وذلك بحكم الظروف المتّحدة والواحدة التي تخالّج الجميع وتعرّضهم جميعاً للظواهر الكونية المختلفة والأوهام والخيالات ممّا يشكّل رؤى واحدة أو متقاربة^(٥) حتماً.

(١) ظ: البلاغة والأصول : ١٤.

(٢) م.ن: ٢٥.

(٣) م.ن: ١٤. (٤) م.ن.

(٥) ظ: مقدمة في النقد الأدبي د. علي جواد الطاهر: ٢١٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

فضلاً عن الأبعاد النفسية والسيكولوجية من فرح أو حزن أو شدة أو رخاء، فالقصة أصلها في جميع الأمم منبثق من الحكاية بوصفها نمطاً من أنماط ذكر الحوادث والتغيرات، وقد ينبري شخص له قدرة أكبر على ترتيب الأحداث وعرضها والزيادة فيها أو نقصها، ومن ثمَّ يحتل مرتبة في مجتمعه، فيلتقون حوله ويستمعون قوله.

ومما لاشك فيه إنطواء العرب على هذا النمط من القصة وهذا البعد من أبعادها بحكم الطبيعة البشرية، ففُت القصص من الفنون العريقة في الأدب العربي، فقد ظهرت منذ العصر الجاهلي ألوانٌ عديدة من هذا الفن مثل: قصص السحر، والقصص التاريخية، وقصص الأيام، وقصص الحب، وقصص الجن، ومرويات عنتر بن شداد، وحكايات مجنون ليلى، وألف ليلة وليلة بثوبها العربي، وتغزية بني هلال...^(١).

وقد طرح القرآن الكريم في بيانه القدسي مفهوم القصّ والقصص ملحقاً بذلك إلى إحاطة العرب - الذي جاء القرآن الكريم بلسانهم - بذلك النمط من القول وتلك الطريقة التي تتجذب إليها النفوس وتميل إلى قبول ما يصرح من خلالها، كقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) يوسف^٣، وقوله تعالى: (ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الأعراف^{١٧٦}، وقوله: (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) القصص^{٢٥}، حيث استبدل القرآن الكريم تلك النماذج النثرية بنموذج قصصي متميز في سبكه ودلالاته الحقيقية التي تسمو بالفكر الإنساني، حتى استأذن تميم الداري^(٢) عمر بن الخطاب أن يقصّ فأذن له، حيث كان رائداً في هذا المجال، وكان القصص يقصّ يوم الجمعة، ويُلقى في بداية الأمر في المساجد، فقام عمر بالفصل بين المسجد ومكان القصص، فأمر ببناء رُحبة في ناحية المسجد تسمّى البطحاء وجعلها للقصص والشعر، فكان المسلمون يجتمعون ليلاً ليستمعوا إلى القصص، حتى تصوّر بعضهم أن فيه ثواباً وأجرأ فقال:

(١) مقدمة في النقد الأبي: ٢٣٥-٢٣٧.

(٢) تميم الداري: مسيحي من بلاد الشام وفد هو وجماعته إلى النبي صلى الله عليه وآله في السنة العاشرة للهجرة النبوية المشرفة وكان تميم تاجر خمور وأراد أن يهدي إلى النبي صلى الله عليه وآله أدناناً من الخمر فرفضها النبي لأنها حرام فقال له تميم: خذها وأنتفع بثمنها فقال له صلى الله عليه وآله: إن ثمنها حرام أيضاً. وقد كان مجيداً للقص وكان عمر بن الخطاب معجباً بثقافة أهل الكتاب فطلب تميم منه أن يجيزه بأن يقص للمسلمين قصص أهل الكتاب في مسجد النبي... صلى الله عليه وآله، فأجابه عمر أن النبي صلى الله عليه وآله نهى عن القص وقال: إني أخاف أن يجعلك الله تحت أقدامهم، حتى إذا كان آخر ولايته أذن له أن يقص يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ولما استخلف عثمان استزاده تميم فزاده مقاماً آخر. وقد روى أحمد بن حنبل في مسنده أنه "لم يكن يقص على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أبي بكر وكان أول من قص تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائماً فأذن له عمر. ينظر: مسند أحمد بن حنبل: ٤٤٩/٣، مجمع الزوائد للهيتمي ١٩٠/١ بإسناده إلى أحمد بن حنبل والطبري، و ينظر تفاصيل أخرى: المصنف للصنعاني: ٢١٩/٣، وكنز العمال: ٢٨٢/١٠، والإصابة: ٤٥-٤٤/١، وصحيح بخاري: ٣٧/١ و ١٣٨/٥ باب مرض النبي صلى الله عليه وآله.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

أروحُ إلى القصاص كُلِّ عشيةٍ وأرجو ثواب الله في عدد الخطأ^(١) !!

على أنَّ الثابت في الشريعة ثوابه هو الخطأ إلى صلاة الجمعة والجماعة ولم يرد قصد القصاص للإستماع منهم شيء من ذلك؛ ولعلَّ لوقوعها في المسجد وتصور قصده أثراً في انطباع هذا الوهم لدى ذلك الشاعر.

ولقد اتخذ الإمام علي (عليه السلام) موقفاً سلبياً ممَّا اختطه المسلمون لأنفسهم في تلك الظاهرة، من خلال عكوفهم عليها وتضييعهم للأهم من معالم دينهم، حيثُ تطالعنا نصوصٌ في نهج البلاغة وغيره في ذمِّ هذه المجالس حيناً والتنبيه إلى ما هو أهمُّ منها حيناً آخر.

من ذلك قوله (عليه السلام) من خطبة قبل أيام من استشهاده موبخاً أهل الكوفة لتوانيتهم عنه: " ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، تتربَّعون حلقاً شتى تضربون الأمثال، وتتأشدون الأشعار وتجسسون الأخبار، حتى إذا تفرقتم تسألون عن الأسعار جهلةً من غير علم، وغفلة من غير ورع، وتثبطاً من غير خوف، وقد نسيتم الحرب والاستعداد لها فأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها، شغلتموها بأضاليلٍ أعاليلٍ وأقوالٍ أباطيل... " (٢).

وخالص القول إنَّ القصةَ والخطابةَ والمثلَ نمت نمواً استثنائياً في الإسلام ولكنَّ الجهود النقديةَ و البلاغيةَ لم تتوجَّه إليها.

٣- وبسبب من ذلك أيضاً، فقد انطوت البلاغة في كنهها على تصوّر جماليٍّ شعريٍّ منطلي من إمكانات الشعر النظمية، فأصبح غير قادر على احتواء أساليب النثر وأجناسه، في الوقت الذي يُلحظ فيه إمكانية النثر على أن يفتح على أجناس سردية مختلفة كالوصف القصصي والتضمين الواسع والشعر وغيرها، ويتبيّن ذلك خصوصاً في النماذج النثرية المتميزة التي تتجاوز المقام لتتماشى مع الزمن وتخاطب الإنسانية جمعاء^(٣). هذا الانفتاح سيولّد بدوره نصّاً متمكناً لغوياً، ولنقل نصّاً قوياً، من خلال ما سيتحقّق من تفاعل وتجاذب بين دلالات النصوص المتداخلة وصياغاتها اقتراباً من نصٍّ كليٍّ أفرزه التلاحم، وهذه الإمكانية غير متحققة في الشعر إلا بحدود ضيقة مقتصرة على التضمين والاقتباس الجزئي، وهذا الانفتاح سيولّد بدوره إمكانات إجرائية أعمق ممَّا تنطوي عليها إمكانات الشعر، ونحن لا ننفي انفتاح الشعر على بعض الإمكانات السردية كالحوار مثلاً، حيث

(١) ظ: الظواهر المسرحية عند العرب، علي عقله عرسان: ٥٦، لم أعثر على قائل هذا البيت.

(٢) نهج البلاغة خطبة ٩٧، و إتمام نهج البلاغة خ ٦١ ص ٤٠٣، والإرشاد للشيخ المفيد: ١/ ٢٧٨. وتجدر الإشارة إلى أن الإمام علي عليه السلام أخرج القصاصين من مسجد البصرة إلا من كان يتكلم بالتذكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وخواطر الشيطان، ينظر: المناوي فيض القدير ١/ ١٠٤، ولكن غدت حلقات القصاص بعد ذلك أكثر حلقات المسجد حتى أن ابن عون يذكر " أدركت مسجد البصرة ما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة مسلم بن سيار وسائر المسجد قصاص " ابن سعد، الطبقات الكبرى ٥/ ٩-١٠، وينظر: دراسات ورؤى في تأريخ البصرة، د. جواد النصر الله: ٦٥.

(٣) للتفصيل، تنظر رسالة الباحث في الماجستير الموسومة "بنية الخطبة في نهج البلاغة"، دراسة في ضوء نظرية أرسطو في الخطابة"، جامعة البصرة ٢٠٠٨ م: ١٥٢ وما بعدها..

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

يُجري الشاعر صياغته الشعرية على سبيل حكاية القول، كما فعل صاحب ابن عباد في رائعته المدحية:

قالت: فمن صاحب الدين الحنيف أجب فقلت: أحمد خيرُ السادة الرُّسُل

قالت: فمن بعده تُصفي الولاء لـه قلت: الوصي الذي أربى على زحل

قالت فمن بات من فوق الفراش فدى فقلتُ أثبت خلق الله في الوهل

قالت فمن ذا الذي أخاه عن مقّة فقلتُ من حاز ردَّ الشمس في الطفل

قالت فمن زوّج الزهراء فاطمة فقلتُ أفضل من حاف ومنتعل

قالت فمن والد السبطين إذ فرعا فقلتُ سابق أهل السابق في مهل^(١)

فهذا الانفتاح ترابطي جارٍ على نسقٍ واحد على امتداد القصيدة، ووظيفته الأساسية هي تحميل الدلالة التاريخية التي يبتغي الشاعر بثّها متمثلةً بفضائل الإمام علي (عليه السلام).

٤. بروز النظرة التجزيئية في تناول الفعل القول، ابتداءً بالمفردة ثمّ التركيب الكلمي، وهو أصغر وحدة تركيبية دلالية يتألف منها الكلام^(٢)، انتهاءً بالفقرة دون التجاوز إلى الوحدة الكبرى للفعل القولّي المتمثّل بالنصّ، المتوقّف على بعدٍ دلاليّ وبيانيّ واحدٍ ممتدّ على طول النصّ، وسنأتي على تفصيل ذلك في محله.

إنّ هذه النظرة التجزيئية أسست لوحدة البيت أو (استقلال البيت)، وأقصت النظرة الكلية للنصّ، ممّا جعلت أحد الباحثين لأن يعتبرها إحدى معوّقات النظم^(٣)، بلحاظ أنّ النظم يستلزم الضمّ المتراكم المتكرر الذي تتحقّق به العلاقات بين التراكيب والجمال والفقرات، وبمقدار انسجامها وتآلفها مع بعضها البعض تتحقّق جودة النظم، وهذا الكلام مستقيم وسليم، ولكن ينبغي أن يلاحظ أنّ النظم يتحقّق على عدّة مستويات، فمن الممكن أن يتحقّق في الجملة والسطر، والفقرة ومجموعة الفقرات، وإلى النصّ، فيكون لكلّ نمطٍ من التركيب نظاماً خاصاً به وعلائق متميزة، فالنظم في البيت الشعري متحقّق، ولكنّه سيختلف عنه في البيتين وكذلك في الأبيات، ونظم الخطبة يختلف عن نظم القصيدة وهكذا، حتى إذا وصلنا إلى نظم القرآن فإذا به "المحطّة اللغويّة التي أحدثت صدمة في بنية ونظام اللغة العربية"^(٤)؛ "وذلك

(١) ديوان صاحب ابن عباد: ٤٢-٤٣.

(٢) ظ: شرح ابن عقيل: ١٥/١، و ظ: النحو الوافي، عباس حسن: ١٨/١-١٩.

(٣) ظ: أصول النظرية البلاغية، محمد حسن عبد الله: ٥٣.

(٤) النصّ الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، د. وجيه قانصوه: ٢٨٨.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه - خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد؛ وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيهه بجملة الكلام الذي لا يُتعمَل فيه، ولا يُتصنع له. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق. ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي فيه شعراً كثيراً،... فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم- أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه"^(١).

وعلى الرغم من محاولة بعض الباحثين^(٢) الدفاع عن وحدة القصيدة، ومحاولة تقصي الملاحظات التي كان القدماء يوردونها للتدليل على تلاحم الأجزاء، وانتظام النص ضمن سياق موحد، من قبيل قول: "عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال وبم ذلك؟ فقال: لأنني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه"^(٣)، وقد نقلت مثل هذه الحادثة عن الفرزدق وجريير، والراعي النمري وعمه، باختلاف لا يضر بالمضمون شيئاً^(٤)، ومن قبيل ما تطالعنا من مصطلحات، حسن الابتداء والتخلص والاستطراد والخروج ووحدة النسيج والمطالع والمبادئ والفواتح... ونحو، كون البيت ليس له قران، أو متصل بغير لفقه، و"ينبغي للشاعر أن يتفقد مصراع كل بيت حتى يُشاكل ما قبله"^(٥)، وأنه "أدخل في استواء النسيج"^(٦) و"ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها، أو قبحه فيلائم بينها لتتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها"^(٧)، إلى آخر الكلام، ملاحظ نقدية يتوسل بها بعض الباحثين في إثبات وحدة القصيدة، ومع التسليم بذلك، يلاحظ أن تلك الأحكام- في الأغلب- تقتصر على البيت أو البيتين - وإن استشهد بها أصحابها على العموم-، إذ التحليل يقتصر على تلك المنظومة الضيقة، على حين يأتي الحكم عاماً فيتصور

(١) إعجاز القرآن ، الباقلائي : ٣٥.

(٢) ظ: من آفاق الفكر البلاغي د. عبد الحكيم راضي: ١٤٥ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين: ١٨٢/١.

(٤) ظ: الموشح: ٢٠٧، و ظ: الشعر والشعراء: ٩٠/١.

(٥) الموشح : ٦٠ .

(٦) الصناعتين : ١٥٦-١٤٧.

(٧) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: ١٢٩ .

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

القارئ أنّ الفعل الإجمالي شمل المنظومة النصّية كلّها، هذا أولاً، وثانياً، لم يُعمل النقاد والبلاغيون وسائلهم الإجمالية لتحليل الخطاب بما يشعر بأفقه النصّي، وعليه فقد يصحّ القول إنّ: "البلاغة العربية لم تكن في كلّ لحظاتها واتجاهاتها بلاغة تقوم على مبدأ مراعاة السياق... واقتصرت في مقاربتها للنصّ على العلاقة بين الدلائل وانشغلت بتركيب النصّ وبنيته دون علاقاته السياقية "سياق المرجع وسياق المتلقّي" (١)، فالبلاغة لم تؤسّس منهجاً لفهم النصّ وتقييمه وتفسيره وكشف دلالاته، والسبب هو اعتمادها على مقولات الشعر في تأسيس إمكاناتها الجماليّة والفنيّة، دون الإمكانيات القوليّة والكلاميّة الأخرى، ولو اعتمدت على القرآن والنسق البياني الخاصّ به لتكشّفت عن آفاق معرفيّة لا حدود لها، إذ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم اشتماله على المعنى المترابك المتراتب طويلاً في اللفظ الواحد وهو المعبر عنه بالبطون، وقد تقدّمت الإشارة إليه، علماً أنّ دلالة السياق لم تكن غائبة عن أفق البلاغة الأخرى التي أشرنا إليها، ونشير هنا إلى نموذج بسيط يوضّح كيفيّة كشف الدلالة انطلاقاً من إمكانات النصّ وطاقاته البيانيّة: "عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): ألا تخبرني من أين علمتَ وقلتَ: إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثمّ قال: يا زرارة قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونزل به الكتاب من الله؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: " فاعسلوا وجوهكم " فعرفنا أنّ الوجه كلّهُ ينبغي أن يُغسل ثمّ قال: " وأيديكم إلى المرافق " ثمّ فصل بين الكلام، فقال: " وامسحوا برؤوسكم " فعرفنا حين قال: " برؤوسكم " أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه: فقال: " وأرجلكم إلى الكعبين " فعرفنا حين وصلها بالرأس أنّ المسح على بعضها ثمّ فسّر ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) للناس فضيّعوه ثمّ قال: " فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه " فلمّا وضع الوضوء إن لم تجدوا الماء أثبت بعض الغسل مسحاً؛ لأنّه قال: " بوجوهكم " ثمّ وصل بها " وأيديكم " ثمّ قال: " منه " أي من ذلك التيمم؛ لأنّه علم أنّ ذلك أجمع لم يجر على الوجه لأنّه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكفّ ولا يعلق ببعضها، ثمّ قال: " ما يريد الله ليجعل عليكم (في الدين) من حرجٍ " والحرَج الضيق" (٢).

والنصّ بيّن لا يحتاج إلى بيان.

٥- اشتمال البلاغة على الخطأ في بعض المفاهيم والمبادئ العامّة (٣) التي تأسّست على مفهومات الصّورة الشعريّة وأركانها، من ذلك إطلاق مصطلح التشبيه البليغ على الذي حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه (٤)، فظاهر المصطلح هو الدلالة على بلوغ التشبيه حدّاً دلاليّاً موفياً بتمام المراد، وأنّ التشبيه الذي يشتمل عليهما- أي أداة التشبيه ووجه الشبه - يكون أدنى مستوى في الدلالة على المراد، وهذا المعنى سيضرب بلاغة التشبيه القائم على

(١) البلاغة والأصول : ٧.

(٢) الكافي : ٣/٣٠.

(٣) ظ: البلاغة الحديثة، د. محمود البستاني: ١٢.

(٤) ظ: الإيضاح: ٢٢٨، والبلاغة الاصطلاحية: ٤٧-٤٨، والبلاغة والتطبيق: ٢٨٣-٢٨٤.

الفصل الأول.....الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

الأداة ووجه الشبه، وأكثر استعمالات القرآن قائمة على التشبيه بالأداة فهل في بلاغتها مغمز؟، إن هذه المعيارية مستقاة من أمثلة شعرية أو أمثلة جزئية بسيطة كقولهم: " زيدٌ أسد"، هذه الشواهد ولدت هذا النمط من المعيارية العقيمة، كما أن هذه المعيارية تناقضت مع القول ببلاغة التشبيه المنتزَع وجهه شبهه من متعدّد^(١) "فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن"(جزء آية ٨١ من سورة الأنعام)، ولو كانت المعيارية أعمّ من هذه الجزئيات كأن ينظر إلى الصورة أو السياق الذي وردت به أو تضافر عناصر البناء وفي النصوص العميقة العالية لكان أقوم.

ومثال آخر من السجع، حيث عدّ البلاغيون السجع أنواعاً ثلاثة:

١. ما تساوت قرائنه، وهو أحسنها، والقرينة "هي القطعة من الكلام جملة أو فقرة تأتي مزاجية لأخرى ومقارنة لها"^(٢)، مثاله، قوله تعالى: " في سدرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ وظلٌّ ممدودٍ " سورة الواقعة ٢٨-٣٠^(٣).

٢. ثم ما طالت قرينته الثانية: مثاله قوله تعالى: "والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى" سورة النجم الآية ٢١.

٣. ثم ما طالت قرينته الثالثة: مثاله قوله تعالى: "خذوه فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه" سورة الحاقة الآية ٣٠ ، وقد اجتمعا في قوله تعالى: " والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر " سورة العصر^(٤).

والملاحظ أنّ الأمثلة جميعها قرآنية، والسؤال: كيف حصل التفاضل بين هذه الأنواع الثلاثة بـ"أحسن التفضيل"، مع أنّ البيان هو بيان القرآن المعجز؟ وكيف نفسر هذا التفاوت في الاستعمال القرآني حسب هذه المعيارية؟، ويمكن القول باطمئنان أنّ معيارية الأفضل والأحسن التراتبية في أيّ حقّ من حقول البلاغة لا تنطبق أمثلتها على القرآن الكريم؛ لأنّه لا تفاوت في نظمه، انطلاقاً من مصداقية التحدي التي أصحّر بها القرآن التي أدناها سورة واحدة، ولو من مثل سورة الكوثر التي لا يتجاوز فضاؤها اللغوي السطر.

٦- استنزاف الجهد البلاغي من خلال تناول القضايا البلاغية بملاحظ جزئية، والنظر إليها من جهة واحدة، كما هو الحال في قضية اللفظ والمعنى في تراثنا البلاغي، حيث تشاطر التراث البلاغي النظر إلى اللفظ والمعنى تشاطراً متضاداً، فكان لهذا فريق ولذاك فريق، وسببه هو جعل الشعر نسقاً جمالياً معيارياً، والمعلوم تفاوت الشعراء في صياغة قصائدهم قوّة وضعفاً، فتفاوتت المعايير نتيجة لضعف القاعدة التي وجهتها، فكانت جبهة الجاحظ وقدامة وأبي هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وغيرهم، وتقابلها جبهة الآمدي

(١) ظ: الإيضاح: ٢٢٠.

(٢) البلاغة الاصطلاحية: ٣٨١.

(٣) ظ: الإيضاح: ٣٣٢.

(٤) ظ: البلاغة الاصطلاحية ٣٨٨-٣٨٩.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

والجرجاني وابن الأثير ويحيى بن حمزة العلوي...، فكلُّ أسس معاييرهِ الجماليّة انطلاقةً من رؤيته الذهنيّة المتصوّرة للعلاقة بين اللفظ والمعنى التي تمتاز بأحاديّة القطب، فكانت النتائج جزئيّة مقتصرة على وصف الألفاظ وصحة المعاني. علماً أنّ هناك اتجاهاً ثالثاً وسطياً لم يحظ بالعناية اللازمة وهو اتجاه النظرة الكلية العامّة التي توحد العلاقة بين اللفظ والمعنى وتجعلهما متلازمين لا ينفكّان، وهذا التلازم سيعكس بدوره معيارية جديدة في التعامل مع النصّ الأدبيّ، ويمكننا أن نجمل العلاقة بين اللفظ والمعنى من خلال هذا التقريب^(١):

إنّ علاقة اللفظ بالمعنى يمكن أن تتصوّر على نحوين، الأول: علاقة السببية، وتعني أنّ تصوّر اللفظ سببٌ لتصوّر المعنى في الذهن، فهناك وجودان أحدهما صورة اللفظ والآخر صورة المعنى غير أنّ الأول سبب للثاني، فكما يتحقّق في الخارج وجودان وجود اللفظ بما هو هيئة مسموعة ووجود لزيد مثلاً بما هو جوهر إنسانيّ، فكذلك في الذهن وجودان إلا إنّ أحدهما سببٌ لتصوّر الآخر، الثاني: علاقة الاندكاك والاندماج^(٢) وتعني اندماج صورة المعنى في صورة اللفظ فلا اثنيّة بينهما، أي حصول الفناء بين اللفظ والمعنى، إلى درجة أنّ اللفظ صار ما به ينظر والمعنى ما فيه يُنظر، فإذا ذكر اللفظ ينتقل الذهن للمعنى عبر اللفظ مع عدم التفاتهِ إطلاقاً إلى اللفظ وخصوصيّاته الصوتيّة والبنائيّة والإعرابيّة، فلولا اندكاك صورة المعنى في صورة اللفظ بحيث ترى صورة واحدة لما كان اللفظ مغفولاً عنه حين الانتقال للمعنى، إذ السبب لا يغفل عنه حين الانتقال للمسبب، وهذا دليل الاندكاك لا السببية. وكشاهد على ذلك ما ذكره علماء النفس من أنّ طريقة التفكير ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة المستخدمة عند التفكير، فإنّ اللغات العالميّة لا تختلف اختلافاً لفظياً فقط بل إنّ كلّ لغة تتضمّن بين ثناياها طريقة معينة للتفكير والتحليل، فكثير من اللغات تختلف عن اللغة العربيّة في تقديم المسند على المسند إليه بعكس اللغة العربيّة، وهذا له تأثير كبير في طريقة التفكير والتحليل الذهني. كما أنّ اللغة الفارسيّة واليونانيّة تستلزم تصوّر القضايا الحملية على أنّها من باب ثبوت شيءٍ لشيءٍ، لذلك يذكر فيها الرابط بين الموضوع والمحمول وهو (است أو استين)، بينما اللغة العربيّة تصور للذهن أنّ القضية الحملية من باب الاندماج بين الموضوع والمحمول نحو زيد قائم، ولذلك عندما يعبرون عن نسبة الربط فيها يذكرون ضمير الشأن وهو - لفظ هو - ومما لا شك فيه أنّ تصوّر القضية على النحو الأول يختلف عن تصوّرها على النحو الثاني، فلو كان ارتباط اللفظ بالمعنى ارتباط السبب بالمسبب لم نجد تلازماً بين طبيعة اللغة وطريقة التفكير، إذ شأن اللفظ حينئذٍ إخطار المعنى فقط كإخطاره بأيّ لفظٍ من لغةٍ أخرى فلا يتغيّر نوع تصوّر المعنى لتغيّر طريقة اللفظ، بينما

(١) إلتمسنا هذا التقريب من الرافد في علم الأصول، السيد منير الخباز: ١٤٥، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٦.

(٢) يعبر عن هذه العلاقة بالمصطلح الفلسفيّ "الهووية". ظ: المصدر السابق.

الفصل الأول..... الأسس المعرفية للبلاغة العربية في ضوء مصادرها الأولى

تأثر أسلوب التفكير باللغة المستعملة، كاشفٌ عن علاقة الاندماج بين اللفظ والمعنى وانعكاس المعنى في اللفظ نفسه.

من هذا يظهر أنّ تصوّر قضية اللفظ والمعنى كان تصوّراً ناقصاً، ومثله الأحكام التي صدرت عن تحليل النصوص الأدبية والفنية، ولتبدلت رؤية الجرجاني حول البديع في عدّه تالياً لعلمي المعاني والبيان، بقوله "إنّ العارفين بجواهر الكلام لا يعرّجون على هذا الفنّ إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته"^(١)، إذ المعاني مترتبة بالنفس تأتي ضمن ألفاظها المندكة بها لا المنفصلة عنها كما يرومه الجرجاني^(٢)، ثمّ يمضي حتى يجعل التجنيس حسناً مقبولاً إذا طلبه المعنى، وهذا يعني مشاطرته البيان والمعاني في الوظيفة وإخراجه عن حدّ التحسين، فيقول: "وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً...."^(٣).

إنّ جميع هذه الملاحظات وغيرها مما قصّر عنه الذهن، ما كانت لتبرز على سطح التراث النقديّ والبلاغيّ، أو فلنقل إنّها ستقلّ نسبياً، لو اتخذ العمل الإجرائي المتعامل مع النصوص حدود العلميّة والنّصف، وخفض جناحه لأنماطٍ قوليّة ودلاليّة متعدّدة كانت وما زالت تمتلك من المخزون الدلاليّ ما يفتق لهاة النفس بالأدب والفن، ويوقفها على الاستخدام الأمثل ويضعها عند النبراس الأعظم، ولما لجئ إلى طلب البدائل التي فتحت الترجمة - بوصفها مظهراً واضحاً- بابها، فانفتحت على أجناس وفنون لها أزمانها وأماكنها وأقوالها، كما أنّنا اليوم لا ننتظر من الأديب الأوربي أن ينظم في الشعر العربيّ، لأنّنا على يقين أنّه متى ما حاوله فلن يطاوعه، لأنّه لا ينتمي إليه ولا يمتّ له بسببٍ أو نسب، كما لا تُظله أفيأوه.

(١) أسرار البلاغة: ١٠.

(٢) ظ: دلائل الإعجاز: ٤٩.

(٣) أسرار البلاغة: ١٠.

الفصل الثاني

”البديع بين الفضاء اللغوي والتقعيد الاصطلاحي”

- ✓ البديع والفضاء اللغوي.
- ✓ دلالة لفظة البديع في الشعر .
- ✓ تطور المصطلح واستقرار الدلالة / بحث في النشأة والتسمية والانصراف الدلالي.
- ✓ الفضاء الدلالي للمصطلح.
- ✓ البديع بين مصطلحي البلاغة.
- ✓ استقرار المصطلح البديعي.
- ✓ البديع بين أصالة البناء والأداء التحسيني.
- ✓ المقابلة والانعكاس مقارنة الأداء الوظيفي للتحسين.
- ✓ السيرورة الأدبية أو (النسق المرجع).

البديعُ و الفضاء اللغوي:

جرت الدراسات اللغوية والأدبية المؤصلة للعلوم والباحثة في أسسها على إلقاء الضوء لاستنتاج البعد اللغوي في كل ما له جنبه اصطلاحية تعديدية، وموافقة لهذا الجري سنحاول استجلاء الدلالة اللغوية لمصطلح البديع لمعرفة مدى التوافق المعرفي والدلالي بين الجذر اللغوي وما استقر عليه المصطلح في آفاق البلاغة العربية وتقسيماتها.

يقول ابن منظور في لسان العرب مادة (بَدَعَ): " بَدَعَ الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه، وبدع الركية: استنبطها وأحدثها، وركي بديع: حديثه الحفر، والبديع والبديع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الاحقاف: الآية ٩)(١)، أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل من قبلي رسل كثير....والبديع: المحدث العجيب، والبديع، المبدع، وابتدعت الشيء اخترعته لا على مثال سابق، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثها إياها وهو البديع الأول قبل كل شيء، ويجوز أن يكون بمعنى مُبدع، أو يكون من بدع الخلق، أي: بدأه الله سبحانه وتعالى، وكما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة: الآية ١١٧) (٢).

وفي المفردات للراغب الاصفهاني: " الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاءٍ واقتداءٍ، منه قيل ركية بديع أي جديد(٣) الحفر، وإذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء من غير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله تعالى. والبديع يقال للمبدع نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤). فمن خلال متابعة تلك الدوال اللغوية لمفردة (البديع)، ينحسر

(١) وردت مادة بديع ومشتقاتها في القرآن أربع مرات، وجميعها بمعنى البداء لا عن سبق ، بدع، وابتدعوها ، بديع مرتان) الآيات الحديد ٢٧، الأنعام ١٠١، مع الموردين المثبتين بالهامش.

(٢) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، مادة بدع: ٦/٨.

(٣) هكذا في الأصل ، والأصوب جديدة بالتاء؛ لأنها وصف لما هو مؤنث بالتاء.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٤٣.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتعقيد الاصطلاحي

القناع عن ثلاثة أبعادٍ معرفيّة مترابطة الدلالة، وإن حاول بعض الباحثين إفرادها وعدّها أنساقاً دلاليّة تُنتج بالتبئير المصطلح الذي اصطلح عليه البلاغيون بالبديع^(١)، وهذه الأبعاد تتمثّل في :

(١) الإنشاء بلا احتذاء واقتداء: ويتركّز في هذا البعد (النسق)، مفهوم الصنعة - كما أشار إليه الراغب.

(٢) الابتداء بلا أوّل أو مقدّم: ويتركّز في هذا البعد (النسق) استقلال الإرادة.

(٣) المحدث العجيب: ويتركّز في هذا البعد (النسق) الحدّثة والجدة مع الدهشة والانبهار.

ومقتضى الترابط الدلاليّ في بنيته السطحية الظاهرة أنّ الإنشاء بلا احتذاء ابتداء، والابتداء بلا متقدم إحداثٍ وجدة.

وقد ورد تفسير البديع بالمبدع، كما أشار إليه صاحب اللسان، والراغب في المفردات إشارة سريعة مقتضبة، فالمبدع " صفة معدولة عن (مفعّل) إلى فاعل؛ ولذلك تعدى (فاعل)؛ لأنّه يعمل عمل ما عُدّل عنه، فإذا لم يكن معدولاً للمبالغة لم يتعدّ نحو: طويل وقصير... " (٢)، من هنا يظهر استئثار المتكلّم بلفظ البديع على أصله المعدول عنه (المبدع)، "من حيث إنّ في البديع مبالغة ليست في مبدع ويستحقّ الوصفُ به في غير حال الفعل على الحقيقة، بمعنى أنّ من شأنه إنشاء الأشياء على غير مثالٍ واحتذاءٍ... " (٣)، نخلص من هذا أنّنا بالإمكان أن نضيف بعداً رابعاً لمعاني البديع وهو المبالغة.

وعند استعراضنا لدلالة مفردة (البديع) في الاصطلاح البلاغيّ العربيّ الموروث سنحاول تمثّل هذه الدوالّ المعرفيّة للمفردة، لمعرفة مدى التناسب الانبثاقيّ للمصطلح عنها، وسيظهر لنا أنّ الجدة والابتكار في الأساليب والصياغات هو الأساس الذي جرت تسمية البديع عليه.

(١) ظ: الأشكال البديعية في خطاب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في كتاب (الأصول من الكافي)، أطروحة دكتوراه، حيدر برزان، جامعة البصرة ١٤٣٢-٢٠١١: ٦.

(٢) ظ: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي: ٢١٩/ ٤.

(٣) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن، تأليف الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ٣٢٩ / ١، ٣٣٠.

دلالة لفظة البديع في الشعر:

وقد وردت لفظة البديع بمعنى الإبداع والجدة والحدثة على ألسنة الشعراء القدامى،
متمثلين دلالتها اللغوية في أشعارهم، منها قول الأفوه الأودي:

ولكلِّ ساعٍ سُنَّةٌ ممَّن مَضَى تنمي به في سعيه أو تُبدِعُ^(١)

وقول الشماخ بن ضرار:

أطار عقيقه عنه نُسْالاً وأدمج دمجَ ذي شطنٍ بديع^(٢)

وفي قول عدي بن زيد العبادي:

فما أنا بدعٌ من أناسٍ حوادثٍ رجالٌ أنت من بعدِ بؤسى بأسعِدُ^(٣)

وفي قول حسان بن ثابت :

قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهُم أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا

سجيةٌ تلكَ فيهم غيرُ مُحَدَّثَةٍ إنَّ الخلائقَ فاعلم شرَّها البِدْعُ^(٤)

ويلاحظ أنَّ في القولين الأخيرين قد جاءت لفظة (بدع) مرادفة للفظه (الحدث) وهو الأمر
الجديد المحدث؛ وأن هذا التوظيف منطلق من الأفق اللغوي الفطري المحض. كما بقيت هذه
اللفظة تتردد على ألسنة الشعراء في العصر الأموي بهذا المعنى^(٥)، كقول الفرزدق:

أبتُ ناقتي إلا زياداً ورغبتي وما الجودُ من أخلاقه ببديع^(٦).

من خلال جميع ما تقدم من دوالٍ معرفيةٍ للفظه البديع من جهة اشتقاقها اللغوي المعجمي،
فهل هناك دخالة لهذه الدوال في التأسيس الاصطلاحي لعلم البديع في إطلاقه على جملة من
التحسينات - كما ارتضاها البلاغيون - ضمن بُعدي التركيب اللغوي لفظاً ومعنى؟ سيتطرق
البحث للإجابة على هذا التساؤل من خلال ما سيستعرضه من تطوُّر الدلالة الاصطلاحية
لعلم البديع واستقرار مصطلحه.

(١) ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق، محمد التونجي: ٩٢.

(٢) ديوان الشماخ: ٢٣٣، وفي اللسان، ٢٥٩/١٠، وفيه: أراد شعره - أي البعير وقد وصفه الذي يؤلِّد عليه، أنسله
عنه، والعق في الأصل: الشق والقطع، ومنه العقيقة؛ لأنها تُشق فتقطع أوداجها وأجزاؤها.

(٣) ديوان عدي بن زيد، تحقيق، د. محمد جبار المعيد: ١٠٤.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، شرح وتصحيح، عبد الرحمن البرقوقي: ٣٠٤.

(٥) ظ: البديع في ضوء أساليب القرآن : ٥.

(٦) ديوان الفرزدق: ٣٤٣.

تطور المصطلح واستقرار الدلالة

بحث في النشأة والتسمية والانصراف الدلالي:

مما لا شك فيه أن أي علم من العلوم في طوره الطبيعي العام يبدأ على نحو الإشارة المقتضبة والفكرة الذهنية العابرة، التي تقتضيها الملاحظة السريعة لجزيئات ذلك العلم، التي تكون في الغالب متناثرة ومشتتة، وإنما يجمعها بعد مشترك يربط بينها. وبعد التعاقب والسيرورة في فكر المجتمع تأخذ تلك الجزيئات بعداً تداولياً، كما أنها تكتسب مرتبة من التسليم والانقياد للفكرة، ثم تتراكم الرؤى والنظرات، وتوظف المقاييس والحدود لتصنيف الأفكار والجزيئات ضمن حقول دلالية كلية تستدعيها - في الغالب - الغاية التعليمية، ثم الغاية البيانية متفرعة من الأولى.

وليس علم البلاغة بعامة، وعلم البديع خصوصاً، ببذع من هذه القاعدة الطبيعية العامة، فالمعروف أن علم البلاغة لم يكتمل ويصبح علماً ذا حدود وأقسام وضوابط إلا بعد أن طوى مراحل التطورية، ابتداءً من الإشارات العابرة والظواهر اللغوية والسياقية المقتضبة والمرتبلة ضمن الإطار الثقافي العام الذي كانت العرب الأوائل تنطلق منه، إلى أن أصبح علماً محدداً بحدود وقوانين ليس لطالب البلاغة مندوحة عن تجاوزها ونبذها؛ وقد استقرت على يد السكاكي في مفتاح العلوم، المؤلف في حدود أواخر القرن السادس الهجري؛ إذ كانت وفاته سنة ٦٢٦ هـ^(١)، ويقرر ابن خلدون في المقدمة التاريخية (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر..) هذا الأمر، فيذكر بعد استعراضه لعلم البيان ودلالات الألفاظ والأقسام التي عليها البلاغة - كما سنأتي عليه لاحقاً - : " ثم لم تزل مسائل الفن تكتمل شيئاً فشيئاً إلى أن حصّ السكاكي زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح"^(٢)، ونحن إذ نتعرض لتطور مصطلح البديع ونشأته واستقرار دلالاته سنحيد عن الطريق المتبعة في بيان نشأة العلوم وتطورها التي نعمل إلى تصيد إشاراتها الأولى وجزيئات حدودها حتى اكتمالها، بل سنعمد لاستعراض استقرار المصطلح عند أبرز رجالات البلاغة ثم نرجع القهقري إلى ذكر درجات السلم التطورية نزولاً إلى أن نستقر عند أولى المحاولات التي استعرضته.

(١) ظ: كشف الظنون، لحاجي خليفة: ١٧٦٢/٢.

(٢) المقدمة التاريخية، ابن خلدون المغربي : ٥٥٢/١.

والذي حدا بنا إلى اعتماد هذا النهج هو التداخل الذي كان يعترى أقسام البلاغة الثلاثة، وعدم استقرار ووضوح المصطلح والأقسام ، ويظهر ذلك من استعراض ابن المعتز لبعض فنون البيان ضمن البديع، ومن قبله عموميّة البيان التي تمثّلت لدى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وجُزئيّات ما يُذكر من العموميّات عن تعريف البلاغة وحدّها عند الأمم المختلفة، فنتناول المصطلح في مرحلة قراره وبعده عمّا يشوبه من أفكار ورؤى تعين على دراسته بصورة أوضح وأجلى. فالدارسون يعدّون السكاكي رائد مرحلة التجديد في البلاغة العربيّة وهي مرحلة الضبط والتصنيف والتقنين^(١)، ولكنّ الملاحظ أنّ السكاكي لم ينهض بعلم البديع إلى أن يجعله قسماً ثالثاً للبلاغة بعد المعاني والبيان، بل جعله محض طرائق يُصار إليها لتحسين الكلام، يقول: " وإذ تقرّر أنّ البلاغة بمرجعيتها وأنّ الفصاحة بنوعيتها ممّا يكسو الكلام حُلّة التزيين ويرقيّه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوهٌ مخصوصةٌ كثيراً ما يُصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشيرَ إلى الأعراف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ..."^(٢)، وإذا أنعمنا النظر في كلام السكاكي نخلص إلى نتيجةٍ أغفلها كثيرٌ من النقاد والبلاغيين، ونخصّ من كلامه مفردتي "حُلّة التزيين" و"درجات التحسين"، فإنّ التزيين والتحسين من مفردات الزخرفة، أو الأمر الزائد عن الدلالة التامة للكلام، فإذا كان مرجعاً البلاغة (المعاني والبيان) يكسوان الكلام حُلّة التزيين ويرقيانه أعلى درجات التحسين، فما الوجه الذي اقتضى السكاكي أن يُدرج وجوه البديع اللفظية والمعنوية في قصد تحسين الكلام وتزيينه؟، فهو هنا يجعل البديع عطفاً على المعاني والبيان لا ثالثاً لهما؛ لذلك فإنّه لم يُفرد له قسماً خاصاً رديفاً للمعاني والبيان، اللذين خصّهما السكاكي بالتقسيم.

ولعلّ أوّل من خصّ البديع بقسمٍ مستقلٍّ ورديف لأخويه المعاني والبيان ليكتمل بذلك الثالوث البلاغي، هو بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) ابن ناظم الألفية في النحو العربيّ وشارحها، وذلك في كتابه (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع)، إذ إنّ أبرز كتاب المفتاح للسكاكي ملخصاً مهذباً، ومن بعده استقرّ التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة، إلا إنّ

(١) ظ: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف: ٢٢٨.

(٢) مفتاح العلوم: ٦٥٩ و ٦٦٠.

تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) قد حظي باهتمام العلماء فأجروا عليه الشروحات^(١). بعد هذه الوجيزة حول مركزية السكاكي في تأصيل علوم البلاغة ومحورية الخطيب القزويني في إتمام نظر السكاكي، سنعمد إلى ذكر ما استقرّ من دلالة مصطلح البديع عند الخطيب القزويني، معتمدين في ذلك على كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة"؛ لأنّه -وكما يذكر مؤلّفه- جعله على ترتيب المختصر وبسط فيه القول؛ ليكون كالشرح له، ذاكرةً ما خلا المختصر عنه ، وما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فأخرجه مهذباً مرتّباً مزيداً^(٢) فحدّد علم البديع عنده "هو: علمٌ يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة".^(٣) فمن هذا التعريف نخلص إلى:

١. إضفاء سمة العلميّة على البديع بوصفه علماً رديفاً لأخويه المعاني والبيان.
٢. إجراء علم البديع مجرى العلوم التي تُطلب لغايةٍ بعدها، كالنحو لصيانة اللسان، والمنطق لتقويم الفكر، والعروض لإقامة الوزن، وذلك من قوله: يعرف به، أي بسببه.
٣. بيان اشتماله على عدّة أنواع ، صيرّها المتأخّرون إلى مائة وخمسة وأربعين بديعاً^(٤)، ووجه ذلك يظهر من قوله "وجوه".
٤. بيان البعد الوظيفيّ لعلم البديع كما استقرّ عنده، والذي يتمثل في الوظيفة التحسينيّة والزخرفة اللفظيّة، وإخراج الكلام مخرجاً مرصّعاً مزيّناً، وهي السمة التي وقف عندها بعض القدماء وجملّة من النقاد والبلاغيين المحدثين، معتبرين هذه الوظيفة بخساً لأفق البديع ومدخلتيته في إنتاج الدلالة، وتلاحم البناء النصّي، كما سنأتي عليه لاحقاً.
٥. بيان التخلف في المرتبة؛ حيث يأتي البديع ثالثاً وهامشياً بعد رعاية المقتضى ووضوح الدلالة، وهذه النقطة متعلّقة بسابقتها بنحو من التعلّق ومتفرّعة عنها، ونودّ الإشارة هنا إلى أنّ كثيراً من الباحثين^(٥) ينسب للقزويني سبقه إلى تحديد مفهوم البديع وتمييزه عن قسيميه وجعله ثالثاً لهما، ولكن الملاحظة تقتضي أنّ السكاكي قد استوعب دلالات التعريف كلّها وابن مالك أطرها بإطار العلم، أمّا القزويني فقد أخرجها إخراجاً منظّماً وحدّها حدّاً جامعاً

(١) ظ: علم البديع، د. عبدالعزيز عتيق: ٣٧، وعلم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود: ٩٣، ومصطلحات بلاغية، أحمد مطلوب: ٥٦ وما بعدها.

(٢) ظ: الإيضاح في علوم البلاغة، التصدير: ٩.

(٣) م.ن: ٢٨٨.

(٤) ظ: علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ٩٣-٩٥.

(٥) ظ: البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب: ٤٠٨،

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتعقيد الاصطلاحي

وإن كان غير مانع، إذ إنه حُمِّلَ تبعة قصر البديع على الزخرفة اللفظية والتحسين وجعل من بعده محكومين بما حدّه له من مفهوم، كما سيأتي.

وقد استقرّ معظم البلاغيين بعد الخطيب القزويني والمحدثين في هذه الأواخر على هذا التعريف لعلم البديع فيما اطلع عليه الباحث من كتبهم، وفيه تظهر المناسبة بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي، لأنّ الجديد أو المحدث العجيب أو المخترع من شأنه اشتماله على الحسن والبهجة والطرافة والرونق والبهاء والرّواء^(١)، وبهذا المسار يذكر ابنُ رشيق أنّ "الإبداع عند الشعراء هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجرِ العادة بمثله، ثمّ لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع، وإن كثر وتكرّر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ، فإذا تمّ للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ فقد استولى على الامر وحاز قصب السبق"^(٢)، وهو بهذا يفرق بين الاختراع والابتداع.

الفضاء الدلالي للمصطلح :

من المعلوم الواضح أنّ تشكيل المصطلحات ليس أمراً هيناً يسيراً؛ لأنّه يتطلّب تمكّناً من المادّة المراد ضبط اصطلاحها، وفقهاً في اللغة، وإحاطة بالتأريخ الخاصّ، ووقوفاً على النشاط العلمي^(٣)، فضلاً عن ضرورة إخراج المصطلح من رحم السياق الثقافي والفكريّ لأمةٍ من الأمم أو جماعةٍ من الجماعات أو اتجاهٍ من الاتجاهات الفكرية.

كما أنّه لا بدّ للمصطلح من أن يكون واضح المفهوم، أحاديّ الدلالة على المراد، موصول الدالّتين الاصطلاحية واللغوية^(٤)؛ لأنّه "علامة لغوية خاصّة تقوم على ركنين أساسيين لا سبيل إلى فصل دالّها التعبيري عن مدلولها المضموني، أو حدّها عن مفهومها، أحدهما: الشكل (Form) أو التسمية (Denomination)، والآخر المعنى (Sens) أو المفهوم (Notion).... يوحدّهما التعريف أو التحديد... أي الوصف الذهنيّ للمتصوّر الذهنيّ"^(٥)،

(١) ظ: الصبغ البديعي، أحمد سلامة موسى: ١٤.

(٢) العمدة : ٢٣٠/١.

(٣) ظ: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي: ٦٩.

(٤) م.ن: ٧٠.

(٥) إشكالية المصطلح: ٢٧، ٢٨.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتعقيد الاصطلاحي

فالمصطلح بعد هذا يمثل أبجدية التواصل المعرفي، ولغته تمثل ملتقى الثقافات الإنسانية^(١). ومن هنا لابد أن يكتسب المصطلح من الدقة العلمية والتكثيف المعرفي ووضوح الدلالة عن تمام المراد الشيء الكثير؛ لأنه بمنزلة المرآة العاكسة عن البعد الثقافي الذي ينطوي عليه المصطلح، ومن ثم فإن الاستقرار والتجريد في مفهوم المصطلح وحدوده لا بد له من الوصول إلى مرحلة الأحكام لا التشابه كيما تتم الاستفادة منه، وتحقق التواصل المعرفي بعد ذلك.

وقد ذكروا أن المصطلح : " عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضوعه الأول، أو هو إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما...، وقيل: لفظ معيّن بين قوم معيّنين"^(٢)، فمن خلال هذا البيان يتّضح أن أركان الاصطلاح ثلاثة:

١. معنى أصيل له دلالة لغوية محدّدة.

٢. عملية النقل بلحاظ المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى المحدّث المنقول إليه.

٣. الاتفاق على تلك العملية من دون اختلاف يُفضي إلى اضطراب المفهوم وتخلخل الدلالة.

والملاحظ أن الأوائل كانوا على وعي تام بضرورة المصطلح وفاعليته في العلوم والفنون؛ لذلك نجدهم يعكفون على تأليف المصنّفات فيها، فتظهر لنا مترادفة مع المفهوم الدلالي لكلمة "المصطلح"، كلمات أخرى نحو: (الاصطلاحات، الحدود، المفاتيح، الأوائل، التعريفات، الكليات، الأسامي، الألقاب، الألفاظ، والمفردات وغيرها)^(٣).

من ذلك يمكننا أن نلمح إلى أن الفعل الاصطلاحي ينهض بجملة من الوظائف، من أهمّها:

١. الوظيفة اللسانية: وتحكم بيان قدرة اللغة على استيعاب المفاهيم المتجددة في شتى الاختصاصات.

٢. الوظيفة المعرفية: وتحكم اعتبار المصطلحات مفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، وأنها خلاصة العلوم؛ إذ إنه " إذا لم يتوفّر للعلم مصطلحه العلمي الذي يعدّ مفتاحه فإنه يفقد مسوّغه وتتعلّط وظيفته".

(١) ظ: م.ن : ١١.

(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق، إبراهيم الأبياري: ٤٤.

(٣) ظ: إشكالية المصطلح: ٢٥.

٣. الوظيفة التواصلية: وتتجلى من خلال ما يحدثه المصطلح من مدّ جسور الترابط الثقافي والمعرفي بين اللغات والثقافات المختلفة والمجتمعات المتفرقة، من خلال عدّ المصطلح المُعبّر المختصر عن مكونات العلم طويلاً والثقافة عرضاً^(١).

٤. وظيفة أخرى تتمثل بالكشف عن الأشياء والتعريف بها، خصوصاً تلك الحقائق العليا التي لا يمكن للإنسان العادي أن يتعرّف عليها فضلاً عن أن يعرفها، وتنحصر هذه الوظيفة بهذه الحدود بالأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) بما علّمهم الله من علوم ومعارف وحقائق عن الوجود.

لقد استطاع الاصطلاح أن ينهض باللغة من بعدها الوظيفي الأصلي القائم على مبدأ التواصل بين المخاطب والمتكلم، أو الباث والمستلم؛ لغرض الفهم والإفهام، كما يقول الجاحظ، وكما عرفها ابن جني بأنها: "أصواتٌ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"^(٢)، إلى مستوى التحليل والوصف والحديث عن اللغة نفسها وإدخالها في محيط العلم والمعرفة وجعلها مظهراً علمياً متميّزاً، أي الحديث عن اللغة باللغة^(٣)، وليس المراد ههنا هو إدخال البحث اللغوي ضمن أفق الغائية بأن تُصبح اللغة غاية تطلب لذاتها، إذ إنّ هذا الإدخال يخرجها عن غاية وضعها الأولى وهي إصابة الغرض البياني والهدف الإبلاغي، لضمان حاجاته الخاصة والعامة، الفردية والاجتماعية وإلا انحرف العقل عن مساره الأول وقراره الأصل الذي تبنى فيه وساطة اللغة مُدّ جعلها وسيلة في التفاهم وفي المعرفة العامة^(٤). فالحديث باللغة عن اللغة هو من أجل الوصول بها إلى أعلى مراتب الاستقامة البيانية وتجلي المفاهيم الداخلية واتحادها مع الواقع الخارجي مع تحرّي لطافة الإخراج وبديع المناسبة وانطباق الدلالة . وإنّ جميع ذلك لا يمكن أن يُدعى تحقيقه وتحققه ضمن أفق

(١) ظ: إشكالية المصطلح: ٤٢، ٤٤.

(٢) الخصائص: ٣٤/١.

(٣) هذه الكلمة ذكرها عبد الله الغدامي في ثقافة الأسئلة مستنداً إلى ما أورده أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة لمحادثة مفادها: "وقف إعرابي على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه، فحار وعجب وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أبا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا"، الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٣٩ ضبط تصحيح: أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة - بيروت، د.ت، ولعل هيدجر كان مطلعاً على هذا الأفق عندما تكلم عن خبرة اللغة، وكونها تتحدث في مقالة الطريق إلى اللغة معبراً بـ "جلب اللغة إلى اللغة كلفة" ظ: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل د. سعيد توفيق: ٢٤، وما بعدها.

(٤) ظ: دراسة النحو العربي في ضوء الغاية المعرفية: ١٤، ١٥.

الجهد الفردي، بل لا بدّ من التعاقب عليه ضمن كوكبة من الأفراد تتولّد عنهم سمة المواضعة (convention) التي ألمح إليها ابن جني في تعريفه السابق ضمن مفردة (كلّ قوم) لا كلّ فرد. نخلص من ذلك إلى أنّ الاصطلاح، تكثيفٌ دلاليّ لنظامٍ أو منظومةٍ^(١) من المفاهيم يربطها رابطٌ محدّدٌ موحّدٌ في قالبٍ لفظيٍّ له مع ذلك التكتيف مناسبة، ومن طريق الدلالة الالتزامية يُنقل من لزوم المصطلح إلى لازمه (الكثافة الدلالية)؛ ليتحقّق العلم الإجمالي بجزئياته.

ومما لا شك فيه أنّ اللغة - أيّاً كانت - خاضعة لقانون التطور والتكامل الذي هو قانون تكوينيّ عامّ؛ لذلك نرى بعض الباحثين قد درج على نعت اللغة بالكائن الحيّ، لحظاً منه لجهة النمو والتطور والتصاعد في ألفاظها ودلالاتها.

من هنا كان لا بدّ من أن تخضع الدراسات اللغوية والاصطلاحية للتمحيص والتدقيق، ومحاولة استجلاء الدلالة التامة لأيّ لفظ من الألفاظ أو أيّ مصطلح من المصطلحات ضمن منظومته الفكرية والثقافية والجغرافية التي ولد فيها وترعرع في أفيائها؛ لأنّ الزمن الثقافي والفكري - إذا ساغ التعبير - لا بدّ من أن يسلّط وسائل الإضافة والحذف والاختزال على الدلالة، وربّما تُستبدل بدلالة أخرى مختلفة عن دلالتها الأولى الثابتة في فكرها اللغوي، بحكم عامل فكري أقوى وأعمق، مثال ذلك - كما هو معروف - مفردتا الحجّ والصلاة، في الفكر الإسلامي فدلالتهما الأولى معجمياً وتداولياً في العهد الجاهلي محيلة على القصد والدعاء، وأيّ استعمالٍ لفظي ودلالي لهما يكون في إطار هاتين الدالّتين، ومع بزوغ دين الإسلام وبسط أفيائه الفكرية على المجتمع ضمن إطار حضاريّ عميق، أضيفت للدالّتين الآفتين دالّتان جديدتان لحظت فيهما الدالّتان السابقتان، ولكن ضمن أساسٍ عمليّ خاصّ ومحدّد بضوابط وأجزاءٍ وشرائطٍ عباديّةٍ خاصّةٍ، وبقيت الدالّتان جنباً إلى جنب، حتى هجر المعنى الأول وبقي المعنى المستحدث، فلا ينصرف الذهن عند التبادر إلا إليه.

(١) مفهوم المنظومة (System) يعني وجود صفة التعالق بين عناصر النظام.

ومثال آخر يوضح التطور التاريخي للمعاني ودلالات الألفاظ اعتماداً على علم المعاني التاريخية، هو دلالة لفظة (الأمّي) الواردة في القرآن الكريم بعدها صفةً ثابتةً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنّها تأتي في سياق نفي القراءة والكتابة عنه، تدعيماً لدلالة الإعجاز القرآنيّ وكونه من الله تعالى لا من البشر، متمسكين بظاهر هذه اللفظة، علماً أنّ علماء الإماميّة يناقشون نسبة الأميّة بهذا المعنى إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ويوجّهون الدلالة القرآنيّة والروائيّة التي تُستظهر منها تلك الدلالة^(١)، ولسنا بصدد التعرّض لها وذكرها، ولكننا نذكر تطوّر الدلالة لللفظة الأمّيّ ضمن السّياق الثقافيّ والفكريّ والحضاريّ الذي ولدت فيه، والسّياق الكلاميّ - نسبة إلى علم الكلام - الذي طُرحت فيه فكرة بشريّة القرآن أو إعجازه الإلهيّ.

فيا ترى هل كانت دلالة لفظة (الأمّي) على الذي لا يقرأ ولا يكتب دلالة مستقرّة في سياقها الثقافي والجغرافي؟، وهل كان الانصراف متحقّقاً بتمامه إليها، أم أنّ دلالة (الأمّي) على الذي لا يقرأ ولا يكتب دلالة طارئة مستحدثة؟، وبصيغة أخرى، هل كان مصطلح الأميّة قد هضمته ثقافة ذلك المجتمع عندما خاطبهم القرآن الكريم على لسان النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله)؟ وهل كانت لهم مستويات ثقافيّة واسعة تتعامل مع القراءة والكتابة حتى يتمخّض هذا المصطلح ليُطلق على مَنْ لا يتقنهما؟، علماً أنّ بعض العرب كانوا يعدّون الكتابة عيباً. وقد حاول بعض المستشرقين انطلاقاً من هذا الأفق التاريخي توجيه الدلالة نحو معنى غير معهود، ذاهباً إلى أنّ دلالة الأميّة الواردة في القرآن كصفة للنبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) تنصرف إلى كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتلقَ في السابق تنزيلاً^(٢)، انطلاقاً من كون الدلالة لم تكن مستقرّة للأميّة بمعنى عدم القراءة والكتابة، وإنّها غير معهودة، ونحن وإن كنا لا نسلم لهذه الفكرة بتمامها، ولكن نؤيّد المنهج التحليلي للمفردات ودلالاتها الاصطلاحية الذي استند إليه، كما أنّ فكرته حول الأميّة يمكن توضيحها بنحو آخر له مؤيّدات قرآنيّة، وهو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بُعث في أمةٍ لم تُسبق بتنزيل غير ما أتى به

(١) قد يستدل بعض العلماء بقوله تعالى من سورة العنكبوت آية ٤٨: " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذ لا تارتاب المبطّلون " ، دلالة على عدم علمه بالقراءة والكتابة ومعرفة بهما، ولكن الظاهر من الآية أنها نفت صدور ولم تنف التلبس، بمعنى أنها نفت صدور القراءة والكتابة كفعل خارجي متحقق في الخارج، أما كونه صلى الله عليه وآله متلبساً بهما بالقوة فليس في الآية ما ينفي ذلك.

(٢) R. Blachere : Introduction au Coran, paris, 1968. نقلا عن : التفكير البلاغي، حمادي صمود: ٣٢.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتقعيد الاصطلاحي

(صلى الله عليه وآله) ولما كانت أمته (صلى الله عليه وآله) تُنسبُ إليه نُسب فعلها إليه (١)؛ لأنه (صلى الله عليه وآله) قائدها إلى الحق تعالى، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة منها: "ولكن رحمة من ربك لتتذرع به قوماً ما أتاهم من نذير" (القصص: ٤٦)، وقوله تعالى: "بل هو الحق من ربك لتتذرع قوماً ما أتاهم من نذير" (السجدة: ٣)، وقوله تعالى: "لتتذرع قوماً ما أُنذِر أبائهم فهم غافلون" (يس: ٦).

كما أن اللغة العربية الجاهلية يعثر فيها النقص في بعض الألفاظ القانونية والحضارية والاعتبارية التي تجددت مع تجدد العلوم والمعارف، فهي وإن كانت تتصف بالمرونة والانفتاح والتوسع (٢)، لتعدد أساليبها من الاشتراك والترادف والمجاز والكناية وأمثالها، بحيث استوعبت مختلف المعاني والمفاهيم والتعاليم الإسلامية الجديدة، لكنها قصرت عن بعض تلك الألفاظ والمعاني، من ذلك مثلاً معنى الظنّ الوارد في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فإنه لا يُقصد به المعنى المنطقيّ المبني على الاحتمال الراجح، بل المراد به كلُّ اعتقاد غير قائم على أسس عقلانية، وإن كان على مستوى الجزم واليقين خلافاً للمعنى المنطقيّ، ومنه اعتقادات الجاهلية التي أطلق عليها القرآن الكريم مصطلح أو لفظ (الظن) مع أن اعتقاد البعض منهم بها كان جازماً.

(١) من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" سورة الفتح، آية ٢، وقوله: "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" الزمر، ٦٥، وقوله تعالى: "ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات" الإسراء، ٧٤، ٧٥، وما أشبه ذلك، من خلال هذه المضامين ومؤيداتها من الروايات المأثورة عن المعصومين ذهب الإمامية إلى أن القرآن نزل على إياك أعني واسمعي يا جارة. ظ: الاعتقادات في دين الإمامية - الشيخ الصدوق - ص ٨٧.

(٢) للتعرف على مفهوم التوسع، صدر كتاب جديد متطرق لمبادئه ومعاييره وتطبيقاته بعنوان "التوسع في الموروث البلاغي والنقدي دراسة في مفهوم الإبداع باللغة عند العرب" د. حسين عقلة الجداونة، ٢٠١١.

البديع بين مصطلحي البلاغة :

لقد كان للقرآن الكريم أثرٌ كبيرٌ في تأصيل السّمة البيانيّة في المؤلفات البلاغيّة، فلا نكاد نشكّ في أنّ الجاحظ استلهم عنوان كتابه (البيان والتبيين) من ظاهر دلالة كثيرٍ من الآيات القرآنيّة التي تطرّقت لمفردة (البيان) واشتقاقاتها في دلالات متعددة، فهناك ما يقرب من ثلاثمائة وستين آيةً أو أكثر تعرّضت لذكر دلالة الإبانة على اختلاف صورها اللفظيّة وبُناها الإشتقاقيّة، وهي تتردّد بين (بيّنًا، يبيّن، بيّنة، بيّنات، مبيّنة، مبين، مُستبين، بيان، تبيان). فهناك تكريسٌ بيانيٌّ في أي القرآن الكريم لهذه المفردة، وهذا التكريس يبين في الدلالات المتضادّة والمتغايرة أيضًا، من مثل (إمام مبين، ضلال مبين، البلاغ المبين، قرآن مبين، نذير مبين، فوز مبين،...) فمن هذا التكتيف البيانيّ استوحى الجاحظ دلالاتي كتابه (البيان والتبيين) وقد أشار الجاحظ نفسه إلى بعض تلك الآيات الحاكية عن البيان وأهمّيته^(١).

فمصطلح البيان إذاً من المصطلحات الأصلية ذات الدلالة الواضحة البيّنة التي لم تعترها الشبهة، ولم يكتنفها الغموض في سياقها الثقافي. ولعلّ اختيار الجاحظ لهذه المفردة لتكون عنواناً لكتابه يكمن في أمرين، الأوّل: كونها دلالةً قرآنيّةً، الثاني: ربّما لضياح البيان وانتكاسة اللسان العربيّ من غلبة الموالي والأعاجم وهيمنتهم، وخصوصاً في العصر العباسيّ، ما أدّى إلى غياب المفردة العربيّة الفصيحة، واستحكام الإعجام في النفس، وعدم القدرة على الإبانة والكشف عمّا يختلجها، ولعلّ هذا ما يفسّر عكوف الجاحظ على شرحه لعيوب اللسان والعِيّ، وحشده للكثير من الشواهد والعبارات والكلمات والنوادر الأدبيّة التي تعبّر وتحكي القدرة على الإبانة وضدّها، ومن ظاهر عنوان كتابه فإنّه يشير إلى ركنين للمعنوّ، هما: ١. البيان ، ٢. التبيين، فالأوّل يمثّل بعداً ذا صفة ذاتيّة، بمعنى أنّه يحكي الشيء المكتمل والمتأصل المستحكم، والثاني يمثّل بُعداً إجرائيّاً يتجلّى في الطُرق المؤدّية والموصّلة إلى الإبانة، أي الإحاطة بوظيفة الفهم والإفهام التي نصّ عليها^(٢).

(١) ظ: البيان والتبيين: ٣١/١.

(٢) ظ: م.ن: ٨٢/١.

من هذه المقدمة يمكننا القول إنّ مصطلح البيان هو أول مصطلح طرّح في الساحة النقدية والبلاغية بوصفه مصطلحاً علمياً يكشف عن وظيفة اللسان، وتقويم الفعل اللغوي دلالة وتداولاً. أمّا مصطلح البلاغة فإنّه وإن كان أسبق تداولاً من مصطلح البيان إلا أنّه لم يُصبغ بالصبغة العلمية، ولم يأخذ حيّزاً من فاعلية المصطلح في المكوّن البلاغيّ إلا في طور متأخّر، فقد وردت لفظة "البلاغة" في مؤلفات البلاغيين ولفترة طويلة محدّدة ضمن تلك التعريفات التي ذكرها الكتّاب والمؤلّفون، من قبيل: ما البلاغة؟ وما حدّ البلاغة؟ سئل الفارسيّ عن البلاغة؟... إلى آخره، وهي حدود ناقصة غير تامة وجزئية ليست بكلّية، والتي جعلت ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) يقف منها موقف الناقد الرافض، ولعلّه أول من تكلم في ذلك، وحتّى الجاحظ عندما ذكرها في كتابه (البيان والتبيين)^(١) فإنّه لم يتعرّض لها بالنقد، ولم يخضعها للتمحيص، ولم يُشر إلى الزوايا الجزئية التي تعالجها، وما تتناوله من ملاحظات ضيقة حول البلاغة، ولعلّ ما يبرّر للجاحظ غفلته عن ذلك، هو عدم اكتمال ووضوح ملامح البحث البلاغيّ عند العرب، فضلاً عن تصنيفه على أقسامه الثلاثة التي اندرج تحتها كثير من تلك الحدود الجزئية، فلعلّه لو سئل الجاحظ عن البلاغة كما سئل عنها الفارسيّ والروميّ والهنديّ، ما البلاغة عند العربيّ؟ لما خرج عن تلك الحدود الجزئية، وسنورد كلام ابن سنان الخفاجي - على طوله - لنبيّن الأساس النقديّ الذي اتّبعه في نقض تلك الحدود التي كانت تعكس الأفق الارتجاليّ والطبع البلاغيّ الفطريّ عند بعض من تكلم عن البلاغة، والتقسيم الجزئيّ المحدود المقطوع عن وظيفة الفهم والإفهام الواسعة التي أسّس لها الجاحظ.

يقول: " وقد حدّ الناس البلاغة بحدود إذا تحقّقت كانت كالرسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة، فمن ذلك قول بعضهم: لمحّة دالّة، وهذا وصف من صفاتها، فأما أن يكون حاصراً لها وحداً يُحيط بها فليس ذلك بممكن؛ لدخول الإشارة من غير كلام يُتلفّظ به تحت هذا الحدّ، وكذا قال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الوصل؛ لأنّ الإنسان قد يكون عارفاً

(١) أحصى د. حمادي صمود في كتابه التفكير البلاغيّ تلك الحدود عند الجاحظ، وصنّفها إلى ثلاثة أقسام: الأول: ما ورد جواباً على استفهام صريح، هو ما البلاغة؟ وعددها اثنتا عشرة مرة، الثاني ما صُدّر بعبارة يراد منها الإحاطة والتعريف وهي جماع البلاغة...، وعددها ثلاث مرات، والثالث ما جاء تحت حكم نقديّ " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى... أو يكفي من حظ البلاغة أن... ظ: ٢٢٩.

بالفصل والوصل، عالماً بتميز مختار الكلام من مطّرحه، وليس بينه وبين البلاغة سببٌ ولا نسبٌ، ولا يمكنه أن يؤلّف ما يختاره من تأليف غيره، والحدود لا يحسن فيها التأول^(١) وإقامة المعاذير، وغرابة ألفاظ لا تدلُّ على المقصود؛ لأنها مبنية على الكشف الواضح، موضوعة للبيان الظاهر، والغرض بها السلامة من الغامض، فكيف يوقع في غامض بمثله؟ ، وكذلك قول الآخر: البلاغة أن تصيب فلا تخطئ وتسرع فلا تبطئ؛ لأنّ هذا يصلح لكلّ الصنائع، وليس بمقصودٍ على صناعة البلاغة وحدّها، ثمّ إنّما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ، فجعل جواب السائل نفس سؤاله، وبهذا أيضاً يفسد قول من ادّعى أنّ حدّها الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خلل...وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو..."^(٢).

فالملاحظ على هذه الحدود هو خروجها أحياناً عن حيّز النصّ وتعلّقها في التعريف بمسائل تبدو بعيدة عن المشاغل البلاغية البحتة، القائمة على الوسائل اللغوية والفنية التي يعتمد عليها الباحث، متكلّماً كان أو كاتباً، في صياغة نصّه صياغةً فنيةً استثنائيةً في توظيفها للغة؛ بغية إحداث أثرٍ ما في المستقبل^(٣).

هذه الملاحظة بحقيقتها تمثل إشكالاً طرحه أحد الباحثين المحدثين ولعلّه من أوائل من طرح نقده لتلك الحدود تمثيلاً مع نقد الخفاجي لها بل مستقيماً منها جملة من مفاهيمه، فالخروج عن حيّز النصّ والتعلّق بالمسائل البعيدة عن المشاغل البلاغية، هذان الأمران شكلاً إشكالاً حول مضامين تلك الحدود وما تنطوي تحتها من دلالات^(٤). وفي نظر البحث فإنّ قصور تلك الدلالات عن الإحاطة بمشاغل البلاغة القائمة في نظر المستشكل على البحث في المسائل اللغوية والفنية التي يعتمد عليها الباحث في صوغ نتاجه صوغاً فنياً متميزاً خارجاً عن المألوف، يرجع إلى أمرين:

(١) أي أن تكون أحادية الدلالة على المراد، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى من البحث.

(٢) سر الفصاحة: ٥٠.

(٣) ظ: التفكير البلاغي: ٢٣٢.

(٤) ظ: م.ن.

الأول: وقد ذكر المستشكل إشارة إجمالية إليه- ، وهو أنّ كثيراً من تلك الحدود برز في فترة متقدمة عن تأليف البيان والتبيين^(١)، الذي يذهب البلاغيون والنقاد إلى عدّه من أوائل المؤلفات البلاغية المؤسسة، والبحث البلاغي لا يزال في طور نموه، بل ما يزال الطابع البدهي الفطري قائماً في صلبه، فلا يوجد تصورٌ عامٌ عن تلك المشاغل البلاغية وعن أبوابها ومسائلها الكلية التي تضمّ جزئياتها كما أشرنا سابقاً، فلا ريب أن تكون الجزئيات هي التي تتحرّك ضمن أفق البناء المعرفي الجديد في طور نموه.

الثاني: إهمال النظر بالأصول المعرفية والنماذج اللغوية الأمّ نظراً حقيقياً في جعلها بالصدارة وتتويجها بالإمامة لكلّ نتاج لغويّ محدثٍ، ونعني بتلك النماذج، القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكلام الإمام عليّ (عليه السلام) وكلمات الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، كما سنأتي على ذكر ذلك مفصلاً في مظنه من هذا البحث.

فالملاحظ أنّ استعمال مصطلح البلاغة في التصوّر الكليّ استعمالٌ في أفق الدلالة اللغوية البعيدة عن التحديد الاصطلاحيّ العلميّ الذي استقرّ في القرن السابع بعد استيعاب الحدود والأقسام الجزئية الأساسية التي يتشكّل منها البحث البلاغيّ في أفقه التداوليّ متمثلة بالمعاني والبيان والبديع.

ولعلّ من أوائل الإشارات التي تلبّست بها البلاغة بلباسٍ العلميّة وفي فترة تكاد تكون متقدمة، هي تلك الإشارة التي قدّمها البلاغيّ المشهور أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) في مقدمة كتابه (كتاب الصناعتين)، إذ يقول: "إنّ أحقّ العلوم بالتعلّم وأولاهها بالتحفظ بعد المعرفة بكتاب الله - جلّ ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به (أي العلم) يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى..."^(٢)، ولا يُدرى هل أنّ أبا هلال العسكري كان قاصداً واعياً إلى تحقّق نسبة العلميّة للبلاغة؟ ممّا يعني استقرارها في الكيان الثقافيّ العربيّ علماً محدّداً بحدود وضوابط يعكسها كتابه، كنموذج لذلك العلم الذي حتّ على طلبه كمقدّمة لشرف الغاية المطلوبة، أمّ أنه قصد البعد اللغوي الخالص عطفاً على المعرفة بالفصاحة التي

(١) ظ: التفكير البلاغي: ٢٣١.

(٢) كتاب الصناعتين: ٧.

ذكرها؟، ولعلّ في كتابه ما يؤكّد الأمر الأوّل ويشير إليه، فعناية المؤلف بعنوان كتابه تحكي وعيه بالحدود العلميّة والقواعد العامّة، فالصناعة مظهر الحذق والإتقان والملكة^(١)، كما يشكّل تعريفه للبلاغة بأنّها: " كلّ ما تُبلّغ به المعنى قلب السامع فتُمكنه في نفسه كتمّكنه في نفسك مع صورةٍ مقبولةٍ ومعرضٍ حسن"^(٢)، أوّل أساس باتجاه العلميّة والاصطلاح، مع الالتفات إلى ذلك، إذ لم نجد من البلاغيين حتى زمن السكاكي والقزويني من حدّد البلاغة بتعريفٍ جامعٍ مانعٍ يحدّد ماهيتها ويشير إلى اشتغالها، خلا الاتّكاء على دلالة اللغة والحدود التي انعكست من الثقافات المنصهرة في الثقافة الإسلاميّة ممّا أشرنا إليه سابقاً، وكذا تعريف بدر الدين بن ماك (ت ٦٨٦هـ)، الذي عرّفها بأنّها " البلوغ في صوغ الكلام لتأدية المعنى إلى حدٍّ له توفية بتمام المراد منه وسلوك جادّة الصواب فيه"^(٣)، ويلاحظ ما في تعريف أبي هلال العسكري من دقّة في رعاية السامع وتحقيق وظيفة التواصل، وربّما فيه إشارة إلى أبعاد البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، كما أنّ تعريف ابن مالك ينطوي على العناية باللفظ بما يخرج به المعنى إخراجاً مطابقاً للحال، ومستقيماً في الفكر، وهو بهذا يقترب من تحقيق الاستعمال المعياري من خلال الصوغ.

ولعلّ العسكري – بنظر البحث- كان في تعريفه السابق للبلاغة ملّمحاً إلى جانب الصورة الفنيّة وأهميتها في إخراج الكلام على غير مخرج العادة، ونحن إذ نذكر ذلك لا نستند إلى ورود لفظة (صورة) في التعريف بوصفها دليلاً على كونه قاصداً للصورة الفنيّة، وإنّما من خلال تتبّع تمام كلامه^(٤) الذي ذيلّه في التعريف كشرح له وفكّ لمعانيه، من خلال ذلك تبيّنا أنّ أبا هلال العسكري كان يلمّح إلى أنّ إخراج الكلام إخراجاً بليغاً إنّما يتحقق من خلال الصّورة الفنيّة المبرزة من قلب المتكلّم إلى قلب السامع، " وإنّما جعلنا حسنَ المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة؛ لأنّ الكلام إذا كانت عبارته رثّة ومعرضه خلقاً لم يسمّ بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"^(٥).

(١) ظ: البيان العربي: بدوي طبانة: ١٤٥.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٦.

(٣) المصباح: ٣.

(٤) ظ: كتاب الصناعتين: ١٦ و١٧.

(٥) م.ن: ١٦.

استقرار المصطلح البديعي:

أمّا مصطلح البديع فإنّه ليس بأفضل من أخويه البيان والبلاغة، إلاّ أنّه أكثر قراراً وإشارة إلى مسمّياته، إذ لم تتغيّر دلالاته كثيراً عمّا أريد به في أصل الوضع، مع توافق دلالاته اللغويّة والاصطلاحية توافقاً تامّاً تقريباً.

فإنّ أصل إطلاقه - كما ذكرنا- كان في سياق فضائه اللغويّ الذي تأسست عليه لفظة البديع، ومن خلال ابن المعتز في كتابه البديع يظهر أنّ الاصطلاح أريد به المبتكر والجديد والمحدث من الأساليب والصيغات التي كثر استعمالها من المحدثين الذين كان لهم فضل على ابن المعتز في مقارنتها بالتراث العربي الأمّ، ممثلاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واللغة وكلام الأعراب وأشعار المتقدمين^(١)، ولكن يبقى لمن أطلق على هذه الأنماط التعبيرية هذا الاصطلاح السبق في التشكّل الاصطلاحيّ الفنيّ فيما بعد.

ونودّ هنا أن نشير إلى أنّ توسيع دائرة الاستعمال لأيّ مبنى من المباني أو أي معنى من المعاني، وبثّه بطرائق خاصّة ضمن دائرة اشتغال محدودة المعرفة، لا يتنافى مع اثبات الخصوصية والتفرد في الطرح والعرض أو سلب الفضيلة عن متعاطيه، كما فعل ابن المعتز وساقه كثيرٌ ممّن احتذى حذوه، إذ لولا الإكثار منه لم تبين معالم هذه الأساليب وطرافتها وأهمّيتها في الكلام، ولما تجسّم ابن المعتز عناء تقصّي التراث العربيّ واستنطاقه ليخرج بتلك المسمّيات والأنماط، ويمكننا القول إنّ قضية تبني ابن معتز لهذا المنهج لم يكن منطلقاً لتصحيح النسبة، وإنّما تساوقاً مع الرّدّ على دعوى الشعوبية التي كانت سائدة آنذاك وتعرّض لها الجاحظ في جملة من كتبه، بقرينة كون الذين تبوّوا منصّة البديع كان أغلبهم من الموالى أو من المتتلمذين على أيديهم أو المتأثرين بثقافتهم^(٢)، مع ملاحظة أنّ كتاب ابن المعتز أُلّف من قبله في شرح الشباب وغضارة السنّ، في السابع والعشرين من عمره^(٣)،

(١) ظ: البديع: ٧٣، ٧٤.

(٢) قال ابن رشيقي في العمدة، ١١٨/١: "وقالوا أول من فتن البديع من المحدثين بشار بن برد، وابن هرمة- وهو ساقّة العرب وآخر من يستشهد بشعره، ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس، واتبع هؤلاء حبيب الطائي والوليد البحري وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع و الصنعة إليه وختم به".

(٣) ظ: البديع، لابن المعتز، تقديم، محمد عبد المنعم خفاجي، التقديم: ١٨.

أي ضمن أفقٍ فكريٍّ ناشئٍ، وفي باكورة نموّه، ممّا حدا به إلى تأليف كتابه انطلاقاً من الروح الاندفاعيّة التي كانت وليدة تلك السنّ فخرج كتابه خالصاً للتراث العربيّ المحض من دون أن تشوبه شائبة من شوائب الثقافات الدخيلة .

ومن المعلوم أنّ أساس الجدّة والابتكار الذي تأسّس عليه لقب البديع منصرفاً إلى الجديد المبتكر من الصياغات الجزئية والأساليب الخارجة عن مألوف الحياة الأدبيّة والشعريّة، التي يتبناها المتأدّبون والنقاد والبلاغيون، كان مستحكماً لدى ابن المعتز في معالجته للنصوص التراثيّة؛ ليستنطقها – مقارناً- لإثبات الإصالة، لا وعياً منه بعمق الدرس البلاغيّ وضرورته البيانية، بل إنّه ربّما لم يُشر - فيما اطّلعنا عليه من كتابه - إلى أهميّة هذه الفنون في البلاغة، بل يتوصل قارئ كتابه إلى أنّ معالجته للبديع لم تكن لتعدّ البديع فرعاً من فروع البلاغة، بل ولا أساليب يُتوصّل بها لتحسين الكلام وإخراجه إخراجاً فنياً متميّزاً. وفي نظر البحث أنّ سبب ذلك هو التعاطي مع مصطلح البديع ضمن سياقه اللغويّ المحض، فلم تكن النظرة إلى البديع بمستوى بلاغيّ يتحقّق به نسبة هذا الفن إلى البلاغة، فضلاً عن جعله مقاييس تُعرض عليها النصوص لتمحيصها دلاليّاً. ويرجّي الدكتور أحمد مطلوب بكون الجاحظ " أوّل من اعتنى بالبديع و صورّه، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة، ولكنّه لم يعرفه أو يُشر إلى فنونه بل كان يُطلق هذا المصطلح إطلاقاً"^(١)، لأنّ استعماله له كان قريباً جداً من معناه اللغوي، فيظهر أنّ الجاحظ يحصر البديع ضمن نطاق الشعر الجديد الطريف، إذ لم يبيّن خصائص هذا البديع وحدوده، ولم يضع مفهوماً واضحاً له، ممّا يجعله مشاركاً لمصطلحي البلاغة والبيان، كأغلب المصطلحات البلاغيّة في تلك الفترة في الغموض وعدم الدلالة على تمام المقصود^(٢). " ولعلّ هذا الإطلاق لمصطلح البديع (بمعنى الجدّة) هو الذي دفع علماء البلاغة اللاحقين، إلى استعمال مصطلح البديع بهذا المفهوم طول المرحلة الثانية وشرطاً طويلاً من المرحلة الثالثة"^(٣).

(١) مصطلحات بلاغيّة: ٨٢ و، ظ: البيان العربي، بدوي طبانه: ١٠٣.

(٢) ظ: المباحث البلاغيّة في ضوء قضية الإعجاز القرآني، د. أحمد جمال العمري: ٧٩.

(٣) ظ: البلاغة العربية، د. علي عشري: ٤٧، ٤٨.

وكذلك علم البيان - كما تقدّمت الإشارة إليه - فقد كان الجاحظ يُطلقه ويؤسّس لمبانيه وتطبيقاته انطلاقاً من فضائه اللغويّ.

أمّا علّم المعاني فلم يكن معروفاً في عهد الجاحظ سوى الإشارات المقتضبة حول الإيجاز والإطناب^(١) ولعلّ الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) كان أوّل من فتق علومه انطلاقاً من معاني النحو، واستلهاماً من كتاب سيبويه أولاً، وتتلماً على شيخه الأثير أبي الحسين الفارسي، المتلمذ على يد خاله أبي عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ) ثانياً^(٢) لتقرير قضية الإعجاز القرآنيّ التي شبّ أوارها في القرن الرابع الهجري.

لذا فإنّ مصطلح البلاغة والبيان والبديع ثلاثة مصطلحات لكلّ واحد منها بعده الدلاليّ الخاصّ، كما أنّها نشأت ضمن الإطار الفكريّ والزمنيّ نفسه، وبشكل متداخل، ففي الوقت نفسه الذي كان فيه مصطلح البلاغة بحدودها المختلفة التي ذكروها متداولاً، كان مصطلح البيان متداولاً أيضاً، ومثلها البديع فقد تولّد في الفترة نفسها انطلاقاً من المحدثين أو المولّدين .

ولا بأس أن نشير إلى أنّ الأسباب وراء تداخل العلوم والمصطلحات كثيرة، نذكر منها:

أولاً: إنّ مباحث البلاغة العربيّة لم تكن - مع نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع - قد عرفت طريقها نحو النضج والتقنين والاستواء في التعقيد لدى كثير من الباحثين والنقاد المتأمّلين في أسرار (الخطاب الشعريّ تخصيصاً)^(٣)، نظائر ابن المعتز وابن قتيبة والمبرّد وقدامة والقاضي الجرجاني ويتفرّع عليه:

ثانياً: عدم تبلور العلوم العربيّة والإسلاميّة التي نشأت البلاغة على هامشها، بل كانت تتشابك في الكتاب الواحد قضايا عدّة علومٍ بصورة تجعل مؤرخي كلّ علم من هذه العلوم يعدّون هذا الكتاب من بين كتب العلم الذي يؤرّخون له، مثل مجاز القرآن، حيث يعدّه علماء التفسير كتاب تفسير ويعدّه اللغويون كتاب لغة ويعدّه مؤرخو البلاغة كتاب بلاغة^(٤).

(١) ظ: مناهج بلاغية، د. أحمد مطلوب: ١٦٤.

(٢) ظ: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ١٦٠ و ١٦٧.

(٣) ظ: التواصل البلاغي، د. أحمد طابعي: ١٨.

(٤) ظ: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز: ٨٠ و ٨١.

ويتفرّع عليه: ثالثاً: إنّ علماء تلك الفترة كانوا موسوعيين، فلم يكن الواحد منهم يحصر نفسه في دائرة معرفة واحدة لا يتجاوزها، وإنّما كانت تتعدّد معارفهم وتتنوّع ثقافتهم...^(١)

رابعاً: تأسيس اللاحق لمعرفته واستنتاجاته على ما قدّمه السابق تأسيساً يقرب من الاستنساخ أحياناً.

خامساً: غلبة الطبع والذوق على أوائل المؤلفات الأدبيّة؛ لقرب عهد مؤلفيها بالبيئة والطبيعة التي كان عليها العرب، إذ إنّ سلائقهم لمّا تزل متطبّعة بطابعها الأول وإخراجها من الطبع إلى العلميّة والتقنيّين يقتضي زمناً طويلاً تتطبّع عليه سلائقهم، فلا يُنتظر منهم آنذاك تأسيساً نظريّاً محكماً لنظريّة بلاغيّة أو نقديّة موضوعيّة، وإن تحققت فإنّما تتحقّق على المستوى الفرديّ والجزئيّ دون الشمول والعموم والتداول الفكريّ العامّ.

وهذه الفكرة بالتحديد تجرّنا استطراداً للحديث عن الأثر اليونانيّ في البلاغة العربيّة، وعلى سبيل اللّحمة الدالّة، إذ جعل بعض الباحثين مظهرّاً أسطوريّاً لكتابي أرسطو (في الشعر، وفنّ الخطابة)، فجعلوهما بمنزلة الدّفة التي توجّه شراع البلاغة العربيّة، في حين أنّ السيرورة الزمنيّة لأيّ كتاب أو فكرٍ معين - تداوليّاً - ، تحتاج إلى زمنٍ طويلٍ، فضلاً عن تبلور الأفكار وهضمها هضمّاً متساوفاً مع الثقافة العربيّة الخالصة، مع تطبيق نماذجها عليها؛ فإنّه يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ جداً ظهرت خلاله عدّة من المؤلفات في التراث البلاغيّ، ومن الممكن القول إنّ إصالة البحث البلاغيّ يمكن بحثها ضمن الاشتغال البديعيّ، وتعدّ محاولة ابن المعتز رائدة في هذا المجال في تثبيت أصالة البحث البلاغي العربي ضمن اشتغالاته الأسلوبيّة وفضاءاته الدلاليّة؛ ومن غريب الأفكار أن يعمد المفكّر للحكم انطلاقاً من نظرة جزئية محدودة، وقد طالعنا من هذه الأحكام جمّاً ، منها على سبيل المثال ما ذكره د. زكي نجيب محمود، حول الأثر اليوناني في البلاغة العربيّة^(٢)، حاكياً لبحث وتحقيق د.

(١) ظ: المصدر السابق، المورد نفسه.

(٢) كان لـ د. طه حسين الأثر الأكبر في طرح هذه الفكرة، ابتداءً من بحثه الذي نُشر مقدّمةً لكتاب نقد النثر، وهو لم يقدّم دليلاً عقليّاً مقبولاً يركن إليه، بل إنه لم يطلع أصلاً على كتاب ابن المعتز كما يقول (ينظر: نقد النثر ص ١٢) ومع ذلك يحكم بتأثره بالقسم الثالث من كتاب أرسطو!!، علماً أنّ اليون بين الطرحين شاسعٌ جداً ولا تلاقي من قريب أو بعيد، مع ملاحظة أنّ الباحث ينطلق من كونه قد تطرّق لدراسة كتاب الخطابة لأرسطو في رسالته للماجستير وهو الآن يتناول البديع وعلى مقربة من أولى المؤلفات فيه وهو كتاب ابن المعتز فأحكامنا تصدر عن هذه المنظومة، وباعتقادنا أنّ لموقعيّة د. طه حسين البارزة أثراً كبيراً في تمرير كثير من الأحكام الارتجالية، للبلاغة العربيّة والأدب العربي.

شكري محمد عياد لكتاب أرسطو في الشعر، جاعلاً الجاحظ متأثراً " بالمنطق على أنه نوعٌ من الدلالة، وابن المعتز في كتابه البديع يحاول أول محاولة نحو التعميم، وقدامة في كتابه "نقد الشعر" يتأثر بالفكر اليوناني.... واهتمَّ عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز بفكرة النظم، الذي يربط بين مفردات الجملة، وهي فكرة شبيهة بفكرة (الوحدة) التي وردت عند أرسطو في كلامه عن التراجيديا...." ^(١)، كلامٌ سهل يجيد إلقاءه كلُّ من له مسحة من علم أو مسكة من دراية ولكن أين الدليل على هذه الدعاوى ؟ .

فهل يكفي تقصِّي الدلالة أو النزوع نحو التعميم أو مشابهة فكرة النظم بفكرة الوحدة دليلاً لتوسم البلاغة العربيَّة بالأثر اليوناني؟، وليُعلم أنَّ بلاغة أيِّ قوم من الأقوام تنبثق عن مستويات كلامهم وطبقاته الفنيَّة، إذ من الكلام وتتبعه ومتابعة مداخله ومخارجه تنشأ البلاغة، والعرب من بعد بلغاء وفصحاء، وقد صدر عنهم من ألوان الكلام ممَّا فيه مراتب البلاغة والفصاحة ومواقعهما ما جعل القرآن الكريم أن يكون معجزة اللسان لهم، بل احترم مقامهم البياني ووعيهم بإيراد القول فتحذاهم، ومن ثمَّ فالكلام هو الذي يفرز قواعده وقوانينه، ونحن لا ننكر تلاقح الأمم والأفكار، ومبدأ التأثير والتأثر، فهو قانون كليٌّ عامٌّ بل طبيعيٌّ ولكنَّ العبرة بالمعالجة، وقد أشار أرسطو إلى هذا التلاقح وتشارك العقول، بقوله: "إنَّا ما ورثنا عمَّن تقدَّمتنا في الأقيسة إلا ضوابط غير مفصَّلة، وأمَّا تفصيلها وإفراد كل قياس بشروطه وضروبه، فهو أمر كدنا فيه أنفسنا، وأسهرنا أعيننا، حتى استقام على هذا الأمر، فإن وقع لأحدٍ ممَّن يأتي بعدنا زيادة أو إصلاح فليصلحه، أو خلل فليسدِّه" ^(٢)، مع ملاحظة أنَّ ما كتبه ابن سينا في منطق الشفاء يعادلُ أضعاف ما كتبه أرسطو في المنطق مع طول المدة وبعد العهد .

وأمَّا الجاحظ فإنَّ حماسه الشديد الذي أظهره للعروبة واللغة العربية وردَّه لهجمات الشعوبيين، تنأى به عن أن يكون متأثراً بالفكر اليوناني، وإلا لما اندفع منه هذا الحماس، كما أنَّ الشعوبيين لم يصموا العربية بوصمة الاختلاط والاتكاء على أفكار اليونان، إذ لو تمَّ لكانت لهم عروة وثقى ليصمُّوا بها العرب، ولكانت مقتلاً للعروبة التي كدَّ الجاحظ للدفاع

(١) مقدِّمة كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تحقَّق: د شكري محمد عياد، ص: ك.

(٢) منطق الشفاء: ١١٠/ ٤.

عنها، وإنّ جميع من حاول ترديد هذه الفكرة تمسّك بهذه الخيوط التي لا تنسجُ للعنكبوت بيتاً، بل الأثر العكسيّ هو المتحقّق، يقول د. صلاح فضل: " ويبدو أنّ تأريخ الشعر العربيّ الذي استثمر بشكل فائق هذه التقنيات عن طريق شيوع عادة النظم وأنواع البديع المختلفة كان له تأثيرٌ قويٌّ على الآداب التي اتخذته أنموذجاً لها في العصور الوسطى خاصّة الأدب العبري من خلال الاحتكاك المستمر في المشرق العربيّ وفي الأندلس بصفة خاصّة، ولو تذكّرنا مبادئ جاكوبسن في شرح الشعرية والتركيز على عمليّات التوازي والنظم، استلهمت بشكلٍ مباشر دراسات هوبكنز عن اللغة الشعرية التي استمدّها بدوره من تحليله لأنماط الشعر العبريّ غير المباشرة في صياغة النظرية اللسانية للشعرية الحديثة، وضرورة الإفادة منها في الكشف عن استراتيجيّات الشعر العربيّ وعلاقته التوليدية بهذه المجالات التي تشغل الفكر الحديث "(١).

من هنا تعدّ محاولة ابن المعتز في البديع خطوةً مهمّة في إثبات أصالة البحث البلاغيّ العربيّ المكون في بنيته النصيّة ومكوّنه الثقافيّ، الذي لا يمكن أن يُخترق بمحاولات التطعيم والتدعيم التي عمد إليها الرواة.

ولعلّ بعض الباحثين حدّا به الحماسُ إلى المبالغة في القول بأنّ " بداية استقلال البلاغة العربيّة واستقرارها تبدأ من تأريخ تأليف البديع لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) (٢)، ولعلّ عمق هذه الأصالة والتجذّر في الثقافة هو الذي قاد الجاحظ إلى قصر البديع على العرب بل جعله سببَ تفوّق اللغة العربيّة على غيرها من اللغات، " والبديع مقصورٌ على العرب؛ ومن أجله فاقت لغتهم كلّ لغة، وأربت على كلّ لسان، والراعي كثيرُ البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهبَ بشار "(٣).

واللطيف في عرض الجاحظ للشخصيّات التي تتناول البديع في شعرها أنّه لم يطعن في أساليبهم وصياغاتهم كما طعن ابن المعتز طعناً قاده إلى تقصّي ما جاء من البديع في القرآن الكريم والحديث الشريف وفصيح العرب وأقوالها.

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص د. صلاح فضل : ٣٢.

(٢) المباحث البلاغية: ص ١٠٥.

(٣) البيان والتبيين: ٢٩٠/٢.

يقول: "ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتّابي،.... وعلى ألفاظه وحذوه في البديع يقول من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولّدين: كنحو منصور النّمري، ومسلم بن وليد الأنصاري وأشباههما، وكان العتّابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولّدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة"^(١).

نخلص من جميع ذلك إلى أنّ الفضاء اللغويّ هو الفضاء الذي كانت له السلطة الثقافية والنقدية، وإنّ طبيعة البيئة الثقافية والفكرية آنذاك كانت مطبوعة على هذا النمط من التفكير، وهو ما يفسّر إدراج الجاحظ للاستعارة واستشهاده ببيت الأشهب بن رميلة^(٢) ضمن البديع، انطلاقاً من هذا الأفق الثقافيّ، وكذا التشبيه والكناية والمجاز من علوم البيان وتابعه ابن المعتز في بعضها، كما يمكننا أن نلاحظ تلك السلطة الثقافية من خلال جملة وافرة من مؤلفات تلك الفترة التي اندرجت ضمن مستويات ثلاثة وهي { الغريب، والمعاني، والبديع }، وقد كانت متوجّهة نحو ألفاظ القرآن الكريم فكان منها: غريب القرآن، ومعاني القرآن، ومجاز القرآن (بمعنى المعبّر لا بالمعنى الفني المعروف، كما ذهب إليه كثير من الباحثين والنقاد)، والبيان عند الجاحظ كما البديع يستعمله بالمعنى اللغوي أيضاً، ولكنّه يتركّز على إثباته بشواهد ودلائله؛ للتأكيد على قضية الإبانة والإفهام عن المقاصد والحاجات، وهو بذلك يتساق مع قضية اللغة الأساسية حسب تعريف ابن جني لها.

إنّ في اشتغال البديع على أغلب أبواب البيان، إن لم تكن كلّها مندرجة ضمنه، واندراج علم المعاني ضمن أبواب النحو والدراسات النحوية والتركيب النحوي صواباً وخطأً، تجعلنا نجزم أنّ ألصق الأبواب بالبلاغة كأسلوب من أساليب التعبير والصياغة الفنية الخالصة، والتوسّع في الاستعمال الخاصّ للغة^(٣)، ومعالجة القوالب اللفظية المميزة، هو علم البديع، و عنه كانت البداية الفنية للبلاغة العربية، والملاحظ أنّ المتتبع للكتب والمعجمات البلاغية

(١) البيان والتبيين: ٦٤/١، ٦٥.

(٢) م.ن: ٢٩٠/٢.

(٣) ظ: التوسّع في الموروث البلاغي، د. حسين عقلة الجداونة: ١٦٠.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتعديد الاصطلاحي

يجد أنّ تركة التراث البلاغيّ جلّها من البديع وعنه، إذ إنّ أكثر المصطلحات البلاغيّة منه، مع توقّفنا على كثيرٍ من تلك المصطلحات إذ لا غاية فنيّة تحتها.

البديع بين أصالة البناء والأداء التحسيني:

مما لاشك فيه أنّ حركة التجديد في الأساليب والصياغة استجدّت في العصر العباسي من قبل الشعراء كبشار وابن هرمة وغيرهما، وقاد لواءها من بعدُ مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه، حتى رست عند شاطئ أبي تمام، فكان الشغف والغلبة والإفراط، فقابلتها الإساءة والإحسان، فكانتا من ثمارها، كما يقول ابن المعتز^(١)، وقد استثمرت هذه الحركة البديع بما هو جنس أسلوبيّ صياغيّ، ومن ثمّ كان لهذه الحركة أثرٌ في نظريّات أخرى على مستوى النقد، من قبيل طبقات الشعراء وعمود الشعر، كما أنّها رفدت المكتبة البلاغيّة بحركة واسعة في التصنيف بهذا الاتجاه، ولفترة زمنيّة طويلة اختلفت فيها مناهج المعالجة، وإن كان كثير منها لم يخرج عن حدود النقل والمحاكاة والتكرار.

لقد قاد ابن المعتز دفعة البديع فكان هو الموجّه لكلّ من كتب في البديع من بعده، وكما ذكر فقد كانت غاية تأليفه في هذا المجال في أمرين^(٢): الأول: بيان ورود البديع في القرآن وكلام النبي (صلّى الله عليه وآله) والفصحاء من العرب، وهذه الغاية تبحث في الأصالة.

الثاني: وهو نتيجة للأوّل، بيان عدم سبق المحدثين لهذا الضرب من الصياغة والنمط من القول، وأنهم لم يسبقوا إليه، ولكنهم أكثروا منه.

فقد بثّ ابن المعتز في كلامه هذا ما كان ملهماً للآخرين في انتظامه، فنرى التطابق والتشابه الذي اتسمت به مصطلحات البديع التي تناولها البلاغيّون مع اختلاف التسمية هو ما أشار إليه "ولعلّ بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدّثه نفسه وتمنّيه مشاركتنا في فضيلته فيسمّي فناً من فنون البديع بغير ما سمّيناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً، أو يفسّر شعراً لم يفسّره، أو يذكر شعراً قد تركناه ولم نذكره، إمّا لأنّ بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فألقيناه، أو لأنّ فيما ذكرنا كافياً ومغنياً، وليس من كتاب إلا وهذا ممكّن فيه"^(٣)، فالملاحظ أنّ وعي ابن المعتز بحقيقة هذا الباب من البلاغة وما ينطوي عليه من الفضاء اللفظيّ المنفتح جعلته يكثر من القيود؛ ليثبت سبقه وتقدّمه في هذا الميدان، وقد كانت فكرة التحسين أو محاسن الكلام من منطلقاته المنهجية في البديع، كما نرى أنّ قصره لهذه الفنون الخمسة على البديع راجع إلى منهجه في التقصّي وإلى المرجعيّات الكلاميّة التي انطلق منها؛ إذ كانت كثرة التداول والاستعمال هي المعيار الذي اختطه في ذلك؛ إذ إنّ هذه الفنون هي أكثر الفنون تداولاً واستعمالاً في الكلام الفنيّ، وأنّ لها دلالاتٍ معنويّة خاصّة.

(١) ظ: البديع: ٧٥.

(٢) ظ: م.ن: ٧٥.

(٣) م.ن: ٧٦.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتفكير الاصطلاحي

فالتحسين -إذاً- أفقٌ فنيٌّ كان له حضور عند ابن المعتز واستمرَّ هذا الأفق إلى أن قُننَ التقسيم الثلاثيُّ للبلاغة في القرن السابع على يد بدر الدين ابن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، إذ إنه أوَّل من خصَّص البديع بقسمٍ مستقلٍّ^(١)، وأبرزه قسيماً لأخويه المعاني والبيان، اللذين فصلَّهما السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وأعطاهما الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده، من ترتيب المقدمات وإحكام المقاييس وصحة البراهين^(٢)، وكان السكاكي أوَّل من أرسى التقسيم الثنائي للمحسنات إلى لفظية ومعنوية، وتابعه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ويشير أحد الباحثين إلى أن معالجة ابن سنان الخفاجي لمقدمات البلاغة المتمثلة بالفصاحة وحسن اللفظ وإخراج المخرج اللائق هو الذي أوحى للسكاكي بفكرة المحسنات^(٣)، والتوجيه وإن كان مقبولاً ولكن لا دليل يؤكده ويدعمه، فالبديع بما هو أساليب صياغة شعرية انطبع بصفة التحسين لأسبابٍ معينة من زمن توجه ابن المعتز للعناية به.

لقد بقيت النظرة للبديع على أنه وجوه تحسين الكلام بعد مطابقته لواقع الحال مع الفصاحة هي السائدة والحاكمة على التفكير البلاغي، وكانت لهم مقاربات وصفية لهذا العلم من قبيل ما يذكره العلوي، مقرباً مبادئ تلك العلوم الثلاثة: "إعلم أنَّ هذه الأنواع الثلاثة أعني المعاني والبيان وعلم البديع مأخذها مختلفة وكل واحد منها على حظ من علم البلاغة والفصاحة، ولنضرب لها مثلاً يكون دالاً عليها ومبيناً لموقع كل واحد منها، وهو أن تكون حبات من ذهب ودرر ولآلئ وياقوت وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة، ثم أنها ألقت تأليفاً بديعاً بأن خلط بعضها ببعض وركبت تركيباً أنيقاً، ثم بعد ذلك التأليف تارة تجعل تاجاً على الرأس، ومرة طوقاً في العنق ومرة بمنزلة القُرط في الأذن، فالألفاظ الرائعة بمنزلة الدرر والآلئ وهو علم المعاني، وتأليفها وضم بعضها إلى بعض هو علم البيان، ثم وضعها في المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها هو علم البديع، فوضع التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وضع له في موضعه ولو وضع في اليد أو الرجل لم يكن موضعاً له وهكذا بعد إحكام تأليفه يقصد به مواضعه اللائقة به وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون في هذه العلوم الثلاثة وتمييز مواقعها"^(٤). ومثله في التقريب أبو جعفر الغرناطي (ت ٧٧٩ هـ)، بل إنه يتعمق في بيان العلاقة بين العلوم الثلاثة ونسبة بعضها إلى بعض، بجعل البديع أخصَّ الثلاثة، والأخصُّ يتركب من الأعمَّ وزيادة، فيقول: "فالمعاني والبيان بالنسبة إلى البديع كالحيوان والنطق بالنسبة إلى الإنسان، فلا يوجد البديع بدونهما كما لا يوجد الإنسان بدون الحياة والنطق، والمعاني بالنسبة للبيان كالحيوان بالنسبة إلى النطق، فتوجد المعاني بلا بيان، كما يوجد الحيوان بلا نطق، ولا يوجد البيان بلا معاني كما لا يوجد النطق بدون

(١) ظ: الاستدلال البلاغي، د. شكري المبخوت: ٩٣-٩٤.

(٢) ظ: البلاغة تطور وتاريخ: ٢٨٨.

(٣) ظ: البديع تأصيل وتجديد، د منير سلطان: ١٧.

(٤) الطراز: ٥١٥.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

الحيوان"^(١)، وفي نظرنا أنّ التقسيم الثلاثي واعتماد النسق الشعريّ في التحليل والموازنة، هو الذي جنى على البلاغة، وشطّى مفهوماتها وإمكاناتها الدلالية، كما سنأتي عليه. ومن الواضح أنّ العملية اللغوية -أيّاً كانت- مسبقة بعملية ذهنية أو معالجة ذهنية تقتضي حركة المعنى ضمن سياقه اللفظي والحالي الذي يناسبه، ومن ثمّ تقتضي إخراجها بالطريقة المناسبة، وهذه العمليات -وفقاً للوضع الطبيعي- سريعة جداً، ومتّحدة مترابطة بينها، فلا يُتصوّر انفكاكها، فكيف تتشطّى عند إخراجها تشظياً يقتضي هامشية بعض مكوناتها؟.

إنّ من أهمّ الأسباب التي دعت إلى إقصاء البديع من دائرة البحث والتحليل البلاغيّ القديم، وإضفاء صفة الزينة والزخرف عليه، وعدم اعتماده مظهراً من مظاهر التشكيل البنائي الأصل للبناء اللغوي، تعود إلى سببين رئيسين: الأول يتمثل في شيوعه في بيئة المحدثين من الشعراء وإعلان بعضهم الإكثار منه وتكلفه، حتى صار شائعاً في الأوساط العامة -فضلاً عن الأوساط العلمية - أنّ البديع يُطلب للتفنّن والزخرفة وآلته التكلف، ما دعا العلماء بالبلاغة والنقد وخصوصاً الباحثين في إعجاز القرآن الكريم إلى التقليل من شأنه، واعتباره من تفانين الشعراء التي لا تقضي إلى بناء لغويّ حقيقيّ ذي دلائل معتبرة، فضلاً عن اعتماده على الصنعة التي تخالف ما ألفه العرب من مظاهر البداهة والارتجال وعدم التكلف^(٢)، ولعلنا نلاحظ ذلك فيما ورد من اعتراض الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) على ادخال البديع في الإعجاز القرآني، معللاً ذلك بأنّه نشأ في بيئة دراسة الشعر، وارتبط بالشعر من خلال الصياغات الجديدة، وشيوع التكلف في تصنيع البديع، حيث كان أدباء زمانه يهَيِّئون قوائم من البديع يستعينون بها في إنشائهم^(٣) "ف" لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه؛ وذلك: أنّ هذا الفنّ ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرّب به والتصنّع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحق في البلاغة، وله طريق يسلك، ووجه يُقصد، وسلّم يُرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه. فربّ إنسان يتعوّد أن ينظم جميع كلامه شعراً، وآخر يتعوّد أن يكون جميع خطابه سجعاً، أو صنعة متصلة، لا يُسقط من كلامه حرفاً، وقد يتأتّى له لما قد تعوّد، وأنت ترى أدباء زماننا يضعون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلّفون أنواع البارع، ثمّ ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة فيحسنون به كلامهم، ومن كان قد تدرّب وتقدّم في حفظ ذلك - استغنى عن هذا التصنيف، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطاً من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله، وهذا طريق لا يتعذّر، وباب لا يمتنع، وكلّ يأخذ فيه مأخذاً ويقف منه موقفاً، على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يمده من الطبع"^(٤).

(١) طراز الخلّة وشفاء الغلّة، المقدمة من المخطوطة: ١١، وينظر في هامشية البديع، الإشارات والتنبيهات للشريف محمد بن علي الجرجاني: ٢٥٧-٢٥٨، تج، د. عبد القادر حسين ١٩٨٢.

(٢) ظ: البيان والتبيين: ٣٦/١، ٣٧، ٢١٧.

(٣) ظ: أبحاث في بلاغة القرآن الكريم، محمد كريم الكواز: ١١٨.

(٤) إعجاز القرآن، الباقلاني: ١١١، ١١٢.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

ويَتَّفَقُ الجرجانيُّ مع توجيه الباقلانيِّ في إلقاء التبعة على المتأخرين في توهين البديع وتقليل قيمته الفنيَّة في البناء اللغوي، متكئاً على مبدأ التفهيم الذي جعله أساساً قارراً في تحليلاته، من نحو " أن الألفاظ خدَمٌ للمعاني وهي المصَرَّفَةُ في حكمها والمالكة سياستها، المستحقَّة طاعتها"^(١)، ملمحاً إلى تلك العمليَّة الذهنيَّة الداخليَّة، "وقد تجذُّ في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسمٌ في البديع، إلى أن ينسى أنَّه يتكلَّم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيِّل إليه أنَّه إذا جمع بين أقسام البديع في بيتٍ فلا ضيرَ أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يُوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربَّما طمس بكثرة ما يتكلَّفه على المعنى وأفسده، كمن ثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها"^(٢)، ولا يخرج ابنُ رشيِّق عن تلك الحدود، إذ إنَّ "العرب لا تنتظر في أعطاف شعرها بأن تجانس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظ أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكنَّ نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشَّعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض"^(٣). ومن الملاحظ أنَّ الجرجانيَّ له نظرة أخرى حول البديع يمكن استنباطها من كلامه، فعلى الرُّغم من أنَّه لم يصرِّح بكون البديع محسَّناتٍ للألفاظ، إلاَّ إنَّه يعتبره النَّمط العالي والباب الأعظم عندما يتحدَّث عن الجناس والمزاوجة والتقسيم^(٤)، وهي فنون متأصِّلة في البحث البديعيِّ، فلماذا هذه النظرة التجزيئية المزدوجة؟، والجواب يظهر - بالإضافة إلى ما تقدم من عوامل رفض البديع-، في أنَّ هذا راجع إلى استقامة مبدأ النظم في فكر الجرجانيِّ الذي حدا به إلى استبعاده عن منظومته البلاغيَّة إلا بمقدار دخالته في النظم، وفي حدود الجناس والاستعارة - التي لم تستقرَّ بيانياً- والسجع والازدواج^(٥).

أمَّا السببُ الثاني، فيتمثَّل في طبيعة المعالجة للنصوص الفنيَّة والأدبيَّة التي اتَّسم بها العمل النقديِّ والبلاغيِّ في مؤلَّفات الأوائل، الذي اتَّخذ من الجملة والفقرة القصيرة المنقطعة عن الحدود السياقية العامَّة والكلِّيَّة للنصِّ منهجاً إجرائياً له، بسببٍ من مرجعيَّة الشَّعر كما سيُتَّضح، والذي على أساسه انتظم التقسيم الثلاثيُّ للبلاغة، فجعلوا " الكلام يمرُّ عبر مراحل ثلاث، وهو أمرٌ غيرٌ متحقِّقٍ عملياً؛ لأنَّ إنتاج الكلام لا يتمُّ عبر مراحل"^(٦)، فهذا الاعتماد قاد إلى النظرة التجزيئية مغفلاً الأثر الكبير الذي يحقِّقه البديع على مستويين مهمَّين، الأوَّل: في تلاحم أجزاء النصِّ وترابطها ودعم الدلالة وإنتاجها وخصوصاً في النصوص العالية كالقرآن الكريم ونصوص الأئمة (عليهم السلام) التي تمتاز بمحمولاتها الدلاليَّة المكثَّفة، والثاني:

(١) أسرار البلاغة: ٩.

(١) م.ن: ١٠.

(٣) العمدة ١٣٩/١.

(٤) ظ: دلائل الإعجاز: ٩٥.

(٥) ظ: م.ن: ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ظ: أسرار البلاغة: ٧-١٦.

(٦) دراسات نقدية وبلاغية: ٤٤٨، ٤٤٩.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

في إضفاء وتحقيق السيرورة الأدبية والتداولية للنص، وستبين دلالة الأمرين في الطوايا القادمة.

وربما حاول بعض الباحثين تقريب الأمر في توجيه التقسيم الثلاثي، قائلاً: "لقد كان أفراد البديع علماً مستقلاً إدراكاً لواقع لغويّ بدأ يفرض نفسه على الساحة الأدبية والبلاغية، ولم يكن ميسوراً تجاهله، وهذا الواقع اللغوي هو انتقال بؤرة الاهتمام إلى النصّ بدلاً من السامع أو المتكلم"^(١)، ولكن يؤخذ عليه أنه لو تمّ هذا الأمر فلا محيص من نبذ فكرة التحسين البديعي التي استقرت في الوقت نفسه الذي استقلّ فيه البديع علماً قسيماً للمعاني والبيان، ولتوجّه البحث إلى بيان دور البديع في تحقيق تلاحم أجزاء النصّ وانسجامها بدلاً من عدّه وجوهاً احتياطية يصار إليها لتحسين الكلام.

كان هذا الطابع المتمثّل بصبغية البديع هو الطابع العامّ الذي حكم الدراسات البلاغية الأولى من التقصي إلى التقنين، وقد تركت أثرها الواضح عند كثير من الباحثين المعاصرين، إذ إنهم أقدموا على ما أقدموا عليه وأحجموا عما أحجموا عنه، وانتهوا إلى حيث انتهوا^(٢) من غير تفصيل، " فالبديع دراسة المحسنات، والمحسنات كما يبدو من التسمية زخارف للكلام، يتحقّق المعنى بدونها، ولكنّه يحسُن بها"^(٣)، وعليه " يبقى علم البديع بمجاله المختلف تماماً عن المجالين السابقين: فإذا عُني علم المعاني بإقامة الصرح، وعني البيان بتقديم اللبّات وموادّ البناء فإنّ علم البديع يُعنى بطلاء المبنى وزخرفه، فهو علم طرق التحسين الكلي^(٤) القائم على علاقات"^(٥)، وعلى الرغم من ذلك فقد خرجت أصوات من الماضي وأخرى في الحاضر المعاصر عن هذا الأفق وحاولت تقريباً دلاليّاً لأشكال البديع من خلال بيان دورها في بناء النصّ باعتبار نظرتها إلى النصّ بوصفه كياناً لغويّاً متكاملاً متلاحماً الأجزاء، لا يمكن فصل مكوّناته، ووصلوا إلى نتائج تحمد لهم، والذي نراه أنّ حقيقة البديع شابها الكثير من التداخل والخلط وعدم فرز المعالجات الفنيّة له ضمن سياقات التحليل، فالملاحظ أنّ هناك قبولاً تاماً للبديع إذا دخل في أفق الطبع والسليقة، عند كثير من النقاد والبلاغيين، وفي استقامة النظم ومقتضى طلب المعنى أو مستجلب منه، عند الجرجاني كما اتضح في تعرّضه لمبحث السجع من كتابه أسرار البلاغة، كما أنّهم قد عدوا التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من المباحث ذات الصلة بالبديع، فأسقطوا عليها أحكام الزخرفة، ثمّ فصلت فأدرجت في البيان، وأسقط عليها أحكام أصالة البناء، فماذا حصل؟! ونقطة ثالثة تتعلّق بالبديع القرآنيّ وكيفية معالجته ضمن أفق الإعجاز، فهل سيلقى أفقاً

(١) دراسات نقدية وبلاغية: ٤٤٨.

(٢) عبارة أثرت عن الجاحظ في كتابه الحيوان: ٢١١/١. "بتصرف من الباحث".

(٣) الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي، د. تمام حسان: ٣٤١.

(٤) هكذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: الشكلي.

(٥) م.ن: ٣٤٩.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

تحسينياً كما ذهب إليه الباقلاني أم يأخذ بعداً خاصاً منسجماً مع حقيقته الإعجازية الكبرى؟. جميع هذه الأسئلة تتبغي الإجابة عنها عند البحث في أساليب البديع.

فمن الأصوات التي أعقبت استقرار البديع، وأنكرت طابعه التحسيني " بهاء الدين السُّبكي" في عروس الأفراح، إذ يقول: " والحقُّ الذي لا يَنازع فيه منصفٌ أنَّ البديع لا يُشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأنَّ كلَّ واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأدُلُّ برهانٍ على ذلك أنَّك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرَّضون إلى بيان اشتغال شيء منها على التطبيق، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرَّضون لاشتغاله على التطبيق والإيراد، بل تجدُ كثيراً منها خالياً عن التشبيه والاستعارة والكناية، التي هي طرق علم البيان هذا هو الإنصاف وإنَّ كان مخالفاً لكلام الكثيرين"^(١) وتقريب السُّبكي يتبلور في أنَّ الكلام يمكن إيرادَه على أيِّ نحوٍ من الأنحاء الثلاثة من دون أن يكون أحد هذه الوجوه داخلاً في بنيته اللغوية والدلالية، فمن الممكن أن يكون الكلام خالياً من مظاهر علم المعاني ومظاهر علم البيان، ولكنَّه مشتملٌ على مظاهر البديع، فهل يمكن اعتباره فعلاً لغوياً؟، وكذلك العكس في الباقي، وهو هنا يشير إلى الخلل في التقسيم الثلاثي للبلاغة من طرفٍ خفيٍّ، كما أنَّ نبرة الوحشة بسبب الانفراد في الرأي ظاهرة على كلامه، وتقريبه متين وألصق بوحدة الفعل اللغوي. وربما جُعِلَ من الصورة وتشكيلها بالارتكاز على أكبر وسائلها وأهمها وهو التشبيه^(٢) بعد من أبعاد الاتكاء على الإيراد بتعبير السُّبكي، واعتبارها أصلَ الصِّفة الشعرية، ويُطالعنا في هذا المضمار حادثه حسان وابنه عبد الرحمن، عندما جاءه باكياً، فقال " لسعني طائر، قال صِفْهُ لي يا بُني قال: كأنَّه ثوبٌ حَبْرَة، قال حسان: قال ابني الشعر وربَّ الكعبة"^(٣) ؟ وهذا ينسجم مع مبدأ المحاكاة الأرسطية القائم على إعادة التشكيل التخيلي للعالم^(٤)، لكنَّ الملاحظ أنَّ التشكيل الصوري من الممكن أن تبده كثيرٌ من صور البديع على ألطف ما يكون الإبداع منها هذه الصورة التي يبدعها الحسين بن مطير الأسدي^(٥) :

أين جيراننا على الأحساء أين جيراننا على الأطواء ؟
فارقونا ، والأرضُ ملبسةٌ نورَ الأقاحي تجادُ بالأنواء
كلُّ يومٍ بأقحوانٍ ونورٍ تضحكُ الأرضُ من بكاءِ السماء^(٦).

(١) عروس الأفراح: ٢٨٣/٤.

(٢) ظ: الصورة الفنية: ١٧١.

(٣) الحيوان: ٦٥ / ٣، ويروى شبيهاً بها عن طرفة بن العبد ، ينظر تفاصيل الصورة في : الصورة الفنية: ١٠٤.

(٤) ظ: الصورة الفنية : ١٤٥.

(٥) شاعرٌ متقدِّم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان زِيَه وكلامه يُشبه مذاهب الأعراب وأهل البادية، وفد على معن بن زائدة ومدحه. ظ: الأغاني: ١٤/١٥-١٥.

(٦) أمالي المرتضى: ٩٣ / ٢، و ظ: خزنة الأدب للبغدادي: ٤٥٨/٥، و معجم البلدان: ١ / ١١٢.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتفعيد الاصطلاحي

فالصورة مشكّلة من طباقين واستعارتين، وليس طباقاً فقط، إذ استعار للأرض الضحك، لإيناعها بالنبات، وللسماء البكاء لإرخاء عزاليها بالمطر، وطابق بين الصورتين، وعلّق إحداها بالأخرى بشرطٍ ضمنيٍّ أو تعليلٍ خفيٍّ، فكأنّه قال: إن تضحك الأرض فمن بكاء السماء، أو تضحك الأرض بسبب بكاء السماء، فخرجت مزدوجةً ولو كانت مفردةً لما استُجيدت، وقد روي أنّ دعبلاً الخزاعيّ استفاد هذا المعنى عن الحسين بن مطير في قوله المستجاد:

أين الشباب وأيةً سلكاً لا أين يُطلبُ ضلّ بل هلكاً

لا تعجبي يا سلمٌ من رجلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكى^(١).

وبهذا المثال للفنّ البديعي وغيره من فنونه، كالفنّ والنشر والمقابلة والتورية والتقسيم والعكس والتبديل، يظهر أنّ بعض فنون البديع تشترك في تشكيل الصورة وإنتاج المعنى، وخصوصاً بالتضافر مع الاستعارة، حيث نجدها تدخل مع أغلب الفنون البديعيّة، فمنها ما تقدّم، وفي دخولها مع التورية^(٢)، قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ" (سورة الأنعام ٦٠)، إذ إنّها تلازم المعنى الثاني المورّي، فاستعار الجرح للبدن لجرح النفس بالذنوب وورّى به.

فمن خلال ذلك يظهر تجاوز الأطر الصياغيّة المألوفة، واقتناص الكثافة الدلاليّة لفنون البديع والثراء اللغوي فيها، لتجسيد الرؤية الواقعية، ولكي لا ينزل الخطاب إلى مستوى التعامل الطبيعي والحياتي للغة^(٣). وقد قاربت الأبحاث المعاصرة في البديع هذه الرؤية، وبعضها درست تلك الفنون دراسةً محكمة، سنشير إليها، ولكنّها لم تبين بدقّة، هل أنّ جميع الفنون تحقّق الدلالة، أم أنّ كثيراً من الوجوه التي أبدعت خارجةً عن سياق إضفاء بناءٍ دلاليٍّ للنصّ، وتحقيقٍ بعدٍ بلاغيٍّ لا يتحقّق من دونها، وممّن قارب هذه الرؤية صاحب الصّبغ البديعي^(٤)، ذاكرًا أنّ: "تعريف بلاغة الكلام الذي ذكره الخطيب بقوله: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، شامل لهذه الأصباغ مع التوسّع في مفهوم الحال بجعله أعمّ

(١) شعر دعبل بن علي الخزاعي، عبد الكريم الأشتر، ص ٢٠٣ و ٢٠٤، و ظ: خزانة الأدب، البغدادي: ٥ / ٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) ظ: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ٨٨.

(٣) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٧.

(٤) على الرغم من كون الباحث قد تصدّى لإثبات بنائية البديع للمعنى، إلا إنه لم ينفك من إضفاء الصبغة عليه، ويظهر ذلك جلياً من عنوان كتابه، وقد أشار لذلك من قبل، جميل عبد المجيد في البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ظ: ٣٩.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعديد الاصطلاحي

ممّا ذكره حتى ينطبق على أحوال البديع، فإذا اقتضى الحال طباقاً أو تقسيماً أو مزاجاً أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليه مطابقاً لمقتضى الحال، وخلوّه منها غير مطابق، فيكون الأول بليغاً وفي الثاني على خلافه، وذلك أمر تقرّه الفطرة ويساعد عليه ما سردناه من شواهد^(١).

والملاحظ أنّ المؤلف يقارب رؤية السبكي التي ذكرناها آنفاً، من ملاحظة الإيراد والتطبيق.

وممّا ينبغي ملاحظته أنّه ليس كلّ أنواع البديع داخلة في بناء المعنى وإنتاج الدلالة، بل إنّها متفاوتة في ذلك، وعلى هذا الأساس ينبغي أن تصنّف، وما لحظناه من اضطراب في كلمات المتقدمين ما بين معتدّ به، كقول قدامة^(٢) وأحسن البلاغة الترصيع، والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظٍ من لفظٍ، وعكس ما نظم من بناءٍ، وتلخيص العبارة بالألفاظ مستعارة، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعانٍ متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق النظم، والمبالغة في الرّصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعاني في المقابلة، والتوازي، وإرداف اللواحق، وتمثيل المعاني^(٣)، وما سبق من كلام عنه، وبين مهمّشٍ إيّاه في مرحلة إعداد المعنى التي اصطّلحوا عليها، فإنّ كلّ ذلك ناشئ عن عدم الفصل بين أنماطه المختلفة، وقد لاحظنا محاولة أحد الباحثين المعاصرين^(٤)، إذ عمد إلى توزيع فنون البديع ضمن حقول دلالية، وعنوانات كلية، يدرج تحتها كثير من المتشابهات والمتضادات، ومن قبله كان المنزّع البديع للسجلّماسي (منتصف القرن الثامن الهجري تقريباً) محاولة جادة في انتظام البديع بمعناه الأشمل ضمن أجناس عشرة كلية تدرج تحتها المتشابهات. ولعلّ مقارنة د. صلاح فضل داخلة ضمن هذا الأفق التصنيفي والاختزالي للكثير من فنون البديع: "أمّا أشكال البديع كما استقرت في بلاغتنا القديمة فمن المعروف أنّها قد استأثرت باهتمام مبالغ فيه لدى المتأخّرين إبداعاً وتصنيفاً، وكان ذلك مرتبطاً بالضرورة بتضخيم العناية بالزخرف اللفظي المائل فيها عن طريق التوافق والتضاد في المستويات الصوتية الدلالية بطريقة شديدة التكلّف والافتعال ممّا يعكس غيبة الجدل في هذا الوعي اللغوي المغلوط، وما يمكن أن تفعله البلاغة الجديدة بالنسبة لهذه الأشكال يتركز في أمرين، أحدهما ردّ تكاثرها التصنيفي ونماذجها العديدة إلى الأبنية الرئيسة الممثلة لها وهي لا تخرج عن التوافق والتضاد في المستويات اللغوية، وثانيهما استخلاص وظائفها الجمالية من تحليل النصوص ذاتها مع استبعاد فكرة البديع ومصطلحه باعتباره زينة تضاف للكلام؛ لأنّها أبنية يتركّب منها هذا الكلام ذاته ليحلّ محلّها التصور البنيوي عن تداخل المستويات اللغوية"^(٥). ويقارب محمد عبد المطلب رؤية بنائية البديع للمعنى انطلاقاً من الترابط الفكري بين اللغة

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية، د. أحمد إبراهيم موسى: ٥٠٧.

(٢) جواهر الألفاظ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد: ٣.

(٣) هو، د. الشحات محمود أبو ستيت، في "دراسات منهجية في علم البديع".

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل: ١٤٩.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

والمنطق، الذي يفضي ضرورة- إلى أن يُحكَم الكلام إحكاماً خاضعاً للمنطق العقليّ، إذ" تتأكد علميّة البلاغة باتساقها الجوهرية مع علم المنطق؛ لأنّها تستهدف مع الجمال إنتاج الصحة والسلامة، ومن ثمّ امتدت مباحثها من منطقة الصوت المفرد إلى الكلمة المفردة إلى التركيب المفيد إلى التراكيب المتّصلة أو المنفصلة على معنى أنّ البلاغة كانت دراسة واعية لأدوات التعبير اللغويّة وكيفية إنتاجها للمعنى "(١).

من هنا كان البلاغيون يعدّون الإسفاف في استعمال البديع خرقاً لمنظومة التعبير العقلاني الواعي، وجعلوه دليلاً على سُقم الإفراط البديعي وحجّة على ثبوت التحسين للبديع، فيجعل بعض البلاغيين من انتشار فنون البديع على معظم الفضاء النصّي مظهراً مضعفاً للنصّ؛ لما فيه من التكلّف والفساد، نحو قول الباقلانيّ: "فأمّا شأو نظم القرآن، فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً، كما يتّفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذّ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق من كلامه، بالوحشيّات، ويضاف من قوله إلى الأوابد، لأنّ ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع فإنّما يتّفق للشاعر في لمع من شعره، وللکاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه، ولو كان كلّ شعره نادراً، ومثلاً سائراً، ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيّقا، وكلّ كلامه مملوءاً من رونقه ومائه، ومحلّى ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردّد بين الطرفين، ولا البارد المستنقل، والغثّ المستنكر، لم يبيّن الإعجاز في الكلام، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام، وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعضه إلى تفسير..."(٢)، فيظهر من هذا النصّ أنّ الباقلانيّ يلحظ البعد النصّي الكليّ، وهو ملحظ بسيط، ولكنّه يصوّر الاهتمام بالأفقيّ النصّي على ما ينبغي أن يكون، وبتعبير آخر النظر للنصّ في بعده الذهنيّ، إذ يجعل من عفوية الورد أو الإيراد ونفي الاستغراق التوظيفي للبديع بقوله " ولو كان كلّ شعره نادراً "، سبباً لرفض البديع وعدم اعتباره مظهراً من مظاهر الإعجاز، على حين أنّ ما يورد على البديع في هذه يورد على البيان والمعاني، فكذلك لو كان كلّ الكلام تشبيهاً أو كلّ استعارة أو كلّ كناية أو ملئ بمباني المعاني، لدخله من الفساد ما دخل البديع، ولأفسد البيان وقاد للخذلان، فالكلام هناك هو الكلام هنا، ومن ثمّ لا تصح هذه الفكرة في النقد البلاغي القائمة على الحكم بالفساد لتصور امتلاء النصّ بفنون البديع.

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٤.

(٢) إعجاز القرآن: ١١٢.

المقابلة والانعكاس مقارنة الأداء الوظيفي للتحسين:

تعدّ وظيفة إخراج الكلام على أحسن الوجوه وأكملها أهمّ أساسٍ استند إليه البديع، وهذا بنظرنا لا يتنافى مع ما قدّمناه من دور البديع في رقد المعنى، ولا بدّ أن نشير إلى أنّ أهمّ وظيفة للبديع هي تحقيق التواصل البلاغيّ والسيرورة- سنأتي على ذكرها- إذ إنّه يرفد النصّ بطاقة كبيرة على الحركة والانتقال والديمومة، يضاف إلى ذلك أنّ للبديع القدرة على الحمل الدلاليّ، بمعنى تحميله للدلالات الكبرى والمعاني التي يمكن أن تتحقّق في المستقبل، وعلى الرّغم من كون الموضوع يحتاج إلى بعد تنظيريّ أعمق ممّا يُطرح إلا إنّنا سنورد شاهدين على هذه الوظيفة يكشفان بعض الأثر عنها ويبينان الأهميّة التي يضفيها البديع على الكلام، وينحصر هذان الشاهدان بفنّي العكس والتبديل والمقابلة.

فالعكس والتبديل، كما يورده العسكريّ: "أنّ تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأوّل، وبعضهم يسمّيه التبديل"^(١)، وذكر نحوه القزويني بـ "أنّ يُقدّم في الكلام جزءٌ ثمّ يؤخّر"^(٢) ولم يأت ابن المعتز على ذكره في الفنون التي ذكرها منه ولا في محاسن الكلام، وجعل ابن أبي الإصبع العكس شاملاً للمعنى فضلاً عن اللفظ، علماً أنّ عكس المعنى الذي أراده كما في التعريف أدخل في باب السرقات منه في باب العكس والتبديل^(٣)، ولكنّه لو أراد عكس المعنى في البيت الشعريّ نفسه لكان أدخل في هذا الباب، والغريب في تعريفه أنّه يخصّه بالشاعر!، يقول: "هو أن يأتي الشاعر إلى معنىّ لنفسه أو لغيره فيعكسه"^(٤)، أمّا العلويّ فقد سمّاه بالمعكوس، وجعله مظهراً من مظاهر التجنيس، "وله في التجنيس حلاوة ويفيد الكلام رونقاً وطلاوة، وقد سمّاه قدامة الكاتب بالتبديل، وكلّ واحد من اللقبين يصدق عليه؛ لأنّه يقدم المؤخّر ويؤخّر المقدّم منه...ويقع في الألفاظ والحروف جميعاً"^(٥).

إنّ الناظر في هذا الفنّ البديعيّ يجده لأوّل وهلة مظهراً من مظاهر التكرار وإعادة القول على أوّله، بل قد يدخل ضمن أفق المقابلة كما فعل د. محمد عبد المطلب^(٦)، لكنّ الأخفش الصغير(ت٣١٥هـ) يذهب إلى جعله مظهراً طباقياً، بل أحسن طباقٍ قالته العرب، فعن أبي الفرج الأصفهانيّ، قال "قلت لعلّي بن سليمان الأخفش...طائفة -وهم الأكثرون- تزعم أنّ الطباق: ذكر الشيء وضده، وطائفة تقول: هو اشتراك المعنيين في اللفظ الواحد، فقال من الذي يقول هذا؟ قلت: قدامة وغيره، قال: هذا يا بُنيّ التجنيس، ومن ادّعى أنّه طباق فقد أتى خلافاً على الخليل والأصمعيّ، قلت أفكانا يعرفان هذا؟

(١) الصناعتين: ٣٣٧.

(٢) الإيضاح: ٢٩٩.

(٣) ظ: تحرير التحرير: ٣١٨، هامش المحقق.

(٤) م.ن: ٣١٨.

(٥) الطراز: ٣٧٨.

(٦) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٧٨.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعديد الاصطلاحي

فقال: سبحان الله وهل غيرهما في علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه، قلت: فأنشدني أحسن طباق للعرب، قال: قول عبد الله بن الزبير الأسدي^(١):

فَرَدَّ شعورَهُنَّ السودَ بيضاً ورَدَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سوداً^(٢)

وهو من مليح شواهد ابن أبي الأصبع على العكس والتبديل في تحرير التعبير^(٣).

وباب الطباق والمقابلة من الأبواب التي وقع فيها اللبس، فالطباق لغة: الموافقة، وجمع الشيين على حذو واحد^(٤)، وفي الاصطلاح: "الجمع بين المتضادين، أي المتقابلين في الجملة"^(٥)، فلا تقارب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فبأي لحاظ وضع اللفظ على مصطلحه؟، يرى كثير من الباحثين أن لا مناسبة بين البعدين لغة واصطلاحاً، وحاول بعضهم تقريب الجمع بينهما بأمرين- وإن تكلف لهما: "الأول، إن الذي يجمع بين الضدين في كلام منثور أو في بيت شعر فهو يوفق بين الضدين في هذا الكلام، الثاني إن الطباق بالتحريك المشقة، وقوله تعالى: "لتركبُنَّ طباقاً عن طبق"^(٦)، أي: مشقة بعد مشقة، فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة وفي الواقع شاقاً بل متعذراً سموا كل كلام جمع فيه بين الضدين طباقاً ومطابقة وتطبيقاً"^(٦)، في حين عدّ السجلماسي أصل طابق: خالف ونافر، لا وافق ولا عم، وحمل عليه قول الخليل والأصمعي وابن المعتز^(٧).

وتوجيه د. بسيوني عبد الفتاح فيه من التكلف كثير؛ لأن الجمع بين الضدين تعاند وتنافر، أما تفسير المشقة وحمل جمع المتعاند والمتنافر على تحقق المشقة، وإطلاق التسمية على هذا النحو فهو بعيد؛ لأن طباقاً عن طبق في اللغة ليس: مشقة على مشقة، بل حالاً بعد حال، أي حذو الفدة^(٨) بالقدة كما في المرويات^(٩)، والذي نراه موجهاً لذلك أن الطباق اسم جعل للدلالة على جمع المتضادين في سياق خطابي واحد، فالطباق مأخوذ مجازاً بمعنى الاتحاد، وهذا الاتحاد هو اتحاد السياق لا اتحاد الألفاظ المسوقة

(١) جاء في "تصحيفات المحدثين"، لأبي أحمد العسكري: (٢/ ٨٠٤ - ٨٠٦): "عبد الله بن الزبير الأسدي، شاعر أهل الكوفة، وله أخبار مع عبد الله بن الزبير بن العوام، فمن لا يميز يجعلهما واحداً، وهو القائل: إذا ركبا الأعواد قالوا فأحسنوا * ولكن حسن القول يفسده الفعل". وقالوا إن الزبير من أسماء الدواهي، والذي قرأته على أبي بكر بن دريد، أن الزبير حماة البئر....، قال: وبه سمى الزبير"، وهو الراثي لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة عليهما السلام بعد مقتلهم في الكوفة، كما في مقاتل الطالبين لأبي الفرج، ص ٧٢:

فإن كنت لا تدريين ما لموت فانظري إلى هاني في السوق وابن عقيل إلى بطل قد هشم السيف وجهه و آخر يهوي من طمار قتيل .

(٢) المنزع البديع، في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، تقديم وتحقيق: علال غازي: ٣٧٢.

(٣) ظ: تحرير التعبير: ٣٢٠.

(٤) ظ: الصّاح للجوهري: ١٥١١/٤-١٥١٣.

(٥) الإيضاح: ٢٨٨.

(٦) علم البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ١١٢-١١٣.

(٧) ظ: المنزع البديع: ٣٧٠.

(٨) الفدة بالضم: ريش السهم.

(٩) ظ: مسند أحمد: ١٢٥/٤، و مجمع الزوائد، ٢٦١/٧، والمصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ٣٦٩/١١، وبحار الأنوار: ٣٩٠/٢٢. ونص الحديث: "لتركبُنَّ سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل، والفدة بالقدة".

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعديد الاصطلاحي

ضدياً، ويُدلّ عليه، أنّ الملاحظ في جميع سياقات الطباق أنّها تعني الانطباق والتلاحم، ويكثر الخروج المجازي للفظه طبق من نحو: " من المجاز: الطبق: القرن من الزمان، ومنه قول العباس يمدح النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) :

تُنقلُ من صالبٍ إلى رحمٍ إذا مضى عالمٌ بدا طبقٌ

أي: إذا مضى قرن بدا قرن، وقيل للقرن: طبق؛ لأنهم طبق للأرض، ثم ينقرضون، ويأتي طبقاً آخر،... من المجاز، الطبق: الحال على اختلافها، عن ابن الأعرابي، ومنه قوله تعالى: (لتركبن طبقاً عن طبق) أي: حالاً بعد حال، ومنزلة بعد منزلة، كما في الأساس،... ومن المجاز، الطبق من المطر: العام نقله الصّاغاني والأصمعي، وإنما سُمي طبقاً لأنه غشاء للأرض، ومن المجاز، هذه بنت طبق، وإحدى بنات طبق وهي الدواهي وفي المثل: إحدى بنات طبق، وأصلها من الحيات والطيح: وجه الأرض وهو مجاز^(١).

أمّا اصطلاح المقابلة فهو "إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة"^(٢) و "إتيان معنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثمّ بما يقابلها على الترتيب"^(٣)، فهنا يتّضح أنّ توارّد عدّة معانٍ متطابقة يحقّق التقابل، وهو الأنسب، وعليه لا يستقيم توجيه الدكتور محمّد عبد المطلب في عدّ العكس والتبديل من التقابل.

وقد حاول د. محمّد عبد المطلب دراسة العكس والتبديل من ناحية مستويات البنية اللغويّة (السطحية والعميقة)، مقارنةً للأفق التحويلي في الدرس اللغوي الذي طرحه تشومسكي^(٤)، جاعلاً منه "بنية تجسّد في عمقها ازدواج الركيزة الإنتاجية على نحو قريب من التقابل... وإنّ خطّ الدلالة في حركة تقدّمية، أي اللغة تنمو وصولاً إلى منطقة دلالية يحسن الوقوف عندها... عملية توقف مؤقتة تعدّل فيها الصياغة سيرها لتجعلها خطأ مزدوجاً قائماً على التقديم والتأخير الذي تتبادله الدوال المتماثلة وهو ما يدخله دائرة التكرار؛ لأنّ الذهن يتحرّك إلى الأمام، فيدفع الصياغة إلى متابعته ثمّ يرتدّ للوراء، فتلاحقه أيضاً وبين التقدم والتراجع تتوافق البنية السطحية وتتخالف بنية العمق"^(٥)، ولتوضيح هذا الكلام لا بدّ من تفكيكه، فالمقصود بالركيزة الإنتاجية هي المعنى القائم تحت بنية العكس المتمثّل بالتقابل كما يراه المؤلف، على حين يعتبره الأخفش من الطباق كما ذكرنا، واللغة بدورها تتحرّك باتجاه الطرف الأول من التقابل لتقريره إذ عنده يتمّ المعنى الأول، أمّا تعديل الصياغة سيرها فهو بداية التحول العكسيّ، وبدء اشتغال بنية العكس البديعيّ، وهو في الحقيقة ليس تعديلاً في الصياغة، بل هو تولّد بنية جديدة عن تلك السابقة، كما أنّ الملاحظ في التقديم

(١) تاج العروس : ٢٨٨-١٨٢/١٣.

(٢) الصناعتين: ٣٠٤.

(٣) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ٥٩، و علم البديع د. بسيوني عبد الفتاح: ١٢٦.

(٤) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٩١، وما بعدها.

(٥) م: ٣٧٨.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتفعيد الاصطلاحي

والتأخير أنه لا يولدُ بنيةً متوافقة بل متخالفة، فبنية السطح والعمق متخالفان، وهذا هو مقتضى الأصل الذي بُني عليه العكس، فلو توافقت البنية السطحية لتوافقت البنية العميقة، وبهذا فقد خرج العكس عن غايته، وبالتأمل يتّضح أنّ حقيقة العكس ليس بنيتين مستقلّتين بل هما عبارة عن بنية ارتكازية تتأسّس عليها بنية فرعية منبثقة عن الأولى متولّدة منها تولّد الفسيل من الشجر، فمثلاً قولنا: "كلامُ الإمامِ إمامُ الكلام"، فبنية (كلام الإمام) بنية جزئية تدلُّ على الكلام الصادر عن فرد وهو الإمام، والبنية الثانية اتكأت على البنية الأولى في تأسيس دلالتها العكسيّة "إمام الكلام"، ولكن السؤال هل تحقّقت إضافة دلالية للمعنى الأول؟ بالطبع والذي حقّقها الجناس التام بين إمام وإمام المتولد من العكس، والاستعارة المتحقّقة في استعارة الإمامة للكلام، وهذه الظاهرة من خصائص البديع، إذ يندرج ضمن الفنّ الواحد فنّان أو ثلاثة؛ لإضفاء الصورة وتحقيق الحبك؛ لهذا "يلاحظ أنّ البنية تعتمد عمليّة التعليق في إنتاج الدلالة، على معنى أنها بنية تركيبية لا إفرادية وهذا التركيب لا يعتمد على التنافي بين الدوالّ المكرّرة بل إنّّه يعمل على عقد تلازم بينهما وهو تلازم المغايرة إذ إنّ اكتمال بنية العكس بمجيء الطرف الثاني يترتّب عليه تعديل المعنى على نحوٍ من الأنحاء؛ لأنّ هذا التغير يقتضي بالضرورة تغير الناتج الدلالي"^(١).

وقد ذكر البلاغيون ثلاث تشكيلاتٍ للعكس والتبديل^(٢):

- ١- أن يقع بين أحد طرفي جملةٍ وما أضيف إليه، كالمثال السابق.
- ٢- أن يقع بين متعلّقَي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" (سورة الروم ١٩).

٣- أن يقع بين لفظين في طرفي جملتين "هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ" (سورة البقرة ١٨٧). وأكثر العكس ثماراً دلاليّة ما كان من النوعين الأخيرين، حيث يعتبرُ مكملاً دلاليّاً لا بدّ من مجيئه كي لا يكون افتقاراً في المعنى، وخصوصاً المعاني التي تعبّر عن حقائق كونية كبرى، فمن ذلك ما ورد عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعائه عند الصباح والمساء: "وجعل لكلٍّ واحدٍ منهما حدّاً محدوداً، وأمدّاً ممدوداً، يولجُ كلّ واحدٍ منهما في صاحبه، ويولجُ صاحبه فيه بتقديرٍ منه للعباد"^(٣)، حيث أراد (صلوات الله عليه) بهذا البيان البديع التعريف بما لم تدركه العقول في تلك العصور وهو كروية الأرض، وإذ إنّ هذا المعنى كان بعيداً عن أفهام الناس؛ لانصراف العقول عن إدراك ذلك، تلطّف- وهو الإمام العالم بأساليب البيان - بالإشارة إلى ذلك على وجهٍ بليغ، فإنّه (عليه السلام) لو كان بصدد بيان ما يشاهده عامّة الناس من أنّ الليل ينقص تارة فتضاف من ساعاته إلى النهار، وينقص النهار تارة أخرى فتضاف من ساعاته إلى الليل، لاقتصر على الجملة الأولى: "يولجُ كلّ واحدٍ منهما في صاحبه" ولمّا

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٧٩.

(٢) ظ: الإيضاح: ٢٩٩.

(٣) هذا المقطع من دعائه عليه السلام مضمون آية قرآنية "يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل"، سورة الحج ٦١ و، لقمان ٢٩، فاطر ١٣، الحديد ٦. الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام عند الصباح والمساء: ٥٠.

الفصل الثاني..... البديع بين الفضاء اللغوي والتفعيد الاصطلاحي

احتاج إلى ذكر الجملة الثانية: " ويولجُ صاحبه فيه " إذاً فذكر الجملة الثانية إنما هو للدلالة على أن إيلاج كل من الليل والنهار في صاحبه يكون في حال إيلاج صاحبه فيه؛ لأن ظاهر الكلام أن الجملة الثانية حالية، ففي هذا دلالة على كروية الأرض، وأن إيلاج الليل في النهار - مثلاً - عندنا يلزم إيلاج النهار في الليل عند قوم آخرين، ولو لم تكن مهمة الامام (عليه السلام) الإشارة إلى هذه النكتة العظيمة لم تكن لهذه الجملة الأخيرة فائدة، ولكانت تكراراً معنوياً للجملة الأولى^(١).

فالكلام واضح الدلالة على تمام المراد، وهذا النمط الذي سقنا له هذا المثال هو بالتحديد الذي يدخل في دائرة التكرار، إذ أخطأ د. محمد عبد المطلب، ومن قبله د. عز الدين علي السيد في كتابه التكرير بين المثير والتأثير^(٢) في عددهما العكس والتبديل مطلقاً من التكرار، ولكن التكرار غير حاصل في النمطين الآخرين، بل هو - إن صحّت التسمية - إيهام التكرار بسبب عكس الصياغة من نفس التركيب الأول (الأم)، ولو كان تكريراً لخرج إلى غرض من الأغراض التي ذكرها د. عز الدين علي، إذ بين أن مثال النمط الأول ينصرف غرضه للمدح، والثاني لبيان القدرة وتقريرها وكمال التصرف في الأضداد، والثالث للتشابه^(٣)، وفيما يتعلّق بالثاني، فقد اتضح أن النصّ في صدد تأكيد قانون كونيّ وحقيقة ثابتة عبر سبحانه وتعالى عنها باللغة؛ لتكون حاملة لدلالاتها، أما بيان القدرة فغرض عام.

ومن ثمّ فالتكرار يشتمل على طرفين، الأول هو الأصل، والثاني هو الفرع، ومقتضى العكس المستوي تبديل طرفي القضية مع بقاء الكيف، وتحقق صدق العكس إذا صدق الفرع، وكذبه إذا كذب، كأن نقول: بعض السائل ماء وبعض الماء ليس بسائل^(٤)، فالعكس صحيح ولما كان التكرار بالنمطين المتقدمين لا يورث انطباقاً على الأصل فقد خرج عن حدّ التكرار.

أما الطباق فإن بنيته قائمة على التناسب مع اعتمادها في الأساس على التخالف^(٥)، ولا بدّ هنا أن نوضّح حقيقة هذا التناسب؛ لأنّ بعض الباحثين، ومقاربة لهذا التناسب وقع في إشكال جمع المتناقضين بنسبة ما، لذهابه إلى أن " التناقض يمثل تناسباً على نحو من الأنحاء"^(٦)، معتمداً على تسمية العلويّ له بالتكافؤ^(٧)، وحقيقة الاشتباه في أمرين: الأول خلط مفهوم التناقض بمفهوم التضادّ وجعلهما واحداً، في حين أنّهما أمران مختلفان إذ التناقض هو " اختلاف في القضيتين يقتضي لذاته أن تكون إحداها صادقة والأخرى كاذبة"^(٨) لهذا

(١) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي: ٧٦ - ٧٧.

(٢) ظ: التكرير بين المثير والتأثير: ٢١٧.

(٣) ظ: م: ٢١٨.

(٤) ظ: المنطق، للشبيخ المظفر: ١٧٢-١٧٤.

(٥) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٤.

(٦) م: ٣٥٥.

(٧) الطراز: ٣٨٣.

(٨) المنطق: ١٦٨.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعقيد الاصطلاحي

فالنقيضان "أمران وجوديٌّ وعدميٌّ، أي عدم لذلك الوجودي، وهما لا يجتمعان، ولا يرتفعان ببديهة العقل ولا واسطة بينهما"^(١)، في حين أنّ الضدّين "أمران وجوديّان متعاقبان على موضوع واحد ولا يتصوّر اجتماعهما فيه، ولا يتوقّف تعقل أحدهما على تعقل الآخر"^(٢)، وهما لا يجتمعان ولكن قد يرتفعان، والأمر الآخر هو في فهم التناسب، فالتناسب ليس توافقاً أو تشابهاً دائماً، بل إنّ في توقّف شيءٍ على شيءٍ نوعاً من التناسب، كتداعي المعاني المقتضي لحضور معنىٍّ بحضور لازم، كما أنّ التضاد الحقيقي بين الشئيين اللذين لا ثالث لهما كالظلمة والنور، والليل والنهار، والموت والحياة، ونحوها يكون عاملاً في تقارنهما ذهنياً، كما قيل إنّ الأشياء تعرف بأضدادها لجهة الملازمة، فإتيان الشيء بما يناسبه من الضدّ نتيجة للتعالق الذهنيّ الحاصل بينهما يمثل نحواً من التضاد، لا أنّ التناقض يمثل نحواً من أنحاء التناسب، ولا شكّ في أنّ العلويّ في تسميته للطباق بالتكافؤ قد لحظ هذا الجانب. والتطابق مرتبط بجانب ذهنيّ متعلّق بالعلاقات الضديّة الطبيعية بين الأشياء، فحضوره حضور طبيعيّ نظراً للحقائق المتقابلة في الكون، فعندما يتحقّق حضوره فهو تحقّق قائم على التلازم، ولكن يمكن توظيفه ليكون حاملاً لدلالات مفتوحة كما العكس والتبديل، فمن ذلك هذا النموذج: من كلام للإمام عليّ (عليه السلام):

"بلادكم أنتنّ بلاد الله تربةً، أقربها من الماء وأبعدها من السماء، وبها تسعةُ أعشار الشرّ، المحتبس فيها بذنبه والخارج بعفو الله، كأنّي أنظرُ إلى قريبتكم هذه قد طبّقها الماء حتى ما يرى منها إلا شرف المسجد كأنّه جوجو طير في لجة بحر". وفي مثل ذلك: "أرضكم قريبةٌ من الماء، بعيدةٌ من السماء، خفت عقولكم وسفهت حلومكم، فأنتم غرضٌ لنابل، وأكلةٌ لأكل، وفريسةٌ لصائل"^(٣).

ويلقّ ابن أبي الحديد المعتزلي على ذلك شارحاً: "...ومرادّه عليه السلام بقوله: "قريبةٌ من الماء"، أي، قريبةٌ من الغرق بالماء، وأمّا "بعيدة من السماء"، فإنّ أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أنّ أبعدَ موضع في الأرض عن السماء الأبلّة^(٤)، وذلك موافق لقوله عليه السلام ومعنى البعد عن السماء هاهنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار^(٥) والبقاع، والبلاد تختلف في ذلك، وقد دلت الأرصاد والآلات النجومية على أنّ أبعدَ موضع في المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الأبلّة، والأبلّة هي قسبة البصرة، وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين

(١) المنطق : ٥١.

(٢) م.ن : ٥٢.

(٣) نهج البلاغة ، صبحي الصالح، خطب الإمام علي عليه السلام :- ١ / ٤٥ - ٤٦.

(٤) الأبلّة بضمّ أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى ، في زاوية الخليج الذي يدخل

إلى مدينة البصرة ، وهي أقدم من البصرة . مرصد الاطلاع ١ : ١٨ .

(٥) دائرة معدل النهار: هو خط الاستواء بالاصطلاح الفلكي الحديث.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء اللغوي والتعديد الاصطلاحي

عليه السلام؛ لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب، ولا تهتدي إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسرارهِ وُغرائهِ البديعة"^(١).
فالتقابل حمل دلالة تتمثل في بيان قضية فلكية ترتبط بأبعد نقطة من السماء على الأرض، وربما يفسر مفسراً أنّ المقصود بالبعد عن السماء هو عدم استجابة الدعاء، فالقضية مرتبطة بجانب معنوي، ولكن السياق التطابقي يقتضي المعنى الأول الذي ذكره ابن أبي الحديد؛ لأنّ المقابلة بين الماء والانخفاض الذي عليه تلك البقعة هو أدعى للتناسب وأحقّ بالتقارب بين الدلاتين، فتصبح كلتاها مكانيتين، كما أنّ الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه مفردتا القرب والبعد هو المكان.
ومثلها قول المتنبي:

كالبحر يقذف للقريب جواهرأ جوداً ويبعث للبعيد سحائباً^(٢).

فهو توظيف للحقيقة العلمية المفسرة للمطر بأنّه قائم على ظاهرتي التبخير والتكثيف.

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٢٦٨ / ١.
(٢) شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي، مراجعة، د. يوسف الشيخ محمد البقاعي: ١٦٣/١، ولم يشرح البيت.

السيرة الأدبية أو (النسق المرجع) :

تشكل مظاهر البديع الإيقاعية التي غنيت الدراسات البديعية الحديثة بتسليط الضوء عليها والعناية بتركيبتها ونواتجها الدلالية؛ نتيجة لاشتراكها في عامل الإيقاع بما لا يتوفر في غيرها، وخصوصاً (التوازي، والتوازن، الموازنة)، تشكل مظهراً مهماً وبارزاً من مظاهر الصناعة الصوتية، وتتبوأ مكاناً وظيفياً مع الازدواج والسجع في إكساء الأسلوب التعبيري شكلاً جمالياً متضافراً مع الدلالة إذ " يكشف التوازي عن البنية المسؤولة عن توزيع العناصر اللغوية والفنية والدلالية داخل العمل الفني شعراً ونثراً"^(١)، ولعل من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسات الحديثة حول البديع بعامّة كما سنأتي عليها، هو بيان تحقق سمة الأدبية وإكساب الكلام صفة النصية عن طريق السبك والحك بفضل من فنون البديع^(٢)، ومن ثمّ فالتواصل الخطابي مدينٌ للبديع في تحقيقه.

وقد أخذ التوازي – على نحو الخصوص- " وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزناً ومعنى"^(٣)، في الدراسات الحديثة عند منظري البلاغة – الغربية والشرقية – مكاناً مهماً في التعاطي مع النصوص وخصوصاً الشعرية منها؛ إذ مثّل (التوازي) مقوماً مهماً من مقومات الأسلوب الشعري قدّم من خلاله صموئيل روبير ليفن تفسيراً لدوام القصيدة بمعنى عدم موت البناء الشعري بعد انبعائه، وهذا الدوام محققٌ في ذاكرة المتلقّي من خلال البنية اللفظية الملموسة الناتجة عن التوازي^(٤).

والذي يذهب إليه بعض النقاد المحدثين (من الغرب ك بول فاليري، ومن وافقه من النقاد الشرقيين)، إلى أنّ طريق بلوغ الغاية في النثر قصيرٌ قليل الجهد، يأخذ خطأً مستقيماً من خلال لغته التي تنتهي، وتتلاشى بمجرد بلوغها الغاية التي أرسلت لأجلها فتذهب رائحة من غير رجعة، فبمجرد أن يفهم المتلقّي ألفاظ المتكلم فإنّ الألفاظ ستكون ثوباً خلقاً لا بدّ من طرحه والتعويض عنه بحلّة لفظية قد تختلف في صيغتها، وبالضدّ من ذلك فإنّ القصيدة لا تموت بعد استخدامها، بل إنها بُعثت لتحيّا^(٥).

ومن ثمّ فإنّ الصناعة الصوتية وآفاقها وطرانقها المتعدّدة، ومن أبرزها التوازي – حسب النقد الحديث – تمثل مصدر الحياة بالنسبة للشعر.

كما أنّ للمركبات المتماثلة الناتجة من اللعب اللفظي [Molle à lafesse/Folle à la messe] كقول المتنبي:

أدُمُ إلى هذا الزمان أهْيَلُهُ فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدٌ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عم وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قردٌ^(٦)

(١) البديع والتوازي، د. عبد الواحد حسن الشيخ: ٧.

(٢) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد: ٣٢ و ٧٥ وما بعدها.

(٣) ظ: البلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة: ٣٨٢.

(٤) ظ: مجلة فكر ونقد، العدد ٣٤ المدخل إلى بلاغة المحسنات، محمد الولي: ص ٢٧.

(٥) ظ: م.ن: ١٨/٣٤.

(٦) ديوان المتنبي: ١٩٨.

وكالتقطيع المتوازي، نحو قول المتنبي أيضاً:
 سأطلبُ حَقِّي بالقنا ومشايخُ
 كأنهم من طولِ ما التثموا مُردُ
 ثقالُ إذا لاقوا خفافُ إذا دعوا
 كثيرُ إذا شدوا، قليلُ إذا غدوا (١)
 أو التوازي القائم على القلب، كقول ابن الرومي:
 طواه الردى عني فأضحى مزارهُ
 بعيداً على قُربٍ قريباً على بُعدٍ (٢)
 أو التقطيع المقفى: كقول أبي تمام:

تجلّى به رُشدي وأثرتُ به يدي
 وفاض به ثمدي وأورى به زندي (٣)
 لهذه الأنماط من المحسنات بعداً يمثل مقومات تمدد الصناعة الصوتية للغة الشعرية بالحياة، وهذا سرُّ يُفسرُ ديمومة الخطاب الشعري دون الخطاب النثري.
 لذلك فـ" الآثار الأشدُّ بروزاً تتحقّق على المستوى الصوتي بفضل الجناس [الأليتراسيون] والقافية ونبور المقاطع الثابتة، وتحقّق نفس الصوائت والمقاطع بأكملها في مواقع بارزة صوتياً...، وعلى المستوى التركيبي بفضل التوازي والمقابلة والتكرار الافتتاحي...، وعلى المستوى المعجمي بفضل علاقات الترادف والاستعارة والكناية والمجاز المرسل بين ألفاظ النص" (٤)، " إنَّ تميّز القصيدة بخاصية الدوام في الذاكرة ببنياتها اللفظية الملموسة تنتج جزئياً عن الازدواج (أو التوازي) الذي يكون نسيجها، إنَّ تكسير هذه الأزواج في أية نقطة من النصّ يعني تقويض الأثر الشعري، وهذه المقومات نفسها هي التي تسمح بالعودة إلى تشكيل الخطاب الشعري، بعد قراءته أو سماعه والعودة إلى تحقيق نفس الاختيارات في السنن اللغوي، باعتبار ذلك نتيجة ضغطه المطرد الخاص" (٥).

هذه مجمل الرؤية التي تحكم بالدوام على الشعر وبالأقول على النثر، والذي نلاحظه على هذا القول، أنَّ هناك حقيقة أدبية ثابتة، وهي أنه ليس كلُّ ما نُظِمَ شعراً هو شعراً بالمعنى الفني، ومن ثمَّ ليس كلُّ من جرى على لسانه قولٌ موزونٌ ومقفى هو شاعرٌ، وعليه فالكلام المنصرم يجري على روائع ما قيل من الشعر العربي، وهذه الحقيقة كما هي في الشعر فهي حقيقة ثابتة للنثر أيضاً، فليست اللغة العادية وإن اشتملت على معاني الاستعارة والكناية والمجاز وغيرها من فنون البيان،- إذا ما استصوبنا القول بالذهاب إلى كون اللغة العادية في كثير من مواردنا لغة استعارية- يمكن أن نسميها نثراً بالمعنى الفني،- ولا من سطر الكلام وسرد الوقائع سمي خطيباً أو مترسلاً، وإلا لما سمعنا بصفات كالخطيب المصقع والمتكلم المفوه والبليغ والذليق والذرب، ولا عرفت أضدادها: كالعبيّ والحصر واللغ وغيرها من صفات السلب (٦).

إنَّ جميع وسائل التحسين الزخرفي واللفظي البديعية مبثوثة في النثر كما هي في الشعر، فاللغة هي المادة الأولية ومن ثمَّ تأتي الموهبة والقدرة والذكاء والطبع والصفاء الروحي لتصبَّ

(١) ديوان المتنبي: ١٩٨، و ظ: شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي: ٣٨٦/١.

(٢) ديوان ابن الرومي، تحقيق، د. حسين نصار: ٦٢٤/٢.

(٣) ظ: شرح الصولي لديوان أبي تمام دراسة وتحقيق، د. خلف رشيد نعمان: ٣٥٨/١.

(٤) F.Lazaro carreter K "La linguística norte Americana y lose studios literarios en la qécada in , Estudios de pética , edK . Taurus , ١٩٦٨-١٩٥٨ " . نقلاً عن مجلة فكر

ونقد، العدد ٣٤ ، مدخل إلى بلاغة المحسنات، محمد الولي: ٢٧-١٧.

(٥) مجلة فكر ونقد، المصدر السابق المورد نفسه.

(٦) ظ : مقدمة في النقد الأدبي ، د. علي جواد الطاهر: ١٧٠.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتفعيد الاصطلاحي

هذه اللغة في أيّ من القالبين: الشعري أو النثري، وهذه الوسائل مطروحة على الجانبين توظف حسب مقتضيات الحال والصناعة.

إنّ اللغة النثرية لا تخلو من الصناعة الصوتية التي يتحلّى بها الشعر، فالتوازي والترصيع والسجع والتقطيع والتضاد المتوازي والترادف المتوازي، والتجانس والتطابق والتضمين وغيرها من البديع الإيقاعي، هي في النثر كما الشعر، والذي يحدّ من استعمالها في الشعر الوزن، والذي يطلق لها العنان في النثر السمة السردية^(١).

ويسترسل بعض النقاد في أنّ النظرة الفارقة بين الشعر والنثر لمكان الوزن والقافية في النظم الشعري دون "النظم النثري"^(٢) تمثل نظرة تقليدية تبنتها البلاغة "الموروثة"^(٣) حتّى مراحل ازدهارها، وهذه النظرة ستكون قاصرة عن إدراك القيمة الجمالية للنصّ الإبداعي وتحديد بنيته الفنية، وهذا ما دعا الشعرية اللسانية إلى إعادة طرح القضية من جديد مقرّرة أنّ الفرق بين الشعر والنثر يتمّ من خلال الشكل، وليس المادة أي من خلال المعطيات اللغوية الداخلية وليس المضامين التي تعبّر عنها تلك المعطيات، ومن هنا فإنّها ليست مجرد زينة وحلية للخطاب الشعري، بل إنّها خصائص جوهرية وسمات أساسية في الخطاب الشعري، فهذه الصور البلاغية - كما يقول كوهن - ليست مجرد زخرف زائد، بل إنّها لتكوّن جوهر الفنّ الشعري نفسه، فهي التي تفكّ إيسار الحمولة الشعرية التي يخفيها العالم، تلك الحمولة التي يحتفظ بها النثر أسيرة لديه... فالشاعر نظراً لذلك "لا يرتّب أفكاره نثراً ثمّ يحولها إلى شعر بإضافة محسنات لغوية بديهيّة؛ لأنّ "طريقة التعبير الشعري تحمل أفكار الشعر الخاصة، بحيث تصبح الفكرة نفسها فكرة شعريّة، ويصبح تجريدها من صياغتها الشعرية تدميراً لها بوصفها شعراً"^(٤).

ويرى الباحث، أنّ الشعر والنثر يتشاطران سِمَتَيْنِ رئيسيتين لهما أعظم الأثر في تشكيل خطابيهما، وإضفاء السمات الخاصة على كلّ واحدٍ منهما، وهاتان السمتان هما: الوزن في الشعر، والسرد في النثر، فهاتان حقيقتان لا يمكن إغفالهما وتجاهلهما على كلّ من الشاعر والناثر في شعره ونثره، فالوزن بالنسبة للشاعر يمثل فضاءً مغلقاً، والسرد بالنسبة للناثر يمثل فضاءً مفتوحاً وممتدّاً، والوزن يمثل التضييق الذي ينبغي على الشاعر أن يجري لغته وفقه، والسرد يمثل السعة والامتداد الذي ينبغي للناثر أن يوظف لغته فيه، والمشكلة التي تتعزّر الشاعر هي ضيق الوزن في احتواء امتداده اللغوي للتعبير عن حالته الشعورية الخاصة، أمّا الناثر فتعزّره مشكلة سعة الفضاء السردية، والذي قد تعجز لغته عن سدّه للتعبير عن مفاهيمه وأفكاره، فيكون النصّ إزاءه فضفاضاً ذا مساحات فارغة.. فكلّ من الشاعر والناثر يمثل أمام ذهنه قالباً الذي يفرغ فيه ما يريد، فالوزن والقافية في الشعر ليست مسألة هيّنة مستهلكة أمام التجربة الشعرية بل هي التي عليها مدار النظم في الشعر كما السرد في النثر. وفي نظرنا أنّ جميع المعطيات البلاغية والتحسينية للغة الشعرية تنوء بحمل الاعتراف بالفضيل والمزية إلى الوزن والقافية اللذين يمثلان الدّقة للتحكم بشراعتها وتوجيهها وجهتها،

(١) ظ: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان: ٢١٥.

(٢) لما تبيننا كون الصناعة النثرية كالصناعة الشعرية وأنّ الفرق كائن في الوزن والسرد كما ذكرنا، استحسننا إطلاق صفة النظم على النثر كما الشعر.

(٣) مرّ أكثر من مورد أطلقنا على البلاغة العربية فيه هذه الصفة وهي بنظرنا أنسب من صفة "القديمة"؛ لأنّ الأخيرة تضفي عليها سمة التهرؤ والنبد وليست البلاغة كذلك وإن تقدّم عهدها.

(٤) الشعرية اللسانية والشعرية الأسلوبية، محمد القاسمي، مجلة فكر ونقد، العدد (٥٨)، البحث الثالث، ص ٥١ و ٥٢.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتفعيد الاصطلاحي

وكذا السرد في النثر، ونؤكد ما ذكرناه آنفاً بأن معظم المعطيات التي تنهض باللغة الشعرية فإنها جارية متحققة باللغة النثرية، وما تقتقر إليه تلك تقتقر إليه هذه.

وهنا لا يمكننا أن نغفل القدرة والموهبة الذاتية والفتنة والذكاء في تصريف الكلام وربط أجزائه وإقامة علائقه، للناظم النثري أو الناظم الشعري، والذي نريد أن نخلص إليه، بأننا إذا ما جعلنا من النصوص النثرية العالية كخطب النبي (صلى الله عليه وآله) وخطب الإمام علي (عليه السلام) خصوصاً، وكذا رسائله، وبيانات الأئمة (عليهم السلام) ونماذج أدعيتهم العالية البيان، كالصحيفة السجادية- نماذج نثرية متقدمة ومشملة على جميع عناصر الإبداع الفني- حكماً لما طرحناه، فإننا سنقف على أن ما طرح على أنه حقيقة ثابتة بأن النص الشعري له حياة وديمومة لخصائصه والنص النثري ينتهي ببلوغ غايته، زعم نسجه الوهم، وتكذبه تلك الشواهد الواقعية والتاريخية، فمثلاً، النصوص الفنية لنهج البلاغة (خطباً ورسائل) تمتلك كثيراً من صفات وسمات الحياة والديمومة، وأفكاره العالية التي استوعبت جميع الهموم والمشاكل الإنسانية، والقالب الفني الذي جرت فيه بمعطياته الفنية من كثافة الصور وانتظامها، وبراعة التراكيب وكثافة الإيقاع المتواطئ مع الدلالة، والانسيابية والسكون وتوافق الفواصل واعتدالها، واكتمال المعنى الجزئي لكل فاصلة والتنامي مع أختها مع نفوذ التأثير وإصابة المعنى وبلوغ الحجة، جميعها وغيرها مما خفي عن جري اليراع، خرجت بأسلوب نعت الرضي بأن عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي، أسلوب يُقيم عدوه من بين الحشد هاتفاً: قاتله الله كافراً ما أفقهه^(١)، أسلوب يُصعق همّام فيجاور ربّه^(٢)، وهو (عليه السلام) الناعت لنفسه: "تالله لقد علمت تبليغ الرسالات وإتمام العِدات وتتمام الكلمات.." ^(٣) والذي من قوله استقى الخطباء خطبهم ومن كلماته رصع الكتاب كتبهم من عبد الحميد إلى ابن العميد، وما سنّ الفصاحة لقريش غيره ^(٤).

وما أكثر ما أبدى ابن أبي الحديد إعجابه ودهشه من وقوعه في أسر كلامه، فكان ممّا يقول تعليقاً على جملة من كلامه (عليه السلام): "وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب، اقشعر جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة الله في روعه وجلده، وهام نحوه، وغلب الوجد عليه، وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً، وأن يفارق هيكله صبايةً ووجداً" ^(٥).

ومن ذلك أيضاً تعليقاً على خطبة له (عليه السلام)، يبين شدة إعجابه بها ومُلْكها لإساره، والقول يحكي لنا حقيقة الديمومة والحياة لهذا الكلام وأمثاله، يقول: "وأقسم بمن تُقسم به الأمم كلها، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعةً وخوفاً وعظّة، وأثرت في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رعدةً، ولا تأملتها إلا وذكرت الموت من أهلي وأقاربي وأرباب ودي، وخيلت في نفسي أنني أنا ذلك الشخص الذي وصف (عليه السلام) حاله" ^(٦).

وقد امتدّ هذا الإعجاب إلى جميع من رام للأدب والبلاغة وصلاً، وأراد أن يسود لصفحاته فصلاً، فيتحدث د. زكي نجيب محمود عن نهج البلاغة، فيقول: "وها أنا ذا أعيد القراءة هذه

(١) نهج البلاغة: باب الحكم، الكلمة ٢٠، ص ٥٥٠.

(٢) م.ن: الخطبة ١٩٣، ص ٣٠٣-٣٠٦.

(٣) م.ن: الخطبة ١٢٠، ص ١٧٦.

(٤) هذه كلمة من نصب له العداوة ومدّ له أشرار البغض والغلظة والبدواة، معاوية بن أبي سفيان، ينظر: شرح النهج، ابن أبي الحديد المعتزلي، ٢/١ و ٢٧٩/٦ و ١٥٢/١١.

(٥) شرح النهج: ٤٢٦/٦.

(٦) م.ن: ١٥٣/١١.

الفصل الثاني.....البديع بين الفضاء الدلالي والتفعيد الاصطلاحي

الأيام، فإذا النغمات تزدادُ في الأذنين حلاوة، وإذا العبارات كأنها طلاوة إلى طلاوة، ولست أعني زُخرف الكلام، بل أعني طريقته في اختيار اللفظ الصُّلب العنيد الذي لا يقوى على تشكيله إلا إزميلٌ تحرَّكه يدُ المثال الذي يتخير لتماثيله صُمّ الجلاميد، ليبقى عملاً أقوى من الدهر دواماً وخلوداً... إنَّ اللفظ قد نُحت من حجر صوان وصفَ بعضها إلى بعض صفّاً عجيباً^(١)، فهل يقفُ الزمن حاجزاً ليحُدَّ من سيلانه الهادر؟ لا أعتقد ذلك.

وتعابير الأدباء حولهُ جمّة كثيرة^(٢)، والذي نخلصُ إليه أن ما ورد في نهج البلاغة وغيره من كلام الإمام علي (عليه السلام) ممكنٌ أن يُعدَّ بحقٍّ رائداً في ميدان النثر الفني الرفيع في عصر صدر الإسلام، وملهماً لمن بعده، أمّا دعوى تلاشي اللفظ بعد بلوغ غايته بإيصاله المعنى، فهذا الزعم يفنّده أن يعتمد من يرغب إلى كلام نهج البلاغة، وليُعد صياغة معناه بما يملك من دعامة لفظية، وليبثها فهل نرى لها من باقية؟ وفيما عقده ابنُ أبي الحديد من مقارنة حيّة ونقدية لاذعة، بين خطبة في الجهاد لابن نباتة وخطبة الجهاد الواردة عن الإمام علي (عليه السلام)، دلالة واضحة على تعثر المحاولة وضعف الآلة^(٣).

كما أن صفة الشعورية لا تكاد تنفك عما أثر من نتاج عن الإمام علي (عليه السلام)، وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور محمد مهدي البصير عندما سأله أحد تلامذته؟

- هل كان الإمام شاعراً؟ فأجاب:

- نعم ولكن في خطبه ورسائله....^(٤)

(١) صوت الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، السيد حسن السيد علي القبانجي: ٤٨ / ١.

(٢) يستشهد "نرسيبيان" رئيس كتاب القنصلية البريطانية ببغداد سنة ١٣٢٨ هـ على تفوق نهج البلاغة على كل كلام عربي، لمقام السهل الممتنع فيه، بقول الإمام (عليه السلام): "أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشَغَف الأستار نطفة دهاقاً، وعَلَقَة محاقاً وجنباً وراضعاً ووليداً ويافعاً ثمَّ منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وبحراً لاحظاً ليفهم معتبراً ويُقصر مزدجراً حتى إذا قام اعتداله واستوى..." نهج البلاغة: الخطبة ٨٣، ص ١٠٧-١١٢، لو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا، لرأيتهم مسجدها على سعته يتموِّج بقبعات الإفرنج للإستقاء من بحر علمه الزاخر" ظ: صوت الإمام علي في نهج البلاغة: ٣٦/١.

(٣) ظ: شرح النهج، ١٦١/١-١٦٢، و ١١٤/١٣.

(٤) ظ: مقدّمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر: ٣٧-٣٧.

الفصل الثالث

مصادر التجديد / تحليل وموازنة

- 1- النظرية اللسانية / البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد.
- 2- البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب/ النظرية التحويلية – التوليدية لنعوم تشومسكي.
- 3- البديع التوازي، د. عبد الواحد حسن الشيخ.
- 4- العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي، د. عبد الواحد حسن الشيخ.
- 5- دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو ستيت.
- 6- البديع تأصيل وتجديد، د. منير سلطان.
- 7- التكرير بين المثير والتأثير، د. عز الدين علي السيد.
- 8- البلاغة العربية تأصيل وتجديد، د. مصطفى الصاوي الجويني.
- 9- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، د. محمد العمري.

مصادر التجديد/ تحليل وموازنة:

توطئة:

سيكون عماد هذا الفصل استعراض جملة من الدراسات التي انتخبها البحث، والتي رآها جديرة بالدراسة؛ لكونها تمحّضت للتجديد بعامّة، ولم تقتصر على ظواهر خاصّة من البديع لتتطّلق منها، فتكون رؤية التجديد من خلالها واضحة المعالم، بيّنة مهيعاً، وإن كان بعضها قد استثمر نظريّة ما مطبّقاً إيّاها على جملة من تلك الفنون إلا إنّها مستوعبة لعدد لا بأس به منها، فكانت مرشحة للدراسة، كما أنّ هذه المصادر اتّسمت بالسيرورة والتداوليّة عند الباحثين والنقاد، اقتباساً وتضميناً، فمنهجها العام، ورؤيتها الجديدة كانتا عاملاً أساساً في انتخابها، وربّما شدّ عن هذا العامل أحد تلك المصادر؛ لكوننا انتخبناه لنبيّن أنّ ثمة اتجاهاً، تناول التجديد إلا أنّه اكتفى بالعنوان طرحاً في هذا الميدان دون واقعيّة التجديد، وقد أشرنا إلى ذلك في تمهيد هذا البحث، وربّما رأى البحث في بعض المصادر التي تناولت التجديد إسفافاً وإغراقاً في الآخر الثقافيّ، فرأى أن يُعرض صفحاً ويطوي كشحاً، عن التعرّض له، وكفاه إماتة له السكوت عنه، فجاءت الدراسة والتحليل على هذه الشاكلة المقدّمة، أمّا بالنسبة للترتيب في العرض فقد اتبعنا فيه معيار الأهميّة في التجديد والسّعة في طرح الموضوع بنظر البحث، فجاءت دراسة الدكتور جميل عبد المجيد "البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصيّة" أوّل دراسة، قدّمت لها بمدخل يتعلّق بتاريخ موجز عن اللسانيّات، فكانت الأولى؛ لتناولها للبديع خالصاً، ولطرافة التجديد فيها، وتتبعها في الأهميّة المنهجية دراسة الدكتور محمّد عبد المطّلب، "البلاغة العربيّة، قراءة أخرى"، لِمَا امتازت به من محاولة لتطبيق النظرية التحليليّة على البلاغة العربيّة، وهكذا باقي الدراسات التي جاءت تتري وفقاً لهذه المنهجية، وربّما رأى البعض أنّ بعضاً من هذه المصادر أولى بالتقديم على بعض، وجوابنا أنّ لكلّ امرئ وما اختار، واختيار المرء من وفور عقله، كما "ظنّ الرجل قطعة من عقله" (١).

(١) وفيّات الأعيان ، لابن خلكان: ٧٨/٦، و جامع أحاديث الشيعة: ٢٨٣ /١٣.

النظرية اللسانية:

مدخل: إنّ المطلّع على التراث البلاغيّ يجده قد اتخذ محورين أساسيين انطلاقاً من الضرورة العقلية المقتضية لدراسة اللغة، وهذان المحوران يتمثلان في:

١- فهم الكلام البليغ وتبيينه وتبيينه.

٢- إنشاء الكلام البليغ.

ومعلوم أنّ المحور الثاني مترتب على الأول، بمعنى أنّ المحور الأول وبالوصف والتشخيص يُنتج معايير ينظمها المحور الثاني؛ لذلك فإنّ تراث الإعجاز كان بجملته قائماً على المحور الأول، متدرّجاً بالتحليل والتشخيص والمقارنة، أمّا الثاني فقد ضاقت دائرته في حدود معايير الشعر وممكناته دون التوسّع إلى أبعاده الأخرى، وقد تقدّم الكلام في ذلك.

وقد كان منهج اللسانيات الذي برز في أوّليات القرن العشرين ناشئاً في أحضان علم الاجتماع والتاريخ، حتّى "تحقّق استقلالها عن العلوم الأخرى، كالفلسفة وعلم التاريخ بفرعيه التطوري والمقارن والفيلولوجيا.... على يد فيرديناند دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣)"^(١)، منطلقاً للتأسيس بأنّ اللسانيات "هي ذلك العلم الذي يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"^(٢) فانطلق لاستكشاف حقيقة اللغة ودراسة اللغة لذاتها وفي ذاتها، وقد بيّنا اعتبارية النتائج المترتبة على بحث اللغة لذاتها؛ لأنّها - أساساً - تنطلق لتعبّر عن الفكر والحوائج الإنسانية، والمقاصد السامية في إصلاح الإنسان بكلّ أبعاده وعمقه الوجودي، أمّا دراستها في ذاتها فلا تتحقّق منها جدوى علمية إلا بمقدار ما تُوصّل دراستها إلى تطويرها والنهوض بأساليبها وتعابيرها ومدلولاتها. وقد نشأت اللسانيات مرتبطة بعدة علوم كما سبق، ولمّا استقلت تعرّضت للأخذ والرّد، وأضيف إليها كثير من الأسس والمبادئ وحذفت عنها مبادئ أخرى، وتفرّعت عنها المدراس المتناقضة^(٣)، فكانت اللسانيات التوليدية، واللسانيات البنيوية، واللسانيات البيولوجية، واللسانيات المعرفية، واللسانيات البلومفيلية التي أنكرت الأثر الدلالي للنصوص في اشتغالاتها، على حين اللسانيّ فنديك اعتدّ بها وجعلها أساس دراسة النصّ^(٤)، وقد حكمت اللسانيات نزعتان: الأولى تأسست على أعتاب فلسفة فرانسيس باكون (١٥٦١-١٦٢٦) في نظرية المعرفة التي أسسها على التصرّور التجريبي للأشياء والوقائع، وهي تنطلق من تصوّر الممارسة العملية نشاطاً تجريبياً استقرائياً استكشافياً، ولا مكان للتأمّلات الفلسفية، فمعيّارها الأوّل والأخير هو التحقق^(٥) لا التوقّع، والعقل عندهم بمنزلة المرأة التي تعكس الخبرات وليس جهازاً مفطوراً على المعرفة^(٦)، وتأسست على هذه النظرية فلسفات كثيرة، ولعلّ أساس النظرية النصّية التي تعاطاها الدكتور جميل عبد المجيد انطلقت من هذا الأساس، بعد الزيادة والتحوير عليها من قبل علماء لغة النصّ الآخرين الذين استندوا إلى مقولاتهم. أمّا النزعة الأخرى فهي نزعة الرياضي ديكارت وكاليلي، التي رسّخ أسسها كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤) ضمن الاستمولوجيا العقلانية، وأهمّ أسسها اعتبار المعرفة نتاجاً عقلياً، وأنّ العقل وحده القادر على إدراك العلاقات الرابطة بين الأشياء،

(١) الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية (البنيوية والتوليدية) ، د. محمد محمد العمري: ٢١.

(٢) م.ن.

(٣) ظ: م.ن: المدخل.

(٤) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، د. جميل عبد المجيد: ٦٧.

(٥) ظ: الأسس الإستمولوجية: ٢٨.

(٦) ظ: م.ن: ٢٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

انطلاقاً من قدرته "على تجريد وترييض الواقع الفيزيقي ونزع الصبغة الشيعية عن الظواهر"^(١).. والملاحظ أنّ الاتجاه الأول يمثل الاتجاه الرفض للفلسفة حصراً؛ لأنّه ينطلق من تبني الاتجاه الحسي الذي لا يؤمن إلا بنتائج العلوم الطبيعية القائمة على أساس المنهج التجريبي، على حين يقوم الآخر على أساس الاعتماد على نتائج العلوم العقلية القائمة على المنطق الأرسطي^(٢)، وحقيقة النزاع منشؤها النظر إلى حقيقة العقل وما يُراد به^(٣).

فالنّتيجة، أنّ النظريّات اللسانية مختلفة ومتعدّدة في موضوعاتها، وردّاً على صدر ما قدّمناه، فقد اقترح تشومسكي تقسيم اللسانيّات المعاصرة إلى: لسانيّات تبحث في القدرة اللغويّة للمتكلّم، وتسعى إلى بناء نماذج للقدرة (اللغويّة طبعاً)، وأخرى تسعى إلى بناء نماذج، منها ما يرتبط بالإنجاز، ومنها ما يرتبط بالمستمع دون المتكلّم، ومنها ما يرتبط بشروط الممارسة اللسانية^(٤)، وبهذا سيتقاطع عمل هذا الاتجاه مع الاتجاه الاستقرائي والاستكشافي والوصفي، وسيقوم على التفسير والتبيين، والملاحظ على الدراسة التي تعرّض لها الدكتور جميل عبد المجيد أنّها لم تلتزم بأسس النظرية اللسانية التي تبناها، والقائمة على الاستقراء والوصف دون الاستنباط والتحليل، إذ إنّ ساق كثيراً من النماذج التراثية الشارحة والمحلّة والمفسّرة للبديع البلاغي، بما يقترب من منهج تشومسكي المقترح. وفي الواقع فإنّ العملية التجريبية المدّعاة والعملية الاستنباطية الأخرى لا يمكن تصوّر عملهما منفكّتين كما تقدّم، بل التجريب لا بدّ أن يخضع لنظر العقل، كما أنّ الاستنباط لا بدّ له من مقدّمات، أو فنلقل مستحقّات لإثارة دافئته، وهذا ما يعلّل انسياق الباحث للجمع بين الاتجاهين من حيث لا يشعر.

الدراسة:

١- (البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النّصيّة، د. جميل عبد المجيد)

تبتدئ الدراسة انطلاقاً من تساؤل الباحث تبعاً للدكتور سعد مصلوح وتأسيساً من الاستاذ أمين الخولي، وهو: هل يمكن الانتقال بالدرس البديعيّ من الأفق التحسينيّ إلى أفق الرّبط المقطعي لأن يُنظر إلى الناتج القوليّ بما هو بناء متكامل مترابط الأجزاء، لا جملة واحدة أو فقرة مقطّعة^(٥)، منطلقاً من قول الأستاذ أمين الخولي: "فإنّنا اليوم نمُدّ البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية ثمّ إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر، ننظر إليها نظرنا إلى كلّ متماسكٍ وهيكلٍ متواصل الأجزاء، نقدّر تناسقه وجمال أجزائه وحسن اتّلافه، ونتحدّث فيما لا بدّ منه في هذه النظرات من شؤون فنيّة"^(٦)، والكلام مشعراً بخلو الدراسات التراثية من هذا المنهج واتّكائها على الجملة الواحدة والفقرة القصيرة دون الكلام الممتدّ، فعلى هذا

(١) الأسس الإستمولوجية : ٢٩.

(٢) ظ: أصول التفسير والتأويل، السيد كمال الحيدري: ١٠١.

(٣) ظ: في بيان أقسام العقل وفاعليته في الكشف والتفسير، ينظر المصدر السابق: ١٠١-١٢٣، ففيه بيان لأصالة العقل عند المدرسة الإمامية وأثره في الفهم والتأويل مع بيان تكامله ضمن منظومة التقوى القرآنية، مع ملاحظة أنّ نسبة كبيرة من الأفكار تلقى إلقاءً بعد أن كانت معدومة، فمن ألقاها؟ ففي اعتقادنا أنّ للإلهام والفيض أثراً في تولّد الأفكار ضمن منظومة وسائط، أهمّها الأمام عليه السلام، ثمّ الدعاء...

(٤) ظ: الأسس الإستمولوجية: ٦١-٦٢.

(٥) ظ: البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النّصيّة: ٧.

(٦) فن القول: أمين الخولي: ١٨٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الأساس بنى المؤلف نظريته مؤسساً لنصّيّة الناتج الأدبيّ، وذاهباً إلى أنّ الأدبيّة الحقيقيّة تنطلق من النصّيّة، فأخذ في معالجة فنون البديع؛ لاكتنازها على قدرة الرّبط وإحداث التلاحم بين أجزاء النصّ، وربط الفقرات بعضها ببعض، ونحن إذ عالجنا في مبحث سابق قضيّة وحدة البيت، فإنّ انحصار الوصف والتشخيص ضمن هذا المشغل دون غيره من الأجناس التي لو عولجت معالجة الشّعْر لأفرزت إمكانات هائلة في الترابط والتلاحم وشموليّة النصّ الأدبيّ، هو الذي ساق إلى ترتيب آثار الاجتزاء على الآثار البلاغيّة، إذا ما استثنينا بعض الأعمال في دائرة الإعجاز القرآنيّ.

وستنعرّض إلى عرض هذه النظريّة مسلّطين الضوء على أبرز المعطيات التي طرحها المؤلّف ومبيّنين جملةً من المآخذ عليها. ولا بدّ في مدخل البحث من تلخيص معطيات النظريّة اللسانيّة، حسب ما تصوّرها المؤلّف مع المشتغلين في علم لغة النصّ من الغربيّين، وبيان مناشئها؛ لتكون الصورة مكتملة عند إجراء إسقاطاتها على الاشتغال (البلاغيّ/ البديعيّ/ العربيّ)، فنقول: بدأ التوجّه نحو تحليل الخطاب مع بدايات النصف من القرن العشرين بحدود عام ١٩٥٢ بهدف اكتشاف بنية النصّ في حالة النطق وفي حالة الكتابة^(١)، كمقدّمة لمبادئهما، انطلاقاً من منهج اللسانيّات الوصفية، ومن أجل تحليل أمثل للخطاب عرضت مشكلتان في الدراسات اللغويّة (الوصفيّة والسلوكيّة) كان لابدّ من تجاوزهما، بنظر هاريس:

الأولى: قصر الدّراسة على الجمل والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة.

الثانية: الفصل بين اللغة والموقف الاجتماعيّ المقتضي للتغيّر الدلاليّ^(٢)، بمعنى دور الموقف الاجتماعيّ المقتضي لإضفاء دلالات مختلفة للاستخدام اللغوي، فيما لو عُزلت عنه لأفادت دلالة مختلفة، كما قدّمناه من أمثلة في التطوّر اللغوي لبعض المفردات^(٣).

وكما أنّ هناك مشكلةً ثالثة تعرّضت لها بعض الدراسات اللسانيّة، وهي متفرّعة عن هاتين المشكلتين تتمثل في: إهمال الجانب الدلاليّ أو قلّة العناية به، كحال المدرسة البلومفيلديّة^(٤)، "ويّضح ذلك من تحليل فنديك حين يقول: في كلّ الأنحاء السابقة على نحو النصّ وصف للأبنية اللغويّة، ولكنّه لم يُعنّ بالجوانب الدلاليّة عناية كافية، ما جعل علماء النصّ يرون أنّ البحث الشكلي للأبنية اللغويّة ما يزال مقتصرّاً على وصف الجملة، في حين يتّضح من يوم إلى آخر جوانب كثيرة لهذه الأبنية وبخاصّة الجوانب الدلاليّة، لا يمكن أن توصف إلا في إطار أوسع لنحو الخطاب أو نحو النصّ"^(٥). فكأنّ النظرة الواسعة

(١) ظ: البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصّيّة: ٦٥.

(٢) ظ: م.ن.

(٣) ظ: الفصل الثاني من هذا البحث.

(٤) ظ: البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصّيّة: ٦٦.

(٥) م.ن: ٦٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

للخطاب والربط بين اللغة والموقف الاجتماعي الذي وضعت اللغة تأكيداً على وظيفته، وعلاقة النصّ بمنتجه ومستقبله تشكياً لحدثٍ تواصلٍ^(١)، هما الركيزة التي انطلق منها البحث اللسانيّ نحو تحليل الخطاب، وهذا يدلُّ - ومن خلال ركيزة (الجملة/ النص) على أنّ الدراسات النقدية العالمية الأخرى، حتى الفترة القريبة من انبثاق هذه الدراسة - أي حدود عام ١٩٥٢- كان البحث البلاغيّ والنقديّ فيها مقتصرأ على دراسة وملاحظة الجملة القصيرة والفقرة الواحدة، من دون الامتداد إلى الفضاء النصّيّ الواسع، وتقصّي مظاهره الإبداعية والجمالية، ومن ثمّ فليس العيب - إن تحقّق - لاصقاً بالتراث العربي، إذ إنّ الإتجاه العام في الدراسة كما لاحظنا كان منصّباً على النظرة الجزئية، وهذا فيه نسبة كبيرة من الصواب، إذ إنّ الجملة تمثّل أصغر وحدة دلالية قولية، وفي معطيات النحو العربي - كما قدّمنا- يمثّل الكلّم (وهو ما تركّب من ثلاث كلمات) أصغر وحدة دلالية، وهي (الكلمات) بمنزلة اللبّات التي إذا سلّم بناؤها سلم البناء العام، وإذا دخلها الفساد دخل البناء العام الهدم.

ونودّ ههنا الإشارة والتوضيح للذين تبوّوا الوحدة النصّية أنّهم وقعوا في اشتباهٍ ووهم، لأنّهم في الحقيقة إنّما نظروا للنصّية انطلاقاً من نظرتهنّ لجنس أدبيّ أو أجناس أدبية محدّدة رسخت في أذهانهنّ فأسسوا تلك النظرة عليها، وهذه الأجناس هي: الرواية والقصة والقصة القصيرة ونحوها، التي استجدّت في الآداب العالمية، والذي نراه أنّ الوحدة النصّية لا تقتصر على هذا النمط، إذ إنّ أيّ تعبير قوليّ اشتمل على السبّك والحبك بمصطلح اللسانيّات الحديثة، وله موقف دلاليّ معيّن في سياق ثقافيّ أو اجتماعيّ أو سياسيّ وغيرها، فإنّه يمثّل نصّاً له وحدة خاصّة وينبغي أن يخضع لتحليل خاصّ، سواء طال النصّ أم قصّر، وقد أشرنا إلى أنّ الأنماط الأدبية التي رُكنت عن المعالجة الجمالية في التراث العربي كالخطابة والرسائل والمناظرة والحديث والدعاء وغيرها، جميعها تكتنز الوحدة النصّية، ودليل على أنّ الوحدة النصّية لا يشترط فيها الامتداد والسعة، هو القرآن الكريم، لا في أسلوبه الخاص بل من جهة تحدّيه، فإنّه قد تحدّى العرب أن يأتوا بسورةٍ من مثله، وهذا التحديّ كان يتحقّق في مثل سورة الكوثر المشتملة على ثلاث آيات ولا يتجاوز امتدادها الكلّمي سطرأ واحداً، فهل هي (السورة) مفتقرة للسبّك والحبك، والوحدة النصّية؟ أم أنّها في أعلى مستويات الفصاحة والبلاغة التي عجز العرب عن أن يأتوا بمثله؟، إذاً فمقولة الوحدة النصّية الكاملة التي يدعى لها غير مكتملة المعطيات بالمعنى الذي قدّموه.

والمفارقة المنهجية التي وقع فيها المؤلّف هي أنّ الملاحظ على فنون البديع أنّها في أغلبها قائمة على البيت وفي أقصى حدودها البيتين، فكيف تتحقّق دعوى الوحدة النصّية التي رفع الباحث لواءها؟، وخصوصاً مع التنبيه إلى أنّ حاجة اللسانيّات إلى (نحو النصّ) قائمة على مبدئها في الوصف اللسانيّ الذي يحقّقه النصّ " فالجملة ليست كافية لكلّ مسائل

(١) المصدر السابق: ٦٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الوصف اللغوي وهكذا يكمن الحكم بقبول جملة ما إذا أرجعها الإنسان إلى الجملة السابقة^(١)، فالذين تبَنُّوا مبدأ "نحو النَّصِّ" من العرب، لم يلبثوا أن وقعوا في التناقض أثناء التنظير لهذه الرؤية، حيث اضطرب مفهوم النَّصِّ عندهم، ففي الوقت الذي أسَّسوا للنَّصِّ – وتطابقاً مع الجذور الأم للنظرية- بأنَّه عدم الاقتصار على الفقرة والجملة الواحدة، والانفتاح على مجموع الجمل والفقرات، فإذا كانت الجملة وحدةً نحويَّة فإنَّ النَّصِّ ليس وحدةً نحويَّةً أوسع، أو مجرد مجموع جمل، أو جملة كبرى، "وإنَّما هو وحدة من نوع مختلف، وحدة دلاليَّة، الوحدة التي لها معنى في سياق، هذه الوحدة الدلاليَّة تتحقَّق أو تتجسَّد في شكل جمل، وهذا يفسِّر علاقة النَّصِّ بالجملة، إذ الأخيرة مجسَّدة للوحدة الدلاليَّة التي يشكِّلها النَّصِّ في موقف اتصاليٍّ ما"^(٢)، هذا هو أصل النظرية اللسانية، ولكنَّ الباحث يجتهد فيوسِّع أفق النظرية ليرتدَّ قَصَصاً إلى التراث القائم على الوحدة الصغرى، من خلال أنَّ "هذه الوحدة الدلاليَّة قد تتجسَّد في جملة واحدة كمقولة امرئ القيس (اليومَ خمرٌ وغداً أمر)، ومن ثَمَّ يحدث التطابق بين حدِّ النَّصِّ وحدِّ الجملة، لكون النَّصِّ ليس وحدةً نحويَّة [ذكرنا أنَّ أصغر وحدة نحوية هي الكلم في التراث العربي]، ولا يتألَّف من جمل ولا يرتبط بالجملة، فإنَّه قد يتجسَّد في أقلَّ من جملة، كما هي الحال في التنبهات والعناوين والإعلانات التي تتكوَّن غالباً من مجرد حرفٍ واسم، مثل: للبيع، أو لا للتدخين...، وبالمثل لا يوجد حدُّ أعلى لطول النَّصِّ فقد يكون كتاباً كاملاً كما في الرواية والمسرحية"^(٣).

والملاحظ أنَّ قضية تفسير المراد بالنَّصِّ لم يُحسم أمرُها عند اللسانيين، في مجال تحقِّق النَّصِّ في جملة واحدة أو أقلَّ، وقد ذهبت رقية حسن وهاليداي إلى " أنَّ بداية دخول الجملة دائرة النَّصِّ هو وقت توقف تفسير أحدهما بالرجوع للآخرى، وارتباطهما مع بعضهما برابط "^(٤)، وبهذا فإنَّ البحث اللسانيَّ ضمن هذه الدائرة سيتناصَّ مع البحث اللسانيَّ العربيَّ التراثي الذي انصبَّ اهتمامه - على ما بيَّنا- على الوحدة التركيبية وسلامتها وفصاحتها انطلاقاً من مقدرة البيان العربيَّ التي لا تحتاج إلى تفاصيل وسرد الدلائل.

وهذا سيجعلنا نشكك في فهم وحدة النَّصِّ والمعالجة النَّصيَّة عند متبنييها، فلعلَّ الظاهر الواضح هو عدم نظرهم إلى النَّصِّ بما هو معبَّرٌ عن موقفٍ عقائديٍّ أو سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ الذي يقتضي تراتب دلالاته وتتابعها، ومن ثَمَّ يُمكن وصف العمل اللغويَّ انطلاقاً من هذه التراتبية، وفي الحقيقة فإنَّ هذا النمط من العمل يُمكن العثور عليه في نصوص القرآن الكريم بخاصَّة والخطابة والنماذج النثرية كالمناظرات والرسائل ونحوها بعامَّة، والتي أعرض عنها صفحاً، واكتفي بالنَّسق الشعري، والملاحظ أيضاً أنَّ كلَّ النصوص الغربية

(١) المصدر السابق: ٦٧.

(٢) م.ن: ٦٨.

(٣) م.ن: ٦٩.

(٤) م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التعريفية لمفهوم النصّ التي ساقها المؤلّف تصبُّ في بيان التواصل الترابطيّ بين الجمل، وإن كان بيتاً من الشعر، كتعريف شميث له بأنّه "كلُّ تكوينٍ لغويٍّ منطوق، من حدثٍ اتصاليٍّ، محدّد من جهة المضمون، ويؤدّي وظيفة اتصاليّة يمكن إيضاحها..."^(١)، والنظريّة بهذا المفهوم من المباحث التي فُرغَ عنها في التراث العربي منذ زمن طويل، وخصوصاً في أبحاث إعجاز القرآن الكريم.

معايير المعالجة النصية:

وتمثّل المقاييس الأساسيّة التي من خلالها يُحكم بنصيّة المنطوق أو المكتوب، وهو بحسب ديوجراند ودريسلر سبعة، انتخب المؤلّف منها اثنين لاختصاصهما بصُلب النصّ وهما معياراً السبك والحبك^(٢)، ونظراً لتوفّر البديع على جملة كبيرة من اشتغالاتهما، ما أثار حفيظة بعض الباحثين إلى تقصّي هذه الظواهر في البديع العربيّ لإعادة تشكيله من منظورٍ نصّيٍّ^(٣)، والخطأ الذي وقعت فيه هذه النظرة هو أنّ البديع يمثّل منظومة وسائل لإنتاج الخطاب تضافراً مع علمي البيان والمعاني، فكيف يُعاد تشكيل هذه المنظومة من الوسائل والإجراءات، بمنأى عن قسيميّه؟، ثمّ إنّ البديع ينصبُّ على الجملة في أغلب فنونه إن لم يكن كلّها فأين وحدة النصّ المدّعاة في هذه الدراسة؟، باعتقادنا أنّ هذه الدعوى لم تتحقّق في هذا البحث، وإنّ أكثر ما حقّقته هو إجراء المقارنة بين فنون البديع ومعايير النظريّة اللسانيّة، وإلفات النظر إلى أنّ الاشتغالَ البديعيّ مشتمل على معايير السبك والحبك اللسانيين كما سيّتضح، إلا إنّ أهمّ إنجازٍ لهذه الدراسة هو إخراج البديع من أفق التحسين الذي وُصِم به إلى أفق الرّبط الجزئيّ وتكوين الدلالة، وإن كان بنحوٍ إجماليٍّ، وقد بيّنا نماذج من الحمل الحقيقي للدلالة من خلال فنون البديع.

المعيار الأول:

البديع من تحسين اللفظ إلى سبك النصّ:

عالج المؤلّف في هذا الفصل مظاهر التحسين اللفظي انطلاقاً من هذا التساؤل: هل ثمة آفاق جديدة وذات قيمة لتلك الظواهر اللغويّة في ضوء هذه المعالجة اللسانيّة؟ وهل يمكن الانتقال من الأفق الذي كان لهذه الظواهر في البلاغة العربيّة (أفق التحسين) إلى تلك الآفاق الجديدة؟ وكيف؟^(٤).

(١) ظ: المصدر السابق: ٧٠.

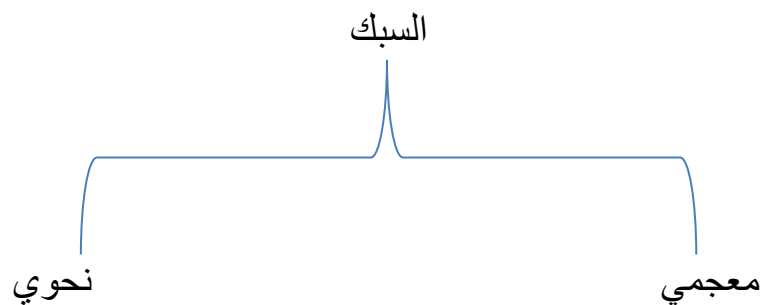
(٢) م.ن: ٧١.

(٣) م.ن.

(٤) م.ن: ٧٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التأسيس لمعيار السبك: انطلقت اللسانيات النصّية من صفة الاطراد أو الاستمرارية "وهي صفة تعني التواصل والتتابع والترابط بين الأجزاء المكوّنة للنّصّ، وبصيغة أخرى تعني أنّه "في كلّ مرحلة من مراحل الخطاب نقاط اتصال بالسابقة عليها"^(١)، وهذا طبيعي؛ لأنّ مقتضى النصّية الترابط، ولكن ما الذي يحقّق هذا الترابط في نظر اللسانيات النصّية؟. شكّل الاعتماد النحوي مظهراً كلياً لوسائل السبك النصّي، وهذا الاعتماد - حسب الدكتور سعد مصلوح- يبدأ من الاعتماد في الجملة لينتهي بالاعتماد في عموم النّصّ^(٢)، ونظراً لكون السبك يتعامل مع ظاهر النّصّ، وإنّ تشكّل هذا الظاهر يستند إلى بنية دلالية وبنية معجمية وبنية صوتية، فعليه انتظم السبك عند هاليداي ورقية حسن ضمن نحوين، كما هو مبين في أدناه:



أي إنّ الصياغة قائمة على هذين النمطين فالشكل المعجمي يتمثّل في اختيار الكلمات والبنيات النحوية^(٣)، أمّا السبك النحوي فهو النظام الذي يضبط تلك المفردات بعد التركيب، وإلى هاتين الدالتين يُقارَبُ المؤلّف رؤية الدكتور تَمّام حَسّان في معالجتَهما في كتابه الأصول^(٤)، بالقول: "السبك إحكامُ علاقات الأجزاء ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة، وقرينة الرّبط النحوي من جهة أخرى، واستصحاب الرّتب النحوية إلا حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبيّ، ورعاية الاختصاص والافتقار وترتيب الجمل"^(٥). ويتحقّق السبك المعجمي من خلال ظاهرتين:

الأولى: التكرار.

الثانية: المصاحبة المعجمية .

أمّا التكرار فقد عرض له المؤلّف بأنّه " تكرار لفظتين درجُهما واحد، وهو من ضروب الإحالة إلى سابق بمعنى أنّ الثاني يحيل إلى الأول"^(٦)، ولتوضيح الأمر في بعده اللّسانيّ

(١) البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النصية : ٧٦.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن: ٧٧.

(٤) ظ: الأصول: ٣٤٣ وما بعدها.

(٥) م.ن: ٧٨-٧٩.

(٦) م.ن: ٧٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

لابدّ من سوق ما مُثِّل له في فضائه، ومثاله: (اغسل وانزع نوى ستّ تفاحات، ضعها في صحن مقاوم للنار)، فالضمير في (ضعها) العائد للتفاحات هو الذي أحدث السّبك من خلال الإحالة القَبْلِيّة، وهذا حسب البحث اللّساني أوّل مراتب التكرار، وفي الحقيقة هذا البحث في التراث العربيّ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمبحث الضمائر ودلالاتها على الأشياء تَخْلَصاً من التكرار، "ويعبّر عنه في المصادر القديمة بالكناية؛ لأنّه يُكنى به عن الظاهر؛ اختصاراً"^(١)، فمبحث الضمير من المباحث الأساسيّة التي تعلّقت بالحذف والإختصار في الاستعمال العربيّ وهي من أبجدياته، ولم يشر المؤلّف إلى هذا المطلب المهم، مع ملاحظة أنّ وظيفة الضمير اللسانيّة هي الإحالة على سابق من القول، إلا إنّ هذه الإحالة وحسب قدرة المتكلّم قد تأخذ أنماطاً لا يسهل معها البتّ في إرجاع الضمير على السابق؛ لأنّه قد يتعدّد السابق الذي يرجع إليه الضمير فتأتي وظيفة القرينة لكشف المراد، وإلا فإنّ كلا الدالتين ستكونان مترتبتين طولياً ومرادتين، ومثاله، قوله تعالى: "إليه يصعدُ الكلمُ الطيّبُ والعملُ الصالحُ يرفعه" (سورة فاطر، الآية: ١٠)، فالضمير في (يرفعه) له مرجعان، إذ يمكن أن يعود إلى الكلم الطيّب، فيكون المعنى، أنّ العملَ الصالحَ يرفعُ الكلمَ الطيّبَ فيتحقّق بذلك الصعود المتوقّف على العمل، فالكلم الطيّب الذي فُسّر بالاعتقاد الصحيح^(٢) لا يُرفع (يصعد) إلا بالعمل الصالح، فسيكون العمل الصالح كالوقود لرفع الاعتقاد الصحيح، ويمكن أن يعود الضمير إلى العمل الصالح، والفاعل مستتر يعود إلى الله (عز وجل) من خلال (إليه) في صدر الكلام، من ردّ الصدر إلى العجز، (العمل الصالح يرفعه الله) ، وقد يكون المعنى الآخر أنّ الاعتقاد الصحيح (الكلم الطيب) له صعودٌ ذاتيٌّ، أمّا العمل الصالح المترتّب على الاعتقاد فله جهة الاستعانة، بمعنى أنّه يرتفع بالرفع لا بالارتفاع، فيلاحظ أنّ الربط بالضمير أبعد من الإحالة إلى السابق في التراث العربيّ.

أمّا المراتب الأخرى للتكرار اللسانيّ فهي على الترتيب:

١. إعادة عنصر معجمي.

٢. الترادف أو شبهه.

٣. الإسم الشامل.

٤. الكلمات العامّة^(٣).

فمن خلال هذه الوسائل يتحقّق السبك المعجمي حسب ما تطرحه اللسانيّات النّصيّة، فإعادة العنصر المعجمي يقتضي الإحالة إلى السابق الذي يستلزم الترابط مع اللاحق وهكذا،

(١) النحو الوافي: ١٩٦/١.

(٢) ظ: الكافي: ٤٣٠/١، صحيح بخاري: ١٧٧/٨، فتح الباري، لابن حجر: ٢٦٦/١٢، شرح أصول الكافي، للمازندراني: ١١٠/٧، البحار: ٦٤/٦٦.

(٣) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللّسانيّات النّصيّة: ٨٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

والإعادة تتحقق بذكر الوحدة المعجمية نفسها أو مشتقاتها وهذا سيقترّب كثيراً من مفهوم الجنس في البلاغة، أمّا الترادف فهو إحالة المعنى اللاحق على المعنى السابق من دون تكرار اللفظ بما يستلزم الارتباط؛ لكون اللاحق مضافاً إلى السابق ومكمّلاً لدلالته، وفي هذا السياق نجد أنّ هذا المبحث قد دُرِسَ بعمقٍ في مباحث الوقف والابتداء في القرآن الكريم المرتبطة بتجويد القرآن، والمتعلّقة ببيان المواطن التي يصحّ الوقوف عليها، والمواطن التي لا ينبغي الوقوف عندها، والمواطن التي يحسن الابتداء بها، وهكذا، حيث قُسم الوقف إلى وقف تامّ، ووقف كافٍ، ووقف اضطراريّ، ووقف لازم، ووقف جائز، ووقف حسن، باعتبار التلازم بين المعنى السابق والمعنى اللاحق، و كلامنا حول الوقف التامّ والوقف الكافي، حيث ذكر علماء التجويد - ومنذ الدراسات الأولى- أنّ الوقف التامّ هو الوقف على الجملة في حال كون ما بعدها منقطعاً عنها لفظاً ومعنى، أي، تحقق الاستقلال التامّ بين الجملتين، أو الوقف على ما تمّ معناه ولم يتعلّق بما بعده لفظاً ومعنى، كالوقف على البسمة قبل البدء بالسورة، أمّا الكافي فهو الوقف على ما تمّ معناه في ذاته وتعلّق بما بعده معنى لا لفظاً، نحو الوقف على "لا يؤمنون" في "وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذّرهم لا يؤمنون إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ" (سورة البقرة، الآية: ٦٠)، أمّا الوقف الحسن فهو التعلّق اللفظي والمعنوي باللاحق مع تمامية السابق، كالوقف على (الحمد لله) من سورة الفاتحة، ولكنّ لما كان ما بعدها يتعلّق بها حسن الوقوف عندها ولا يحسن الابتداء بما بعدها^(١)، فهذا النمط من الترابط دُرِسَ ضمن السياق القرآني استعانةً بمبادئ النحو لملاحظة الترابط اللفظي بين العبارات والجمل.

أمّا الاسم الشامل فيدخل ضمن مبادئ الكلّي والجزئيّ بأن يذكّر لفظاً كلياً ويذكر بعده بعض مصاديقه وجزئياته التي تُحيل عليه بنحوٍ من الترابط والتماسك، وكذا الكلمة العامة وهي أعمّ من سابقتها فتدخل ضمنها الحقول الدلالية التي تصنّف الأشياء إلى مجموعاتٍ تدرج تحتها متعلّقاتها، كالبيت وأثاثه، والجنة ونعيمها، والنار وجحيمها..... .

هذا تمام القول حول الوسيلة الأولى للسبك المعجمي وهي التكرار في بعدها النظريّ، ثمّ يعمد المؤلف إلى تقصّي نماذج التكرار في البديع وكيف يتحقّق السبك المعجمي مصنفاً إيّاها ضمن وسائل السبك التي ذكرها، فأدخل التكرار اللفظي ضمن إعادة العنصر المعجمي وأدخل التكرار المعنوي ضمن الترادف أو شبه الترادف^(٢)، أمّا العناصر الثلاثة الباقية فقد تلکّ الباحث في تصنيفها ضمن اشتغالاتها البلاغية، ولكنّا إذا اعتبرنا الاسم الشامل والفكرة كلاهما بمسارٍ واحدٍ فإنّنا سنُدخلهما دائرة الخاصّ والعامّ، أو الجزئي والكلّي، وبهذا سُبُحَتْ هذه النقطة ضمن سياق علم المعاني في باب التطويل (الإطناب)، ومثاله: قوله تبارك وتعالى

(١) للتفصيل في هذا الموضوع، ينظر: المكتفى في الوقف والابتداء، لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ)، و معالم الاهتداء إلى الوقوف والابتداء للمقرئ خليل محمود الحصري.

(٢) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٨٤-٨٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

"مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" (سورة البقرة، الآية ٩٨) فجبريل وميكايل من الملائكة، وداخلان ضمن العام، وكذلك قوله تعالى: "فِيهِمَا فَكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ" (سورة الرحمن، الآية ٦٨)، والنخل والرمان من ضمن الفاكهة فذكر الخاص بعد العام لبيان الأهمية^(١)، وإن الباحث لم يُشر - مع إirاده للمثاليين السابقين - لهما، مع أنهما ألصق بمباحث علم المعاني عنهما بمباحث البديع، أما الضمير فهو أيضاً يُبحث في علم المعاني في التقديم والتأخير والإيجاز والحذف، فخلص من الوسائل الخمس للسبك المعجمي وسيلتان مرتبطتان بالبديع. والملاحظ أن التكرار اللفظي بإعادة العنصر المعجمي ضمن اشتغالات التكرار البلاغي العربي لا تقود إلى تحقق السبك المعجمي، فبملاحظة الأمثلة التي قادها في بيان هذه الوسيلة، كقوله تعالى: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ" (سورة الواقعة، الآيتان ١٠ و ١١)، وكقول ابن المعتز:

لساني لِسَرِّي كَتومُ كَتومُ	ودمعي بحبِّي نَمومُ نَمومُ
ولي مالِكُ شَقَّتِي حَبُّهُ	بديعُ الجمالِ وسيمٌ وسيمٌ
له مقلتا شادنٍ أَحـور	ولفظُ سَحورٍ رَخيْمُ رَخيْمُ
فدمعي عليه سَجومُ سَجومُ	وجِسمي عليه سَقِيمُ سَقِيمُ ^(٢)

يظهر أن التكرير اللفظي جاء للتوكيد ولا وجه له في السبك من جهة الإحالة القبلية التي بنت اللسانيات النصية مبدأها عليه، ويظهر ذلك من خلال مثال التفاحات الذي أورده عنها، فإن تكرار العنصر استعمل في بعد دلالي آخر يختلف عن الاستعمال الأول، وبسبب التكرار تحقق إرجاع المعنى اللاحق إلى المعنى السابق .

وقد أشار المؤلف إلى جملة من المفارقات بين البلاغيين وعلماء لغة النص في معالجة ظاهرة التكرار، أجمالها في:

١. إن معالجة هذه الظاهرة كان من منظور بلاغي صرف عند البلاغيين العرب، أما علماء لغة النص فعالجوها من منظور لساني صرف.
٢. عدم الاقتصار على الجملة في المعالجة النصية بعكس المعالجة البلاغية.
٣. وقوف علماء لغة النص على الدرجات الأربع للتكرار، إفادة من الدراسات الدلالية واللغوية المعاصرة، على حين وقف الدرس البلاغي على درجتين.
٤. سيطرت الغاية التعليمية التقعيدية على البلاغة، على حين سيطرت الغاية الوصفية التشخيصية على علماء لغة النص^(٣).

(١) ظ: الإيضاح: ١٧٥-١٧٦.

(٢) لم أعثر عليه في ديوانه، ولكنه موجود في، العمدة لابن رشيق: ٩٧ / ٢، و ظ: البديع، جميل عبد المجيد: ٨٤.

(٣) ظ: البديع، جميل عبد المجيد: ٨٥-٨٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وإننا في الحقيقة نخالف المؤلف في مفارقاته الأربع التي ذكرها، أما الأولى: فحسب التنظير الذي أسسه للسانية النصية القائمة على وحدة النص الذي يحقق الأدبية، فكيف نتصور الدراسة للسانية القائمة على الحبكة والسبك في إطار الجملة؟ وقد أثبت في النقطة الثانية النظرة لتمامية النص؟ وهل التمامية تُلحظ إلا في النصوص الأدبية؟ أما الثانية: فإن التكرير بمعناه اللفظي متعذر التحقق على امتداد النص إذ إنه أفضل ما يكون إذا كان متناسباً والمقام، أما إذا استطال فقد استحال، وكيف يمكننا أن نتصور التكرار على امتداد النص؟.

أما الثالثة: فإنّ الدرس البلاغيّ اشتمل على جميع وسائل السبك المعجمي، بل انفرد بأنواع من السبك المعجمي الخاصّ بالقرآن الكريم المتمثل بالسبك الزمني وهو توحيد الزمان الماضي بالزمان الحاضر وهو ما كشفته دلالة الجري والانطباق التي أشرنا إليها، بل وغيرها، كقوله تعالى: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (سورة آل عمران، الآية ١٨٣)، فالقرآن يُحمّل المخاطبين في الزمن الحاضر تبعة قتل الأنبياء في الزمن الماضي، فقد ورد في الكافي، عن الإمام الصادق عليه السلام: "إِنَّ اللَّهَ حَكِيَ عَنْ قَوْمٍ فِي كِتَابِهِ: "لَنْ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، قال: كَانَ بَيْنَ الْقَاتِلِينَ وَالْقَاتِلِينَ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ فَالْزَمَهُمُ اللَّهُ الْقَتْلَ بِرِضَاهُمْ بِمَا فَعَلُوا"^(١)، فالسبك الزمني بنظر القرآن يتحقق بتحقيق نفس اللوازم، ويظهر ذلك من مفردة (فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ).

أما الأنواع الثلاثة فقد قدّمنا أنها من اشتغالات المعاني، ودرس بدقّة في مباحثه، فالأنواع الثلاثة متواجدة في البلاغة العربية ومتوفرة عليها، أما الغاية التقعيدية في البلاغة العربية فإنّها جاءت متأخّرة، إذ إنّها سُبقت بمراحل من التشخيص والوصف، فالتقعيد مرجعه الأساس إلى الوصف والتشخيص، وقد قدّمنا لذلك في مبحث الذوق الفني، فلاشتغالات الأولى كانت على قدر كبير من الوصفية، فلا يسوعُ غمزُ البلاغة بسمة التقعيد، علماً أنّ اللسانيات النصية انطلقت من التشخيص لترسو على قواعد معيارية في السبك والحبكة كما قدّمها المؤلف. ونكرّر القول بأنّ أفق الربط الذي أكده المؤلف اقتصر على الجمل القصيرة، كما تبين لنا أنّ بعض أنماط التكرار لا تدخل مطلقاً ضمن السبك المعجمي حسب اللسانيات النصية، كأبيات ابن المعتز المتقدمة، ولعلّ أجلى مثال له هو أبيات الخنساء راثية أخاها:

وإنّ صخراً لمولانا وسيدنا وإنّ صخراً إذا نشتو لنحارُ
وإنّ صخراً لتأتّم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نارُ^(٢).

(١) الكافي الشريف: ٤٠٩/٢.

(٢) ديوان الخنساء: ٤٩، وينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٨٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

والملاحظ أنّ التكرار ليس وحده الذي يحقق السبك، إذ إنّ لحروف الربط كالواو ههنا أثراً في إحداثه كما ستأتي بعض أمثله، وهذا لا بدّ من الإشارة إليه، فالكلام من دون حروف الربط قد لا تتحقّق تواصلتيته، فلو رفعنا حروف العطف من بيتي الخساء السابقين فإننا سنخلص إلى بناء ناقص غير متكامل الأركان:

إنّ صخراً لمولانا وسيّدنا، إنّ صخراً إذا نشتو لنحار ، إنّ صخراً لتأتّم الهداة به...
كما أنّ المؤلف قد طرح نقطة ترتبط بالتكرار وهي (الإقلال من الإخبارية)، إذ عدّ هذا الإقلال عيباً من عيوب التكرار، وهو في الحقيقة فيما إذا كان النصّ عادياً متوحّداً الدلالة فلا شكّ من تسري هذا العيب إليه، أمّا النصوص العالية فلا يتطرّق إليها هذا العيب (مع ملاحظة أنّ سمة التكرير هي التأكيد بصورة عامّة، فلا يُمكننا أن نتصوّر أن الخروج إلى الإخبارية في التكرار سيكرّس معنى جديداً مغايراً للتكرار، بل سينتج أمراً آخر غير التكرار) ونورد في هذا الصدد مثال ابن الأثير الذي ساقه المؤلف في وظائف التكرار ونعلّق عليه بما يناسب، قال: "ومن هذا الباب قوله تعالى: **"قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فاعبدوا ما شئتم من دونه"** (سورة الزمر ، الآيات ١١-١٤) فكرّر قوله تعالى (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) وقوله: (قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)، والمراد به غرضان مختلفان؛ وذلك أنّ الأوّل إخبارٌ بأنّه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص في دينه، والثاني إخبارٌ بأنّه يخصّ الله وحده دون غيره بعبادته مخْلِصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة في الثاني وأخره في الأوّل؛ لأنّ الكلام أولاً واقع في العمل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يُفعل الفعل من أجله؛ ولذلك رتب عليه (فاعبدوا ما شئتم من دونه)^(١)، ولكن ثمة ملاحظة دقيقة في سياق الآيات لم يُشر إليها ابن الأثير بدقّة، فالتكرار ههنا أفاد الإخبارية، فالأوّل إخبارٌ عن جهة أمره بالإخلاص، والثانية إخبارٌ بكونه صلى الله عليه وآله متلبّساً بالإخلاص، فالتكرار حقّق [الفعل/التلبّس] بالفعل على جهة المقابلة؛ ليثبت منظومة تحقّق العلم مع العمل، وهي منظومة بثّها القرآن الكريم وأكدها في جملة من آياته.

ولم يخلُ تطبيقه للتكرار على النماذج الخطابية من اضطراب في بعض المواطن، فمثلاً استعرض المؤلف اشتغال مصطلح التكرار عند السجلّاسي مسمّياً إيّاه بالبناء قائلاً: "البناء وهو إعادة اللفظ الواحد بالعدد، وعلى الإطلاق المتحد المعنى كذلك مرّتين فصاعداً؛ خشية تناسي الأول لطول العهد به في القول، ومن صورته الجزئية قوله تعالى: **"أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ"** (سورة المؤمنون، الآية: ٣٥)، فقوله: "أَنْكُمْ" الثاني بناءٌ على الأوّل وإنكارٌ به خشية تناسيه لطول العهد به في القول، وقوله عزّ وجلّ: **"وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"** (سورة الروم، الآية: ٧) وما كان مثله، فقوله (هم) الثاني بناءٌ على الأول لمّا

(١) ظ: المثل السائر: ٦-٥/٣، و ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٨٩-٩٠.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

طال القول، وكان قوّته بوجه ما قوّة التوكيد اللفظي، ويمكن أن يكون من هذا النوع قوله عزّ وجلّ في قصّة الذبيح، ثناءً على إبراهيم ^{عليهما السلام}. " إنا كذلك نجزي المحسنين إنّ هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين" (سورة الصافات، آيات: ١٠٥-١١٠)، فقوله كذلك نجزي المحسنين بناءً؛ ولذلك قيل فيه: كذلك نجزي المحسنين بغير (إنّ) وفي غيره من مواضع ذكره (إنّا كذلك)؛ لأنّه بنى على ما سبقه في هذه القصّة من قوله "إنّا كذلك"، فكأنّه كما قيل استخفّ بطرح (إنّ) اكتفاء بذكره أولاً عن ذكره ثانياً^(١)، فالتكرير عند السجلّماسي طويلٌ الذيل، والنمط الذي ذكره المؤلّف هو النوع الأوّل الداخل ضمن النوع الأوّل من النوع الأوّل من التكرير، إذ التكرير عنده نوعان، الأوّل: اللفظي، المسمّى مشاكلة، وهو نوعان، الأوّل: الاتّحاد، والثاني: المقاربة، والاتّحاد نوعان، الأوّل: البناء، والثاني: التجنيس^(٢)، وعلى الرّغم من تسمية السجلّماسي لهذا النوع بالبناء، ولكنّا نستبعد استظهار المؤلّف لحاظ التلاحم والتماسك^(٣)، بل المراد أنّه بنى هذا الجزء على ما تقدّم، والدليل أنّه بيّن وظيفته المتمثّلة في (خشية تناسي الأوّل لطول العهد به في القول)، وهو ما أطلق عليه د. جميل عبد المجيد بـ(تنشيط ذاكرة المستمع أو القارئ)، ومصطلح التنشيط هذا على أكثر الظنّ أخذه عن أرسطو من كتابه فنّ الخطابة، حيث أورده ضمن تناوله لأجزاء الكلام وهي (الاستهلال والعرض والدليل والخاتمة)، في قوله المترجم عن اللاتينية "وأصلّ الكلام هو الدليل والعرض أمّا الاستهلال والخاتمة فإنّه لا غاية من وراء هذين إلا التخفيف على الذاكرة"^(٤)، وقد عدّ اللسانيّون هذه الإشتغالات من اشتغالات علم النفس المعرفيّ في دراسة الذاكرة الطويلة المدى والقصيرة المدى^(٥)، وقد وهم السجلّماسي في مثاله الثاني في عدّه ضمن هذا النوع؛ لأنّ الكلام ليس طويلٌ الذيل كما ذكر، فليس بين الضمير الأوّل والضمير الثاني سوى مفردتي (عن الآخرة) وهذه الوحدة القوليّة ليست بالطويلة، والدليل أنّك تستطيع الاستغناء عنها من غير إرباك المعنى، أمّا المثال الأوّل، فإنّك لو حذفّت (البناء) بتعبير السجلّماسي لاختلّ الكلام وصارت المفردة كالمعلّقة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والغريب موافقة المؤلّف له على ذلك.

أمّا المثال الثالث فتطبيقه قاصرٌ أيضاً؛ لأنّ المتأمّل في النصّ القرآنيّ يجد أنّ العبارة الأولى صُدّرت بالتوكيد بأنّ، وهذا التوكيد يمثّل المرتبة الثانية في الخطاب الذي يوتى به لتبديد الشك - وهو المثال المعروف لتساؤل الفيلسوف الكندي في توهمه الحشو في كلام العرب^(٦) - فجاء التوكيد لهذا الغرض، ثمّ استعرض القرآن بعد ذلك مظاهر الإحسان وتحققها الفعلي على إبراهيم ^(عليه السلام) (فديناه بذبح عظيم / تركنا عليه في الآخرين/ سلاماً

(١) المنزوع البديع: ٤٧٧-٤٧٨، و ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة: ٩٢.

(٢) ظ: م.ن: ٤٧٦-٤٨١.

(٣) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة: ٩٢.

(٤) فن الخطابة، ترجمة، عبد الرحمن بدوي: ٢٣٤-٢٣٥.

(٥) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة: ٩٣.

(٦) ظ: دلّائل الإعجاز: ٣١٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

على إبراهيم) هذه جميعها مظاهر للإحسان الذي كان بمنزلة الدعوى في أول الكلام، استعرضها القرآن الكريم، ثم جاءت العبارة الثانية لتؤكد أن هذا هو جزاؤنا، فبنت على الأول، لتؤكد تبديد الشك، فلم يكن الاستخفاف بطرح (إن) للجهة التي ذكرها السجلماسي وهي الاكتفاء بالأول بل؛ لأن الدليل تقدّم في تحقّق الإحسان على إبراهيم بالمظاهر التي ذكرت، فكأنما جاءت الإشارة بالأصل (كذلك) هو إشارة للإحسان لا للبناء على الأول. ومما ينبغي لفت النظر إليه، ومما لم يُشير إليه المؤلّف، وهو أن وظيفة السبك والحبك في الخطاب لا تفوقها الأنواع البديعية وحدها، بل إنّ لأدوات الربط التي تتردّد في الخطاب أثراً كبيراً في تحقيق الربط، من مثل (حتى) في قول زهير:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا^(١)

فالتريد ما كان ليتحقّق لولا (حتى) ووظيفتها في الربط، كما هو ملاحظ، وفي ترابط البيت يقول ابن أبي الإصبع: "فقد ردّ كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية، وردّ كلمة من الجملة الثالثة في الجملة الرابعة ثنتان في كلّ قسم وكلّ جملتين متفتقتان في الصورة غير أنّهما مختلفتان، إذا نظرت إلى كلّ قسم وجملته وإن اشتركا في المعنى فإنّ صورة الطعن غير صورة الضرب، ومعنى الجميع واحد وهو الحماسة في الحرب"^(٢)، مع ملاحظة أنّ مفهوم التكرار والترديد عند ابن أبي الإصبع مختلفان "فالفارق بين الترديد والتكرار، أنّ اللفظة التي تُكرّر في التكرار لا تفيد معنى زائداً، بل الأولى هي تبيينٌ للثانية، وبالعكس! واللفظة التي تتردّد تفيد معنى غير معنى الأولى منهما، واشتقاقهما مشعرٌ بذلك؛ لأنّ الرادّ من وجه لا يبلغ إلا الموضع الذي أراده، والكارّ، هو الذي انتهى إلى الموضع المراد وكرّر راجعاً، ومنه الكرّ والفرّ"^(٣)، ومن ثمّ فإنّ إلحاق الترديد بالتكرار خطأ منهجي، وقد ذكر ابن أبي الإصبع نمطاً من الترديد يسمّى بالترديد المتعدّد وهو أن يُذكر حرفٌ من حروف المعاني كحروف الجرّ أو النداء، ويكرّر إمّا مرّة وإمّا مراراً، وهو الذي يتغيّر فيه مفهوم المسمّى لتغيّر الاسم، إمّا لتغاير الاتصال أو تغيّر ما يتعلّق بالاسم، وحمل عليه قول المتنبي:

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ليثَ الشرى يا حمامُ يا رجلُ^(٤).

ولكنّ المتنبي للنصوص الخطابية يجد أنّ هذا النمط من الترداد غير مقتصر على ترداد حروف المعاني، بل يشمل الأسماء أيضاً، وهذا يظهر من خلال متابعة هذه الفقرة الواردة في دعاء النذبة^(٥):

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٧٧. وينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٩٥.

(٢) تحرير التحبير: ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) م.ن: ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ديوان المتنبي: ١٣٧، وينظر، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٢٥٣-٢٥٤.

(٥) دعاء النذبة دعاء مروي عن الإمام المهدي عليه السلام يشتمل على مضامين التفجع والتوجع والشكوى إلى الله من غيبة ولي الله الأعظم، ومن أهدافه تأصيل علاقة الإنسان المؤمن بإمامه الغائب، ينظر متن الدعاء في إقبال الأعمال - للسيد ابن طاووس: ٥٠٨ / ١ - ٥٠٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

"....أَيْنَ الحسن، أَيْنَ الحسين، أَيْنَ أبناء الحسين، صالحٌ بعد صالح، وصادقٌ بعد صادق، أَيْنَ السبيلُ بعد السبيل، أَيْنَ الخيرُ بعد الخير، أَيْنَ الشُّموسُ الطالعة، وَأَيْنَ الأقمارُ المنيرة، أَيْنَ الأنجمُ الزاهرة، أَيْنَ أعلامُ الدين وقواعد العلم، أَيْنَ بَقِيَّةُ الله التي لا تَخْلُو من العترة الهادية، أَيْنَ المعدُّ لقطع دابر الظلمة، أَيْنَ المنتظر لإقامة الأُمّتِ والعوج، أَيْنَ المرتجى لإزالة الجورِ والعدوان، أَيْنَ المدّخرُ لتجديد الفرائض والسُنن، أَيْنَ المتخيّرُ لإعادة المِلّةِ والشرعية، أَيْنَ المؤمِّلُ لإحياء الكتاب وحدوده، أَيْنَ محيي معالم الدين وأهله، أَيْنَ قاصمُ شوكة المعتدين، أَيْنَ هادمُ أبْنِيَةِ الشُّركِ والنفاق، أَيْنَ مبيدُ أهل الفسوق والعصيان والطغيان، أَيْنَ حاصد فروع الغيِّ والشقاق، أَيْنَ طامسُ آثار الزيف والأهواء، أَيْنَ قاطع حبال الكذب والافتراء، أَيْنَ مبيد العتاة والمردة، أَيْنَ مستأصل أهل العناد والتضليل والإلحاد، أَيْنَ معزُّ الأولياء ومذلُّ الأعداء، أَيْنَ جامع الكلمة على التقوى، أَيْنَ باب الله الذي منه يؤتى، أَيْنَ وجهُ الله الذي إليه يتوجّه الأولياء، أَيْنَ السببُ المتصل بين أهل الأرض والسماء، أَيْنَ صاحبُ يومِ الفتح وناشرِ راية الهدى، أَيْنَ مؤلّفُ شَمْلِ الصّلاح والرّضا، أَيْنَ الطالبُ بذخول الأنبياء وأبناء الأنبياء، أَيْنَ الطالبُ بدم المقتول بكر بلا، أَيْنَ المنصورُ على من اعتدى عليه وافترى، أَيْنَ المضطرُّ الذي يجاب إذا دعا، أَيْنَ صدرُ الخلائق ذو البرِّ والتقوى، أَيْنَ ابنُ النبيِّ المصطفى وابنُ عليِّ المرتضى، وابنُ خديجة الغراء وابنُ فاطمة الكبرى".

فكثافة التردد لاسم الاستفهام ظاهرةٌ وهي منسجمةٌ مع الغرض الأصليّ للدعاء، كما أنّ متعلّق التردد مختلف الدلالة كما هو ظاهر.

كما أنّ جميع الأمثلة الأخرى داخلية في نفس اشتغال التردد، كالتعطف، وردّ العجز على الصدر، والاشتقاق .

أما المبدأ الثاني من مبادئ السبكِ فهو المصاحبة المعجميّة: وهذا النوع من المصاحبة هو شبيهٌ بالحقول الدلالية، بمعنى أنّ الوحدة المعجميّة محكومةٌ بعلاقة مع وحدة معجميّة أخرى، وتتعدّد العلاقات بتعدّد الوحدات المعجميّة المشتركة مع بعضها بجزئيات محدّدة، فمنها مثلاً، التباين ودرجاته، كالتضاد: أبيض/ أسود، والتخالف: الحبّ والبغض، والتضاييف: الأب/ الابن، وتداعي المعاني النفسي، أو الدخول في سلسلة مترتّبة محكومة بتسلسل، كأيام الأسبوع والشهور والرتب العسكريّة والتدرّجات العلميّة أو الوظيفيّة ونحوها ... ووظيفة هذه العلائق أنّها " تُحدث قوّةً سابكة حين تبرز في جمل متجاوزة"^(١)، بحكم كون الشيء يستدعي الانتقال إلى لازمه في نفس السلسلة، والملاحظ دخول علاقات كثيرة من البديع ضمن هذا المشغل، ومن أهمّها، الطباق، ولم يُضفِ المؤلّف شيئاً جديداً حوله؛ لأنّ المعروف أنّ التقابل الضدّي يحقّق استدعاء أحد طرفيه عند حضور الآخر، وهذا الحضور يرافقه ضرورة التهيؤ الذهنيّ لتصوّر الضدّ وفي هذه اللحظة يحدث السبك، وتنبغي الإشارة

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٠٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

إلى أن هذا الحضور هو حضور جزئي، بمعنى أنه لا يمتد على طول النص؛ لأن كثرة الطباق وامتداده من المظاهر التي عابها النقاد والبلاغيون، ومن ثم فإنه جزء من منظومة السبك لا كل، وقد تكلف بعض النقاد في أنماط الطباق حتى اخترعوا نمطاً من الطباق يُنتزع بالتوهم، وحملوا عليه قول بشار:

إذا أيقظتك حروبُ العدا فنَّبه لها عُمرًا ثمَّ نم

جاعلين المطابقة بين (حروب/ عمر) "على جهة المنافية والمغالبة بالضدية، ووفاء أحدهما بدفع الآخر"^(١)، وفيه فلسفة طويلة عريضة في محاولة إثبات ذلك، وهذا التكلف في حمل البيت على الطباق من هذه الجهة صعب غير ذلول؛ لأن الطباق الأصل والظاهر على السطح الذي لم يُشير إليه هو مزدوج، صاغته الوحدات المعجمية (أيقظتك/ نبه/ نم)، أما الطباق الآخر (وهم الطباق بين حروب/عمر) فإنه غير بارز، بل أجنبي عن الطباق، فكيف يُتصور التضاد بين الحروب وعمر ومن دون قرينة؟ ولم تكلف تصور طباق بعيد مع الإعراض عن طباق قريب ملموس؟.

ويُدخل المؤلف مراعاة النظر والتوشيح والتسليم في هذا الباب، لتضمنها علاقة إيراد الملائم والانجرار والتناسب، فيتحقق بها الربط، إذ إنه "واضح ما في دلالة كلمتي التوشيح والتسليم، لغة واصطلاحاً، من ارتباط صدر الكلام بآخره واقتضاء لفظ لآخر، ومصدر هذا الاقتضاء أحياناً هو التلازم، أو التصاحب بين لفظتين، مثل: النهار/ الشمس، الدجى/ الهلال، وينسحب ما ذكر آنفاً في مراعاة النظر على هذين الفئتين"^(٢).

ومثلها في الحكم، اللَّف والنشر، والاستخدام، والتورية المرشحة، إلا إنه أضاف للمصاحبة المعجمية في اللف والنشر وظيفة أخرى تتمثل في: رد المنشور إلى الملفوف، ويكون الدور الأساس للمستمع في هذا الرد؟^(٣)، وعلى عموم الكلام، فليس ثمة شيء يُذكر، إلا تصنيف الفنون ضمن وسائل السبك المعجمي والمصاحبة المعجمية الممثلتين لمعايير السبك، والملاحظ أن هذا السبك حتى الآن لم يخرج عن حدود البيت أو الجملة وما يزال البرهان على تلك الدعوى غير قائم.

أما السبك النحوي فقد خصَّ المؤلف ظاهرة التكرار بالبحث أيضاً، وجعلها محققة لهذا النوع من السبك، ولكن هذا التكرار قد أخذ نحوين، الأول: مستوى التركيب النحوي، والثاني: المستوى الصوتي، وشكّل درس التوازي في الدراسات الغربية محوره النظري، انطلاقاً من تعريف ديوجران ودريسلر له بأنه: "إعادة البنية مع ملئها بعناصر جديدة"^(٤)، وعن التوازي النحوي ينطلق مبدأ الشعرية وتتحقق إمكاناتها^(٥)، وقد شكّلت دراسات ياكوبسن المنهج الذي سار عليه اللسانيون كفانديك في وضع قواعد النص الأدبية اتكاءً على

(١) ظ: المنزع البديع: ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١١٦.

(٣) م.ن: ١١٩.

(٤) م.ن: ١٢١.

(٥) م.ن: ١٢٢.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

خاصية التكرار الصوتي المتحقق بتكرار البنى^(١) وما يستتبعه من التكرار الصرفي والتكافؤ في العبارات والجمل.

ومن مفارقات المنهج اللساني مع البديع البلاغي العربي، أنَّ المؤلف - وحسب هاليداي ورقية حسن- نبّه على أنَّ السبك درجات وقد مرَّ ذلك في بداية المبحث وهذه الدرجات تتوقف على عدد الوسائل المستخدمة " فكلّما ازداد عدد الوسائل السابقة للنص ارتفعت درجة السبك فيه ومن ثمَّ درجة النصية والعكس صحيح، كما أنَّ الدرجة تتفاوت داخل النص الواحد، فقد تزيد في جزء وتقلُّ في آخر، كما أنَّها قد تكون عالية داخل الفقرات وهابطة فيما بين هذه الفقرات أو العكس"^(٢)، وهذا خلاف ما بنى عليه البلاغيون والنقاد والإعجازيون من كون الإكثار من البديع مفسد للبناء النصي، وبسببه عيبت على أبي تمام طرائقه في النظم، وتلك ثمرة الإسراف وعقبي الإفراط، بتعبير ابن المعتز، وقد تقدم ذكرنا لذلك في الفصل الثاني، بل على أساس الإكثار من البديع تأسست بعض النظريات النقدية والآراء الأدبية والمناهج، كطبقات الشعراء والفحولة وعمود الشعر، فكيف يُمكن الجمع بين رؤية اللسانيات ونظر البلاغة العربية في بديعها؟ هذا ما لم يُشير إليه المؤلف، بل تبني نقيضه، كما أنَّ معالجته للبديع في ضوء السبك اللساني فيه إشعار بعدم تحقق السبك ضمن اشتغالاته الخالية عنه، وهذا ما لا يمكن الإقرار به إذ علوم البيان والمعاني لا يخفى ما لها من دور في إحداث السبك والحبك .

أمّا الفنون التي أدرجها المؤلف ضمن هذا النوع من السبك فهي: فنون المقابلة، والمزاوجة، والعكس والتبديل، والتفريق والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، والتشطير والتسميط، في البعد التركيبي؛ لأنها "كثيراً ما تُصاغ في تراكيب نحوية متوازية، ومن ثمَّ تُعدُّ في هذه الفنون باعتبار ما فيها من توازن نحوي، سابقة، كما أنَّ السبك يتجاوز في الأعم الأغلب مستوى الجملة والبيت نظراً لمجيء طرف من طرفي أو أطراف هذا الفن أو ذاك في جملة، والآخر في جملة أخرى"^(٣)، والملاحظ أنَّ جميع الأمثلة التي أوردها لا تخرج عن إطار البيت والجملة أو الجملتين فأين دعوى النصية؟.

أمثلة ذلك^(٤)، المقابلة: قوله تعالى: "فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً". (سورة التوبة، من الآية ٨٢) وقول المتنبي:

فلا الجودُ يُفني المالَ والجُدُّ مقبَلٌ ولا البخلُ يبقي المالَ والجُدُّ مدبرٌ

العكس والتبديل:

قوله تعالى: "يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ويُخرجُ الميِّتَ من الحيِّ". (سورة الروم، من الآية ٩١)

(١) المصدر السابق: ١٢٢.

(٢) م.ن: ١٢٣.

(٣) م.ن: ١٢٤.

(٤) ظ: م.ن: ١٢٤- ١٢٥ و ١٢٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

فردَّ شعورهن السودَ بيضاً وردَّ وجوههنَّ البيضَ سوداً (١)

والمتنبي:

فلا مجدَّ في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مالَ في الدنيا لمن قلَّ مجده (٢)

والمزاوجة، قول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلجَّ بي الهوى أصاغت إلى الواشي فلجَّ بها الهجر (٣)

والتفريق، كقول أبي تمام:

وما هو إلاّ الوحي أو حدُّ مرهفٍ تُميلُ ظُباهُ أَدْعَى كُلَّ مائلٍ

فهذا دواءُ الداءِ من كُلِّ عالمٍ وهذا دواءُ الداءِ من كُلِّ جاهلٍ (٤)

الجمع مع التقسيم، قول المتنبي:

حتَّى أقامَ على أرباضٍ خرشنة تُسقى به الرُّومُ والصلبانُ والبيعُ

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا (٥)

..... إلى آخر القائمة (٦).

إنَّ جميع أنحاء الربط في هذا الباب قائمة على معيار واحد، وهو التكرار، كما أنَّ الملاحظ في السبك المعجمي أنَّه قد طغى عليه النسق الشعري في تطبيقاته ولو تناول الباحث الأنساق الأخرى لكان أقرب إلى النصية.

ونلاحظ في ختام هذا المبحث أنَّ المؤلف عمد إلى تقصُّ سريع لدلالات السبك في البلاغة العربيَّة، فوجد أنَّ السبك قد تحقَّق في :

١- المصطلحات: حيث أنَّ الدلالة اللغوية لكثيرٍ من هذه الفنون اتسق مع وظيفة السبك في تحقيق الاتساق والانسجام، مثل : التكرار والترديد ولزوم ما لا يلزم والتجانس والتقويف والترصيع، والتشطير والتجزئة والتوازي والموازنة....

٢- وفي ما أورده النقاد من التعاليق حول جملةٍ من تلك الفنون في تحقيقها للتناسب والتلاؤم، كابن سنان وحازم القرطاجني في معالجهما للتصريع والترصيع والجناس والازدواج والسجع والاشتقاق،... وإحداث الدول في اللغة والتكرار الصوتي الذي سلَّط عليه الضوء الزركشي مبيناً أثرهما في تحقيق المناسبة الصوتية (٧)، وإنَّ بحث المؤلف وتقصيه لدلالات التلاؤم والانسجام سنجده يمتدُّ إلى إثاره تعريف الشريف محمَّد بن علي الجرجاني (توفي حدود سنة ٧٢٩هـ) لعلم البديع، على التعريف المعروف للخطيب القزويني، حيث عرّفه الشريف "بأنَّه علمٌ يُعرف منه وجوه تحسين الكلام باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعليق مع رعاية أسباب البلاغة" (٨)، من حيث

(١) الإيضاح: ٢٩٩. (٢) ديوانه: ٤٥٤.

(٣) الإيضاح: ٢٩٩. (٤) شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٢٢٩/٢. (٥) ديوانه: ٣١٢.

(٦) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٢٤ و ١٢٥. (٧) ظ: م.ن: ١٣١ و ١٣٢.

(٨) الإشارات والتنبيهات في البلاغة: ٢٥٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

أنَّ "تعريف علم البديع عند محمد بن علي الجرجاني فيه إشارة إلى دور هذا العلم في دراسة التناسب بين أجزاء الكلام"^(١) وبهذا يظهر أنَّ الوعي السبكي كان متحقّقاً في العمل البلاغي والنقدي التراثي على أتمّ ما يكون، مصطلحاً وإجراءات، ما يكشف أنَّ هذا المستوى من التحليل اللغوي كان من أهمّ مشاغل العمل البلاغي والنقدي في وقت مبكر، وقد حقّق سبقاً في بيان فاعليّة التحليل اللغوي الذي دعت إليه اللسانيّات المعاصرة.

المعيار الثاني: البديع من تحسين المعنى إلى حبك النصّ:

بنى المؤلّف هذا الفصل على بيان العلاقات التي تربط المفاهيم داخل النصّ محقّقة بذلك مظهر الحبك، بمعنى تداخل الدلالات الجزئية مع بعضها بنحو تنتج دلالة كليّة للنصّ، وانطلق أساساً من معايير ديوجراند ودريسلي في منهج اللسانيّات، حيث مثّل الحبك المعيار الثاني في تحقيق الاستمراريّة الدلاليّة للنصّ^(٢).

ومن خلال تقصّي تلك العلاقات والوقوف على أنماطها يُحدّث المؤلّف مقارنةً لتلك العلاقات مع منظومة البديع العامّة، أي (مع غضّ النظر عن جهتها اللفظيّة أو المعنويّة)، ويسرد الشواهد التي اشتمل عليها التراث العربيّ لتوضيح المراد، ولا شيء أكثر من ذلك. والملاحظ أنَّ كثيراً من هذه العلاقات قد بُحثت في المظانّ البلاغيّة كالتكافؤ، (ومثاله استنوق الجمل، المعروف في حمل دلالة ما هو صفة للناقاة على الجمل)^(٣)، وبنيات التوازي بأنواعها المختلفة، والوصف الكلّي والجزئي وغيرها، وسنستجلي تلك العلاقات لبيان محاولة التطابق الدلالي الذي حاول الباحث إحداثه بين اللسانيّات النصيّة والبديع البلاغي، والذي هو حقيقة عمله.

إنّ الأساس العامّ لتلك العلاقات قائم على تصوّر أو حضور شيء أو مفهوم لدى حضور لازمه المرتبط معه على أيّ نحوٍ من الارتباط، الواضح أو غير الواضح (المتوهّم)، ما يحتاج إلى كدّ ذهنيّ لفهم علاقته، وطبيعة تلك العلاقات- في نظرنا- تعتمد على مقدار ما يمتلكه منشئ النصّ من قدرة نفسيّة وثقافيّة ووعيّ وجوديّ في نظم كلامه، وبذلك يمكننا تحليل ما كان يتعاطاه أبو تمام من صياغاتٍ في هذا المجال، فإنّه لم يكن ليتخلّص من منظومته الفكريّة والثقافية المعقّدة التي بناها لنفسه من حفظه لكثيرٍ من الأشعار، وتعاطيه للعديد من الأفكار والكتب التي كان يقرأها، فعقد علاقاتٍ معنّصة، وتراكيب غير مرتاضة، وبنظرنا كان البديع هو الوسيلة الوحيدة التي استطاع أبو تمام من خلالها إفراغ مخزونه الفكري وبيان قدرته الثقافيّة وتمكّنه من عقد العلاقات بين الأشياء؛ لذلك فإنّ أبا تمام في حماسته (اختياراته) يختلف عنه في نظمه وشعره، ومنه يظهرُ نهيه الباحثيّ عن أن يحذو طريقته، وهو أستاذة، وذلك يظهرُ من خلال وصيّته التي سطرها له في نظم الشعر^(٤).

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيّات النصيّة: ١٧٤.

(٢) م.ن: ١٤١.

(٣) ظ: الموشح: ١١٠.

(٤) ينظر نصّ الوصية، تحرير التحرير: ٤١٠ و ٤١١، و ظ: وصية أبي تمام الاسناد والتوثيق، د. عبد الكريم محمد حسين، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩، العدد (٤+٣)، ٢٠٠٣م: ٢٠.

ورداً على الصدر:

نقول إنَّ اللسانيَّات النصِّيَّة بنَت تلك العلاقات ضمنَ مجموعتين كلَّيتين:

الأولى: علاقات الرِّبط وتنقسم بدورها إلى: علاقات إضافيَّة وعلاقات ثنائيَّة.

الثانية: علاقات التبعيَّة أو الاعتماد، وتنقسم أيضاً إلى: علاقات مؤهِّلة وعلاقات منطقيَّة،

وجميع العلاقات للصنفين تسع عشرة علاقة دلاليَّة.

ولابدَّ من الملاحظة بأنَّ هذه العلاقات هي أبرز العلاقات، إذ من الممكن إحداث علاقات

أخرى حسب طبيعة الخطاب وبنيته اللغويَّة، وحسب مقدرة المتكلِّم ومكانته.

وقد عرض المؤلف تبعاً لنايذا جملة من الأمور، ترتبط بفاعليَّة هذه العلاقات، منها:

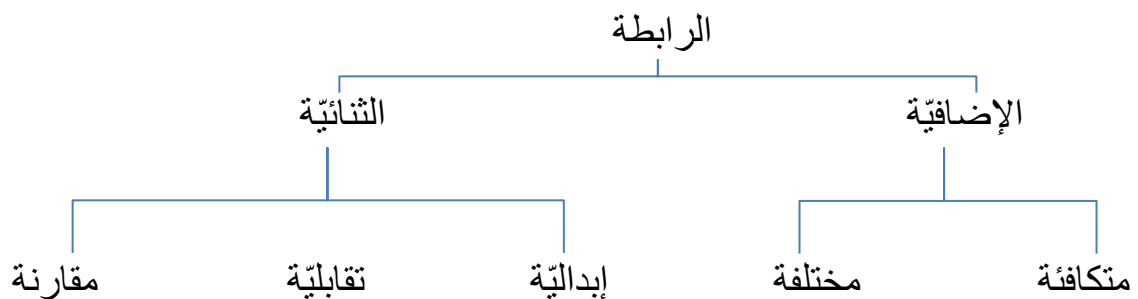
١. يمكن تطبيق هذه العلاقات على مختلف اللغات .

٢. قابليَّة هذه العلاقات على التطبيق على مختلف مستويات البنية الخطابية الطويلة،

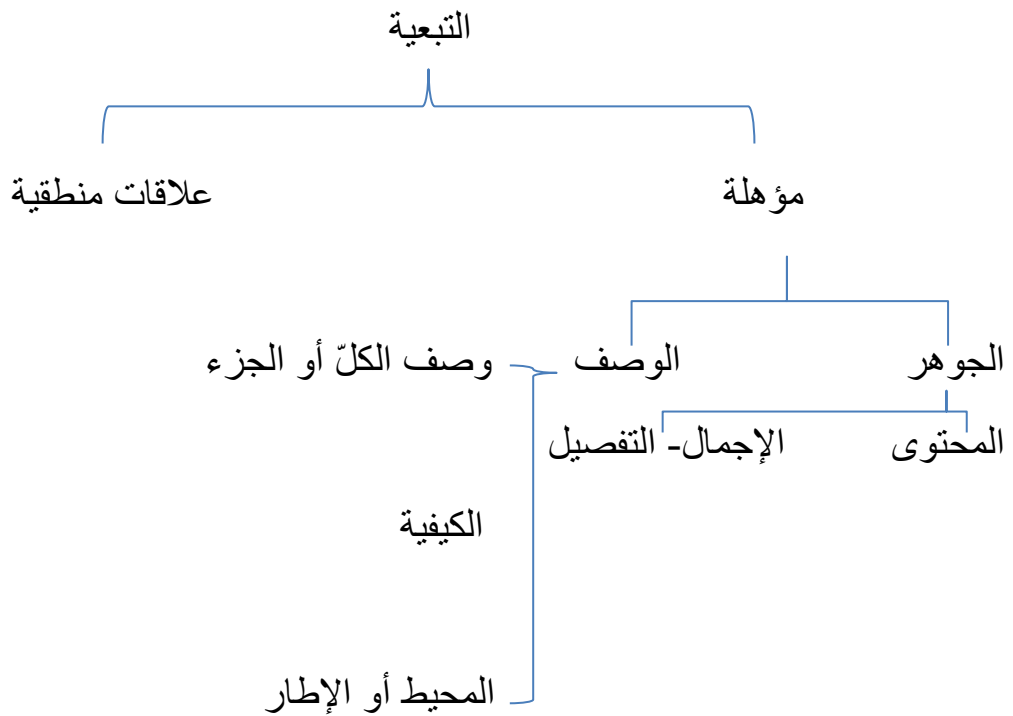
كالنصِّ، والقصيرة، كالفقرة والجملة^(١).

فهاتان النقطتان بنظرنا تحصيلٌ للحاصل؛ لأنَّ حقيقة كثيرٍ من هذه العلاقات قائم على البنية المنطقيَّة العامة، والخطاب الإنساني الطبيعي، من قبيل علاقة السببيَّة، وعلاقة التعميم والإجمال، وعلاقة المقارنة، وعلاقة الإضافة ونحوها، ولا يكاد خطابٌ سلس أو تعقَّد، ووجز أو تنضَّد إلا اشتملَ على أنماطٍ من تلك العلاقات، ولكنَّ اللسانيَّات النصِّيَّة لا تقدِّم حكماً جماليّاً؛ لأنَّ مبدأها – كما قدمنا – قائمٌ على الوصف والتشخيص وهذه نقطة سلبية في هذا المنهج، فالحكم الجمالي أمرٌ لابدَّ منه في تحليل الخطاب؛ لأنَّ هذه العلاقات عندما تدخل في البنية النصِّيَّة فكأنَّما تدخل في منطقة تفاعل مع مكونات النصِّ ووسائله الأخرى، وبمقدار الانسجام والتواشج والتآلف بين المكونات الأخرى تبرز فعالية العلاقة، وسيتمَّ تشخيصها على نحوٍ أصوب وأنسب، كما ستتضح مقدرة المنشئ على إحداث العلاقات ضمن منظومته النظميَّة.

ونعود إلى تلك العلاقات، وبيان مقابلها البديعي حسب الدكتور جميل عبد المجيد، مفضلين عرضها بمخططٍ يبيِّن فروعها:



(١) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيَّة : ١٤٧-١٤٨.



إنّ المبدأ التشخيصي والوصفي الذي قامت عليه اللسانيّات النصّية حكم كثيراً من العلاقات الناتجة، كما أنّ تقصّيها لعموم النصوص دون الخصوص من النصوص الفنيّة جعل كثيراً من العلاقات تتسم بالبساطة والوضوح، ويتجلّى ذلك من خلال استعراض الأمثلة التي سيقّت لبيان تلك العلاقات^(١)،

علاقات الربط :أ- الإضافية : ١- المتكافؤ حسب اللسانيّات: إعادة الصياغة بتكرار المحتوى مع تغيير التعبير، ويقابله (التكرار المعنوي، مثاله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له) ، وكقول امرئ القيس:

فيالك من ليلٍ كأنّ نجومه بكلّ مغار الفتل شدّت بيذبل

كأنّ الثريا علّقت في مصامها بأمراس كتانٍ إلى صمّ جندل

وأيضاً فنّ الجمع: كقوله تعالى: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"(سورة الكهف، من الآية ٤٦)

٢- المختلفة (التوازي أو العكس): مقابلة الاستحقاق.

- الثنائية: إبدالية (أو): تجاهل العارف (إيهام الإبدالية).

(١) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيّات النصّية : ١٤٤-١٤٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

- تقابلية (لكن): فنّ المقابلة، والعكس والتبديل، والرجوع، تأكيد المدح بما يشبه الذم، ونظيره (إيهام الربط المنعكس).

- مقارنة (أفضل ك مثل): فنّ التفريق، مقابلة، المقارنة، تفريع النفي والجود، جمع المؤتلفة والمختلفة عند ابن رشيق...

٢- التبعية: أ- مؤهلة:

١- الجوهر:

أ- المحتوى ب- الإجمال أو التفصيل (التفسير الجمع ثمّ التقسيم اللّف والنشر، التقسيم ثمّ الجمع).

٢- الوصف:

أ- وصف الكل أو الجزء.

ب- الكيفية.

ج- المحيط أو الإطار. (لا يندرج تحت هذا الفرع العلائقي شيء من فنون البديع).

١- الزمان ٢- المكان ٣- الظرف.

ب- العلاقات المنطقية:

١. السبب - الأثر. تحقق الأثر؛ لوجود السبب.

٢. السبب - النتيجة. تحقق النتيجة؛ لوجود السبب.

٣. الوسيلة - النتيجة. الوسيلة تحقق النتيجة.

٤. الوسيلة- الغرض. الوسيلة سوف تحقق النتيجة.

٥. الشرط - الجواب (المذهب الكلامي/المزاوجة/التعليل).

٦. الأساس- التحقق.

٧. المفترض-النتيجة. بما أنّ ... فإنّ^(١).

والملاحظ أنّ جملةً من هذه العلاقات لا تستوعبُ تطبيقاً بديعياً، وبعضها يدخلُ ضمن إطار واحد، كالعلاقات المنطقية، لأنّها يمكن أن تندرج ضمن التعبير القائم على التعليل، كما أنّ هذا التقسيم سيُشتتُ الفنون البديعية، ولا يحصرُها بعناوين كلية واضحة، كما فعلت بعض الدراسات التي سنأتي على ذكرها.

(١) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٤٣-١٤٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وقد جعل المؤلف تحت علاقة (الشرط- الجواب)، الفنَّ البديعيَّ المسمَّى بالمذهب الكلامي، وهو "عبارة عن احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام وهو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية"^(١)، والغريب أنه أخرج من دائرة الفنَّ بجعله " لا يتناسب وفنَّ الشعر خاصة؛ لأنه شتان ما بين الشعر والمذهب الكلامي"^(٢)، وهذا من أكبر الاشتباه، ولعلَّ هذه الشبهة وردت عليه من التسمية؛ لكون علم الكلام طارئاً على الشعر، ولكنَّ الملاحظ أنه لا مشاحة في الاصطلاح، وأنَّ التسمية أطلقت من باب التوسُّع والمجاز، فليس المراد هو طرح المفاهيم الكلامية في الشعر، وإنما التسمية جاءت بلحاظ إقامة الحجة بالدليل العقلي على أيِّ نحو، كما في التعريف وتدخل في هذا الباب الاعتذاريَّات، كاعتذاريَّات النابغة للنعمان بن المنذر، وشعر العقيدة، كأشعار الكميت الأسدي ودعلب الخزاعي، وأيُّ قضية يُقيم عليها الشاعر دليلاً عقلياً وحجة مقنعة تدخل في هذا الباب، وعليه جاء الاستعمال القرآني " لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا"(سورة الأنبياء، من الآية ٢٢) وقوله تعالى: " أو ليس الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلقَ مثلهم بلى وهو الخلاقُ العليم"(سورة يس، الآية ٨١)، ومنه اعتذارية النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ربيَّةً وليس وراءَ الله للمرء مذهبٌ

لئن كنت قد بلغت عني خيانةً لمبلغك الواشي أغشُّ وأكذبُ

ألم ترَ أنَّ الله أعطاك سورةً ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

فإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهم كوكبُ

ولستُ بمستبقٍ أخاً لا تلُمهُ على شعثٍ أيُّ الرجال المهذبُ^(٣).

كما أنَّ التعليل الشعريَّ داخل في نفس الباب إذ إنه لا يختلف كثيراً عنه، إلا أنَّ الأول أعم والثاني أخص، كقول أبي تمام وقد تمثل به:

لا تُتكري عطلَ الكريم من الغنى فالسـيـلُ حربٌ للمكان العالي^(٤).

فالشاعر يروم من التعليل الاحتجاج على صواب رأيه بحجة عقلية تخيلية، ومن هذا القبيل ما جرى على ألسنة الشعراء من احتجاجات لمذاهبهم، من ذلك احتجاجات الكميت بن زيد الأسدي، الذي كان ينافح عن قضية الإمامة وإثباتها في أهل بيت النبي (عليهم السلام) من مثل قوله:

(١) تحرير التحرير: ١١٩.

(٢) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٦٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم، عباس عبد الساتر: ٢٧ و ٢٨.

(٤) شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٣٠٣/٢.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

يقولون لم يُورث ولولا تراثه لقد شُركت فيه بكيلاً وأرحبُ
ولانتشلت عضوين منها يُحابرُ وكان لعبدِ القيس عضو مؤرَّبُ
فإن هي لم تصلح لحَيِّ سواهم فإن ذوي القربى أحقُّ وأقربُ^(١)
ومثل ذلك أيضاً ما ردَّ به محمد بن يحيى ابن أبي مرّة التغلبي على مروان بن أبي حفصة
في قوله: أنى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البنات وراثة الأعمام
قائلاً: لم لا يكون وإن ذاك لكائنُ لبني البنات وراثة الأعمام
للبنات نصفٌ كاملٌ من ماله والعمُّ متروكٌ بغير سهام
ما للطلق وللتراث وإنَّما صلّى الطليقُ مخافة الصمصام^(٢)
ففي نظرنا أنَّ جميع ذلك داخل ضمن المذهب الكلامي، فلا وجه لنفيه عن الشعر وإخراجه
من دائرته.

وفي ختام هذا العرض وفضلاً عما تقدّم، فقد أظهرت الدراسة أنَّ التكرار والتناسب هما
قطبان ومحوران تتوزّع عليهما فنون البديع، وقد عكفت بعض الدراسات البلاغية على
دراسة البديع ضمن هذين القطبين كما سنأتي عليها، وإن كان المؤلف لم يُشر إلى محورية
هذين القطبين، مع ملاحظة مهمة في أنَّ التناسب والتكرار قد استعرضتهما الدراسات
البلاغية التراثية حتى غدت أكثر مصادر الاستشهاد بعبارات النقاد والبلاغيين الذين علّقوا
على نماذجهما .

كما لم نجد واقعية لدعوى النصّية ووحدة النصّ المتصلة، إذ لم تطالعنا نماذج فاعلة في
تأكيد هذه الدعوى خلا ما مثّل للتفسير في صفحة (١٥٨) بأبيات مالك بن خريم، وأبيات
عبد بن الطبيب، وبعض النماذج القرآنية التي عضدت بتعاليق النقاد، كابن الأثير وابن أبي
الإصبع، وهذا سيؤكد ما ذكرناه آنفاً عن مفهوم وحدة البيت، وضرورة تقصي النماذج من
النصوص الترسلية الأخرى.

ويبقى لهذه الدراسة تأكيدها على جانب الربط الذي تحقّقه جملة كثيرة من الفنون البديعية،
مما كان مطروحاً على مستوى الإشارة واللمحة العامة، إلا إنَّ جملةً من العلاقات ولدت
ضمن إطارٍ قوليّ يتّسم بالعمومية الكلامية، لا الكلام الفني البلاغيّ العالي، ما يقلل من
جدوى تلك العلاقات.

(١) ديوان الكميت، شرح الهاشميات، جمع، محمد نبيل طريفي: ٥٢٦-٥٢٨، و ظ: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن
الثالث الهجري، د. أحمد عبد الستار الجوّاري: ١١٥.
(٢) ظ: تفصيل الحادثة في: عيون أخبار الرضا، للشيخ الصدوق: ١٨٩/١، وأيضاً الشعر في بغداد: ١٢٨.

٢. البلاغة العربية قراءة أخرى د. محمد عبد المطلب:

النظرية التحويلية-التوليدية لنعوم تشومسكي:

ينطلق المؤلف من رؤيته لأسلوبية التحول المؤسّسة على أكتاف النظرية التوليدية - التحويلية للغوي الأمريكي نعوم تشومسكي، مقارباً بين معطيات تلك النظرية وآفاق الرؤية البلاغية العربية، وخصوصاً في مرحلة استقرارها البلاغي المتمثل بالبلاغة السكاكية. ومن أجل الولوج في هذه المقاربة لابدّ لنا من مدخل لبيان المعالم العامة لتلك النظرية واستعراض سريع لأبرز مبادئها.

اتكأت نظرية تشومسكي على تحقيق الكفاية التفسيرية، بمعنى تفسير الظاهرة اللغوية بالبحث عن عللها العليا وأسبابها الأولى والخفية^(١)، وهي بهذا ستفترق عن الكفاية الوصفية القائمة على رصد سلوك العنصر اللغوي داخل ما ينجزه المتكلمون قصد تحقيق تلك الكفاية، إذ باعتماد الوصف يمكن اكتشاف القوانين التي تتحكم في سلوك هذه الوحدات، فاشتغالها سيكون على ما هو معطى ومتحقّق سلفاً، وقد مثّلت هذه المدرسة لسانيات جاكوبسن^(٢)، أمّا الكفاية التفسيرية فإنّها تشكّك في الطبيعة الاستغرافية للموجود اللغوي وتتهمه بالنقص ولا تلجأ إليه إلا بعد بناء الفرضية، فتستعين به للتقويم والاختبار^(٣)، وإنّ الأساس الفلسفي لها هو الإيمان بضرورة بناء الأنساق، وهي عملية عقلية تحلّق في سماء الافتراض وتبتعد عن خشونة الواقع^(٤)، وقد اعتمد على الجملة اللغوية كأساس وأصل، مبيناً ذلك من خلال مبادئ أساسية^(٥) وهي:

١. الكفاية اللغوية والأداء الكلامي ، إذ " تتوصّل نظرية الكفاية اللغوية إلى اكتشاف وتنظيم القواعد الضمنية التي تمثل اللغة الكامنة ضمن الكلام العادي، في حين تتوخى نظرية الأداء الكلامي دراسة المبادئ التي يستعملها في إنتاج هذا الكلام وتفهمه".
٢. البنية السطحية والبنية العميقة: فالسطحية تظهر من تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم، والعميقة تعكس المنطق الداخلي للجمال اللغوية .
٣. وظيفة اللغة: الوظيفة الإبداعية للغة ترتبط أساساً بذات المتكلم، حيث، " إنّ الظواهر لتوحي بأنّ الذات المتكلمة تخرع لغتها بوجه من الوجوه كلّما عمدت إلى التعبير عن نفسها"، بمعنى أنّ اللغة تتبادل مع الذات المتكلمة الانعكاس، فاللغة تكشف عن الذات

(١) ظ: الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية: ٣٧.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن: ٣٧-٣٨.

(٤) م.ن: ٤٠-٤١.

(٥) ظ: الفلسفة واللغة، نقد "المنعطف اللغوي" في الفلسفة المعاصرة د. الزواوي بغوره: ١٤١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المتكلمة وتبين المستوى الوجودي الذي تنطوي عليه، كما أنّ المستوى الوجودي للذات المتكلمة سينعكس على اللغة ويمدّها بروحه.

وفي الحقيقة إنّ الافتراض الذي يعتمد تشومسكي أساساً في التفسير لا يمكن أن يُفلت من تحكّم اللغة إذ كيف يمكن أن يؤسّس افتراضات ثمّ يعرضها على اللغة لتصحيح الاختبار واللغة متحقّقة في الخارج؟ خصوصاً إذا علمنا أنّ الأساس لعلم اللغة عنده هو "بناء نظرية استدلالية خاصّة بتركيب اللغة الإنسانية، بحيث يمكن تطبيقها على جميع اللغات المحتمل معرفتها وإنّ علم اللغة ينبغي أن يكون عامّاً وشاملاً ومحدّداً للخصائص الأساسية للغة الإنسانية، الداخلة ضمن الصّورة الكلية التي هي عبارة عن مبادئ عامّة تحدّد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم النحوية لعدّة لغات.... فالنحو العالمي مثلاً هو مجموع الخصائص الصوتيّة والدلاليّة والبنائيّة^(١)، وهذا المجموع هو مشتركات اللغات العالميّة. ولسنا بصدد مناقشة الجدوى العلمية لهذه النظرية ولكننا نتساءل، كيف سنتعامل مع البنى المعرفيّة المختلفة لكلّ لغةٍ من اللغات، فالمعلوم أنّ لكلّ لغةٍ من اللغات بنية معرفيّة خاصّة تنطوي تحتها آفاقها الفكرية والنفسيّة وطبيعة تفكيرها ونظرتها للغة وللوجود، ولها نماذج قولية مختلفة ومتفاوتة في الإبداع تشكّل روافد لغوية ومعرفيّة، وعلى أساسها تفرّعت كثيرٌ من القواعد، كما أنّ سعة هذه القواعد وضيقها تختلف من لغةٍ إلى لغةٍ، وكذلك الأداء اللفظي يختلف من لغةٍ إلى لغةٍ حسب طرائق التفكير، فالذي يعبر عن شيءٍ بجملةٍ يعبر آخر عن الشيء نفسه بجمليٍّ، ثمّ من هو المخوّل بوضع وتأسيس الافتراضات لهذه القواعد والناطق عن اللغات الأخرى؟، هذه الأسئلة وكثير غيرها تقف أمام البحث في هذه الفرضيّة، مع ملاحظة أنّ الأساس النظري لهذه النظرية قد تعرّض للدحض من قبل الكثير من المفكرين في المهاد الفكريّ نفسه الذي ترعرعت فيه^(٢)، ولكن يمكن الانطلاق من الأساس الذي طرحه تشومسكي حول المتكلم المثالي^(٣) الذي من الضرورة أن تكون لغته مثاليّة فتحتدّى لتحقيق أعلى مستوى من الأداء اللغوي والفعل الإبداعي.

إنّ التحليل البديعي الذي عرض له الدكتور محمد عبد المطلب في عمله هذا قائم على تطبيق أو مقارنة رؤية تشومسكي في البنية السطحيّة والبنية العميقة لكشف المقدرة اللغوية والإمكانية الإبداعية للغة، وهو في مشروعه هذا حاول طرح قضيتين:

الأولى، تتعلّق بتأكيد على وحدة النصّ وضرورة عدم تمزيقها وتفريقه.

الثانية، رفضه لفكرة البديع التحسيني، واعتباره إعاقة للنتاج الدلالي، ومعيقاً لعملية التعليم البلاغي للناشئة الذين "لم يروا هذه الأدوات إلا في جانبها المشوّه الذي يعمل على تمزيق

(١) ظ: الفلسفة واللغة، د. الزواوي بغورة: ١٤٢.

(٢) ظ: الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية: ٢٧٠، وما بعدها.

(٣) ظ: م.ن: ٢٢٨ و ٢٥١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

النصّ وبعثرة مكوّناته إلى عناصر مبتورة لا تجمعها وحدة شعوريّة أو موضوعيّة أي أنّ البلاغة على هذا النحو كانت من أسباب نفور الناشئ من مجموعة البنى البلاغيّة أولاً، ثمّ من النصّ الأدبيّ ثانياً، ومن ثمّ كان الأمر في حاجة إلى معاودة النظر في مباحث البلاغة جملةً وتفصيلاً للإمساك بتصوّر شموليّ يجمع بين مفرداتها من ناحية، والكشف عن تفسير عميق لتحوّلاتها الظاهرة والعميقة من ناحية أخرى^(١)، فمقتضى الكشف عن التحوّلات الظاهرة والعميقة سيفضي إلى نقل البديع من أفق التحسين إلى أفق إنتاج الدلالة.

من هذا المنطلق وجد الدكتور محمّد عبد المطّلب في الوافد الغربي من النظريات اللسانية والأسلوبية ونظريات التواصل منهجاً في المعالجة البلاغيّة وإن اشتمل على بعض المفارقات "في مناطق معينة كمنطقة التقويم التي ارتكزت عليها البلاغة بحدّة في حين تغاضت عنها الدراسات الحدائية"^(٢)؛ لأنّها انتقلت بالدرس اللغوي من وسائلية اللغة إلى غائيتها، وقد بيّنا لا جدوى البحث في غائية اللغة؛ لأنّها ستولّد الدور حول أداء فعليّ ولده العقل الإنساني ليلبّي الحاجات ويسمو بالإنسان .

وإنّ منطقة التقويم التي أشار إليها المؤلّف تسير في الجادة المتّجهة نحو المعيارية التي ولّدت البلاغة السكاكية التي نظر إليها المؤلّف نظرةً منصفةً قائمة على تقصّي العلميّة، ذاهباً إلى أنّ "معظم الجهد البلاغي القديم جهد معاصر بكلّ المقاييس، وإنّ اتهام السكاكي ومدرسته بتعقيد البلاغة اتهامٌ ظالم، فلم يصنع الرجل شيئاً سوى أنّه حوّل البلاغة إلى علم دقيق فهل العشوائية تُمتدح والنظام يُعاب؟، وهل الاعتباطية في البحث تُعدّ أصلاً والتنظيم المبرّر يصير تعقيداً وجموداً؟"^(٣)، وهذا الطرح سيبتعد عن تكرار الرؤى والأفكار التي يعيدها كثير من الباحثين تبعاً للآخرين من دون سابق تمحيص وتحليل، إذ إنّ النظرة إلى الجمود البلاغي المتمثّل بالبلاغة السكاكية ما برح يتكرّر حتى بات عقيدة في نفوس من يتعاطى البحث البلاغي، مع ملاحظة أنّ السكاكي لم يُلزم من بعده بالتعبّد بأفكاره، بل إنّ أفكاره ثمرة الواقع الفكريّ البلاغيّ الذي كان يعيشه القرن السابع الهجري، وهذا في الحقيقة يدلّ على العمق الوجودي المؤسّس الذي كان ينطوي عليه مفكّرو تلك الحقبة، وقد انطوى نتاجهم الفكري على السّعة والشمول ممّا قدّم مادة بلاغية كثيرة تتناول الآفاق الذهنيّة للفظ ومعناه "ومن يقرأ شروح التلخيص سوف يَفْجأه جهدٌ تألّفيّ هائل يكاد يستوعب مجالات الملفوظ دون أن يُفلت منه واحدٌ منها بدءاً من المفرد بكلّ خواصّه الوضعيّة والصوتيّة والصرفيّة وصولاً إلى المركّب بكلّ ظواهره التعليقيّة"^(٤)، إنّ هذه القراءة الدقيقة لمفردات

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١.

(٢) م.ن: ٧.

(٣) م.ن: ١٤.

(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التراث جعلت الباحث يتفحص مفردات الحادثة بدقة ليخرج بنتيجة مفادها أن "كثيراً من الإضافات الحداثيّة لا تتجاوز تغيير المصطلح الذي يستوعب أكثر من شكلٍ بديعيٍّ في حدوده المفهوميّة، فالتماثل بوصفه أداةً أسلوبيةً محدثةً يمكن أن يضمّ من أشكال البديع، التجنيس والتسجيع ومراعاة النظير وغيرها ممّا يدور في فلكها الشكلي" (١)، ومثل التماثل بوصفه ظاهرةً حداثيّة، المنهج الإحصائي الذي يتناول الكثافة الكميّة للدوال داخل النصّ، فإنّه "ليس جديداً وإنّما هو من ثمار النقاد والبلاغيين القدماء الذين كانوا يحكمون على النصوص من جهة البديع بالقلّة والكثرة، ولكنّه قد خضع للتطوّر من خلال مناهج العلوم المنضبطة" (٢)، وتمثل فاعلية هذا المنهج عند المؤلّف وسيلة من الوسائل الدالّة على انتقال البديع من أفق التحسين إلى أفق إنتاج المعنى الشعري وتظهر هذه الفاعلية بمتابعة "تردد الظواهر كميّاً ثمّ تحويل المؤشّر الكميّ إلى مؤشّر كيفيّ وهو ما ساعد على الكشف عن دور البنية البديعيّة في إنتاج المعنى الشعري" (٣)، ولكنّ الملاحظ أنّ إبداع الدلالة وفقاً للمنهج الإحصائي لا يتسنى لكلّ مبدع؛ لأنّها عمليّة تقتضي وعياً ذهنياً ليطابق الدلالة الكليّة للنصّ مع دلالاته الجزئية المتمثلة ببنى البديع، وهذا لا يتحقّق بدقّته الكبرى إلا في سياق النصوص العالية المنتجة من متكلّم مثاليّ محيطٍ بأوضاع التحرك الدلاليّ وأحوال المتلقين.

مع ملاحظة المفارقة في أنّ الكثافة البديعية كانت مظهراً من مظاهر رفض البديع، والسبب في نظر الدكتور محمد عبد المطلب هو إهمال البنية العميقة والاتكاء على البنية السطحية في التطبيقات، إذ إنّها لم "تُجهد نفسها في محاولة الكشف عن البنية العميقة، أو تحديد دورها في تحويل الأدوات البديعية إلى وسائل لإنتاج المعنى" (٤).

ومن الأمور الأساسيّة التي طرحتها آفاق التجديد البلاغي بعامّة، وتبناها المؤلّف، وتبعاً لأوائل المجدّدين، أمران أساسيان:

- ١- رفض انشطار البلاغة إلى علومها الثلاثة، (المعاني والبيان والبديع).
- ٢- رفض النظرة التجزيئية للنصّ والدعوة إلى معالجته ضمن وحدته الكليّة.

وسنستعرض بعض ملامح نظريته، وإنّ كنا قد تعرّضنا لكلا الأمرين في طيات البحث السابقة. فأمّا انشطار البحث البلاغيّ إلى هذا النحو فيوجّهه؛ بسبب من التوجه التعليمي وإلا فإنّ الوسائج حميمة وليس هناك انفصالٌ تنفيذيّ (٥)، ومن ثمار هذا الانشطار أنّه "سيؤول إلى وعي شموليّ يوحد بين المباحث في اتصالها بالخطاب الأدبي، وهذا ما يؤكّده تحديدهم المعرفي الذي يتكئ على العلاقة الحميمة بين ظواهر التعبير، على معنى أنّ

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٦.

(٢) م.ن: ١٧.

(٣) استعرض المؤلّف هذا المنهج في دراسته التطبيقية، بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي)، انظر: ١٦.

(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٥.

(٥) ظ: م.ن: ٣٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الإفراد ليس إلا خطوة تمهيدية للتركيب"^(١)، وبهذا فقد حدّد مسبقاً فهمه للتبعية التي وُسم بها البديع بأنها تبعية تقود للتكامل الدلالي؛ لأنّ التابع والمتبوع شيء واحد^(٢).

وقد ذكر المؤلف أنّ ثمة ثنائيتين متحقّقة بين مباحث البلاغة الرئيسة وهذه الثنائيتين "ثنائية أولية بين (البيان) و(المعاني) من جهة وبين (البيان والمعاني) من جهة و(البديع) من جهة أخرى، وإن خضعت الثنائية الأخيرة لارتباط شرطي، فالبديع لا يستطيع أن يؤدي مهمته التحسينية إلا بعد مراعاة أمرين: الأول، مطابقة الكلام لذاته.... والثاني، مراعاة مقتضى الحال"^(٣)، وفي الحقيقة هذا افتراضٌ بعيد، لأنّ هذه الوسائل الثلاث لها وجودان، فالوجود الأول في ذهن المتكلم أو المبدع، وهذا الوجود يمثّل وجوداً اتحادياً، بمعنى أنّ الوسائل الثلاث متحدة في ذهن المبدع ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً برويته الثقافية والفكرية والنفسية ومقتضى الحال، الذي سيهيمن على كلّ الوسائل اللفظية، ليخرج القول إخراجاً متطابقاً مع أفق الزمان والمكان في النصوص العادية، ومتوافقاً مع أفق السبك الزمني الاستغراقي بالنسبة للنصوص العالية، أما الوجود الثاني فهو الوجود التشريحي التحليلي بعد خروج الخطاب من الأفق الذهني إلى الأفق الخارجي، وهذا تحليل يقتضي التوصيف والتبيين لا انفراد الوسائل على حدة والحكم باستقلاليتها، وإن كان الأفراد بمنزلة المقدمة لتلك العملية، ولعلّ هذا هو السبب في ترتيب حكم الإبداعية بالنسبة للبديع.

من هنا ارتدّ المؤلف ليؤكد أنّ "الناتج الإبداعي لا يستحقّ أن يدخل دائرة البلاغة إلا بعد توافق الصياغة مع ناتجها، أو بمعنى أصح توافق الناتج مع الصياغة ثمّ توافق المنتج مع المتلقي في أحواله الزمانية والمكانية والثقافية، من هنا لا يمكن أن نقبل مسألة الإضافة التحسينية التي ألصقت بعلم البديع؛ لأننا لو قبلنا ذلك لكان معناه أنّ المبدع يكون عابثاً في بعض إنتاجه الصياغي، وهذا غير مقبول على مستوى الدرس الأسلوبي؛ لأنّ كلّ ما يقدّمه المبدع من صياغة مقصود منها الإفادة، وكلّ أداة مهما صغرت حجماً أو أثراً فإنّها تؤدي مهمّة لا يمكن تهميشها بحالٍ من الأحوال..."^(٤)، وهذه النقطة من أهمّ النقاط التي ترتبط بمسألة الارتباط الذهني بين اللفظ والمعنى، في وجوده الأول وقبل إبرازه صوتياً، ولعلّ المثال الذي ساقه المؤلف يكشف عن هذه الملابسة، وهو قول امرئ القيس:

مِكرٌ مِفرٌ مُقبلٌ مدبرٌ معاً كجُلُودٍ صخرٍ حطّه السيلُ من علٍ^(٥)

فقد وجد أنّ الناتج من البيت يصدّق على كلّ فرسٍ يذهبُ ويجي، ولكنّ أداة (معاً) الصغيرة نقلت المعنى من مستواه الواقعي المألوف إلى مستوى فنيٍّ إبداعيٍّ لا يحتمله الواقع

(١) المصدر السابق: ٧٣.

(٢) ظ: م. ن: ٣٩.

(٣) م. ن: ٣٩-٤٠.

(٤) م. ن: ٤٠.

(٥) ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح الأستاذ مصطفى عبد الشافي: ١١٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التنفيذي بل الواقع الفني^(١). فمن هنا يأتي دور المؤلف في رفض التصنيف إلى ما هو إضافي أو أصلي، وتأكيد وحدة البنية الداخلية والخارجية التي تتحقق بها الأدبية الحقيقية للخطاب، ومن ثم لا فرق في التوظيف البنيوي بالنسبة لبنى العلوم الثلاثة، المعاني والبيان والبدیع^(٢).

أما موضوع الوحدة التجزئية بالوقوف على حدود الجملة فقد انتقده المؤلف ولكنه اعتذر له مرجعاً إياه "لظروف العصر، وسيطرة الملاحظ الجزئية في النظر إلى الواقع ثم انعكاسها في البحث اللغوي عموماً، ومن هذا الأخير انطلقت في حركتها الجزئية"^(٣)، وقد بينا في تحليلنا للعمل السابق أن هذه النظرة التجزئية كانت طابعاً عاماً وليست بدعاً من الآفاق البلاغية العالمية، كما ذكرنا أن المسار الفكري يقتضي التوجه بهذه الصيغة، ولعل لما ذكره من ظروف العصر وآفاقه الفكرية والسياسية الدور في تبني هذا الأفق، ولكن السبب الرئيس بنظرنا هو غياب وحدة الأجناس وغلبة التفرد الأجناسي الخاص بالشعر، إذ هو العامل الأساس في طبع هذه الوحدة على الأعمال النقدية والبلاغية.

وعلى الرغم من ذلك فإن المؤلف يثبت صفة التجزئة التي طبعت الدراسات الحداثيّة برغم مناداتها بشعار الوحدة النصيّة فمع "كثرة ما تُرجم عن الأسلوبيات والبنويّات لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلاً وتفسيراً، وإنّما كان الاجتزاء سمةً تميّز هذه الدراسات"^(٤).

ويتفق المؤلف مع كثير من الباحثين في التجديد على كون البديع قد حقّق الوحدة الجزئية للنصّ من البيتين إلى الثلاثة بسبب من بعض فنونه، كالف والنشر، والجمع مع التفريق وأخويه، والتضمين، وغيرها^(٥). من هذا يتّضح أنّ من أهمّ ثمار التجديد في البديع التي حققتها الدراسات المعاصرة هو إثبات أو تفعيل الوحدة النصيّة، والخروج بالبديع من أفق التحسين إلى الأفق الدلاليّ مشاطراً قسيميّه المعاني والبيان فيه، وإن اختلفت طرق معالجة البديع في تحقيق هذه النتيجة مثلما تبين.

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٤٠.

(٢) ظ: م.ن: ١٧ و١٨ و٤١.

(٣) م.ن: ١٩.

(٤) م.ن: ٢٦.

(٥) ظ: م.ن: ٢٠.

بنية التحول:

يجري هذا المبحث في بناء المؤلف نحو التأصيل "بنية التحول"، بمعناها العام وهذا التحول بالضرورة المنطقية يقتضي أصلاً يتولد عنه، حيث افترض تشومسكي في أصل نظريته الإحالة إلى الأصل المثالي أو الأنموذج الكلّي^(١) كما قدّمنا، فما هي سمات هذا الأصل؟ وكيف يؤصل؟ ومن له الشرعية العقلية في تأصيله؟ وما مدى الدور الفطري الذي فطر عليه الإنسان في التكلم بامتلاكه لهذا الجهاز البيولوجي الإلهي؟ وما هو دور المعرفة الإكتسابية للإنسان وتأثير البنى الثقافية في صوغ منظومته اللغوية؟ جميع هذه التساؤلات ينبغي الفراغ من الإجابة عنها قبل الولوج في بوابة البحث في البنية التحولية.

وقد انطلق المؤلف من نفس تأصيل تشومسكي لذلك الافتراض، فجعل أصل الدراسة قائماً "على الكشف عن البنية البلاغية وتحولاتها التي تعتمد أصلاً مثاليًا افترضه البلاغيون من خلال اتّصالهم بالبحث النحوي الذي يقوم أساساً على افتراض الأصل"^(٢). وإنّ متابعة هذا الافتراض ستوصل إلى الخلفية الفكرية التي وجهت البلاغيين إلى رصد مباحثهم الثلاثة: البيان- المعاني - البديع"^(٣)، وإنّ "التأمل في التوجّه البلاغي يؤدي إلى الوقوع على البنية العميقة التي كانت بمثابة المفسّر الأول لتشكيلات مجموعة البنى البلاغية، سواء ما اتّصل منها بالخروج على المواضعة في مباحث البيان، أو ما اتّصل منها بانتهاك النمط التركيبي في مباحث المعاني، أو ما اتّصل منها بالترار النمطي التحسيني في مباحث البديع"^(٤)، ولا نظنّ أنّ البنية العميقة هذه ستتطوي على شيء واحد بل إنها ستتطوي على أمور معقّدة ومتعدّدة ترتبط أولاً بالثقافة وطريقة التفكير والنظر إلى الأشياء والمحيط والعلائق الاجتماعية والامتداد التاريخي والتطبع الفطري والتواضع والاصطلاح، إلى أن نصل إلى مرحلة التقصي والاستقراء، ثمّ الاستنباط والتقنين، ثمّ تولّد البنية النحوية.

فالمؤلف تبعاً لتشومسكي يؤسّس للأصل الذي ستتولّد منه الفروع، والمعلوم أنّ الفروع المتولّدة عن الأصل ستأخذ بعداً دلاليّاً يختلف عمّا انبثقت عنه، ويتناسب مع المحيط الثقافي والفكري والنفسي الذي ولد فيه، إذ لا نتصور اتّحاد دلالاته مع دلالة الفرع؛ لأنّها لو اتحدت لما كان من فارق بين الدالتين، ومن هنا، ماذا سيتأسّس على الرجوع إلى بنية العمق وتقصي تطوراتها من خلال الفروع؟ ثمّ إذا كانت جميع البنى بنظر المؤلف تحولات لبنية أولية لا لغرض التكرير وتقصي التكرير، فكيف نتعامل مع التفاوت الدلالي بين البنيات، فلا شكّ أنّ بعض البنيات أقوم من بعض، وبعضها أنسب من الأخرى، فأين سنضع المقياس النقدي؟ أليس في هذا ترجيح للمقياس الكمّي على المقياس النوعي الذي يتسالم على ترجيحه

(١) ظ: الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية: ٣٠٠.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٨٩.

(٣) م.ن: ٩٠.

(٤) م.ن: ٩١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

العقلاء؟ فالمؤلف وإن برز التكثير البديعي مثلاً بهذا المقياس إلا إنه أهمل التفاوت الدلالي بين البنى، يقول إنه "لا يمكن النظر إلى الكمّ الهائل من الأقسام والتفريعات الجزئية والكلية على أنها مجرد شهوة تكثيرية، وإنما هي في جوهرها تحولات لبنية أولية، أو لنقل إنها تنويعات على أصل مثالي قابل للدخول إلى منطقة التطبيق بكل احتمالاتها الدلالية، ومن هنا يمكن إدراك نوع من التطابق بين الأصل والأنموذج التنفيذي برغم ما فيه من تحولات ذات مستويات مختلفة، حتى ولو لم نقل بوجود قواعد تحويلية أو غير تحويلية إذ سوف نجد أنّ الحركة الذهنية تتطابق مع مردودها الصياغي مباشرة على أن يؤخذ في الاعتبار ما يكتنف هذه المطابقة من نتوءات دلالية لا يمكن تفسيرها إلا بالاحتكام إلى قواعد التحويل التي تتحرك بين منطقتين أساسيتين هما التحليل والتركيب"^(١).

ويرجع المؤلف وعي السكاكي بالتقنين البلاغي وعكوفه على التقعيد إلى وعيه بالمفارقة بين البنية السطحية بمعنى الترتب اللفظي للكلمات والانتاج الصياغي، والبنية العميقة بمعنى الحركة الذهنية! باعتبار أنّ الأدبية نادراً ما تتميز في المستوى العميق وإنما التمايز والتغاير يحصل بالبنية السطحية، موافقاً الجرجاني في عدّه بنية السطح انعكاساً ضرورياً لبنية العمق^(٢)، وهذا القول أوقع في التناقض، فكيف تكون بنية السطح انعكاساً ضرورياً لبنية العمق مع افتراض عدم التغاير في بنية العمق وتحققه في بنية السطح؟، كما أنّ مقولة التفريعات على البنية الكلية (أو التوليد) التي اعتبرها المؤلف عملية "نقل للتركيب من حالة إلى أخرى مولدة عن الأولى بتطبيق مجموعة من القواعد التنظيمية"^(٣) التي تبناها ستهوي بالعملية الانتاجية والابداعية بدلاً من تنميتها وذلك؛ لأنّ هذه التفرعات ليست بالضرورة متّحدة الدلالة؛ لأنها في الغالب متغايرة في معانيها بنحو من التغاير ولو من جهة الاستعمال، بمعنى أنّ التجدد أو التفرّع اللفظي يقتضي التغاير الدلالي؛ لأنه لو اتّحد الفرع والأصل في الدلالة لكان واحداً ولا فائدة تترتب على التفرّع، وإن كان المؤلف قد استند إلى هذه الفكرة في رفض تحسينية البديع؛ لأنها ليس شهوة تكثير - كما يقول - بل هي بُنى متفرّعة عن الأصل، ومن هنا انطلق للقول إلى أنّ "الحركة التحليلية للبنية منطلقة من اللازم إلى الملزوم أحياناً ومن الملزوم إلى اللازم أحياناً أخرى"^(٤)، وبهذا أصبحت عنده الحركة متّحدة سواء أكانت من البنية العميقة وصولاً للبنية السطحية أم على العكس^(٥)، وفي الحقيقة فإنّ هذا الأمر يصعب تصوّره عقلاً؛ لأنّ اللازم إذا تقدّم على الملزوم تحققت الثمرة المطلوبة من الإدراك، أمّا إذا تحقق إدراك الملزوم فما هي ثمرة اللازم؟ مثال ذلك (النار والدخان)، فالدخان لازمٌ لوجود النار وهي الملزوم، فروية الدخان تحيل ذهنياً على وجود

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٩١.

(٢) ظ:م.ن: ٩٣.

(٣) م.ن.

(٤) م.ن.

(٥) ظ: م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

النار، أمّا إذا وُجدت النار وأدرك وجودها فإنّه سيُغفل عن الملزوم فلا يترتّب عليه الأثر الذهني السابق لانتفاء وظيفته، ومن ثَمَّ فالحركة العكسيّة لرصد الناتج الدلالي غير متحقّقة؛ لأنّ إدراك الناتج الدلالي يتحقّق بالحركة الأولى أمّا الثانية فإنّها متفرّعة عنها.

ومن مقاربات المؤلّف لمنهج تشومسكي مع منهجيّات ومبادئ البلاغة العربيّة الربط بين التعابير الحقيقيّة والتعابير المجازيّة عن طريق الانحراف كما سمّاه تشومسكي، مُدخلًا إيّاه في باب علاقات التحوّل أو النقل في الدرس البلاغيّ العربي، وبيان كيفيّات هذا النقل وهل هو داخل في حدود العقل أو الوهم أو التخيل؟ ومدى القدرة الإبداعيّة على تشكيلها للعلاقات، وقد رتّب على هذه الفكرة القبول العمومي لجميع التراكيب؛ لأنّها بنظره داخله في إطار الإنجاز البلاغي^(١)، فليس هناك تركيبٌ مقبولٌ وتركيبٌ غيرٌ مقبول!، والملاحظ أنّ هذه النقطة بالذات عصيّة الدخول في الدرس البلاغي بهذا المفهوم؛ لأنّ المؤلّف نفسه خرم شموليّة هذه القاعدة بخروج بعض الاستعمالات، حيث رفضت المجازات ذات الانتقال غير المألوف أو غير المسبوق في الاستعمال- حسب العلوي في الطراز-، وعليه يجبُ قصر المجازات في الأماكن التي وردت فيها من غير تعدية، انطلاقاً من دائرة السلامة المؤسّسة على الصّحة اللغوية، وبهذا سيتبيّن مقدار التناقض بين السكاكي والجرجاني في فهم البنية العميقة وعلاقتها مع البنية السطحيّة كما وقفنا عند رأييهما، وبين هذه الرؤية التي تجعل البنية العميقة مترصّدة للبنية السطحيّة ودائرة مدارها^(٢)، وقد نقل عن البلاغيين محاولتهم للتوفيق بين المحدودية والسّعة في الاستعمال المجازي من خلال مقولة التّأويل والتفسير، فالمحدوديّة داخله ضمن التفسير وسعة الاستعمال داخله ضمن التّأويل، ولكنّ هذا التوفيق لم يحلّ المشكلة إذ إنّ التّأويل لا بدّ له من ضوابط توجّهه الوجهة الصحيحة، ثمّ من يمتلك علامة الإذن بالعبور من التفسير إلى التّأويل، إذ ربّما بعض التراكيب يراها البعض من التفسير على حين يراها آخرون من التّأويل، ولا بدّ لنا هنا من الإشارة إلى أنّ النصّ - وخصوصاً النصّ عالي الأديب- له القدرة على وضع شفرات في سطح النصّ ينتقل من خلالها إلى عمقه وهي بمنزلة جوازات العبور إلى العمق تقييداً للعشوائيّة وفوضوية القراءات، وقد قدّمنا بعض الأمثلة عن ذلك في حديثنا عن الشعر، فالتّأويل وإن كان تحرّكاً في العمق إلا إنّ وعاء هذا العمق والتحرّك معاً هو السطح والظاهر اللفظي، فلا يُتصوّر أن تكون الحركة افتراضية وضمن الفضاء الدلاليّ المحض.

(١) ظ: البلاغة العربيّة قراءة أخرى: ٩٩.

(٢) ظ: م.ن: ٩٩-١٠٠.

أسلوبية التحول:

من المعلوم أنّ الأسلوبية هي منهج دراسة الأسلوب وتقصي مظاهره الجمالية والإبداعية ابتداءً من المفردة وانتهاءً بالنص^(١)، وأنّ "الأسلوب STYLE سابق عن الأسلوبية stylistique في الظهور، إذ ارتبط الأسلوب بالبلاغة منذ القديم في حين انبثقت الأسلوبية إثر الثورة التي أحدثتها لسانيات دي سوسير مطلع القرن العشرين في مجال الدرس اللغوي، ومدى تأثيره فيما بعد في الدراسات النقدية والأدبية"^(٢)، ومن هنا فـ "الأسلوبية بشكل عامّ منهج يدرس النصّ ويقرأه من خلال لغته وما تعرضه من خيارات أسلوبية على شتى مستوياتها: نحويّاً، ولفظيّاً، وصوتيّاً، وشكليّاً، وما تفرده من وظائف ومضامين ومدلولات وقراءات أسلوبية لا يمتّ المؤلّف بصلبه مباشرة لها على أقلّ تقدير"^(٣)، من هذا المنطلق عمد الدكتور محمد عبد المطلب إلى دراسة ما تحقّقه بنية التحول من إمكانات أسلوبية وجماليّات إبداعية في الحقل البلاغي من خلال النظر إليه جملة، وبيان صلته بالدراسات اللغوية وما يكتنفها من تحولات داخلية وخارجية تقضي إلى تنقلها في مستويات مختلفة^(٤)، وإذا كان منهج تشومسكي قائماً على تقصي اللغة في أيّ مجال من مجالاتها الإخراجية القولية، بمعنى دراسة الملفوظ القولي جملةً، فإنّ السكاكي أعرض صفحاً عن هذا النمط من الدراسة، فلم يُعنْ بعمومية اللغة بل تركّز على الخصوصية الأدبية، وهذا من أوضح المفارقات بين منهجية تشومسكي ومنهجية البلاغة العربية التي رام الدكتور محمد عبد المطلب إدخالها ضمن إجراءات تلك النظرية، وقد استشهد المؤلّف بنصّ للسكاكي يبيّن مجال الاشتغال البلاغي في المنظومة الفكرية العربية، كما يثبّت الأصل المثالي الذي يؤسّس للبنية الأمّ التي ينبغي أن تنطلق عنها البنى الفرعية، مع ملاحظة أنّ تلك البنية الأمّ لا بدّ من أنّها ستنتطوي على آفاق الدقّة العقلية في التعامل مع اللغة، يقول السكاكي إنّهُ معنيّ "بتراكيب الكلام، التراكيب الصادرة عمّن له فضلٌ تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عمّن سواهم؛ لنزولها في صناعة البلاغة منزلة أصوات الحيوانات، تصدر عن محالّها بحسب ما يتّفق، وأعني بخاصية التراكيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريّاً مجرى اللازم؛ لكونه صادراً عن البليغ، لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو هو، أو لازماً لما هو هو"^(٥)، فالملاحظ من التحديد:

١. أنّ النصّ البليغ نصّ قصديّ وبهذا فهو يشتمل على مقوّمات التناسب المقامي والحالي، وتحقّق العلاقة المنطقية بين الدالّ والمدلول إلى أرفع مستوياتها.

(١) ظ: مجلة التراث العربي العدد ٩٥، السنة الرابعة والعشرون، أيلول- رجب ١٤٢٥ هـ، الأسلوب بين التراث العربي والأسلوبية الحديثة، د. محمد بلوحي: الأسلوب عند الحديثين ص ٥٨ و ٥٩.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن.

(٤) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٠٤.

(٥) مفتاح العلوم، للسكاكي: ٣٤١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

٢. إنَّ غير البليغ لا يعتدُّ بناتجه القولِي؛ لأنَّ هناك دلالةً رتيبةً في الأداء، صادرة عن غير أفق الإدراك الواعي، ما قد يؤدي إلى وقوع الدالِّ على غير مدلوله، أو تكرّر الدالِّ على نفس المدلول.

٣. نفي الأهميّة عن التركيب من حيث هو أو كونه لازماً لما هو هو، ومن ثمَّ سيكون للدلالة السياقيّة أثرٌ كبيرٌ في تحديد دلالة التراكيب ومقاصدها المختلفة، وهذا المطلوب بالتحديد سينسف مقولة دراسة اللغة بما هي لغة، بالإضافة إلى كون الدراسة ستتفرّد بتحليل البنية النهائية للملفوظ القولِي بصيغته الأدبيّة، فلا حاجة للعودة إلى المستوى الأوّل، كما اضطرَّ الدكتور محمّد عبد المطلب لافتراضه معلّلاً بأنَّ "إدراك جماليّتها[أي الأدبيّة] يستلزم حضور الأصل المقيس عليه لضبط درجة العدول كمّاً وكيفاً"^(١) ومثّل لذلك بعدّة أمثلة^(٢)، من مثل قوله تعالى "إذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أيُّهُمْ يكفُلُ مَرِيَمَ" (سورة آل عمران الآية ٤٤) فبنية الأصل بنظره "ينظرون ليعلّموا أيُّهم يكفُل مريم"، ولكنّ الملاحظ أنّ تقدير بنية الأصل المحذوفة غيرُ قارٍّ وليس له ثبوتٌ قطعيّ، وإنّما هو استحسانٌ ظنّيٌّ ساعد عليه ظاهر النصّ، ففي المثال السابق يمكننا أن نفترض أيضاً أنّ الأصل "إذ يلقون أقلامهم حيثُ بإلقاء أقلامهم سيتبنّين أيُّهم يكفُل مريم".

ومن أجل إعطاء الصيغة التطابقية للجهد البلاغيّ العربيّ مع افتراض بنية الأصل وفقاً لتشومسكي، ذهب المؤلّف إلى "أنَّ التحركّ البلاغيّ قد تجاوز مسألة (الصواب والخطأ)؛ لأنها ليست مجالاً للمفاضلة والتمييز وليست البلاغة معنيّة بتقويم اللسان....، وبالخروج من دائرة (الصواب والخطأ) أمكن للجهد البلاغيّ أن ينصرف إلى العملية الإبداعية في ذاتها متتبّعاً تراكيبها في مستوياتها المختلفة، مع ربط المستويات بالإمكانات التي تقدّمها اللغة للمتعاملين بها...."^(٣)، وهذا في الحقيقة مصادرة للجهد البلاغيّ العربيّ، إذ إنّ الملاحظ للمبادئ العامة التي انتظمت البلاغة العربيّة في أقسامها الثلاثة يجد أنّ مبدأ الصواب والخطأ من أهمّ المبادئ التي تأسّست عليها البلاغة، إذ عليه جرى تحليل نصوصها التطبيقية، فعلم المعاني قائم على مبدأ الخطأ والصواب، إذ هو "تتبع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره"^(٤)، إذن فهو العلم الذي يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد^(٥)، ومن هنا جعل البلاغيّون الأصل المثالي هو أن يكون إفهام الكلام جارياً على مجاري العرب الفصحاء، يقول الجاحظ: "فمن زعم أنّ البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللّكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون

(١) البلاغة العربيّة قراءة أخرى: ١٠٥.

(٢) ظ:م.ن.

(٣) م.ن: ١٥-١٠٦.

(٤) مفتاح العلوم، للسكاكي: ٣٤١.

(٥) ظ:دراسات نقدية وبلاغية: د. ناصر حلاوي: ٣٣٤.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

والمعرب، كلّه سواء، وكلّهُ بياناً، وكيف يكون ذلك كلّهُ بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفساد من الكلام لما عرف... وإنما عنى العتّابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء^(١)، ومن ثمّ فإنّ ربط مسألة الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى مع مسألة الحال والمقام لازمة من لوازم الفكرة البلاغية القائمة على الصواب والخطأ. بالإضافة إلى ذلك فإنّ لشاهد الحال والمقام أثراً في إخراج الكلام مخرجاً خاصاً وهذا سيجعل من المقام والحال، وكذا الزمان والمكان، شاهداً على حمل الدلالة الخاصة المرادة، ما سيحدّد من مقولة "إنّ ولادة النصّ وخروجه إلى الحياة تقطع ما بينه وبين أبيه، وتجعله ملكاً خالصاً للمتلقّين برغم اختلافهم زماناً ومكاناً وثقافة"^(٢)، وسيكون المتلقّي محكوماً بما أنتجه المتكلّم؛ لأنّه بثّ شفراته الكاشفة عن دلالاته- إن تعدّدت-، ضمن ملفوظه اللغوي المرتبط بالحال والمقام.

وقد طبّق المؤلّف محدّدات الرؤية الأسلوبية الثلاثة، وهي: ١- التركيب ٢- الاختيار ٣- الانزياح، على الجهد البلاغيّ العربيّ ليحقّق أفق التطابق النظريّ للرؤية الأسلوبية، فتناول في التركيب آفاق التعقيد المعنوي، وفي الاختيار ما يرتبط باختيار الوحدة اللغوية المناسبة للمقام، وفي الانزياح خروج التركيب وما يشتمل عليه من وحدات لغوية من أفق المألوف إلى خلاف العادة، وبهذا ستكون الأدبيّة الخالصة في "مجموعة من الاختيارات الحرّة، يتحرّك من خلالها وبها المبدع، بحيث يكون اختياره موافقاً لتجربته، ومساعداً في الكشف عنها بالنظر في بعديها، البعد الأول: يتمثّل في توجّه الذهن إلى الواقع، والآخر يتمثّل في ردّ الواقع إلى الذهن، وفهم الخطاب يتوقّف على الإدراك الجيد لهذه الحركة التحويلية المزدوجة"^(٣)، ولعلّ في عبارة "بحيث يكون اختياره موافقاً لتجربته" مقداراً كبيراً من مراعاة الوعي والإدراك العقليّ اللازم توقّره عند المبدع، وفيها أيضاً نفي للعشوائية والفوضوية في اختيار الدالّ لمدلّوله، فمع كون العملية الإبداعية قائمة على الاختيار الحرّ، إلاّ أنّه اختيارٌ مستند إلى الأصل المثاليّ، وهو في نظرنا يتمثّل في القرآن الكريم بأعلى طبقاته، ثمّ كلام البلغاء من الناس في الطبقة الثانية وفي مقدّماتهم كلام النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وكلام أمير المؤمنين والأئمة من بعده (عليهم السلام)، ثمّ الفصحاء من العرب، وهم الطبقة الثالثة في سلسلة المراجع، التي جعلها الجاحظ المرجع الأول الذي ينبغي أن يُجرى الكلام مجراه^(٤)!، ومن هنا ستظهر أهميّة "الدالّ المفرد" بتعبير المؤلّف^(٥)، وبهذا يظهر أيضاً أهميّة ما كرّس من جهودٍ لدراسته وفحصه وتمحيصه؛ لأنّه داخل ضمن منظومة الاختيار الإبداعي، الذي به يتحقّق التركيب، وإنّ عدم اعتراف مدرسة الجرجاني بأدبيّة

(١) البيان والتبيين: ١٤٩/١-١٥٠.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٠٨.

(٣) م.ن: ١١١.

(٤) ظ: البيان والتبيين: ١٥٠/١.

(٥) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١١٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الدالّ المفرد إنّما جاء من كونه وحدات متفرقة داخلية ضمن ما يسمّى بالمعجم اللغوي، التي إذا أخرجت صوتياً فإنّها ستساوق أصوات الحيوانات مثلما ذكره السكاكي، ولكنّ الملاحظ أنّ أدبيّة الدالّ المفرد لا تنتفي عموماً، فإنّ للدالّ المفرد إذا استعمل في سياق ما قدرة على حمل دلالة السياق المجموعيّة واختزالها في لفظه، فمثلاً: لفظة "مدهامتان" القرآنيّة، فقد وردت في سياق وصف الجنّتين الأخرويتين وبيان إيناعيهما، فإذا اقتطعنا هذه اللفظة من دلالتها السياقيّة واستعملناها في سياق آخر بمفردها فإنّها ستُحيل على ذلك السياق، وسوف يكون لأسلوب الكناية حضورٌ فاعل في توظيف الدلالة الجديدة.

وقد أعطى المؤلّف للتناسب بين المباني والمعاني أهميّة كبيرة في تحقيق البنية الأسلوبية الأدبيّة، ولبلورة التناسب لا بدّ من إدخاله دائرة التهذيب والإصلاح التي تنقل الصياغة من منطقة الحياد إلى منطقة الأدبيّة^(١)، ومن هنا يصبح التناسب محقّراً إدراكياً يستلزم العناية في النظر إلى الأشياء عندما تقترن مع بعضها، فلا بدّ أن "يُذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبيّ عنه، مثاله أن تذكر وصفاً من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قد جافى الصناعة، وإن كان جائزاً،..."^(٢)، ولا إشكال عندنا في ذلك ولكنّ الإشكال هو أنّ المؤلّف بهذا البيان سيتقاطع مع ما أسّس له من مفهوم الانحراف والعدول الذي طرحه في بنية التحوّل، إذ جعل الإجراءات الإبداعية "تعمل على تعليق الصفات لغير ما هي له، فلا مانع من تنافر المحمول مع الموضوع دلاليّاً، ما دام في الإمكان إجراء ردّ الصفة إلى الأصل المرجعيّ، ومن هنا يكون اعتراض كاعتراض الأمدي على قول أبي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو أنّ حلمه بكفيك ما ماريّت في أنّه بُردُ^(٣)

غير ذي جدوى؛ لأنّ حجّته في الاعتراض بعيدة تماماً عن الإبداعية....."^(٤)، حيث نفى عن الحلم وصفه بالرّقّة، بل يوصف بالرزانة والعظم والرّجحان^(٥)، وقد علّل المؤلّف ذلك مرجعاً إياه إلى "أنّ التوجّه البلاغيّ الصحيح، أو الغالب، قام على أنّ تركيب الدوالّ مع بعضها لا يقتضي الرّجوع إلى العرف والطبيعة اللذين يربطان بين مرجع ماديّ وآخر، وإنّما يُرجع إلى الجِدّة التي يمتلكها المبدع اعتماداً على قدرته التوليدية..."^(٦)، فإذا كانت الطاقة الإبداعية تتوقّف على إدراك التوافق بين الطرفين الدالّ والمدلول واستغلال الخواصّ

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١١٨.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير: ١٥٣/٣-١٥٤. وينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١١٨.

(٣) شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٤٧١/١.

(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٠١.

(٥) ظ: الموازنة للأمدي: ١٣٨/١.

(٦) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٠١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المتعددة للدوال على انفرادها وداخل التركيب^(١)، فكيف يتحقق الانحراف الذي به قوام الرؤية الأسلوبية، الذي يُعدّ محدّداً من محدّداتها؟ علماً أنّنا لا ننفي التوسّع الذي تأصّل في البحث البلاغيّ العربيّ بوسائل مختلفة مقارباً مصطلحات البحث الأسلوبي الحديث كالانحراف أو الانزياح أو التغيير، هذا الأمر سيحيلنا على تصوّر الطاقة التخيلية للعمل الإبداعي، فعلى الرغم من كونها قوّة فاعلة تحاول أن تجمع بين الأشياء جمعاً خاصاً، إلا أنّها غير خاضعة للعبثيّة والعشوائيّة والتشكّل الاعتياديّ المستند إلى مجرد الخروج عن المألوف، فالتشكيلات التخيلية وإن كانت تُفارق مواصفات الواقع الماديّ والمعنوي إلا إنّ هذا لا يعني - كما يذهب د. محمّد عبد المطلب - "أنّ المعنى يتحرّك خارج دائرة العقل بمنطقيّته الصارمة، ومقولاته القاطعة"^(٢)، إذ كيف يمكن تصوّر حركة المعنى خارج دائرة العقل، ويمكننا أن نلاحظ دقّة العمليّة التخيلية من خلال هذا النصّ لحازم القرطاجني الذي يوضّح فيه مقدّمات صنعة البلاغة، يقول: "يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدالّ على الصّور الذهنيّة في نفسه، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيأته ودلالته، ومن جهة ما تكون عليه تلك الصور الذهنيّة في أنفسها، ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيئاتها ودلالاتها على ما خارج الذهن، ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنيّة صور لها وأمثلة دالة عليها، ومن جهة مواقع تلك الأشياء في النفوس"^(٣)، فعناصر العمل الأدبي ثلاثة^(٤) هي: (اللفظ، والصّورة الذهنيّة، والعالم الخارجي)، وطبيعة العلاقات بين هذه العناصر الثلاثة هي التي تتحكّم في النظر البلاغيّ، فدلالة اللفظ على الصّور الذهنيّة يكشف مدى علاقة الدالّ بمدلوله، ثمّ أثره في النفوس يكشف أثر المتلقّي في اختيار المبدع، وجهة ما ينبغي أن تكون عليه الصور الذهنيّة في أنفسها يكشف عن السلامة الذهنيّة، وكون العلائق بين الأشياء ينبغي أن تكون علائق مقبولة متناسبة وإن كانت متخيّلة، وجهة مواقعها في النفوس، أن تكون جارية ضمن الذوق العامّ في اختياراته وتصوّراته...، ومن ثمّ فإنّ نفي الأصل المرجعيّ للحكم التخيليّ سواء في النحو أم البلاغة، لإثبات التوليد وتوسعة المسالك والتشعّبات^(٥) أمرٌ لا يصحّ الركون إليه والتأسيس عليه. وفي نظرنا أنّ جملةً من المفارقات التي وقع فيها المؤلّف ناجمة عن محاولته للتأسيس لبنية التولّد في الفكر البلاغيّ، ما أدّى إلى أن يُقحم بعض المقولات إقحاماً، ويعيد ما استقرّت مبانيه في مقولات البلاغيين القدماء، إلا بمقدار تعيّر اللغة إلى مستوى اللغة الحداثيّة العصريّة، حيث تطالعنا مصطلحات الانتهاك، والانزياح، والانحراف، والتحوّل، والنتاج الدلاليّ، وغيرها، ثمّ يعود ليقرر تاميّة

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١١٩.

(٢) م.ن: ١٢٣.

(٣) منهاج البلاغ: ١٧.

(٤) ظ: الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي: ٥٧.

(٥) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٢٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

البحث البلاغي العربي من خلال القول بأنّ "التقاليد البلاغية لعبت دوراً مؤثراً في بناء العبارة فنياً، متعاونّة - في ذلك- مع مباحث النحو واللغة"^(١).

الإجراء البديعي:

وصف الظاهرة البديعية:

بدءاً، يؤسّس د. محمّد عبد المطلب لشيوع الظاهرة البديعية تأسيساً منطلقاً من تقصّي بعض مقولات القدماء فيه، ومستمدّاً من تأسيسه لأسلوبية التحوّل وبنيتها، فهو يرى أنّ الصنعة البديعية تمثّل حدثاً تعبيرية تولدت من التواءم بين النزعة النفسية للشعراء وما يقولونه من شعر، وبين طبيعة الحياة الجديدة ومفاراتها الاجتماعية والثقافية^(٢)، ويتكئ على تعليل القاضي الجرجاني لشيوع هذه الظاهرة، بأنّه كان يقع عند القدماء عفواً من دون قصد وتعمل "فلما أفضى الشعر إلى المحدثين، ورأوا فيه مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميَّزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها، فسمّوه البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفرط"^(٣)، فالملاحظ أنّ الفنّ البديعي كانت له في القصيدة العربية ومن بين أبياتها بارقة ولمعان، وإيماضة جمر، وما كان من المحدثين إلا أن نفخوا فيها وألهبوا نارها، من هنا يؤسّس المؤلّف رؤيته للبديع، إذ إنّ "أصبح أداة تعبيرية يعتمد المفارقة الحسية والمعنوية لغةً بذاتها، كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصيّة بذاتها"^(٤)، والأثر المترتب على ذلك - حسب الدكتور محمّد عبد المطلب - هو "عملية تنظيم للأدوات التعبيرية التي كان الإلحاح عليها وسيلة لقبولها أولاً، ثمّ الإعجاب بها ثانياً، حتى أصبح مألوفاً أن نجد ناقداً كالقاضي الجرجاني يُظهر إعجابه الصريح بمثل هذه الظواهر البديعية عند أبي تمام..."^(٥)، ولكنّ الملاحظ أنّ المعارك النقدية قد رفعت أوزارها حول البديع عموماً، وحول مذهب أبي تمام خصوصاً، بين قادح ومادح، فإطلاق القبول والإعجاب من المؤلّف إلتفافاً على الجهد النقدي الضخم الذي صدر عن تلك الظواهر، متّخذاً وجهتين متضادتين تقريباً، في الأحكام النقدية والتطبيقات الفنية.

مقاربة النظرية: إنّ المتنبّع لجهد المؤلّف يجد أنّه حاول جهده في تطبيق جميع فرضيات

تشومسكي ورؤاه اللغوية على الجهد البلاغيّ العربيّ وآفاقه الدلالية، وقد تقدّم شيء من ذلك، وقد يصيب في موارد، ولكنّه لا يصحّ في موارد أخرى، فقد حاول مثلاً - كما نرى- محاكاة تشومسكي في اعتماد نظريته على الجملة اللغوية كأساس^(٦)، وعلى الملفوظ اللغوي أياً كان بوصفه موضوع اشتغال، مؤسساً على مبدأ تجريد الظاهرة اللغوية - بوصفها موضوع البحث- من كلّ ما يحيط بها^(٧)، وهذا من أغرب مبادئ النظرية اللسانية؛ لأنّ محيط الإنسان له دور كبير في توجيهه اللغوي، وإنّ البعد الدلاليّ المعين هو الذي يصوغ

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٢٠.

(٢) ظ: م.ن: ٣٤٧.

(٣) الوساطة: ٣٤.

(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٤٨.

(٥) م.ن.

(٦) ظ: الفلسفة و اللغة "نقد المنعطف اللغوي" في الفلسفة المعاصرة: ١٤١.

(٧) ظ: الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية: ٥٣.

الظاهرة اللغوية المعيّنة، أمّا افتراض البحث عن لغةٍ خارج إطار الأفق الواقعي فلا ثمرة ظاهرة من تعاطيها؛ لأنّها سوف لن تسهم في بناء الواقع وتعاطيه، وتجاوب أفرادها مع تلك المنظومة اللغوية، وسيُفضي إلى عبثية في فهم الملفوظ اللغوي، وتَهشّم الدلالة، وهو ما دافع عنه تشومسكي ضمن مبدأ "استقلال التركيب"، حيث تعمل العناصر التركيبية في استقلالٍ عن عناصر مكوّنات النحو الأخرى^(١)، وقد خالفه في ذلك كثير من معاصريه، ذاهبين إلى عدم إمكانية الفصل بين التركيب والدلالة^(٢) وهو الصواب بنظرنا؛ لأنّ الإنسان لا يتكلّم في الفضاء؛ إذ إنّ الغاية الأساس من اللغة هي التواصل الاجتماعي بما يضمن فلاح الإنسان وسعادته في جانيبه البدني والروحي^(٣)، وما اللغة إلا أداة للعقل يوظفها ضمن تعلّلاته ومدرّكاته المحدودة، ممّا ينتج عنه بالضرورة محدودية اللغة أيضاً، وهو قطعٌ للطريق الذي تصوّره اللسانيّات في لامحدودية الناتج اللغوي.

ورداً على الصدر، فقد جعل الدكتور محمّد عبد المطلب من النظر في البحث البديعيّ ما يؤكّد اهتمام "رجال البلاغة بتحسّس بناء الجملة بوصفه الوحدة الصغرى للخطاب اللغوي، واعتمدوا في ذلك على توصيف عناصر هذه الجملة توصيفاً يبدأ من الحرف المعزول عن الدلالة، وصولاً إلى التركيب بكلّ مكوّناته الإفراديّة، وبكلّ علاقاته النحويّة"^(٤)، فهو وإن حاول الاقتراب من نظرة تشومسكي إلا أنّه فارقه - من حيث لا يشعر - في إضفاء صفة التوصيف على الجهد البلاغي، إذ إنّ تشومسكي لم يرتض الجانب الوصفيّ في درسه اللغوي، بل اعتمد الافتراض والتجريد بعيداً عن أيّ مظاهر أنموذجيّة وشواهد خارجيّة ترتبط بالظاهرة اللغوية. وما دام الكلام في الاستقلال التركيبّي وأمثلة التجريد التشومسكيّة نجد من المفارقة تبني الدكتور محمّد عبد المطلب، نقل البديع من أفق التحسين إلى أفق إنتاج المعنى من خلال توظيفه لنظرية البنية السطحيّة والبنية العميقة، مع كون مبدئها الأساس هو إقصاء الدلالة! فلعلّ الإجابة حاضرة لدى المؤلّف.

إنّ الفارق بين الوصف الذي اعتمدته بعض اللسانيّات والتفسير الذي تبناه تشومسكي هو أنّ الوصف لا يعتمد التعليل، على حين التفسير يعتمد التعليل ليكشف حقيقة الظاهرة، فكيف يكون الكشف بمعزل عن النظام الدلاليّ الذي صدر عنه الملفوظ اللغوي؟ فقد بيّن المؤلّف أنّ المتابعة البلاغيّة العربيّة تنبّهت "للمستوى الشكلي المحسوس بوصفه انعكاساً للمستوى الباطني، أو الذهني، أو لنقل إنّ المتابعة تحرّكت داخل دائرتين: الدائرة الأولى: المعنى الذهني، والدائرة الثانية: المستوى الصياغي"^(٥)، ثمّ يقرّر أنّ الدائرة الأولى خفيّة لا يمكن التعامل معها إلا بتحليل الدائرة الثانية، وبهذا سيكون الفصل بين الدائرتين عمليّة غير منطقيّة^(٦)، ولكنّه يقرّر بعد ذلك ضرورة الفصل لكشف العلاقات التكوينيّة بين التراكيب^(٧)، ولكنّه في الحقيقة فصلٌ افتراضيّ؛ لأنّ التحليل اللفظي لا ينفكّ عن ناتجه الدلاليّ؛ لضرورة

(١) ظ: اللسانيّات واللغة العربيّة نماذج تركيبية ودلالية، د. عبد القادر الفاسي، الكتاب الأول: ٧١.

(٢) ظ: م.ن.

(٣) فالمعارف الحقّة مثلاً من حيث كونها واردة في ظرف البيان اللفظي والدلالة، فإنها بورودها أودية الدلالات اللفظيّة تتقدّر بأقذارها، تتشكل بأشكال المرادات الكلاميّة بعد إطلاقها، وهذه أقوال ثابتة من حيث مراد المتكلم، ينظر: أصول التفسير والتأويل، السيد كمال الحيدري: ٤١٥.

(٤) البلاغة العربيّة قراءة أخرى: ٣٤٩.

(٥) م.ن.

(٦) ظ: م.ن.

(٧) ظ: م.ن.

علاقة الاندكاك بين اللفظ والمعنى، كما قدّمنا، ومن ثمّ فإنّ قابليّة الاحتمالات المتعدّدة التي افترضها المؤلّف بوصفها صفة لازمة للخطاب الأدبيّ، لا يمكن التسليم بها على هذا البناء، أمّا إذا قلنا بالتصوّر البنيوي المجرّد عن الدلالة فإنّه من الواضح أنّ التعامل سيكون مع محض ألفاظٍ سيصبّ المتلقّي فيها ما يريد من الدلالات!

وسنحاول تقصّي تمثّلات الدكتور عبد المطلب لمجاري نظرية تشومسكي من خلال النقاط التالية، بالإضافة إلى ما ذكر، مع بيان بعض الالتباسات في نظرنا، و بيان تفسير هذه النظرية لبني البديع، ولنعتبرها بمنزلة النتائج لتطبيق هذه النظرية:

١- فرض الثنائيات التقابليّة من خلال التحرك بين الدائرتين السابقتين، وهذه الثنائيات تفترض أصلاً دلاليّاً، يتفرّع عنه فرعٌ يتّصل به نوع اتصال، فالتطابق والتقابل يُصبح نوعاً من التنافي الدلالي الذي يكون أشكالاً بنائيّة مختلفة، ترتبط بالأصل، تتميماً أو تكميلاً أو تذييلاً أو تحقيقاً أو إجمالاً أو تفصيلاً على مستوى السطح الصياغي^(١)، وفي الحقيقة إنّ التتميم والتكميل والإجمال والتفصيل وغيرها من العلاقات، التي تفرز متفرعة عن أصل لفظي، لا يصحّ تسميتها ثنائيات بنظرنا؛ لأنها امتدادٌ طبيعيٌّ للأصل، وفرض التقابل والتطابق فيها هو نحو من إيهام التطابق كما سنأتي عليه عند ذكر التكرار.

٢- من أجل تحقيق التماثل في تطبيق الحركة الذهنيّة وتتابع الكلمات على السطح وقع المؤلّف بخبطٍ والتباس، إذ جعل البنية السطحيّة والبنية العميقة مقابلتين للفظ والمعنى في التراث العربيّ^(٢)، على حين أنّ البنية العميقة أعمّ من المعنى، إذ هي بنية افتراضيّة تؤسّس من متابعة البنية السطحيّة مع محمولها الدلاليّ (في نظرنا أنّ كل بنية سطحيّة لابدّ أن تكشف عن محمولها الدلاليّ الأوليّ بوضوح، بضميمة القرائن المختلفة)؛ لكي "تضبط خواصّها الدلاليّة"^(٣)، وهذه البنية لابدّ أن تستند إلى قواعد تحويليّة تشرح الانتقال من البنية العميقة إلى البنية الظاهرة^(٤).

٣- اعتبر المؤلّف متابعة البلاغيين للأبنية التعبيرية المختلفة، محاولة لرصد نظامها الداخلي؛ لبيان ما بينها من توافق أو تخالف، ما أفرزت دور هذه التنويعات الشكلية في إنتاج المعنى، ووضع التسميات المختلفة لها من خلال مراقبة عناصرها وإخضاعها للقوانين العامّة^(٥)، وهذا في الحقيقة هو ثمرة الجهود البلاغيّة الأولى، وهو بحدّ ذاته يعدّ دليلاً على دور البديع في التعبير عن المعاني المختلفة، لاختلاف بناءه الشكليّة المعبّرة عن آفاق دلاليّة متنوّعة. وفي الحقيقة فإنّ هذا البحث هو الأليق والأشدّ لزوقاً بدراسة البديع، كيما يثمر فهم بنية البديع أولاً، وكيفية إنتاج هذه البنية على المستوى التعليمي في إنتاج الكلام البليغ ثانياً، أمّا التعرّض لتناول البديع ضمن وسيلة البنية السطحيّة والعميقة فإنّه كما لاحظنا من عرض الدكتور محمّد عبد المطلب، لم يخرج عن حدود التوصيف والتحليل الظاهر حيناً، والإغراق في تحميله دلالات لا يتحمّلها حيناً آخر.

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٠.

(٢) ظ: م.ن: ٣٥١.

(٣) اللسانيّة التوليديّة والتحويليّة، د. عادل فاخوري: ٢٣.

(٤) ظ: م.ن.

(٥) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٢.

٤- رصد المؤلف آتقاء جملة عديدة من الأنواع البديعية على بنية التكرار على المستوى السطحي والعمق الدلالي، وجعلها موجهة لعملية إنتاج المعنى، ما يفسر إحكام البلاغيين البديعيين للربط بين مجموع البنى بهذه العلاقة العميقة^(١). إن إفراز التكرار كبنية عميقة تنتظم مجموع البنى أمر حسن جداً، ولكن الأعمق منه هو ضرورة الكشف عن أهمية ودور هذا التكرار في إنتاج المعنى، ولكن يلاحظ على طرح التكرار بوصفه ممثلاً للبنية العميقة لبنى البديع أمران:

الأول : - وإن كان قد اعتذر منه المؤلف، ولكن لا يمكن قبول العذر والإقرار به، إذ أفاد خروج جملة كثيرة من بنى البديع عن دائرة التكرار، الذي عبّر عنه المؤلف بالخروج المحدود! وهذا غريب؛ لأن جملة البنى التي أحصاها ضمن هذه الدائرة ما يقرب من التسع عشرة بنية من مجموع ما يزيد على المائة، فيظهر أن التكرار يحكم أقل من خمس المجموع الكلي للبنى.

والثاني: إن كثيراً من هذه البنى تُكَلَّف لها تصوّر بنيتها العميقة بالتكرار الاصطلاحي، الذي اصطلح عليه بأنه: "تكرير اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد"^(٢)، وبأنه "إعادة العنصر المعجمي نفسه"^(٣) بتعبير اللسانيات النصية، ففي الحقيقة -كما يرى البحث- إن هذا التكرار المزعوم هو من إيهام التكرار لا التكرار، أو ما يصح أن نسميه "بالتوالد" الذي يتحقق بسبب من عنصر معجمي سابق، فمثلاً بنية العكس والتبديل، ومثالها في قوله تعالى "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ"^(٤) (سورة الروم الآية ١٩)، فقد أدرجها المؤلف ضمن المحور الثالث من المحاور الأربعة التي ذكرها، والذي يعتمد على التوافق السطحي والتخالف في العمق^(٥)، وهي:

١- تخالف بين الدالّين في المستوى السطحي والعميق. (وُضِمَّ من فنون البديع، الطباق والتقابل والرجوع)^(٦) ويلاحظ فيه أن التخالف في المستويين لا يمكن أن يُنتج إيهاماً للتكرار فضلاً عن أن يُنتج تكراراً!!

٢- توافق بين الدالّين في المستوى السطحي والعميق. (وُضِمَّ منها، تشابه الأطراف، والترديد، وردّ العجز على الصدر، والمجاورة)^(٧) وهذا النمط أقربها إلى التكرار.

٣- توافق بين الدالّين في المستوى السطحي وتخالف في المستوى العميق. (وُضِمَّ منها، الجنس، والمشاكلة، والأسلوب الحكيم، والعكس والتبديل، والتعديد، وتنسيق الصفات)^(٨) وهذا النمط يناسبه إيهام التكرار.

٤- تخالف بين الدالّين في المستوى السطحي وتوافق في المستوى العميق. (وُضِمَّ منها، الإرساد والتسهم، التذليل، الالتفات، تأكيد المدح بما يُشبه الذم، تأكيد الذم بما يُشبه المدح، ومراعاة النظير)^(٩) هذا النمط يدخل أيضاً ضمن إيهام التكرار.

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٢.

(٢) تحرير التعبير: ٣٧٥.

(٣) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٨٤.

(٤) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٧٢.

(٥) ظ: م.ن: ٣٥٣.

(٦) ظ: م.ن: ٣٥٤-٣٥٩.

(٧) ظ: م.ن: ٣٦٣.

(٨) ظ: م.ن: ٣٧٢. (٩) ظ: ٣٨٢.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

فإن افتراض التوافق السطحيّ جاء بعد إقصاء جميع الدوالّ الأخرى كحروف الرّبط، إذ إنّ لها دوراً كبيراً في توجيه دلالة السطح في حال التكرار المعجمي إلى دلالة مغايرة، والذي نلاحظه أنّ التكرار الحقيقي هو في إعادة العنصر المعجمي "يُخرج" فقط، وهذا التكرار في حقيقته متولّد من العنصر الأول ومتكيّ عليه، فإنّ "يُخرج الحيّ من الميت"، غير، "يُخرج الميت من الحيّ"، ولكنّ التكرار حصل في فعل الإخراج.

وربّما أخطأ المؤلّف في تطبيقه لبعض النماذج التي عدّها من بنية التكرار العميقة، من ذلك ما استعرضه في بنية التقابل والتطابق، وما ينطوي تحتها من تقابل الضدّين، اللذين أنزلهما خطأ منزلة المتضايين، انطلاقاً من كون الضدّ يستدعي الضدّ ذهنيّاً^(١)، فمثّل لهما بالأبيض والأسود، كما مبين أدناه:

الخط الأفقي: أبيض ← أسود



الخط الرأسي: أسود ← أبيض

" فهناك خطّان: الخطّ الملفوظ، وهو الخطّ الأفقي، والخطّ التقديري هو الرأسي، إذ إنّ البياض يستدعي السواد رأسياً، قبل مجيئه في الخطّ الأفقي، والسواد عندما يحضر في الخطّ الأفقي يستدعي البياض رأسياً دون اعتبار للخطّ الأفقي، وهو ما يعني أنّنا في مواجهة بناء تكراري من الطراز الأول..."^(٢)، والذي نلاحظه أنّ هذا تصوّر محض افتراض مجرد عن واقع العمليّة اللغوية والفعل الكلامي؛ لأنّ تصوّر السواد في العمق عند مجيء البياض في السطح صحيح بمقدار ما يجعل المتلقي في انشداد وتواصل مع الفعل الكلامي، الذي يتركز ويتحقق عند موافقة أفق التوقع بمجيء العنصر المقابل الذي تصوّر في العمق إلى السطح، وهو السواد في المثال أعلاه، فالثمرة متحقّقة بربط المتلقي مع الفعل الكلامي، أمّا إذا جاء السواد فإنّ الملفوظ القولي قد اكتمل، إذ لا ثمرة من تصوّر العنصر المضاد الذي تقدّم ذكره على مستوى السطح وعلى مستوى تصوّر الذهني؛ لأنّه كان حاضراً في الذهن ولا يحتاج إلى استدعاء، ومن ثمّ فإنّ العمليّة التكراريّة غير متحقّقة، ما سيؤكّد أنّ كثيراً من أبعاد هذه الدراسة اقتصر على التوصيف، من دون بيان أثر التكرار في إنتاج الدلالة بوصفه ممثلاً للبنية العميقة لجملة من البنى البديعية، وما ينبغي أن نوجّه التساؤل نحوه هو أنّ بنية التكرار بنية قائمة على توكيد الدالّ التامّ الدلالة (وصفاً ومدحاً وذمّاً... كما تقدّم)، فكيف ستكون له فاعليّة في إنتاج الدلالة على وفق هذه النظرية؟!

والمنتبع لهذه المحاور يجد أنّ جهد المؤلّف انصبّ على توصيف التركيب البديعي من خلال تحديد البنية السطحيّة والبنية العميقة وبيان ما بينهما من توافق أو تخالف، وهو ما جعل التحليل لا يكاد يخرج عن أفق البنية البديعيّة بما سئل لها من استعمال في كلام الأوائل، وخصوصاً ما استعرضه من البنى التي ترتبط بالمحور الرابع، فبنية الالتفات مثلاً هو انتقال من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالفٍ للأول^(٣)، وسيبلّهُ أن يكون الشاعرُ

(١) ظ: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٥.

(٢) م.ن: ٣٥٦.

(٣) ظ: م.ن: ٣٩٢.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

أخذاً في معنى ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به ثم يعود إلى الأول من غير أن يُخلَّ في شيء مما يشدُّ الأول^(١)، فيبيِّن المؤلف طبيعة الانتقال، قائلاً: "فالانتقال يعتمد على المخالفة السطحية بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، لكنَّ البلاغيين يُعيدون الانتظام لهذه المخالفة بالنظر في المستوى العميق وإيجاد نوع من التوافق والانسجام بين طرفي الالتفات"^(٢)، فمثلاً: " الانتقال من ضمير التكلم إلى ضمير الغياب، كقوله تعالى من سورة الكوثر: " إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ " (سورة الكوثر، الآيتان^(٣)، إذ إنَّ بنية العمق توحد بين الضمائر في سياق التكلم، (إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لَنَا وَانْحَرْ)^(٤)، وهذا معلوم لا مزيد عليه، وهكذا تجد سائر الأمثلة التي سيقف للبنى البديعية الداخلة ضمن هذا المحور، فيا ترى هل وصف البنية العميقة والسطحية مُنتجٌ للدلالة؟ وهل يخرج البديع من أفق التحسين إلى أفق المعنى؟ هذا ما لم يقف عليه البحث في سياق هذه الدراسة، إلا إنَّ المنهج الوصفي الذي اتبعه المؤلف فيها قدَّم نقلةً نحو تيسير فهم البنى البديعية.

(١) العمدة: ٥٧ / ٢. وظ: البديع لابن المعتز: ١٥٢.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٩٢.

(٣) م.ن: ٣٩٣.

٣. البديع والتوازي / د. عبد الواحد حسن الشيخ:

تتّكئ هذه الدراسة في طرح أفقها التجديديّ لعلم البديع على التطوّر الذي حصل في الجانب الصوتيّ للغة، وما يكتنزه من إمكانات دلاليّة وجماليّة تضيف على الخطاب بعداً تداوليّاً خاصّاً يعتمد على مدى التوافق والانسجام بين الكلمات والدوالّ في التركيب وانتظام علاقاتها. وقد بنت جملة من الدراسات أسسها على تقصّي معطيات هذا الجانب ووظفتها في دراسة البديع، ومنها هذه الدراسة، إذ طرح مؤلّفها " محاولة تنظيم دراسة البديع وفق معطيات علميّة منظّمة تستفيد بما قدّمته مختلف الدراسات في العصر الحديث"^(١)، فكانت دراسة نظريّة التوازي التي طرحت في مؤلّفات اللّغوي الرّوسي رومان جاكوبسن، وخصوصاً كتابه التوازي النحوي، بالإضافة إلى مقالاته ودراساته الأخرى حول التوازي^(٢)، ودراسات أعلام آخرين حول هذه الظاهرة، ومن هنا صار معلوماً أنّ المؤلّف حاول الاستفادة من نتائج هذه الدراسات حول هذا الموضوع في البديع مطبقاً إيّاها على فنونه المختلفة^(٣)، والسؤال الذي سنطرحه في مدخل التحليل لهذه الدراسة التي حملت همّ التجديد في هذا العلم من علوم البلاغة محاولة إخراجَه بتقسيم جديدٍ مستمدٍ من معطيات نظرية التوازي، التي نظّر لها من دراسات أعلامها الغربيين^(٤)، كما ذكرنا، هو، من المعلوم أنّ التوازي في البلاغة العربيّة يُعدُّ مظهرًا من مظاهر السّجع بأقسامه المتعدّدة^(٥)، فقد بُحث ضمن السّجع المتوازي، كما يمكن إدخال الترصيع، والسّجع المطرّف، ضمن مباحث التوازي أيضاً، بعنوانه العامّ، ولو تسامحنا فأدخلنا المقابلة والطباق باعتبار تقابل الأضداد بنحوٍ يوحى بالتوازي، وبعض الفنون الأخرى، فكيف يُمكننا إدراج ما يزيد على المائة من الفنون البديعيّة وتوحيدها ضمن هذا العنوان الضيّق والخاصّ؟ فهل هذا الاختزال المُفرط لفنون البديع يمكن عدّه تجديداً؟ سنترك الإجابة عن هذا السؤال لطوايا التحليل القادمة. وما ينبغي ملاحظته أنّ الدراسة تتّكئ على مقدارٍ كبيرٍ من الوصفية، بمقدار ما تبتعد عن المعيارية التي تؤسّس للمظاهر الأنموذجية لإنتاج الكلام المتميّز بلاغيّاً وفنّياً، وهذا ما سيجعلنا نتوقّف عند كثير من الدراسات التي حاولت معالجة البديع من وجهةٍ فيها نوعٌ من الجِدّة، فإنّ الملاحظ أنّ الطابع الذي صُبغت به فنون البديع في مرحلة التأسيس هو بيانُ الفنّ البديعيّ على نحوٍ يؤسّس لتحقيق الامتثال البياني الصائب للتراكيب؛ لينتج الدلالة المحيطة بتمام المراد صوتيّاً ودلاليّاً وإيقاعيّاً، بمعنى آخر، إنّ وضع الحدود والتعريفات والعنوانات والألقاب للفنون البديعيّة هو بمنزلة الإشارة إلى ضرورة حذوها وتقصّي بيانها من جهة، والإشارة إلى ما تشتمل عليه من التغاير والتعدّد من جهة ثانية، وإن جمعتها وحدة

(١) البديع والتوازي: ٣.

(٢) ظ: م.ن: ٤.

(٣) ظ: م.ن: ٥.

(٤) ظ: م.ن: ٥٨.

(٥) ظ: الإيضاح: ٣٣١. وينظر: البلاغة الإصطلاحية، د. عبده عبد العزيز: ٣٨١ وما بعدها.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الملاك، ومن ثمَّ فإنَّ أيَّ محاولة لإقصاء الفنون البديعية أو اختزالها تعدُّ - في نظرنا- محاولة ناقصة غير تامَّة ، إلا بمقدار إرجاع بعض الفنون إلى بعض مثل إرجاع الفرع إلى أصله، كإرجاع التدبيج إلى المطابقة، أو اندراج التوافق والائتلاف والتناسب تحت مراعاة النظير، أو اختزال تقسيمات الجنس المتعدِّد إلى نموذج محدِّد لها، ونحو ذلك إخراج ما دعا التكلُّف إلى إدخاله ضمن فنون البديع، وفي الجملة، فإنَّ البديع في الحقيقة هو نماذج من الصياغات والأساليب التي يعمد لها الشاعر من خلال تجربته الشعرية الخالصة التي توحى له بإجراء الكلام ضمن سياقٍ تركيبِيٍّ معيَّن وهذا ما يفسر كثرة الفنون البديعية، ومن ثمَّ كثرة ما أُلقي عليها من ألقاب كالأثواب.

التأسيس لمفهوم التوازي:

يؤسِّس المؤلِّف لمفهوم التوازي انطلاقاً من استقراره في الدراسات الغربية، فيتبنَّى تعريف جيمس فوكس له، إذ يحدِّه بأنَّه " عبارة عن تماثل أو تعادل المباني أو المعاني في سطور متطابقة الكلمات، أو العبارات القائمة على الازدواج الفنِّي، وترتبط ببعضها وتسمى عندئذٍ بالمتطابقة أو المتعادلة أو المتوازية، سواء في الشعر أو النثر، خاصَّة المعروف بالنثر المقفى، أو النثر الفني، ويوجد التوازي بشكل واضح في الشعر، فينشأ بين مقطع شعريٍّ وآخر، أو بيت شعريٍّ وآخر" (١)، وعلى هذا التعريف يبني المؤلِّف أمرين يُعدهما مظهرين (٢) من مظاهر التوازي:

الأوَّل: مظهر ملازم للغة الشعرية، بوصفها لغة قائمة على التقابل والتتابع الوزني المنظوم. الثاني: وإنَّ كان المؤلِّف قد حصره باللغة الشعرية ومثَّل له بنموذج نثريٍّ، إلا أنَّه يصوِّر التوازي بصفته مبدأً فنياً عاماً يتحقَّق بتحقُّق عوامل إنشائه المتمثلة - عموماً - بالتلازم التركيبيِّ والدلاليِّ بين العبارات، كالتلازم بين الشرط والجزاء، والتلازم بين الموصول وصلته، والتلازم بين المجرَّم والمفصَّل، والمطلق والمخصَّص...إلى آخره، وبهذا الوصف سيقترِب التوازي من نظرية الترابط النصِّي (الحبك والسبك) التي قاربها الدكتور جميل عبد المجيد، كما سيضيف عليه أفقاً عاماً قد يكون جواباً للتساؤل الذي حرَّره في صدر هذا المبحث.

وفي الحقيقة إنَّ إعطاء التوازي بعداً عاماً لكلِّ تقابلٍ مفترضٍ كالشرط والجزاء والموصول وصلته، هو مصادرة لأصالة التوازي الحقيقيِّ القائم على المتقابلات المتساوية في الوزن حيناً، وفي عدد الكلمات وترتيبها حيناً آخر، ومن هنا سنخلص إلى أنَّ أصالة مبحث التوازي وسبقه في البلاغة العربية وشواهداها من القرآن والحديث والخطب العالية والشعر والنثر، متحقِّقة بنحوٍ لا تحتاج للاستناد إلى تتبُّع تأريخ التوازي في الآداب العالمية ومحاولة اقتناص نظراته وتطبيقها على البلاغة العربية، إلا في حدودٍ معينةٍ من طرائق

(١) البديع والتوازي: ٧-٨.

(٢) ظ: م.ن: ٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المعالجة للمتوازيات، وبيان ما يكتنزها من طاقات صوتية وإيحائية ودلالية، ومن ثم فإن التاريخ الذي أثبتته المؤلف لنشأة التوازي في الآداب العالمية^(١) لا يُقدّم شيئاً للبلاغة العربية، بل هو وثيقة تبيّن السبق العربي في التعامل مع التوازي والتأصيل لدلالته وأنماطه. ولا بدّ من أن نشير إلى فاعلية مصطلح التوازي في التراث البلاغي العربي، وبيان تفرّعاته على نحو الإجمال:

فالتوازي في التراث العربي بمعناه الفنيّ الخاصّ لا العام، يبحث في مصطلح السجع، ويمكن القول إنّ مصطلح السجع وتفرّعاته المختلفة، وفي بابي الشعر والنثر، يشكّل المادّة الأساس للتوازي بمعناه الخاصّ، وحدّ السجع في البلاغة العربية: "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرفٍ واحد"^(٢)، والفاصلة هي الكلمة الأخيرة من القرينة، والقرينة هي القطعة من الكلام التي تُقرن معها أختها^(٣)، فالسجعُ أخصُّ من الفاصلة، والفاصلة أخصُّ من القرينة، وبتساوي الفاصلتين من القرينتين في الوزن والقافية، يكون المتوازي، وبتوافقهما في الوزن دون القافية، يكون المتوازن أو الموازنة، وبتوافقهما في القافية دون الوزن، يكون المطرّف، وبتوافق القرينتين تماماً بجميع خواصّهما من العدد والوزن والقافية يكون المرصّع، وجميع ذلك شائع النثر، أمّا شائع الشعر، فهو التشطير" وهو أن يُجعل كلّ من شطري البيت سبعة مخالفة لأختها"^(٤)، والتصريع وهو اتحاد العروض والضرب بالتقفية، ويمكن توضيحها بالترسيمة^(٥) الممثلة الآتية:

السَّجْع

المرصّع: "إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ" (سورة الانفطار ١٣-١٤)

المتوازي: "فيها سررٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضوعةٌ" (سورة الغاشية ١٣-١٤)

المطرّف: "مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً" (سورة نوح ١٣-١٤)

التشطير: تدبيرٌ معتصمٌ بالله مُنتقمٌ لله مقتربٌ في الله مرتقبٌ^(٦)

التصريع: ديمةٌ سَمحةٌ القيادِ سَكوبٌ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ^(٧)

في النثر

في الشعر

(١) ظ: البديع والتوازي: ١٠-١٧.

(٢) الايضاح: ٣٣١.

(٣) ظ: البلاغة الاصطلاحية: ٣٨١.

(٤) الايضاح: ٣٣٤.

(٥) الشكل العام للترسيمة اقتبسناه عن: البلاغة الاصطلاحية: ٣٨٠.

(٦) شرح الصولي لديوان أبي تمام: ١٩٧/١.

(٧) م.ن: ٣٣٧/١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

من خلال هذا البيان يظهر لنا استقرار البنية الداخلية لمصطلح التوازي، بوصفه الخاص، أما صفته العامة فقد أخذت آفاقاً اصطلاحية أخرى تختلف عن مصطلح التوازي، وإن تُصوّر كونها داخلية في إطاره العام بلحاظ التقابل الذي تفرزه صياغة بعض الفنون البديعية كالطباق والمقابلة والعكس والتبديل، والتقسيم وغيرها، ولكن ذلك لا يكفي - في نظرنا - لترتيب آثار التوازي، على عموم فنون البديع، وإن ارتأه المؤلف.

وظائف التوازي وفقاً لمعطيات هذه النظرية عند رجالها البارزين ومناقشتها:

من خلال تقصي المؤلف لمقولات رجال هذه النظرية كجاكوبسن وجيمس فوكس وهوبكنز وغيرهما، ظفر بجملة من الوظائف للتوازي وإن لم يُدرجها ضمن هذا العنوان، وسنحاول وهنا أن نبين آفاقها، ومدى فاعليتها في الخطاب:

١ . إنَّ التوازي "يكشف عن البنية المسؤولة عن توزيع العناصر اللغوية والفنية والدلالية داخل العمل الفني شعر ونثراً"^(١)، على أنَّ المؤلف لم يبين تفصيل هذا التوزيع وكيفيته، والذي نراه أنَّ في هذا التعبير الكاشف عن هذه الوظيفة كثيراً من التسامح؛ لأنَّ التوازي هو جزء البنية، وما كان جزءاً كيف يكون كاشفاً عن كلِّ، إذ إنَّ تحقق الكشف يقتضي الإحاطة الكلية بأجزاء البناء، ولعلَّ الأنسب والأكثر مواءمة، القول إنَّ التوازي يحقق بنية عامة تتوزع فيها العناصر اللغوية والفنية والدلالية داخل العمل الفني شعراً ونثراً. وحقيقة هذا التوزع هو في جعل الكلام مقسماً إلى وحدات ذات أبعاد دلالية وصوتية متعددة، تظهر جمالياتها بمقدار انسجام هذه الوحدات فيما بينها، ومدى قوة أواصرها الداخلية، وانتظامها النسقي، وعدم تنافرها صوتياً ودلالياً.

٢ . - تبعاً لجاكوبسن- يقرّر المؤلف وظيفة أخرى للتوازي، تتمثل في فهم التكافؤات أو التطابقات اللغوية؛ لكشف علاقاتها النحوية التي تنتظمها؛ لأنَّ الملمح الرئيس لهذه الازدواجية هو في تضمّنها للتماثل والتمايز^(٢)، ولم يبين المؤلف طبيعة هذه العلاقات وانتظامها النحوي وكيف يتم وصفها، واكتفى بنقل نصّ كلام جاكوبسن في ذلك^(٣)، لكنَّ الملاحظ، أنَّ التوازي يحقق التماثل، وهذا التماثل سوف تنتظمه بنية نحوية، وصرفية أيضاً، متوازنة في أحيان كثيرة، من ذلك مثلاً، هذه الفقرة من الدعاء:

" اللهم، يا ذا المنن السابعة والآلاء الوازعة والرّحمة الواسعة والقدرة الجامعة والنعم الجسيمة والمواهب العظيمة والأأيادي الجميلة والعطايا الجزيلة يا مَنْ لا يُنعتُ بتمثيل ولا يمثّل بنظير ولا يُغلبُ بظهير، يا مَنْ خلق فرزقاً وألهم فأنطق وابتدع فشرع وعلا فارتفع وقدّر فأحسن وصوّر فأتقن واحتجّ فأبلغ وأنعم فأسبغ وأعطى فأجزل ومنح فأفضل، يا مَنْ

(١) البديع والتوازي: ٧.

(٢) ظ: م.ن: ١٧.

(٣) ظ: م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

سما في العزّ ففاتّ خواطر الأبصار، ودنا في اللطّف فجازَ هواجسَ الأفكار، يا من توحدَ بالملكِ فلا ندّ له في ملكوتِ سلطانه وتفرّد بالآلاءِ والكبرياءِ فلا ضدّ له في جبروتِ شأنه....^(١)، فالملاحظ أنّ الفقرات المتوازية تنتظم كلّ واحدٍ منها بنيةً نحويةً وصرفيّةً محدّدة؛ لكي يتحقّق التوازي، فالأولى تنتظمها بنية النعت، (السابعة، الواسعة، الجامعة/ الجسيمة، الجميلة، العظيمة)، والثانية تنتظمها بنية المضارع المبني للمجهول مع لا النافية ومتعلّق الفعل مجروراً بالباء، (لا يُنعتُ بتمثيلٍ، .. لا يُغلبُ بنظير...)، والثالثة بنية الماضي المتفرّع عنه بالفاء، (خلقَ فرزقَ، ألهمَ فأنطقَ، ابتدعَ فشرع...)، وهكذا؛ لذا فـ "ثمة قاسمٌ مشتركٌ لتلك الأنماط في القواعد اللغويّة، وبدلاً من دراسة الرّموز المعدّة من قبل، أو الإحالة المتعجّلة لأزواج الكلمات إلى مجموعة محدودة لأنماطٍ شكلية، لابدّ من استيضاحٍ واعيٍّ لازدواجيّة العناصر في التتابعات المتطابقة"^(٢)، حسب جاكوبسن؛ لذا فوظيفة التوازي هنا ستكون في دراسة "الأنماط النحويّة ذات الأصل الواحد، أو الفنولوجيّة التي يمكن اعتبارها مرادفاً في نموذجٍ فنيٍّ معيّن"^(٣).

٣ . للتوازي أثرٌ كبير في عكس تجربة الشاعر وأحاسيسه الداخلية، وتنمية الصورة الفنيّة واطراد نموّها، من خلال تقصّي انتظام المتوازيات ودلالاتها الصّوتيّة في التركيب^(٤). ومما ينبغي التنويه له، أنّ المؤلّف – وتأسيساً على جميع ما تقدّم- فرّق بين التوازي والتكرار، فذهب إلى أنّ التوازي يقتضي التماثل والتمايز معاً، على حين أنّ التكرار يعتمد التماثل فقط، فالتوازي أعمّ والتكرار أخصّ^(٥)، ولكنّ الملاحظ أنّ هذا التماثل ليس تماثلاً مطلقاً، بل هو تماثلٌ في جهةٍ من جهات التركيب المتوازي؛ لأنّ التماثل والتمايز مظهران متناقضان لا يُتصوّر اجتماعهما، ولكن إذا لحظت جهة التماثل كالوزن مثلاً فإنّ التمايز الدلاليّ ضروريٌّ لتماميّة العلاقة، وهنا سيفترق التكرار حتماً عن التوازي فلا وجه لبيان الفرق، إذ لا يوجد التقاءٌ بينهما، فضلاً عن ذلك، فالتوازي مؤسّسٌ في الأصل على تركيز الجانب الصوتيّ المتتابع في الأوزان والصّيغ، أمّا التكرار فإنّه إعادةُ العنصر المعجمي لتحقيق التوكيد، أو تراكم الترادفات لتحقيق التكرار المعنوي، الذي أدخله "ف. بواس" F.Boas، ضمن التكرار لا التوازي^(٦) وهو مكانه الصحيح، إذ لا يمكن عدّه من التوازي، وبهذا سينهدم كثيرٌ من الفنون البديعية القائمة على إيهام التكرار- كما قدّمناه سابقاً-، يُضاف إلى ذلك، أنّ المؤلّف لم يُفلت من أسر التكرار، الذي فرّق بينه وبين التوازي، فتجده يسند التكرار إلى التوازي في غير ما موضع، من مثل قوله: "ومن ثمّ نخلّص إلى أنّ التوازي إذا

(١) مصباح المتهجد، للشيخ محمّد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ) : ٨٠٢.

(٢) البديع والتوازي: ١٧.

(٣) م.ن.

(٤) م.ن: ٢٤.

(٥) ظ: م.ن: ١٨.

(٦) ظ: م.ن: ٢٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

جاء غير متكلف، فإنه يُساعدُ على إبراز الناحية التوقيعية! النابعة من الموسيقى الداخلية للتركيب الفني والمنبعثة في مثل هذه الأمثلة، من التكرار، والتقطيعات الصوتية التي تشبه القوافي الداخلية...^(١)، وفي الحقيقة أن التكرار المتحقق هو تكرار الصيغة الصرفية والبناء النحوي للكلمات في المقطع، لا التكرار بمعناه الفني.

مقاربة البديع للتوازي:

تشرع مقاربة المؤلف بين البديع والتوازي، انطلاقاً من تأسيسه لمفهوم التوازي كما أسلفناه، إذ يقوم أساساً على "الربط بين عنصرين معاً، ربطاً اتحادياً من ناحية المقارنة ومن ناحية إعادة التشكيل اللغوي مستخدماً في ذلك مبدأ التقابل الثنائي..."^(٢)، وهذه العمومية في المفهوم انتهت به - تبعاً لجاكوبسن - إلى تقسيم التوازي إلى^(٣):

- ١ . توازي صوتي، قائم على الكلمة المفردة، ويتجلى فيه الصوت المفرد.
- ٢ . توازي غير صوتي (لغوي) خاص ببناء الجملة، من خلال وحدة الصيغ النحوية والصرفية، المفضية إلى التناسق.^(٤)
- ٣ . توازي غير صوتي (دلالي) خاص بدلالات الألفاظ، وهو قائم على التقابل الترادي والأضدادي - حسب لوث-^(٥).

وقد عمد المؤلف في محاولة شارحة لهذا البعد الأخير، إلى إسناد التوازي الدلالي إلى وحدة الجذور الثلاثية للكلمة (ف/ع/ل)، ومع أن المؤلف لم يبين طبيعة العلاقة بين وحدة الجذور والتوازي، إلا إنه يفهم أن المراد هو التابع الاشتقاقي للكلمة بما يقرب من الجنس، من نحو (فهم، فاهم، فهيم، فهام، فهم....)، وهذا ما سيتقاطع مع توجيهه للتوازي الدلالي بأنه التوازي القائم على الترادف والأضداد كما تقدّم^(٦)، إذ ما العلاقة بين الترادف والتضاد ووحدة الجذر الصرفي للكلمة؟؟، كما أن من الخطأ عدّه التوازي اللغوي الخاص ببناء الجملة، والقائم على وحدة الصيغ النحوية والصرفية، توازياً غير صوتي!، إذ إن أصل التوازي قائم على وحدة المقاطع ذات البنية الداخلية الموحدة، والعلامة الإعرابية المتشاكلة، بمقتضى من المحل الإعرابي، وهذا هو الأصل الذي عمل عليه جاكوبسن في دراسته للتوازي، وهو الكشف عن البنى النحوية المتطابقة، ودراسة انتظامها، وعلاقاتها الداخلية، وقد قدّمنا بعض النماذج التطبيقية آنفاً، فغريب جداً إخراج المؤلف هذا النمط عن أفق التضمن الصوتي. فبهذا نخلص إلى أن الأفق الوحيد الذي يتجرّد عن الدلالة الصوتية

(١) البديع والتوازي: ٢٦.

(٢) م.ن: ٢٠.

(٣) ظ: م.ن: ٢١.

(٤) ظ: م.ن: ٥٥.

(٥) ظ: م.ن: ٢٢ و ٥٥.

(٦) ظ: م.ن: ٥٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وبصورة نسبية هو النمط الثالث، الذي عدّه قسماً للثاني، وهو القائم على المتوازيات التي يحدثها الترادف والتضاد بحكم التقابل الضروري بالنسبة للأضداد، إذ إنَّ الضدَّ يستدعي الضدَّ، والاختياري بالنسبة للترادف؛ لضعف الملازمة إلا بوحى من التوكيد، ومن ثمَّ سوف ينشطر هذا النمط إلى قسمين: قسم خاصٌّ ببناء الجملة من جهة وحدة الصيغ الصرفية والنحوية، وقسم خاصٌّ ببناء الجملة على نحو ما سمّيناه بالتوالد، من حيث تتولد الجملة الثانية عن الأولى.

وانطلاقاً من هذه الرؤية لأقسام التوازي، حاول المؤلف تصنيف البديع وفقاً لها، واسماً محاولته " بالتقسيم الجديد للبديع " ^(١)، فاننظمت أقسامه على:

- ١- المحسنات الصوتية اللفظية/ توازٍ صوتيٍّ قائم على الكلمة المفردة، وأدرج فيه: (الترصيع، التصريع، لزوم ما لا يلزم، التسميط، الجناس، والسجع..).
- ٢- محسنات الإيقاع الجملي/ توازٍ غير صوتيٍّ خاصٌّ ببناء الجملة، وأدرج فيه: (التسهيم، ردُّ العجز على الصدر، الإرصاد)، وقد تقدّم الكلام فيه.
- ٣- محسنات الإيقاع الدلالي/ توازٍ غير صوتيٍّ معني بدلالة الألفاظ، وأدرج فيه: (الطباق، المقابلة، والترديد، ..)، وقد تقدّم الكلام فيه.

يظهر من هذا التقسيم أنّ المؤلف قد أخرج نسبةً كبيرة من الأقسام البديعية عن حدود الجانب الصوتي، في حدود دراستها في حقل التوازي، - (وإلا فإنَّ عدّة فنونٍ من البديع تخرج عن إطار البعد الصوتي، وتدخل في أبعادٍ أخرى، حدّت ببعض الدراسين إلى أفرادها ضمن خطةٍ أخرى في تقسيم البديع، كما فعل الدكتور الشحات محمد أبو ستيت في دراسات منهجية، وكما ارتأى صاحب مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، إذ ارتأى دراستها ضمن أقسام ثلاثة، الأول: ما يتعلّق بالجانب الصوتي، والثاني، ما يتعلّق بالجانب التركيبي، والثالث، ما يتعلّق بالجانب الدلالي ^(٢)، وغيرهما) - ، وقد مرّت منّا الإشارة إلى أنّ ما فصل فيه المؤلف من تقسيمه للتوازي، بلحاظ الصوت، أنّ الأقسام الأخرى تتمتع بنسبية صوتية، مهما كان بعدها التركيبي والدلالي؛ " لأنّ الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف " ^(٣)، وهذا ما دعا المؤلف إلى التسليم بهذه النتيجة عند حديثه عن محسنات الإيقاع الجملي، إذ يقول: " كما أنّ المقاطع المتكررة قائمة على الازدواج الفني المؤدّي إلى نوعٍ من الإيقاع الموسيقي، والتكرار المتوازي المنتظم للعناصر المعنوية المتغيرة تدريجياً في الجملة يساعد على تعميق المفهوم

(١) البديع والتوازي: ٥٨.

(٢) ظ: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، د. حامد صالح خلف الربيعي: ٦٩٤ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين: ٨٥/١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

اللغوي للتجربة الفنيّة"^(١)، وكذلك في حديثه عن محسّنات الإيقاع الدلالي، إذ يقول: "... كما أنّ التوازي بين الألفاظ والجمل وترتيبها أدّى إلى نوع من الموسيقيّة التي تساهم على فهم التجربة الفنيّة"^(٢)، ومع لحاظ أصل التسمية المسندة إلى الإيقاع، الذي يُعدّ عنصراً أساساً في الموسيقى، فضلاً عن اللغة، فإيقاع اللغة يُحدثه الصوت عن طريق الألفاظ، وإيقاع الموسيقى أصوات مجرّدة منتظمة^(٣)، فمع هذا اللحظ يتّضح أنّ الصوت مشتمل على الأقسام الثلاثة فلا وجه لعدّ التوازي فيها توازياً غير صوتي.

وعلى الرغم من أنّ الدراسة قد أكّدت أثر التجربة الفنيّة في توزيع العناصر اللغويّة، وتوطيد التوازي، إلاّ إنّها تعاطت معها تعاطياً تقريرياً، من دون أن تبين كيفيّة هذه التجربة وتفاوتها وشرائط صحّتها، وكيف يمكن أن يكون للتجربة الفنيّة والتوازي أثر متبادل في فهم كلّ واحدٍ منهما، الذي يمكن إجماله، بأنّ "خصائص هذه الظواهر تتحدّد بدرجة وجود العناصر الإيقاعيّة بين مكوّناتها، من توافق أو تناظر أو توازن أو تضادّ أو تقابل.... إلخ وهذه العناصر تولّد حركة ذهنيّة نشطة، لكنّها منتظمة تتمثل في الانتقال بين أجزاء القول الشعري؛ لإدراك علاقات التشابه والاختلاف بينها، ولا تكتمل فاعليّتها إلاّ وهي داخل السياق، إذ لا بدّ من مراعاة تموضعها"^(٤) ومكانها من النظم حتى يصبح بالإمكان إدراك حركتها المتكاملة والفاعلة في نسيج البناء الشعري، وهذا لا يتمّ إلاّ عندما تنبثق عن الحركة النفسيّة والوجدانيّة للشاعر، وحين تكون خاضعة لتوجّهات الموقف الشعري..^(٥)

من جميع ذلك نخلّص إلى أنّ الدراسة توقّرت على مزيتين:

١. إدخال البديع حقلاً الدراسة الصوتيّة، وبيان أثر البعد الصوتي الذي ينتظم جملةً من بُناه.
٢. تأكيد أثر التجربة الشعريّة للشاعر في توزيع عناصر بنية التوازي، وإن كانت على نحوٍ من التقرير والإنشاء دون التطبيق الكاشف والتحليل.

ومما يؤخذ على هذه الدراسة، انطلاقاً ممّا سبق:

١. إقصاء كثير من الفنون البديعيّة عن الدراسة؛ لأنّها لا تدخل ضمن إطار التوازي.
٢. اضطراب التقسيم للتوازي، بسبب من الأساس الصوتي الذي اتّكأ عليه المؤلّف، وتبعه في الاضطراب تقسيم البديع المؤسّس عليه.

(١) البديع والتوازي: ٥٧-٥٨.

(٢) م.ن: ٥٨.

(٣) ظ: اللغة في الدرس البلاغي، د. عدنان عبد الكريم: ٥٧.

(٤) لا أجد أصلاً صرفياً يتناسب مع هذه البنية التي يشيع استخدامها في أدبيّاتنا الحديثة، فضلاً عن أنّ استخدامها في هذا السياق قلبيّ ونابي.

(٥) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، الدكتورة. ابتسام أحمد حمدان: ٢٩٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

٣. عدم تبيينه بالتحليل أثر ترتيب عناصر التوازي وانعكاسها على تجربة الشاعر، كما ذكرنا.

٤. اضطراب الفصل بين التوازي والتكرار.

٥. إستسلام المؤلف إلى غلبة الجانب الصوتي لما استثناه من الأقسام عنه.

٦. من خلال ملاحظة نماذج فنون البديع التي انتخبها في تطبيقاته على التقسيمات، وملاحظة اقتصارها على أقلّ القليل من فنونه الأساس، يظهر لنا عدم الجدّة في التجديد لتلك الفنون وذلك العلم، إذ كانت الدراسة عَجَلِي، فتجدنا نقفُ أمام نظرة عامّة غير مُعمّة وظاهرة غير مُظهِرة، كان الأساس فيها التنظير والتأريخ لنظرية التوازي في الآداب العالميّة، فكانت الدراسة إسقاطيّة، بمعنى إسقاط مفاهيم التوازي لدى الآخرين على الموروث العربيّ، ما أدّى إلى قَصْر الثوب، وضيقه على لابسِه، فقَدّم البديع تقديمًا متواضعًا عمّا أُلّف من عمقٍ وسعةٍ في التنويعات البديعيّة التراثيّة.

٤. العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي، د. عبد الواحد حسن الشيخ:

مبنى الدراسة: بُنيت هذه الدراسة على إعادة الصّلة بين العلاقات الدلاليّة والبلاغة العربيّة، وبيان الصّلة الوثيقة، - حسب المؤلف- التي تربط بين علم الدلالة وعلم البلاغة، لولا عوامل متعدّدة أدّت إلى طمس المعالم وتضييع العلائق، فكان لابدّ من استجلائها بتطبيق نتائج علم الدلالة الحديث على مباحث البلاغة؛ لتظهر هذه العلاقة^(١)، فما هي الوسيلة التي يُمكنُ امتطاؤها لتقرّب المسافة بين هذين العلمين، ولتجمع بين علاقاتهما، لتستبين الصّلة وتتوهّج القربى؟. لما كانت مباحث الدلالة قائمة على دراسة تبدّل المعنى وتغيّره، وكذلك البلاغة، انطلاقاً من كون المعنى عاملاً مشتركاً بينهما^(٢)، اعتمد المؤلف على دراسات ستيرن وأولمان في ضوء تبدّل المعنى وتغيّره، ليتوصّل إلى تلك الوشائج^(٣)، وكما عوّدنا المؤلف في دراسته السابقة حول التوازي، فإنّه في دراسته الدلاليّة هذه قام باقتطاع نظريّة علم الدلالة حسب بعض رجالاتها الغربيين ومن أبرزهم ستيرن وأولمان، وزرعها في رحم البلاغة العربيّة، والمُلاحظ أنّ المؤلف استعرض أصول النظريّة الدلاليّة عند هذين الكاتبين بإسهاب مبيّنٍ مفاصلها الرئيسيّة، ولكنّه في النهاية لا يخرج إلا بعلاقات (التضاد، والترادف، والمشارك اللفظي)، ليطبّقها على علمي البيان والبديع فقط؛ لتوفّرهما - حسب نظره- على أسس تبدّل المعنى وتغيّره، وهذه المفاصل الثلاثة ممّا امتازت به الدراسات البلاغيّة العربيّة في عهودها الأولى، إذ تناولوا الترادف وأسبابه، والمشارك ولوازمه، والتضاد ووجوده... فهل أنّ وضع النظريّة الغربيّة وعرضها في جانب، وتناول النظريّة العربيّة وعرضها في جانبٍ آخر، يُعدُّ تلاقحاً فكريّاً، وتلاقياً معرفيّاً؟، إذ لم نجد أثراً لكثير من الظواهر التي ذكرها المؤلف عند استعراضه الطويل نسبياً^(٤) لأسس النظريّة الدلاليّة على ما تناوله من مباحث بلاغيّة عامّة اتسمت بالاقتضاب، إذ إنّ تناول علم البيان،

(١) ظ: العلاقات الدلاليّة والتراث البلاغي: ٤-٣.

(٢) ظ: م.ن: ١٠.

(٣) ظ: م.ن: ٤ و ٧.

(٤) ظ: م.ن: ٧-١٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

ولمحات من علم البديع تمثلت بأخصّ الخاصّ من فنونه، وهي (الجناس التام، التورية، الاستخدام، المشاكلة)، وبهذا اختزل البديع اختزالاً خرجت به الدراسة عن حدود الموضوعيّة القائمة على الاستقراء الناقص وضبط النتائج، وعن الشمول القائم على القياس (الحتم) وتجريد الثوابت، حسب ما أفاده الدكتور تمام حسان^(١)، ومن ثمّ لا يُمكن عدّ الدراسة مجدّدة؛ لأنّها قامت على مقارنة الرؤية الدلاليّة بالرؤية البلاغيّة التي انطوت على مقالات الدلالين المحدثين، وخصوصاً إذا لاحظنا أنّ العلاقات التي انصبت عليها الدراسة اقتصرّت على (التضاد، الاشتراك، والترادف)، وهو ما أشبع بحثاً في الدرس البلاغيّ بخاصّة، ومباحث أصول الفقه وفقه اللغة بعامّة.

بين يدي الدراسة:

يُعَدُّ علم الدلالة لدى مصادر دراسته الأولى أحد ثلاثة مجالات تندرج ضمن علم العلامات، والآخراّن هما: علم التركيب، وعلم التخاطب^(٢)، ويعرّفه موريس بأنّه "علاقات العلامات بالأشياء التي بها تكونُ العلامات قابلة للاستعمال"^(٣)، ويُلاحظ على هذا التعريف، اقتصاره على دراسة دلالة المفردات وقابليّتها على حمل المعنى من دون التركيب، وهو ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين ك (ماريو باي)^(٤)، على حين ذهب كثيرٌ من الباحثين إلى شموله لدراسة المفرد والتركيب على السواء^(٥)، والذي نراه أنّ الميدان الأوّل لعلم الدلالة هو دراسة المفردات، ومعانيها ومدى قدرتها على تحمّل المعاني المختلفة والمتضادّة وأسباب ذلك، ... أمّا التركيب فتدرس فيه الكلمات على مستوى السياق الكاشف عن الدلالة التي ثبتت في المرحلة الأولى المتمثّلة بدراسة اللفظ المفرد، وبهذا سيكون التركيب هو دراسة اختيار المتكلم وخصوصيّة الكلاميّة، وبهذا يمكن التخلّص من التشكيك في دراسة المعاني؛ لكونها "لا تبدو مستقرّة بل إنّها تعتمد على المتكلمين والسامعين والسيّاق"^(٦)، ولكنّ هذا لا يكفي للتشكيك بإمكانية دراسة المعنى، خصوصاً إذ علمنا أنّ للسياق دوراً في التحديد الدلاليّ للمفردة، وكذا المتكلم والسامع إذا لحظ فيهما المقام والمقال، وما يسمّى حديثاً بـ "سياق الموقف"^(٧)، على أنّ محاولة الفصل بين الفكرة والكلمة بتعبير فيرث أو اللفظ والمعنى، التي اعتبرها، ضروريّة، لأنّ الازدواجية لا يمكن تحقّقها؛ لقلة معرفتنا بالعقل الذي سيحدث تلك العلاقة الترابطيّة بين اللفظ والمعنى^(٨)، فإذا كان كذلك، فكيف إذن سندرك العلاقة من خلال السيّاق إذا لم تكن الأخيرة مسبقة بعملية الترابط الازدواجي بين الألفاظ في الذهن، وقد قرّرنا هذا الأمر في مباحث الفصل الأوّل من هذه الأطروحة^(٩)، فالسياق إدراكٌ خارجيٌّ يحقّق دلالة هامشيّة (مجازيّة أو غير مركزيّة) للمفردة المعجميّة. ورُجِعَ إلى العلاقة بين مباحث الدلالة ومباحث البلاغة، فإنّ جهة المقاربة بين الدرسين في أنّ كليهما معنيٌّ بتبدّلات المعنى، ودراسته، وهو ما اشتملت عليه حقول البلاغة الثلاثة،

(١) ظ: الأصول: ١٦-١٧.

(٢) ظ: المعنى وظلال المعنى، د. محمد محمد يونس علي: ٨٩.

(٣) م.ن.

(٤) ظ: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر: ١٢.

(٥) ظ: م.ن: ٧، و ظ: اللغة في الدرس البلاغي: ٨٩.

(٦) علم الدلالة، بالمر: ١٠.

(٧) ظ: المعنى وظلال المعنى: ١١٧-١١٨.

(٨) ظ: م.ن: ١١٧.

(٩) ظ: مبحث النسق الإعجازي للقرآن الكريم.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المعاني والبيان والبدیع، مع توقّفنا على إغفال المؤلّف مباني علم المعاني^(١)، وأثرها في توجيه المعنى^(٢)، وخصوصاً مباحث الحذف والتقديم والتأخير والإطناب وغيرها، وليست الدراسة معنيّة بتقصّي مظانّها، بقدر الإشارة إليها.

ينطلق المؤلّف من تثبيت علاقات دلاليّة معيّنة، ترتبط بالمعنى المعجمي، أي المعنى المركزي أو الحقيقي، وهو ما يقرّبنا إلى تأكيد الجانب الإفرادي في الدراسة الدلاليّة كما ذكرناه آنفاً، إذ إنّ العلاقات الثلاث التي أوردها ترتبط بالذات من جهته الإفراديّة، وهو إذ يثبت ذلك إنّما ينطلق ممّا توصّل له الدكتور تَمّام حَسّان من طرحه لطائفة من القضايا المتّصلة بالمعنى المعجمي، ممّا ينبغي بنظره أن تكون له علاقة بالدراسات البلاغيّة، وهي:

- ١- الحقول المعجميّة. ٢- الترادف. ٣- التّضاد. ٤- المشترك اللفظي. ٥- التوارد^(٣)، وقد انتخب منها المؤلّف ثلاثاً وطرح اثنتين منها، وهما الحقول المعجميّة، والتوارد^(٤)، فإذا أمكن إخراج الحقول المعجميّة عن الدراسة في البديع لضيق دائرتها أصلاً في علم الدلالة، فإنّ التوارد أو "التّضام" حسب تَمّام حَسّان^(٥)، أو تداعي المعاني حسب اصطلاح البحث، ممّا يمكن إدخاله حيّز الدراسة الدلاليّة من مباحث البديع، إذ يدخل، التسهيم والتصدير وردّ العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، والمزاوجة... ولا وجه لتخصيص التوارد أو التّضام بالكلمات التي ترد متلازمة بعضها مع البعض الآخر دون ثالث، كتوارد المروّة عند ذكر الصّفاء، وتوارد دجلة عند ذكر الفرات^(٦)، بل توارد المعاني المجرّدة عند ذكر الشخصيات المثاليّة العالية، كتوارد الأخوة والوفاء عند ذكر العباس بن عليّ عليهما السلام، بل حتى توارد الضدّ عند ذكر الضدّ يندرج ضمن هذا الحقل، كذلك توارد الشيء اللاحق بسبب من الشيء السابق، وهو ما سمّيناه آنفاً بـ"التوالد"، ومن ثمّ فلا وجه لإقصاء هذا المحور عن الدراسة.

وقبل الولوج في بيان فاعليّة تلك العلاقات في البديع، لابدّ من أن ننبئ سؤالا، وهو: إذا كان علم الدلالة علماً قائماً على دراسة تبدّل المعنى وتغيّره، كما تنبّاه المؤلّف، وقد مرّت الإشارة إليه، وإذا ساغ أن يندرج علم المعاني ضمن دائرته؛ لأنّه قائم على انحراف الدلالة كما في المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه، وإذا كان د. تمام حَسّان يقرّر أنّ البديع على الرّغم من تناوله المحسّنات المعنويّة التي توحى بدراسة المعنى، لا يهتم بدراسة المعنى بقدر ما يهتمّ بالأنماط والطُرُز^(٧)، فما هي جدوى دراسة البديع في هذا الحقل الدلاليّ، حيث التزم المؤلّف تبعاً لـ د. تمام حَسّان بكون البديع مجرد زخرف وزينة، إذ إنّّه "إذا كان تحسين الكلام بعلمي المعاني والبيان ذاتيّاً، فإنّ تحسين البديع للكلام عرضيّ؛ لأنّ البديع عند البلاغيّين زخرفة اللفظ وتنميقة"^(٨)، وما هو نفع المحاور التي افترضها الدكتور تمام وهي (التوافق والتضاد، والترتيب والتشويش، والجمع والتفريق، والزيادة والنقص)^(٩) دلاليّاً لا تصنيفيّاً كما سنرى، إذ تبنّى كثير من الباحثين المحدثين والمعاصرين ضرورة تصنيف

(١) ظ: العلاقات الدلاليّة: ١٠.

(٢) ظ: اللغة في الدرس البلاغي: ٨٩.

(٣) ظ: الأصول: ٢٩٣.

(٤) ظ: العلاقات الدلاليّة: ٣٩.

(٥) ظ: الأصول: ٣٠١.

(٦) ظ: م.ن.

(٧) ظ: م.ن: ٣٤٣.

(٨) العلاقات الدلاليّة: ١٤٣.

(٩) ظ: م.ن: ٣٤١ و ٣٤٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

البديع حسب تناسب وجوهه وائتلافها؟ هذا أولاً، وثانياً، ما نناقش به الدكتور تَمَّام حَسَّان، إذ إنَّ بعض الفروض التحليلية تكون عائقاً من التحليل الدلاليّ الدقيق والبحث عن الأصول العامة التي تحكم عنواناً ما أو علماً من علوم البلاغة، من ذلك التزامه بالنظرة التجزيئية الفاصلة بين علوم البلاغة الثلاثة، على الرغم من تناوله كثيراً من مباحث الدلالة، وتأصيله لأصول عامة تحكم جملة من جزئياتها، فيقول: "ويبقى علمُ البديع بمجاليه المختلف تماماً عن المجالين السابقين، فإذا غني علم المعاني بإقامة الصرح، وغني البيان بتقديم اللبّات ومواد البناء، فإنَّ علمَ البديع يُعنى بطلاء المبنى وزخرفه"^(١)، إنَّ هذه النظرة نظرة مجردة، وخارج سياق العمل الإبداعي، أو إنها تتحرّك ضمن دائرة التهجي، إذا ساع التعبير؛ فإنَّ المعلوم أنَّ صياغة القول الأدبيّ الإبداعي وسبكه لا يخضع لهذه التراتبية المفترضة، بأنَّ يعدَّ المعنى، ويهيئ القلب، ثمَّ يُصبغ صبغاً ملائماً وحسب أحدث الوسائل التقنية؛ لأننا علمنا أنَّ البديع طرائق صياغة ووسائل إبراز تجربة، خصوصاً ما كان غير متكلف، بل حتى المتكلف في بعض صورهِ، كتجربة أبي تَمَّام، وأصحاب البديعيّات، فمن الممكن أن يكون النظم خالياً من صور البيان جميعها، أو من تراكيب المعاني وأطوارها المتنقلة من تقديم وتأخير وحذف وذكر وإيجاز وإطناب ... فماذا سيكون القول بهذه الصورة؟، من هنا كان لابدّ من إعادة النظر في دراسة الأداء البلاغي، فكما أنَّ دراسة النصّ على مستوى الجملة قاصر عن كشف المحمولات الدلالية للعمل البلاغيّ عامة، وللتركيب المكوّن مع نظائره لذلك العمل خاصّة، فكذلك تهشيم البلاغة لعلومها قاصر عن إدراك حقيقة الأداء البلاغيّ وسبر أغواره، إلا من باب واحد وهو الفصل والتحليل لكشف التركيب.

العلاقات الدلالية:

على الرغم من أنَّ المؤلّف قد حذا حذو الدكتور تَمَّام حَسَّان^(٢)، وتمثّل طرحه في معالجة البديع تبعاً للبيان من خلال تقصّي علاقات عامة تنتظم فنونه المختلفة، كالقرب والبعد والحقيقة والمجاز والتوافق والتضاد، وغيرها^(٣) إلا أنَّ المؤلّف وقف على غير تلك الحدود إذ عمد إلى التعاطي مع القضايا العامة التي انتظمت بعض أبواب البلاغة فاختار منها (المشترك اللفظي، والتضاد، والترادف)؛ وكانت غايته الوقوف على "بعض ألوان البديع التي قد تتشابه مع قضايا المشترك، بما قد يأتي معه من الخلط بين النوعين؛ لذا وجبت الوقفة لبيان أوجه التشابه والاختلاف بين كليهما، كما في الجنس التام، والمشكلة، والتورية، والاستخدام مثلاً"^(٤)، فأول ما يلاحظ على هذه المقاربة بين العلاقات الدلالية المذكورة وفنون البديع المنتخبة، ما يأتي:

١- اختزال فنون البديع في إطار ضيق، يتمثّل في الفنون التي ينطبق عليها التشابه مع تلك العلاقات الثلاث فقط، فترسّحت للمؤلّف أربع منها، وهي الجنس، والتورية، والمشكلة، والاستخدام، ما قلّ من الجدوى العلمية لهذه المعالجة، لعدم خضوعها لمقاييس الموضوعية والشمول التي ألمحنا إليها آنفاً.

(١) الأصول: ٣٤٩.

(٢) ظ: م.ن: ٢٩٣ و ٣٤١.

(٣) ظ: العلاقات الدلالية: ١٤٣.

(٤) م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

٢- من المعلوم البين أن المشترك اللفظي والتضاد والترادف، مصطلحات تُدرس من ضمن دلالة الألفاظ، بمعنى دراستها بصورة مفردة غير مركبة، وإن دُرست في التركيب ففي حدود كشف الدلالة، إلا إن الأصل دراستها من حيث أصل الوضع، وأسبابه؛ لذا نجد العناية فائقة من قبل علماء أصول الفقه في تحديدها ومعرفة دلالاتها بدقة في مباحث الأصول اللفظية^(١)، ومن ثم فمعرفتها أولاً مقدماً على معرفتها ثانياً، أي أن لها استقراراً قبل التركيب، ويوظف هذا الاستقرار ليكشف دلالاته في التركيب، فمن هنا لا وجه لالتماس التشابه والاختلاف بينهما؛ لأنّ هناك محدداً دلاليّاً مفهوماً سابقاً، يبين المائز بينهما.

٣- وتقريباً على ما سبق، وانطلاقاً من تسليم المؤلف بزخرفية الفنون البديعية، واقتصارها على التحسين، فما هو وجه التلاقي مع المشترك اللفظي مثلاً، وهو الذي يُعنى بالتحديد الدلالي، خصوصاً إذا اعتمدنا الرؤية الذاتية إلى أن السبب وراء المشترك اللفظي هو الحقيقة والمجاز، والمرجح هو كثرة الاستعمال، أو ظروف الاستعمال، التي تصير المجاز حقيقة بمرور الزمن^(٢)، وبتقريب أدق، أن المشترك اللفظي بلحاظ الحقيقة والمجاز أساسه وحدة الوضع، فالعين مثلاً، أصل الوضع فيها أنها للباصرة، ومعنى الجاسوسية معنى مجازي متفرّع عن الأول، والذي فرقه عن معنى المجاز المقابل للحقيقة، وأدخله دائرة الاشتراك، هو كثرة استعماله بامتداد الزمن حتى صار ما بالعرض ما بالذات، أي صار كالحقيقي؟، فمن هنا يتضح الفرق الجلي بين تلك الفنون التي يؤتى بها تحسيناً - حسب المؤلف- وبين المشترك اللفظي الذي يؤتى به مع قرينته المعينة، مع ملاحظة أن رؤية البحث هي أن المشترك اللفظي متعدّد الوضع، لا كالحقيقة المتوحّدة الوضع، كما سيأتي عند تعريف المشترك اللفظي.

٤- إن لاستقرار الاصطلاح أهمية في استقرار تطبيقاته وما يتفرّع عنها، فعلى الرغم من كون المؤلف حاول انتزاع تعريف قارّ للمشارك اللفظي، مرجحاً ما استقرّ من تعريف له عند الأصوليين وبالأخص ما أورده السيوطي عنهم، من أنه "اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء"^(٣)، مضيفاً عليه ما قيده به أحد الباحثين المحدثين، وهو د. علي عبد الواحد وافي في كتابه فقه اللغة، إذ حدّه، بأن "يكون للفظ الواحد عدّة معانٍ تُطلق على كلّ منها على طريق الحقيقة لا المجاز"^(٤)، فخلّص المؤلف إلى تعريفه بأنّه "دلالة اللفظ الواحد على معنيين مختلفين غير ضدين فأكثر دلالة حقيقة على السواء ليس بينهما علاقة"^(٥)، فاحترز بقيد "ليس بينهما علاقة" عن المجاز، لطلبه العلاقة، ويُمكن أن يُحترز به (أي القيد) عن اللفظ المنقول، على معنى أن نفي العلاقة هو نفي للمناسبة بين المعنيين فيخرج بذلك المنقول؛ لأنّه كالمشارك ولكن مع لحاظ المناسبة بين المعنيين، كلفظة الصلاة التي كانت للدعاء ونُقلت للدلالة على الفعل العبادي الإسلامي المخصوص، مع هجران المعنى السابق، إلا إن المؤلف لم يُشر إلى ذلك، ولكن مع ذلك يُؤخذ على هذا التعريف، أن دلالة اللفظين على نحو الحقيقة تقتضي أصالة الوضع لكلّ منهما، فمن السابق في الوضع؟ فإذا تقرّر كون أحدهما سابقاً في الوضع، استلزم كون الآخر فرعاً عنه

(١) ظ: أصول الفقه، الشيخ المظفر: ٣١/١.

(٢) ظ: الأصول: ٣٠١.

(٣) المزهري في علوم اللغة: ٣٦٩/١.

(٤) فقه اللغة: ١٤٥.

(٥) العلاقات الدلالة: ٦٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

لاستقرار دلالة الأول، فمن هنا جاء تعريف العلامة المظفر جامعاً مانعاً، إذ حدّه بأنّه "اللفظ الذي تعدّد معناه و قد وضع للجميع كلاً على حدة، ولكن من دون أن يسبق وضعه لبعضها على وضعه لبعضها الآخر"^(١)، فبقيد (نفي السّبق في الوضع) يُحترز عن المجاز والمنقول والمرتل، كأسماء الأعلام، فيكون التعريف شاملاً بهذه الصيغة، إلا أن يراد بـ "على السّواء"، هو التسوية في الوضع، وعلى هذا النحو فلا حاجة للقيّد "بلا علاقة"؛ لأنّه سيتميّز عن المجاز بقيد الوضع المستشف من التسوية، والملاحظ أنّ المؤلّف لم يفهم من التعريف هذا المراد.

أمّا التضاد فقد عدّه المؤلّف من أنواع المشترك اللفظي، وسمّاه "التضادّ المشترك"^(٢)، تبعاً للدكتور علي عبد الواحد وافي الذي اعتبره نوعاً خاصاً من المشترك^(٣)، وحدّه بأن: "يعبر اللفظ عن معنيين ضدّين دلالة مستوية، مع قرينة أيّهما أراد المتكلّم"^(٤)، انطلاقاً من تعريف السُّيوطي بأنّ "المشترك يقع على شيئين ضدّين، وعلى مختلفين غير ضدّين، فما يقع على الضدّين، كالجون وجلال، وما يقع على مختلفين غير ضدّين كالعين"^(٥). أمّا الترادف فهو على العكس من المشترك، من حيث تعدّد اللفظ ووحدة المعنى^(٦)، كالشكّ والريب، والسيف والمهند...

ومن خلال معرفة هذه الحدود، فما هو ارتباط هذه المفاهيم بفنون البديع الأربعة "التورية والجناس والاستخدام والمشكلة"؟.

لقد حاول المؤلّف أن يبيّن الحدود الفاصلة لمفاهيمها، فبيّن ما يفترق به الجنس عن المشترك والمتضاد والمترادف، وما تفترق به التورية والمشكلة والاستخدام عنها؛ لوجود القاسم المشترك بين حدودها الظاهرية...

فالجناس التام (الكامل): هو اتفاق اللفظين وتشابههما في أنواع الحروف وأعدادها وهيئتها وتركيبها، نحو قوله تعالى: "ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة" (سورة الروم، الآية ٥٥)^(٧).

والاستخدام: هو "أن يُراد بلفظ، له معنيان أحدهما، ثمّ بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالأخر الآخر"^(٨). كقولك: إذا نزل السماء رعيها دوابنا.

والمشكلة: وهي "ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا، كقوله تعالى: "تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك" (المائدة، الآية ١١٦)^(٩).

والتورية: وهي "أن يُطلق لفظ له معنيان، قريبٌ وبعيدٌ ويُراد البعيد منهما، كقوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى" (سورة طه الآية ٥)^(١٠).

(١) المنطق: ٤٣-٤٤.

(٢) ظ: العلاقات الدلالية: ٨٠.

(٣) ظ: فقه اللغة: ١٤٨.

(٤) م.ن: ٧٧.

(٥) المزهري: ٣٨٧/١ و ظ: الأصول: ٣٠٠.

(٦) ظ: العلاقات الدلالية: ٤٥، و ظ: من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية: ٩٣، و الأصول: ٢٩٦-٢٩٩.

(٧) ظ: الإيضاح: ٣٢٣، و ظ: الطراز: ٣٧٢ و ٥٦٢.

(٨) م.ن: ٣٠١.

(٩) م.ن: ٢٩٧.

(١٠) م.ن: ٣٠٠.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

إنّ الذي يتبنّاه البحث، هو أنّ الفرق واضحٌ جدّاً فلا حاجة لتجشّم عناء المقارنة لاستبيانها، لأسبابٍ سنأتي على ذكرها، فلا نجدُ مسوّغاً يدعو إلى المقارنة بينها لبيان الفارق؛ لأنّ المقارنة تأتي عند تطلّب الأمر أمن اللبس، ولا ألبس في البين، وإن ادّعاء المؤلف كما سنلاحظ.

البديع والعلاقات الدلالية:

- استظهر المؤلف جملة من الفوارق، والنتائج، بالمقارنة بين الظواهر الدلالية الثلاث، أعني المشترك والمتضاد والمترادف، وبين الفنون البديعية التي رشّحها، ويمكن إجمالها بما يلي:
- الجنس يحتاج إلى قرينتين؛ لأنّ الجنس يُؤتى به ليتوافق مع المعنى الأول، والفرقة ستكون بالقرينة؛ لذا فهو يحتاج إلى قرينتين^(١).
 - دلالة المشترك على معانيه دلالة مستوية^(٢).
 - المشترك قد يُكتفى منه باللفظ الواحد، والقرينة تُحدّد المراد، أمّا الجنس فلا بُدّ من لفظين يتحدّ مبناهما، ويختلف معناه^(٣).
 - لا ممانعة في كون أحد طرفي الجنس حقيقياً، والآخر مجازي، أمّا المشترك، فالاثنتان حقيقتان، وعليه تتفرّع القرينة، فالجنس قرينتان، واحدة للحقيقة، وأخرى للمجاز، أمّا المشترك فواحدة^(٤)، ومثله المشاكلة^(٥).
 - الجنس يكون في اللفظ المفرد واللفظ المركب، أمّا المشترك فلا تركيب بين الفاظه^(٦).
- إنّ هذه الملاحظات تكاد تكون قاسماً مشتركاً مع باقي الفنون، إذ لم يخلُ تكرار الفوارق نفسها مع الفنون الثلاثة الأخرى، والسبب يعود -في نظرنا- إلى وضوح الفارق بينها؛ لوضوح المفاهيم، فغدا العمل بما يقرب من توضيح الواضح، ولما أسلفناه وهو الأهم، من أنّ تلك العلاقات مظاهر ومفاهيم مفردة، أمّا فنون البديع فهي أساليب صياغة ووسائل تُتعاطى اللغة من خلالها تعاطياً خاصاً (إجرائياً) يُمكن من خلاله أن تتوظّف نفس معطيات تلك العلاقات فتشكّل جناساً من مثل:

كنتُ عِيناً في الناس أحبى وأرجى بعدكم فيهم علـي عيوناً^(٧)
من هنا فلا أثر يترتب على اتّحاد الجنس والمشارك أو الجنس والترادف... مع أنّ المؤلف أعلن إقراره بأنّهما فنّان قائمان بذاتهما^(٨)، أمّا مسألة القرينتين فهو أمرٌ غريب؛ لأنّ الأصل لا يحتاج إلى دليل لإثباته، إنّما الفرع هو ما يحتاج إلى بيان علّته، ودليل يدلّ على رجوعه إلى الأصل، فالمجاز هو ما يحتاج إلى قرينة لا الحقيقة، فلا يسوّى بين الأصل والفرع، والفرع دائماً أضعف من الأصل، وغيرها من الأصول الضابطة لعلاقة الفرع بالأصل^(٩) ممّا أسّس له في التراث العربي، ولعلّ اشتباه المؤلف في فرض القرينتين للحقيقة والمجاز متأثّر من كون القرينة فيهما مزدوجة، بمعنى أنّ القرينة واحدة، ولكن لها وظيفتان، الأولى:

(١) ظ: العلاقات الدلالية: ١٤٥.

(٢) ظ: م.ن: ١٤٦.

(٣) ظ: م.ن: ١٤٧.

(٤) ظ: م.ن: ١٤٧.

(٥) ظ: م.ن: ١٦٤.

(٦) ظ: م.ن: ١٤٨.

(٧) البيت للباحث. (٨) ظ: العلاقات الدلالية: ١٤٨.

(٩) ظ: الأصول: ١٣٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

صارفة، أي تصرف اللفظ عن معناه الحقيقي، والأخرى معيّنة، أي تعيّن المعنى المراد، فهي قرينة واحدة ذات شقين، لا قرينتان، أما المشترك اللفظي فلا يحتاج إلا إلى قرينة بوظيفة واحدة، وهي أن تكون معيّنة^(١). والأغرب منه في هذه الفوارق جعل الجنس والمشاكلة مقارنين مع الترادف! ومع بيان دلالتهما الاصطلاحية المستقرّة المتقدّمة، فما هي العلاقة بينهما، وكيف توصّل لها المؤلف؟، ولعلّ المسوّغ إلى ذكره معهما مجرد التعدّد!، وإن كان التعدّد في الترادف لفظياً والاتحاد معنوياً، ومثل هذا الاشتباه وقع له في عدّه المشاكلة لفظاً له معنيان، على حين أنّ المشاكلة كما ذكرنا أسلوب صياغة للغة لا تتحقّق إلا بالتركيب، بينما تلك العلاقات تأتي مفردة، فالمأثور واضح بينها؛ ولهذا فقد أخطأ المؤلف في عدّ المشترك والمترادف والمتضاد ألواناً من التعبير وجدت في لغتنا^(٢)، إذ ليست هي تراكيب أو تعابير، بل دلالات ألفاظ ترتبط بعلاقة اللفظ بمعناه، في سياقه الاستعمالي. لهذا فإنّ المقارنة التي عقدها المؤلف بين بعض فنون البديع وبعض العلاقات الدلالية، لم تنتج ثماراً عملية؛ لأنّها في الأصل مقارنة بين شيئين ليس بينهما مقارنة، إذ لا ثمرة عملية تتحقّق من عقدها، فلجميع ذلك، يرى البحث أنّ الدراسة لم تُضف إلى علم البديع شيئاً ولم تعدل فيه شيئاً، بل ربّما أدخلت فيه شيئاً كان واضح التمايز عنه.

٥- دراسات منهجية في علم البديع، الدكتور الشحات محمد أبو ستيت:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تنطلق من منطقة عمل قائمة على جمع المتشابهات والنظائر في سياق واحد؛ لوجود القاسم المشترك في تحرّكها الأسلوبي وبعدها الصياغي. وإنّ السبب الذي دعا المؤلف إلى تعاطي هذا النوع من الضمّ التوافقي هو تعدّد فنون البديع وتشعبها وتكاثر أسمائها وتداخل صورها، فكان لا بدّ من ضمّها ضمن أبواب مشتركة؛ ليسهل تقييمها ونقدها^(٣)، وفي الحقيقة إنّ لهذه المحاولة - كما يرى البحث - صدى وسبقاً، ولم نجد للمؤلف إشارة إليهما إطلاقاً، فلو تسامحنا مع الصدى واعتذرنا له بعدم سماعه، فلا يمكن أن نتغاضى عن السابق؛ لشهرته وارتفاعه. أمّا الصدى وهو قريب المصدر، فما أشار إليه الدكتور صلاح فضل في كتابه "بلاغة الخطاب وعلم النص" المؤلف عام ١٩٩٢م، أي قبل سنتين من نشر كتاب المؤلف، قيد الدراسة، إذ اقترح دراسة الأشكال البديعية من خلال أمرين^(٤):

(١) ظ: من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية: ٩٣.

(٢) ظ: العلاقات الدلالية: ١٧٤.

(٣) ظ: دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو ستيت: ٤.

(٤) ظ: بلاغة الخطاب وعلم النص: ١٤٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الأول: ردّ تكاثرها التصنيفي ونماذجها العديدة إلى الأبنية الرئيسة التي تنتظمها، وقد حصرها الكاتب بـ (التوافق والتضاد في المستويات اللغوية).
الثاني: استخلاص وظائفها الجمالية من تحليل نصوصها نفسها، مع استبعاد زُخرفيّة البديع. وكلا الأمرين تعامل معهما المؤلف كما سنلاحظ.

وأما السبق، فهو تلك المحاولة التراثية التي تقدّم بها السّجلُماسيّ في كتابه الشهير " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع"، إذ تعاطى مع علم البديع تعاطياً أجناسياً، كما يذكر في المقدمة، فيقول: "فقصّنا في هذا الكتاب... إحصاء قوانين أساليب النُّظوم التي تشتملُ عليها الصناعة الموضوعية لعلم البيان وأساليب البديع، وتجنيسها في التصنيف وترتيب أجزاء الصناعة في التأليف على جهة الجنس والنوع، وتمهيد الأصل من ذلك الفرع، وتحرير تلك القوانين الكلية، وتجريدها من المواد الجزئية، بقدر الطاقة.... إنّ هذه الصناعة الملقّبة بعلم البيان وصنعة البلاغة والبديع مشتملة على عشرة أجناس عالية وهي: الإيجاز، والتخييل، والإشارة، والمبالغة، والرّصف، والمظاهرة، والتوضيح، والاتساع، والانتشاء والتكرير"^(١)، وعلى الرغم من أنّه اعتمد أساساً منطقياً خالصاً في التصنيف إلا أنّه لا يخلو من دقّة في جمع المتوافقات. والمُلاحظ أنّ الداعي للتصنيف على هذا الأساس هو تراكم سجل البديع من دون همّ منهجي منسّق، ما اقتضى إلى: الحاجة للتجنيس، ثمّ الحاجة للنظم والشرح، وقد تبارى المؤلفون في التصنيف في الشرح، حتى وقف ابن أبي الإصبع عند تصنيف كتابه تحرير التعبير على أربعين كتاباً منها، ليطور السجل البديعي، على حين لم يَجُزْ عَنَبَة التجنيس أحد قبل السّجلُماسيّ^(٢).

من ذلك نلاحظ أنّ أصل فكرة جمع المتوافقات قد طرحت في التراث البلاغي، على نحو موسّع وشامل، ولكنّ بحدودٍ منطقية، كما أنّ أصل تصنيف البديع إلى محسّناتٍ لفظية، ناظرة بالأصل وبالذات إلى اللفظ، ومعنوية ناظرة بالأصل وبالذات إلى المعنى، هو نحو من التقسيم التوافقي ولكن ضمن دائرة ضيقة لا تعين على الدراسة والتحليل، فمن هنا تأتي دراسة الدكتور الشحات محمّد أبو ستيت، لتضفي بعداً أكثر سعةً في التحرك باتجاه تحليل البنية البديعية وتقصّي أبعادها. فكان لابدّ أولاً من نقد الإقرار بكون البديع محض تحسين وزخرفة، إذ أنكر المؤلف هذه النظرة المحجفة للبديع^(٣) واعتبره مُعيناً على رُفد البعد الدلالي، وظهر ذلك من خلال تحليله لنماذج من الفنون من القرآن الكريم والشعر العربي. أمّا الجهات التي انتظمت تلك التوافقات فخصّها بثلاثة أبواب، كما يأتي:

أولاً: فنون التناسب: تمثّل مجموعة الفنون التي تحقق التناسب بين أجزاء الكلام وتعمل على تلاحم أجزائه، لإخراجه إخراجاً محكماً كالسبيكة المفرغة إفراغاً^(٤) بتعبير أبي هلال العسكري، فأدرج ضمن هذا الباب (الطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، والإرصاد والمزاوجة، والسجع، ومواضع التأنق في الكلام) (حسن الابتداء، وحسن التخلص، وحسن الانتهاء)).

(١) المنزع البديع: ١٨٠.

(٢) ظ: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري: ٦١ و ٦٢.

(٣) ظ: دراسات منهجية: ٢٧.

(٤) ظ: م: ٣١.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

ثانياً: فنون التخييل والإيهام^(١): وهي التي تنكئ على القدرة الذهنية للمتلقّي في كشف دلالتها المرادة، ما سيستدعي جهداً عقلياً وإعمالاً ذهنيّاً خاصاً، وأدرج فيها: (التورية، والمُشاكلة، وحسن التعليل، والتجريد، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، والتوجيه، وتجاهل العارف، والجناس).

ثالثاً: فنون الإجمال والتفصيل: وهي الفنون التي تقوم على " عرض المعنى في صورتين مختلفتين، مجملة ومفصلة، ومجموعة ومفرقة.." ^(٢)، وأدرج تحتها: (اللف والنشر، والجمع، والتفريق، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم).

إنّ الملاحظ على هذا التقسيم أنّ جملة من فنون أبوابه تتداخل مع بعضها، أي أنّها غير موقوفة على الباب، وهذا ما تنبّه إليه المؤلف في فنون الباب الثاني القائمة على التخييل، إذ قال: " وظهور عنصر الإيهام في هذه الفنون لا يعني أنّها موقوفة عليه، فكثيرٌ منها يلعب دوراً له شأنه في ربط الأسلوب، وتحقيق التناسب بين أجزائه وعناصره، وإنّما آثرنا بحثها في هذا الفصل لظهور ما فيها من إيهام وتخييل" ^(٣)، فالظهور هو العامل المرجح لإدراج الفنّ البديعيّ في أيّ باب من تلك الأبواب، وهذا سيوقعنا بهمّ منهجيّ، وخصوصاً بالنسبة للمتعلّمين، إذ سيصعبُ عليهم تمييز ما يقتضي التناسب مثلاً ممّا يقتضي الإيهام، إذا اتفقنا على وضوح فنون الباب الثالث، كما أنّ الباحث أغفل فنوناً كثيرة من البديع يمكن أن تندرج ضمن تلك الأبواب، فممّا يدخل ضمن التناسب: (الرجوع، والإدماج، والهزل يُرادُ به الجدّ، والاستخدام، والاستطراد، والاستتباع، وحسن التضمين، والاحتراس...)، و ممّا يدخل ضمن الإيهام والتخييل: (المذهب الكلامي، والترديد، والتعطف، والتوليد، والنوادر، والتنكيث، والرجوع، والمناقضة، والمقارنة، والقول بالموجب، والإلغاز، والاشتراك "برفع القرينة"...)، و ممّا يدخل ضمن الإجمال والتفصيل: (التفريع، والتكميل، والتتميم، والاحتراس أيضاً، والعكس والتبديل، والاطراد، والتكرار، والتطريز، والتفويف، والتوشيع...)، فكان ينبغي للمؤلف تبويبها إذا لم يُرد سرد الأمثلة عليها، إلا إنّ أهمّ مأخذٍ على هذا التقسيم، هو إغفاله جانباً أساساً من جوانب البنية البديعيّة، وإن كانت قد اندرجت هامشياً ضمن بعض الأبواب، وهو الجانب الصوّتي والإيقاعي، فهذا الجانب هو أهمُّ جانبٍ، إذ ينتظم كثيراً من بُنى البديع، كما تبلورت كثيراً من الدراسات حول البديع عن هذا الجانب، فكان من الحريّ بالمؤلف أن يُفرد له باباً خاصاً تندرج ضمنه فنونه الممثلة، وهذا ما سيقلل من القيمة العلميّة لهذه المنهجية؛ لإغفالها أهمّ بعدٍ من أبعاد بُنى البديع وهو البعد الصوتي، ويُطالعنا بهذا الصدد تقسيمٌ مهمٌّ لأحد الباحثين قدّمه كمقترح لدراسة البديع إذ تنطوي تحته كثير من الجدوى العلميّة، ونحن اكتفينا من كتابه بهذا الجانب؛ لكون هذه الفكرة هي أهمُّ فكرة

(١) ظ: دراسات منهجية: ١٢٧.

(٢) م.ن: ٢٢١.

(٣) م.ن: ١٢٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

طرحها حول البديع في ذلك الكتاب، وهو كتاب ”مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء” لحامد صالح خلف الربيعي، إذ صنّف البديع ضمن ثلاثة حقول رئيسة^(١):

الأول: ما يتعلّق بالجانب الصوتي، ويشمل:

١. الجنس بأنواعه.
٢. السّجع بأنواعه، شعراً ونثراً، (التشطير التسميط، الترصيع، التصريع، المتوازي، المطرّف).
٣. الموازنة.
٤. القلب.
٥. التشريع.
٦. لزوم ما لا يلزم.

ويضاف إليها: التكرار والاطراد، والتطريز، والازدواج، التجزئة.

الثاني: ما يتعلّق بالجانب التركيبي، ويشمل:

١. المقابلة.
٢. التفويف.
٣. العكس.
٤. الجمع.
٥. التفريق.
٦. التقسيم.
٧. الجمع مع التقسيم.
٨. الجمع مع التفريق.
٩. الجمع مع التقسيم والتفريق.
١٠. ردّ العجز على الصدر.

الثالث: ما يتعلّق بالجانب الدلالي، ويشمل:

١. الطباق.
٢. التدبيج.
٣. مراعاة النظير.
٤. تشابه الأطراف. (الأنسبُ في نظرنا أن يُدرج ضمن الجانب التركيبي).

(١) ظ: مقاييس البلاغة : ٦٩٤-٦٩٩.

٥. إيهام التناسب.
٦. الإرساد.
٧. المشاكلة.
٨. الاستطراد.
٩. المزاجية.
- (١٠) الرجوع.
- (١١) التورية.
- (١٢) الاستخدام .
- (١٣) التجريد.
- (١٤) المبالغة.
- (١٥) المذهب الكلامي.
- (١٦) حُسن التعليل.
- (١٧) التفريع. (الأفضل أن يُدرج في الجانب التركيبي).
- (١٨) تأكيد المدح بما يشبه الذم.
- (١٩) تأكيد الذم بما يشبه المدح.
- (٢٠) الاستتباع.
- (٢١) الإدماج.
- (٢٢) التوجيه.
- (٢٣) الهزل يراد به الجد.
- (٢٤) تجاهل العارف.
- (٢٥) القول بالموجب.

فنلاحظ وفقاً لذلك أنّ المؤلفين، يتفقان على بعدي (الدلالة)، ويقابلها (التخييل)، وبعْد (التركيب)، ويقابله (الإجمال والتفصيل)، ويختلفان في بعد التناسب الذي أثبتّه الدكتور الشحات، والبعد الصوتي، الذي أثبتّه الدكتور الربيعي، ونحن مع الربيعي في ضرورة إثبات الجانب الصوتي؛ ولتعليل ذلك فضلاً عمّا تقدّم، لا بدّ من الحديث عن التناسب أو المناسبة بشيءٍ من التوضيح.

فالتناسب، أو المناسبة على اختلاف الاصطلاح، دلالتها واحدة، إذ ليس كثيراً فرّق بينهما، وإن حاول أحد الباحثين التفرقة بينهما، جاعلاً المناسبة "حكم قيمة يتعلّق بوضع الأمور في مواضعها المناسبة... أمّا التناسب فينصرف إلى وجود طرفين متجاوبين دلاليّاً وصوتيّاً"^(١)، وفي الحقيقة أنّ نتيجة التجاوب هي لازمٌ من لوازم وضع الأمور مواضعها،

(١) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: ٤٥٤.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

فيعود الكلام إلى أوله. أمّا السجلماسي فيبحث المناسبة تحت جنس التكرير العالي، حاداً إيّاها بالموازنة " باعتبار معادلة أجزاء القول بعضها لبعض والتّنام نسبة بعضها إلى بعض بتلك المعادلة "(١)، وعلى هذا جرى كلام أبي هلال العسكري من قبل، إذ جعل حُسن الكلام محكوماً " بسلاسيته، وسهولته، ونصاعته، وتخيره، لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديّه(٢)، وموافقة مآخيره لمبادئه.."(٣). من هنا يُعدّ التناسب مبدأً عاماً من مبادئ البلاغة العربيّة، بل كلّ بلاغة، أو فعل قوليّ، ولو تتبعنا المفاصل العامّة للبلاغة العربية لوجدناها تنطوي وتتّكئ على هذا المبدأ في تحرير كبريات قضاياها البلاغيّة، فعلم البيان في جزئياته المتعدّدة المتمثلة بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه العقلي والمرسل، يتطلّب مناسبة بين مكّونات هذه الأجزاء، والبديع قام بناؤه على التناسب، من صحّة المقابلة إلى صحة التقسيم، إلى حسن التضمين، فالمشكلة، فحسن التعليل، فالسجع إلى آخر القائمة، وقد جعل السجلماسي المناسبة جنساً عاماً تدرج تحته أنواع أربعة، بعضها توصلت إليها البلاغة الدلاليّة الحديثة تحت اسم المصاحبة المعجمية الداخلة في تحقيق السبك المعجمي، كما تقدّم عند بحثنا للسانيّات النصيّة، والأنواع الأربعة هي(٤):

الأول: إيراد الملائم، بأن يأتي بالشيء وشبيهه، مثل الشمس والقمر، والمهند والصارم.

الثاني: إيراد النقيض، بأن يأتي بالشيء وضدّه، أو بما يقابله، مثل الليل والنهار، والموت والحياة، الروح والبدن، الصّحة والسقم....

الثالث: الانجرار، أن يأتي بالشيء وما يُستعمل فيه، مثل القوس والسهم، والقلم والدواة، والبيت والأبواب، والقفل والمفتاح، البيت الحرام والصفاء والمروة والحطيم وزمزم....

الرابع: التناسب، أن يأتي بالشيء وما يناسبه على جهة الكلّيّة، كالإمام والقلب، فنسبة القلب للبدن، كنسبة الإمام للمأموم.

وقد لا يقتصر التناسب على هذه العلاقات التي ذكرها السجلماسي، فإنّ اللغة واسعة ومتغيّرة، وتعتمد قدرتها الإبداعية على المتكلّم نفسه وقدرته على التعامل مع اللغة، وإنّ استيفاء دلالات اللغة إنّما يعتمد على الإحاطة بماخذ القول، وعلى القدرة التي تمتلكها اللغة من جهة التوسّع(٥)، فمثلاً: فنّ التكتيت البديعي، " وهو أن يقصد المتكلّم إلى شيء بالذكر دون أشياء، كلّها يسدّ مسدّه، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود، ترجّح اختصاصه بالذكر

(١) المنزع: ٥١٧.

(٢) الهادي: العنق، أقبلت هوادي الخيل، إذا بدت أعناقها، ظ: الصحاح: ٢٥٣٤/٦.

(٣) كتاب الصناعتين: ٥٣.

(٤) ظ: المنزع: ٥١٨-٥١٩.

(٥) يُنظر في شأن التوسّع كتاب " التوسع في الموروث البلاغي والنقدي، للدكتور، حسين الجداونة. وهو بحث ضافٍ لمفهومه وتطبيقاته في التراث العربي.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

دون ما يسدُّ مسدّه، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد^(١)، فأساس هذا الفن قائم على المناسبة في ترجيح اختيار لفظٍ معيّن دون غيره مع توقُّر السعة في استعمال غيره لولا خوف فوت العمق الدلاليّ المنسجم مع الحال، من قبيل قوله تعالى: "وإنّ من شيءٍ إلا يُسبَّح بحمده وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" (سورة الاسراء، الآية ٤٤) ، وقوله تعالى: "وهم يحملونَ أوزارَهم على ظهورهم أَلَا سَاءَ ما يزرُونَ" (من الآية ٣١ من سورة الأنعام) ، فاستعمل القرآن لفظة لا تفقهون بدل لا تعلمون، ولفظة ظهورهم بدل رؤوسهم، مع إمكان استعمال الدالتين في كلا السياقين، والمرجّح لهذا الاستعمال، أنّ الآية الأولى، جاءت في سياق شمول الحيوان والنبات والجماد بالتسبيح، وإنّه "سبحانه إنّما خصّ "تفقهون" دون "تعلمون" لِمَا في الفقه من زيادةٍ على العلم"^(٢)، وللإشارة أيضاً أنّ هذا المورد من المعرفة هو ممّا يُفقه لا ممّا يُعلم. وأمّا الآية الأخرى، فالمرجّح للاستعمال هو أنّ أصلَ حملِ الشيء الثقيل هو الظهر، وأمّا الرأسُ فيمكنُ فيه الحمل ولكن للأشياء اليسيرة غير الثقيلة، ولمّا كانت الإشارةُ للحملِ على الظهر كان كاشفاً لكون أوزارهم ثقيلاً جداً، وهو ما لا ينكشفُ بلفظةِ الرؤوس^(٣).

وربّما يُوهّمُ الكلام حول "المناسبة" أنّها تكرّس مبدأ الوضوح في تعاطي اللغة، هذا المبدأ الذي حاولَ أحدُ الباحثين أن ينحى باللائمة على التراث البلاغيّ والنقديّ العربيّ بسبب تعاطيه لهذا المبدأ، وتأسيس قواعده عليه، وبهذا اكتسبَ صفةَ النفعيّة لا الجماليّة^(٤)، وبهذا بدا للباحث أنّ الفكر البلاغيّ العربيّ "أميل إلى تيار تجريد اللغة من كلّ الإيحاءات، والتأكيد على أنّ المفردات وحدات لغوية ثابتة المعنى"^(٥)، وعلى هذه الرؤية قرأ الباحث موارد الاعتناء باللفظ في بلاغة الخفاجي، وتكريس الوضوح في نقد الآمدي، إلى آخر القائمة، ولسنا بصدد الردّ على الباحث بمقدار ما نوّد الحديث عن مبدأ الوضوح، فإنّ في كثير من هذه الأفكار موارد اشتباهٍ وتحكيمٍ للنظرة الجزئية، ولن نتكلّف إيراد ملامح مبدأ الوضوح والأسس العقلية التي قامت عليه في التراث، بل نوّد أن نشير فقط إلى أنّ البلاغة اليونانية لم تكن خلواً من تناول هذا المبدأ بالعناية والتقنين، ما سيؤكد أنّ المبدأ هو ظاهرة خطابيّة عامّة سواء في البلاغة العربية أو البلاغة اليونانية، بل إنّ عمق الأسس وطرق المعالجة له في البلاغة العربية قد ضربت بقدم راسخة لا يهزها شيء، فأرسطو ممثّل البلاغة اليونانية قد أسهب إسهاباً في بيان مبدأ الوضوح كأساس قارٍ لا بدّ منه في الخطابة اليونانية التي جرّدها

(١) تحرير التحرير: ٤٩٩.

(٢) م.ن.

(٣) ظ: م.ن: ٦٠٣. باب المقارنة.

(٤) ظ: دراسات نقدية وبلاغية/ مبحث، مبدأ الوضوح والغموض في الفكر البلاغي والنقدي عند العرب، د. ناصر حلاوي: ٣٦٩-٣٧٧.

(٥) ظ: م.ن: ٣٣٦-٣٣٧.

(٦) ظ: م.ن: ٣٣٦.

(٧) م.ن: ٣٦٧.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الباحث منه بأن جعلها أسمى من الوضوح الذي وسم به البلاغة العربية، فقد تناول أرسطو في كتابه فن الخطابة، جمال الأسلوب وجعل من أهم مزاياه الوضوح^(١)، وجعل عناصر القول وهي الأسماء والأفعال عنده، ممّا "ينبغي ألا نستعمل منها الأسماء الغريبة أو المركبة أو المبتدعة إلا نادراً"^(٢)؛ "لأنّ ما هو طبيعي يُقنع وأما المتكلّف فلا يُقنع"^(٣)، والكلمات السليمة والمناسبة والمجازات هي وحدها التي تستعمل في أسلوب النثر^(٤)، و ينبغي أن تكون المجازات غير متعسّفة^(٥)، كما أنّ استعمال الكلمات المركبة والغريبة، والصفات الطويلة غير المناسبة، والمجازات المضحكة هي من عوامل وأسباب برودة الأسلوب^(٦)، أمّا الأخير فقد جعل أرسطو له عوامل تضمن سلامته، وهي: الإتيان بأجزاء الربط وفقاً لترتيبها الطبيعي، وأن تستعمل فيه ألفاظاً خاصّة لا عامّة، وتجنّب الألفاظ المشتركة المعاني، وتمييز الجنس، ومراعاة العدد^(٧)، كما جعل أشدّ أنواع المجاز اجتذاباً هي تلك القائمة على التناسب^(٨)، فالملاحظ أنّ أرسطو يُعطي عناية خاصّة لمبدأ الوضوح المؤسّس على رصد المتلقّي أو السامع^(٩) فكيف إذا كان المرصود هو الإفهام والإبانة؟!، من هنا نعلم أنّ الأحكام التي ألقاها الباحث، أحكاماً ارتجالية غير مدعومة ببرهان أو اطلاع حصيف على مستوى التراث اليوناني في أبرز كتاب من كتبه وهو فن الخطابة، فضلاً عن اطلاعه على الدقة التي تناولها التراث العربي لهذا المبدأ.

وقد شكّل التناسب محوراً أساساً بنى عليه عبد القاهر الجرجاني نظريّته في النظم. فتوخّى معاني النحو وأبوابه، ودراسة علاقة الكلّ بعضها ببعض، وتجنّب فساد النظم، وغيرها من المبادئ التي طرحها في نظريّته، تُعدّ مظاهرً للمناسبة ووجهاً آخر للتلاؤم والتوافق، إذ ليست المزيّة بكثرة الفروق والوجوه التي لا غاية لها لتقف عندها، بل تتمايز الوجوه بحسب المعاني والأغراض التي تعرض للكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض ودواعي الاستعمال المرجّح^(١٠)، وبهذا يتّضح أنّ المفردات ليست وحدات لغويّة ثابتة لها معنى محدّد كما ذهب إليه الحلاوي، ويردّه أيضاً مظاهر الاتّساع التي عُولجت عند غير لغويّ وبلاغيّ من المتقدّمين، إذ ذكروا أنّ له عدّة مسوّغات تقود إلى الاتّساع في اللغة^(١١)، منها السعة والإيجاز، ومنها، وجود علاقة بين المعنى المتّسع ودلالته الجديدة كعلاقة السببيّة

(١) ظ: فن الخطابة: ١٩٦.

(٢) م.ن: ١٩٧.

(٣) م.ن: ١٩٦.

(٤) م.ن: ١٩٧.

(٥) ظ.م.ن: ١٩٩.

(٦) ظ: م.ن: ٢٠١-٢٠٣.

(٧) ظ: م.ن: ٢٠٥-٢٠٧.

(٨) ظ: م.ن: ٢٢١.

(٩) للتفصيل في هذه الموارد التي ذكرناها يُراجع المصدر نفسه: ١٩٣-٢٥٦، وهو المقالة الثالثة من كتابه.

(١٠) ظ: دلائل الإعجاز: ٨٧. وينظر ما قبلها، فيما أورده حول النظم.

(١١) ظ: التوسّع في الموروث البلاغي والنقدي: ٣٨-٥٤.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

والمجاورة المسوغة للانتقال من معنى إلى آخر، ومنها علم المخاطب بالمعنى المقنني للحدف والإيجاز على جهة التوسّع في العربيّة، ومنها السّماع عن العرب، ومنها الكثرة، وغيرها، أمّا النقد والبلاغة فقد أخذ التوسّع فيهما نصيباً وافراً من خلال المجاز والاستعارة والكناية والتورية والالتفات وغيرها، بل قد يأخذ التوسّع بعداً أشمل يتمثّل بإقامة علاقات جديدة بين الدوالّ في الجملة أو العبارة، أو بين الجملة والسياق الخارجيّ^(١)، ومثّل له ابن الأثير بقول الإمام عليّ عليه السلام في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه "لا تُنتهى^(٢) فلتاته"، قائلاً: "فظاهر اللفظ أنّه ثمّ فلتات فتنّتى، وهذا من أغرب ما توسّعت فيه اللغة العربيّة"^(٣)، فالتوسّع بهذا يُفضي إلى "التصرّف في اللغة، بحيث يُخرجها عن الاستخدام النمطي، أو العادي، أو المعياري، سواء بالزيادة (المبالغة)، أو الحذف (الاختصار والإيجاز)"^(٤)، كما أنّ تطبيقاته كثيرة ومتعدّدة لسنا بصدد استعراضها^(٥).

من ذلك يظهر أنّ المناسبة تشكّل مظهراً عامّاً يصبغ البلاغة العربيّة على اختلاف أبوابها، ففرى أنّه من غير الصحيح أن تُبحث فنون البديع ضمن حقّ التناسب؛ لدخوله أيضاً ضمن الدائرتين الأخريين، وهما التخييل والإجمال والتفصيل اللتين ذكرهما المؤلّف، فضلاً عن الشمول الذي أشرنا إليه.

وعوداً على بدء، فقد اعترضتنا بعض الملاحظات المنهجية حول الدراسة ارتأينا أن ندرجها ضمن النقاط الآتية:

١- عدم وضوح منهج المؤلّف حول قضية التحسين البديعية، فعلى الرّغم من كونه أنحى باللائمة على مسيرة البلاغة التي أجحفت بالبديع بسبب النظرة إليه كزخرف ومحسن، نراه يُسلم بتقسيم البديع إلى محسنات لفظيّة ومعنويّة^(٦)، وعلامة معرفة المحسنات اللفظيّة، عنده "بأنّه لو غيّر فيها اللفظ بما يُرادفه لبقِيَ المحسن كما هو قبل التغيّر"^(٧)، وهذا إقرارٌ بثبوت النظرة التحسينيّة التي أباهّا، من غير تفصيل.

٢- وتفرّيعاً على الأمر الأوّل، فتبديل المفردة بما يقابلها لا يُفضي إلى شيءٍ "فشاد البناء بعد **انهدام**"، طباق معنويّ، فلو غيّر شاد إلى بنى، وانهدام إلى سقوط، لما تبدّل المعنى بل بقي على حاله، على حين أنّه مهما تغيّرت الألفاظ فإنّ الطباق متحقّق، وخصوصاً مع التسليم بالطباق المعنوي الذي أثبتّه المؤلّف وجعلوا منه التدبيج كأحد فروضه، ففي المثال السابق لو قلنا: شاد بعد سقوط، لتحقّق الطباق المعنوي بين (شاد وسقوط)

(١) ظ: التوسّع في الموروث البلاغي والنقدي: ١٩٣.

(٢) تنتهى: أي: تظهر أو تذكر، ظ: الصحاح: ٢٥٠/١/٦.

(٣) المثل السائر: ٢٤٨/٢.

(٤) التوسّع في الموروث البلاغي والنقدي: ١٦٣.

(٥) ظ: م.ن: الفصل الأخير، ٢٦٣.

(٦) ظ: دراسات منهجية: ٢٧.

(٧) م.ن: ٢٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المضمر لمعنى الانهدام؛ لأنَّ الطباق المعنوي " يتَّم فيه الجمع بين الشيء وضدّه في المعنى لا في اللفظ، كقوله تعالى: "الذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فراشاً والسَّمَاءَ بناءً" (سورة البقرة الآية ٢٢)، ففيه مطابقةٌ معنويةٌ بين "فراشاً" و "بناءً"، ولا تضادَّ بينهما في اللفظ، إنّما التضادُّ في المعنى، إذ البناء رفعٌ للمبنى، فمعناه مضادُّ للفراش الذي هو على خلاف البناء^(١)، وبهذا يظهر أنَّ الطباقَ لازمٌ دلاليٌّ، فيخرج من حدِّ التحسين، وهذا ما كان ينبغي أن يذكره المؤلّف. ومثله الجنس الذي مثّل له من أجل تقرير فكرة التحسين من خلال الرفع والتبديل، ببیت محمد بن كناسة، وهو من شواهد ابن المعتز، في كتابه البديع:

وسمّيته يحيى ليحيا فلم يكن إلى ردِّ أمرٍ الله فيه سبيل^(٢)

فالجناس التام بين (يحيى الاسم ويحيا الفعل)، محسّنٌ لفظيٌّ، وتغييرهما إلى(علي ويعيش) مثلاً : سمّيته علياً ليعيش، يُوهي الجنس^(٣)، ولكنّ الملاحظ أنَّ الجنس بين (يحيى ويحيا)، فيه اقتضاءٌ دلاليٌّ، بمعنى أنَّ يحيا الفعل اقتضى يحيى الاسم، فلو تغيّر لما أدّى وظيفةً دلاليةً مستقيمة، وفي هذا تأكيدٌ للبعد الدلاليّ الذي يضيفه الجنس على التعبير، وهو ما تجاوزه المؤلّف.

٣- جعلَ المؤلّف قوله تعالى: "مما خطيئاتهم أُغرقُوا فأدخلُوا ناراً فلم يجدُوا لهم من دونِ الله أنصاراً"(سورة نوح، الآية ٢٥) من الطباق المقتضي للضدِّ على نحو الخفاء المحتاج إلى التأويل، وهو قسيم ما يسمّى إيهام التضاد^(٤)، فجعل الطباقَ " بين أُغرقوا وأدخلوا ناراً"، وإدخال النار ليس مضادّاً للإغراق ولكنه يستلزم الإحراق المضادّ للإغراق^(٥)، إلاّ أنّه في نظرِ البحث قد يحتملُ تأويلاً آخر، وهو أنَّ لازمَ الإغراق الإدخالُ في الماء وهذا الإدخالُ أفضى إلى الإدخال في النار، فهو من باب المناسبة لا التضاد.

٤- تبنّى المؤلّف التوسّع في مفهوم المقابلة، بمعنى عدم قصرها على المقابلة بين الأضداد أو ما يلحق به، بل تعمُّ لتشملَّ المشاهد التي تنهضُ على الموازنات والمقارنات بين أنماطٍ مختلفة، وأصنافٍ متباينة، وإن لم تكن متساوية العدد، متضادة المعاني، منظومة على الترتيب،...فالمشاهدُ القرآنيّة في وصف المؤمنين والكافرين، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والمشاهد التي تصفُ الآيات الكونيّة، وغيرها ممّا يردُّ على نمط المقارنة والموازنة ينبغي أن ينضوي تحت لواء المقابلة^(٦)، وهذا وإن كان صحيحاً

(١) دراسات منهجية: ٤٣.

(٢) ظ: البديع، تحقيق، د. محمد عبد المنعم خفاجي: ١٠٩.

(٣) ظ: دراسات منهجية: ٢٨.

(٤) ظ: م.ن: ٤٦ و ٤٨.

(٥) م.ن: ٤٧.

(٦) م.ن: ٦٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

- نسبياً إلا إنه سيتشابهك مع فنونٍ بديعيةٍ أخرى، كاللف والنشر، والتقسيم، والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم والتفريق، فلا بدّ من تحديد المائز بينها بدقّة.
- ٥- رفض المؤلف أساس القلّة والكثرة في تحديد المسار البلاغي للتركيب، وجاء رفضه في معرض حديثه عن تعدّد مقاطع المقابلة، قائلاً: " وذكر ابنُ حُجّة أنّ علماء البديع على أنّه كلّما كثر عدد المقابلات كانت أبلغ، وهذا أساسٌ غير صحيح، فأبلغيّة المقابلات لا تتوقّف على عددها في الأسلوب، والمقابلة بين معنيين قد تكون أبلغ ممّا لو كانت بين أكثر من ذلك..." (١)، وهو رفض سليمٌ وفي محله، إلا إنّ المؤلف لم يتشدد في رفضه في مفصلٍ آخر من مفاصل البلاغة، وهو السجع، إذ تناول البلاغيون تفاوت حسنه بتفاوت قرائنه طولاً وقصراً، فأمضى المؤلف القياس مستدركاً أنّه ينبغي ألا تكون المقاييس مطلقة؛ لوقوع السجع في القرآن الكريم متفاوتاً في الطول والقصر مع بلوغه غاية الحسن (٢).
- ٦- نسب المؤلف لعبد القاهر الجرجاني القول بقصره المزاجية على ما وقع منها بين الشرط والجزاء، قائلاً: " وجمهور البلاغيين يقصرون هذا اللون على المزاجية بين الشرط والجزاء في ترتّب فعلٍ عليهما اقتداءً بالشيخ عبد القاهر" (٣)، وفي الحقيقة أنّ عبد القاهر الجرجاني لم يقصر المزاجية على هذا النوع بل جعلها نوعاً من ثلاثة أنواع ذكرها، بقول سليمان بن داود القضاعي:

فبينما المرء في علياء أهوى ومنحطٌ أتيح له اعتلاء
وبينما نعمةٌ إذ حال بؤسٍ وبؤسٌ إذ تعقّبه ثراء

والآخر بقول كثير:

وإني وتهيامي بعزّة بعدما تخلّيت ممّا بيننا وتخلّات
لكا لمرتجى ظلّ الغمامة كلّما تبوّأ منها للمّقلِ اضمحلّت (٤)

فالأول بصيغة (بيننا- إذ)، والثاني بصيغة (المماثلة بالتشبيه واللام الرابطة).

- ٧- علّل المؤلف ندرة فني التورية وحسن التعليل في الشعر القديم؛ باحتياجهما للتدبر والتأمّل والتفكير العميق لكشف علاقاتهما الداخليّة، ما لا تساعد عليه عقلية العربي القديم (٥)، وإنّ هذين الفنين بدأ ينتشران في العصر العباسيّ والعصور المتأخّرة، بسبب

(١) دراسات منهجية: ٦٦.

(٢) ظ: م.ن: ١١٠-١١١.

(٣) م.ن: ٩٩.

(٤) ظ: دلائل الإعجاز: ٩٣-٩٤.

(٥) ظ: دراسات منهجية: ١٣٨ و١٣٩ و١٦٠.

التطور الحضاري والذهني الذي غلب على شعراء ذينك العصرين، وهو توجيه سليم وصحيح، ولكن يضاف إليه أن التورية أيضاً ترعرعت في جو السلطة السياسية، إذ كان يخفي تحت ظلها كثير من الشعراء خوفاً من بطش التصريح.

٨- من الأمور المهمة التي خرجت بها هذه الدراسة هو عدم النظر إلى فنون البديع بمنظار واحد بعد الاعتداد بعدم كونها محض محسنات للكلام، إذ ذهب المؤلف إلى جعلها نصفين، نصف لا يزيد عن كونه زخرفاً لفظياً وحلية شكلية، ينبغي عدم الاعتداد بها وطرحها^(١)، والنصف الآخر يعتبر من جوهر البلاغة، وهي التي استدعته، وله في الكلام أغراض لا تتحقق من دونه، وهذا النصف شريك للمعاني والبيان وغير قاصر عن غايتيهما^(٢). وهذا الكلام يمتلك نسبة كبيرة من الصواب؛ لأن كثيراً من تلك الفنون تكلف إدراجها في منظومة البديع لمحض صياغة القول صياغة معينة، ولكننا لسنا معه في طرح هذا الصنف، أو فنقل إن لدينا ثلاثة أصناف من البديع لا صنفين، لتوافق نظرنا مع المتقدمين من البلاغيين، الذين لانشك في حصاقتهم في عد البديع من المحسنات وإن كان لعمومية حكمهم أثر غير محمود على البديع، وهذه الأصناف هي:

- ١- صنف يحقق الزخرفة اللفظية مصحوبة بالتكلف والصنعة، وإقحام الفن البديعي في التركيب إقحاماً. ونتيجة هذا الصنف الرّفص.
- ٢- صنف يحقق التحسين اللفظي، وإخراج القول إخراجاً حسناً يفضل على إخراجة من دونه. ومرتبة هذا الصنف القبول بهذا المستوى.
- ٣- صنف يدخل في تركيب القول وإخراجه إخراجاً بلاغياً خاصاً لا يقصر عن إخراجة مع المعاني أو البيان، إذ يُعطي ناتجاً دلاليّاً لا يتحقق من دونه.

وبهذا سوف نجمع بين النظرة القديمة الذاهبة - في الأغلب - إلى تحقيق النظرة التحسينية للبديع، والنظرة الحديثة الذاهبة إلى عدّه - مطلقاً - خارجاً عن تلك النظرة وداخلاً في توليد الدلالة.

٩- من الأمور المهمة أيضاً في هذه الدراسة، وتأسيساً على النقطة السابقة، أنه قد اجتمعت لدى المؤلف جملة من الأمور ساقته إلى الاعتداد بالبديع بوصفه وجهاً أساساً من وجوه البلاغة، ورفض تلك النظرة الزخرفية، وقلماً نجد في الباحثين من اكتملت عنده هذه الأسباب، ونجملها بما يأتي^(٣):

- ١- إفادة فنون البديع لأغراض مختلفة، وقيم تعبيرية متنوعة، كالتناسب، والتلاحم بين الأجزاء، والتوضيح، والتقرير، والمبالغة....

(١) ظ: دراسات منهجية: ٢٦١.

(٢) ظ: م.ن.

(٣) ظ: م.ن: ٢٦١-٢٦٥.

الفصل الثالث.....مصادر التجديد/تحليل وموازنة

- ٢- إنَّ جملة من فنون البديع بُحِثت من قبل البلاغيين في حقلي المعاني والبيان، وترشيحها في علم البديع لا يخرجها عن وظيفتها التي بُحِثت في ذينك الحقلين، منها: الالتفات، والتذليل، والتتيم، والتكميل، والايضاح، وحسن التعليل، والتهكم.... .
- ٣- ورود فنون البديع في الشعر الجاهلي والإسلامي ونثرهما، واستخدامها كطرق للتعبير ضمن سياقها الفطري متجاوزة من دون تمييز.
- ٤- اشتغال القرآن الكريم على قدر كبير من تلك الفنون، ضمن سياقه الإعجازي، إذ ليس في أسلوب القرآن مَهْمَز أو مَغْمَز.
- ٥- أورد بعض البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني، والفخر الرازي، جملةً من فنون البديع وسلكوها ضمن النظم العالي، ممَّا يحقّق التلاؤم والتناسق والتلاحم، كالمزاوجة، والتقسيم، والاعتراض والتلميح... .
- ٦- تقدّم من بعض البلاغيين تعريفهم للبلاغة بأنّها: إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ^(١)، فحسن اللفظ جزءٌ لا يتجزأ من البلاغة.
- ٧- تقدّم بعض أعلام المتأخّرين في جعل البديع أصلاً من أصول البلاغة، كشرف الدين الطيبي(ت٧٤٣هـ)، وأبي جعفر الغرناطي(ت٧٧٩هـ)، وفي هذا خرمٌ للتسالم على زخرفيّة البديع.

هذا أبرز ما وجدناه في هذه الدراسة، التي كان الملاحظ عليها اتسامها بالحضور التراثي في عامّة مفاصلها، والجديد فيها هو ما قدّمناه من دراسته للفنون البديعية ضمن حقول محدّدة ، ومن رفض النظر المصحّفة للبديع بوصفه محض محسنات، مع بياننا لما تخلّلتها من ملاحظات منهجية.

(١) ظ: كتاب الصناعتين: ١٦ و١٧، وطرّاز الخلّة وشفاء الغلّة: صفحة ١١ من المخطوطة.

٦- البديع تأصيل وتجديد / الدكتور منير سلطان، ١٩٨٦م:

مبنى الدراسة: بُنيت هذه الدراسة في نظر منتجها على لحظ محورية الإيقاع بوصفه طاقة مكتنزة في العديد من فنون البديع، إشارةً إلى مركزية الإيقاع في فنون البديع، وهذه المركزية جاءت - حسب المؤلف - متناغمة مع المعنى، فأخذت الدراسة في معالجتها لفنون البديع وتصنيفها بالنظر لذلك بعدين^(١):

الأول: مصطلحات الوفاء بالمعنى والإيقاع، وتضم: السجع و الفاصلة، والازدواج، والجناس، والمشاكلة.

الثاني: مصطلحات الوفاء بالمعنى ثم الإيقاع، وتضم: الطباق، والمقابلة، والمبالغة، والتعليل، وطرافة التعليل، والتورية.

ولابد من الإشارة إلى أن المؤلف كان مسبقاً بهذه الفكرة، ولكنه لم يُشر إلى سابقه، فمنذ المحاولات الأولى للتجديد التي رفع لواءها الأستاذ أمين الخولي والأستاذ عبد الله العلايلي ومن تابعهما، طرحت فكرة الأثر الصوتي للفنون البديعية، فالخولي يجعل من الجناس والسجع والترصيع والتصريع ورد العجز على الصدر، ولزوم ما لا يلزم،... وسائل تحسين أداء الكلام لمعناه بتأثير الرنين الصوتي، بسبب اتصاله بالمعنى دائماً، فإذا فقد الاتصال فسد الأداء^(٢)، وتطالعنا دراسة الدكتور جليل رشيد فالح في مطلع السبعينيات لتخرج برأي في أن البديع هو "ذلك الفن الذي يحقق في الأثر إيقاعاً موسيقياً، بانسجام ألفاظه، وتلاؤم عباراته، ورسم صورة مؤثرة في النفس فيها طرافة وجدة، غير متجاوز شرائط الفصاحة العربية"^(٣)، وانطلاقاً من هذا التعريف للبديع فقد انتظمت عنده فنونه في ثلاثة أقسام:

١. الفنون الإيقاعية: وتمتاز بامتلاكها قدراً وافياً من الخصائص الصوتية القائمة على التلاؤم المصور لخلجات النفس، وبهذا ستحقق جانباً كبيراً من الحسن الذاتي نظراً لتجاوب النفس الطبيعي مع الأصداء الموسيقية المختلفة، ويدخل ضمن هذا القسم من الفنون، الجناس، والطباق، والعكس، والترديد، والسجع، والتوشيع، والتشطير، والمشاكلة، والجمع مع التقسيم وإخوانه، والتعديد، والمزاوجة، ورد الأعجاز على الصدور^(٤).

٢. الفنون التصويرية: وهي الفنون التي تعرض الأفكار والمعاني في صورة فنية من الأداء الجيد، تخرجها عن الأداء المباشر، ويندرج تحتها، التورية، والاستطراد، والنزاهة، والمناقضة، وأسلوب الحكيم، والمبالغة، والترشيح، والمدح في معرض الذم، وعكسه، والتقسيم^(٥).

٣. الفنون الطريفة: وهي التي تعتمد الظرف والتملح المصاحب لإظهار البراعة في النظم، فيدخل فيها، القلب، وما لا يستحيل بالانعكاس، والتخيير، والمناقضة أيضاً^(٦).

(١) ظ: البديع تأصيل وتجديد، د. منير سلطان، الفهرس العام، إذ لم يوضح ويصرح المؤلف بمنهجه في مدخل كتابه، بل انطلق لتناول، البديع بمفهومه التراثي أول ثم عرج على بيان عام لمفهوم الإيقاع ثانياً. تُنظر صفحة ١١ و صفحة ٢٣.

(٢) ظ: فن القول: ٢١٧.

(٣) علم البديع نشأته وتطوره، رسالة ماجستير: ١٨٨.

(٤) ظ: م.ن: ١٨٨ و ١٨٩.

(٥) ظ: م.ن: ١٩٢.

(٦) ظ: م.ن: ١٩٣.

ولسنا بصدد مناقشة هذا المنهج، وخصوصاً مع ملاحظة تداخل بعض الفنون مع بعضها في الأقسام مما يُفقد الجدوى من التقسيم^(١)، ولكن أردنا الإشارة إلى سبق طرح فكرة إيقاعية الفنون البديعية ضمن الإطار العام لها، والذي عليه جاءت دراسة الدكتور منير سلطان، فهو قد جعل الإيقاع متمحّضاً في فنون القسم الأول، وتابعاً في فنون القسم الثاني، وفي كليهما يكون الوفاء بالمعنى هو المركز الذي تدور حوله رحي الصياغة الفنية، إذ الوفاء بالمعنى عنده، هو إبراز القول محكماً محيطاً بمعناه^(٢)، وهذه الإحاطة قد تقتضي الإيقاع، فيكون موسيقياً داخلية منبعثة من روح الفنان، وبعض تلك الفنون لا تحتاج إلى الإيقاع لتبرز خفاياها ولكنه يظهر فيها^(٣)، وبهذا سيكون الإيقاع عنده " أن يستخدم الفنان قدرات أصوات الحروف، ونغمات الألفاظ، والتراكيب، وينسق بينها، بحيث تترجم ما يعتمل في نفسه، وتجذب المخاطب إلى محيطها؛ ليدوب في أجوائها، ويظل في جنباتها، لا ينفك عقله مع نفسه مع روجه في تجاوب متصل^(٤)، وتظهر فاعلية عنصر الإيقاع عند المؤلف من قوله: " والفنون البديعية التي جمعناها هنا اشتركت في عامل الإيقاع، الأمر الذي لا يتوافر للتشبيه، أو المجاز، أو الفصل والوصل، أو التقديم والتأخير، أو غيرها من الفنون، ولكي تكون بصفة "البديعية" يجب أن تقوم على الوفاء بالمعنى، فهي ليست وجوهاً لتحسين الكلام، إنما هي الكلام نفسه، والمعنى هنا لا يعني معاني الألفاظ المفردة، بل يعني الموضوع الذي يتحدّث فيه الفنان، والوفاء به يعني كيفية إبرازه وصياغته صياغة فنية شائقة، أما الإيقاع، فهو التناغم الذي يُقيمه الفنان بينه وبين المخاطب عن طريق الموضوع، هي الموسيقى المنبعثة من داخل الصيغ، وهي ليست نغمات مكررة فقط، بل هي تصوير لجو المعنى طلباً للتواصل المستمر بين المتكلم والمخاطب والموضوع^(٥). هذه هي الرؤية العامة التي طبعت هذه الدراسة، والمطلع على مبدئها سيظن للوهلة الأولى جريانه على منتهائها، إلا أنه سيفجأ بأن محورية الإيقاع لم تأخذ حقها المتناسب مع شدة ما طرحه المؤلف من التأكيد على الإيقاع، حتى أنه أخذ على الدرس البلاغي التراثي عدم ربطه فنون الجانب الإيقاعي مع نتائج علم اللغة في الصوتيات، ونتائج علم القراءات في الوقف والابتداء، ونتائج النحو والصرف في الزيادة والنقصان، والإبدال والإدغام، طلباً لسلامة الإيقاع، ولأثر المعنى في الإيقاع وأثره في المعنى وكذا أثر السياق فيهما وأثرهما فيه^(٦)، ولكننا لا نلحظ حضوراً فاعلاً لما ذكره، إلا أن الذي طغى على الدراسة هو حضور جانب التأصيل وفاعليته، من خلال استقصاء نظرات القدماء وآرائهم في الفن البديعي الواحد الذي قلما شدّ عنه رأي واحد منهم، مع استعراضه لكثير من الشواهد التي ذكروها وتعقيباتهم عليها، أما التجديد الذي برز رسمه اللفظي على صفحة العنوان، فإنه لم يخرج عن ذكر تعقيبات عامة أغلبها تلخيص لما ذكره من تأصيل، وبهذا يمكننا القول، إن الدراسة استقصاءً لآراء القدماء ونظراتهم حول البديع، إذ لم نلحظ تجديداً، لا على مستوى المصطلح، ولا على مستوى مناقشة الأنواع ولا طريقة المعالجة، إلا بالمقدار الذي ذكرناه

(١) ظ: علم البديع نشأته وتطوره: ١٩٤.

(٢) ظ: البديع تأصيل وتجديد: ٢٠.

(٣) ظ: م.ن: ٢٣ و ٢٤.

(٤) ظ: م.ن: ٢٤.

(٥) م.ن: ٢٣.

(٦) ظ: م.ن: ٣٩ و ٤٠.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

من الإشارة إلى الإيقاع، ويظهر ذلك جلياً من محدودية معالجته للفنون البديعية، إذ إنه اقتصر على عشرة أنواع منها فقط؛ مهملًا الجَمَّ الغفير من دون ذكر للمقبول منها والمردول، كما برزت على صفحة المؤلف ملاحظات منهجية وتحليلات جانبية الصواب في جملة منها، ارتأينا بمقتضى منهج البحث أن نوردها مُسرَّدةً بنقاط مع بيان جهة النقد، لنتبين هل صدقت محاولة الباحث في تجديد دماء البلاغة، لتعود محمّرة الخدود يانعة الجمال^(١)، وسنبديّ بالنص الذي أوردناه عن المؤلف حول عامل الإيقاع، ونُنبِّعه بملاحظاتنا التي استقصيناها في هذه الدراسة تبعاً.

١- جعل المؤلف عامل الإيقاع مقتصرًا على جملة من الفنون البديعية، فنفي توقّر التشبيه والمجاز، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، بوصفها نماذج من علمي المعاني والبيان، نفى توافرها على الإيقاع، والطريف أنّ هناك دراسة ضافية تناولت الإيقاع البلاغي، للدكتورة ابتسام أحمد حمدان، وهي "الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي الأول"، إذ تناولت الباحثة إيقاع علمي المعاني والبيان فضلاً عن البديع، فجعلت مظاهر علمي البيان والمعاني، كالحذف والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والتعريف والتذكير والتشبيه والمجاز، ممّا له فاعلية في تحقيق الإيقاع البلاغي، وهذا هو الأنسب؛ لأنّ "الإيقاع لا يتولّد عن الصوت الواحد، أو العنصر الشكلي المنفرد، بل يتولّد عن نسيج متآلف من العناصر الأخرى"^(٢)، فهذا ينسجم مع النظرة الكلية للفعل القوليّ المعبر عن معنى من المعاني، بحيث يُعدُّ كلُّ جزءٍ من أجزائه داخلاً في إسناد الدلالة، وبهذا يتّضح أنّ جملة من معطيات علم المعاني والبيان داخلة في تشكيل الإيقاع الشعري^(٣)، وإنتاج موسيقاه، فليس البديع وحده هو عامل الإيقاع كما تبناه المؤلف.

٢- كان أولُ من تناول المؤلف هو فنُّ السجع، ولكنّه تكلف الاستدلال على قدمه، فدخل دائرة توضيح الواضحات، فجاء استدلاله غثاً هجيناً، لا ينطوي على معنى ذي قيمة، وذلك قوله: "مصطلحُ "السجع" أقدم من مصطلح "الفاصلة" بدليل الحديث الشريف "أسجعا كسجع الكهان"^(٤)، والمعروف أنّ العرب قالوا: "سجع الكهان"، ولم يقولوا: "فواصل الكهان"^(٥). فالسجع معلوم معروف لدى فصحاء العرب وبلغائها ولا يحتاج إلى التدليل على وجوده أو المعرفة به، أمّا مصطلح الفاصلة، فقد نشأ مع القرآن الكريم، وبرز من إطاره الثقافي الخاص به، واستحسن العلماء إطلاقه على أواخر الآي كراهية التشبه بالشعر، ولو على مستوى لوازمه ومصطلحاته، تنزيهاً للقرآن كما ينقله ابن سنان الخفاجي^(٦)، فالفاصلة إذاً مفهوم إسلامي وجد بنزول القرآن، فصار من خصائصه، والسجع معروف، فلا حاجة لأن تقول العرب فواصل كهان أو نحوها.

(١) كان في رجاء الباحث تجديد دماء البلاغة، وتوفير الجهود وإنارة الطريق؛ لتعود البلاغة بلاغة بجمالها وجلالها وبهائها. يُنظر: الإهداء.

(٢) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي: ٢٢.

(٣) ظ: م.ن: ٢١٥ وما بعدها، و ٢٣٥ وما بعدها.

(٤) ظ: إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٨ و ٧٣.

(٥) البديع تأصيل وتجديد: ٢٧.

(٦) ظ: سرّ الفصاحة: ١٦٥ و ١٦٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

٣- نسب المؤلف للجاحظ قوله "إنَّ السجعَ فاصلة"، من نصٍّ أورده السيوطي عنه في الإتيقان، إذ يقول: "سمى الله تعالى كتابه اسماً مخالفاً لما سَمَّى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل، سَمَّى جملةً (قرآناً) كما سَمَّوا (ديواناً) وبعضه (سورة)، (كقصيدة) وبعضها (آية)، (كالبيت)، وآخرها (فاصلة)، (كقافية)^(١)، فيقول المؤلف عنه" ويتابع الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من سبقه من العلماء في اعتبار أنَّ السجع فاصلة"^(٢)، إلا أنَّ الجاحظ لم يسمَّ السجع فاصلة، وإنما جعله مخالفاً لما جعل العرب عليه أسامي الشعر وألقابه، فجعله من باب المقابل المغاير، لا المقابل المطابق، كما هو ظاهر من مقابلاته.

٤- على الرغم من وضوح دلالة الحديث النبوي الشريف، وخصوصاً مع ملاحظة قرائن المقال والحال، وخصوص الإضافة المحددة لدلالة الحديث النبوي الشريف بذكر السجع الكهنّي؛ لاشتماله على محاولة تزويق الكلام لجذب الحق إلى المتكلم، فعلى الرغم من ذلك فقد وقع كثير من البلاغيين في حيص بيص في توجيه دلالاته، والاستعانة بشواهد من السيرة النبوية (صلى الله عليه وآله)، وكلام كبار الصحابة والفصحاء، بل ذهب الرّماني مذهباً مألّ فيه ميلاً عظيماً إذ عدَّ السَّجْع عيباً، والفواصل بلاغة^(٣)، فلا نجد مبرراً لكل تلك المعركة الاصطلاحية - مع وضوحها- كما لا مبرر - تبعاً- لتحميل الحديث النبويّ تبعة خلط البلاغيين بين السجع والفاصلة، كما وجّهه المؤلف^(٤).

٥- تمثلياً مع سائد التفرقة بين السجع والفاصلة، فقد حاول المؤلف أن يُبدع تعريفاً مائزاً للسجع عن الفاصلة، فعرفه بأنه " اتفاق آخر حرفين في كلمتين متتاليتين... وهو وصف لإيقاع متردّد في كلمتين مفردتين غير داخلتين في تركيب جملة، وقد تحتوي الجملة في سياقها على كلمتين متفقتين في آخر حرفٍ فيهما، ولكنهما لا يؤذنان بانتهاء معنى، ولا يفصلان بين شطرين في الكلام، ولا يحسُّ السكوت عندهما"^(٥)، أمّا الفاصلة " فلا تُوجد إلا في تركيب، ولا توجد إلا في سياق؛ لأنَّ وجودها به ومن أجله"^(٦)، والتمييز صحيح، ولكن ما يؤخذ عليه هو عدُّ السجع ما تردّد في كلمتين غير داخلتين في التركيب، وهذا غريب؛ لأنَّ السجع لا يتحقّق، ولا تصحُّ تسمية التركيب سجعاً، إلّا من خلال التركيب، فالكلمة الواحدة لا تُحقّق السجع، بل لابدّ من تركيب، وهذا التركيب أيضاً لا يُحقّق السجع إذا كان مفرداً، فلا بدّ من تركيب آخر يُعطى عليه، فعند النهاية اللفظية للتركيب الثاني يتحقّق إطلاق السجع على التركيب، ويبقى سجعاً عادياً غير محكوم بحكم سلبيّ إلى أن يتوالى التركيب، فإن استمرّ على

(١) الإتيقان: ١/٤٣١.

(٢) البديع، تأصيل وتجديد: ٣٠.

(٣) ظ: النكت في إعجاز القرآن: ٩٠.

(٤) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ٣٩.

(٥) م.ن: ٤١.

(٦) م.ن.

سياقه، حُكم بتكلفه، وإن ارتبط ببيان حقائق في الوجود، من غيب أو حوادث أو تنبؤات، أو نحوها، كان سجع الكهان، الذي هو في غاية التكلف، ونصيبه البلاغي الرفض، فكما أن الفاصلة لا توجد إلا في تركيب، فكذلك السجع، وقد ضرب المؤلف مثلاً لا نراه يستقيم له، وهو قوله تعالى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" (سورة الانفطار، ١٣ و ١٤)، فجعل الأبرارَ والفجار سجعاً لعدم وفائهما بالمعنى، ونعيم وجحيم فاصلتين لوفائهما به وانتهاء التركيب عندهما^(١)، والمعلوم أن هذا النوع من السجع هو ما سماه البلاغيون بالمرصع، وهو أن يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ، أو أكثره، مثل ما يقابله من الأخرى، وزناً وتقفية^(٢)، والمعلوم أيضاً أن السجع هو موالة الكلام على روي واحد، وهو تواطئ الفاصلتين في الشعر والنثر^(٣)، فلا وجه لاعتبار اللفظتين المتقدمتين في السياق سجعاً، بل هما جزء من تركيب، مجموعهُ يُسمَّى الترصيع أو السجع المرصع، أو الازدواج، الذي يتحقق بتقابل الجملتين، فلا يُطلق على هذا النوع من التوافق سجعاً، لا عند العرب ولا عند غيرهم!، ولكن يمكننا تصويب قوله في التمييز بين الإيقاع الصوتي والإيقاع الموسيقي، فالإيقاع الصوتي، هو تشكيل جهاز النطق لمخارج الحروف...، والإيقاع الموسيقي "هو الأثر النفسي الناتج عن امتزاج مقاطع صوتية بمعنى من المعاني، من متكلم معين، في موضوع معين، لمستمتع معين"^(٤)، فتتضح مراعاة مقتضى الحال في الصياغة الإيقاعية الصوتية من نعت (معين)، الذي نعت به المنظومة الكلامية (المتكلم، والموضوع، والسامع)، ما يقتضي النظم المحكم المقصود، وبهذا سيستقيم عدُّ قدامة للسجع الصرفي من جملة السجع، وهو ما رفضه المؤلف، كالوزن بين الضروس والضلوع، على حين قبل قول الرّمانى (ت ٣٨٤هـ)، السجع بين "الرحيم" و"الدين"؛ لتقاربهما في المخرج، جاعلاً المعول هو الإيقاع في الأذن والنفس، لا في الكتابة على الورق^(٥)، وهذا من غريب الاختيار، إذ إن الميزان الذي اعتمده في هذه ينطبق على تلك، فالنفس تهش وتبش للإيقاع الذي يحدثه التوافق في الوزن الصرفي، فضلاً عن التكرار الحرفي الذي تحقق للكلمتين في ضاد الوزن و واو الميزان، فلا نرى للمؤلف مرجحاً مقبولاً.

٦- جعل المؤلف الازدواج توافقاً تاماً بين جملتين في الحركات والسكنات، "فهو توازن جملتين متتاليتين توازناً عروضياً... أي أن إيقاع الجملة الأولى هو إيقاع الجملة الثانية، أي الحركات والسكنات في الجملة الأولى، هي حركات وسكنات حروف

(١) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ٤١ و ٤٢.

(٢) ظ: الإيضاح: ٣٣١.

(٣) ظ: علم البديع، د. بسيوني عبد الفتاح: ٢٥٠.

(٤) البديع، تأصيل وتجديد: ٤٢.

(٥) ظ: م.ن: ٤٣.

الجملة الثانية^(١)، ولكن ليس بالضرورة أن تتطابق الجملتان تمام الانطباق مع بعضهما، فالعسكري قسّم الازدواج إلى ثلاثة أقسام جعل أحسنها ما كان كل فاصلتين منه على روي واحد، "وإن أمكن أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل، وإن لم يكن ذلك، فينبغي أن يكون الجزء الأخير أطول"^(٢)، وقد نقل المؤلف ذلك عن العسكري، إلا أنه أحب أن يقيّد نفسه بالالتزام بتمام المطابقة من دون أصل يستند إليه، وكذلك قال العسكري، بأن القليل من الزيادة مغتفر لا يعتد به^(٣).

٧- في الحقل الخاص بالجناس، نجد أن المؤلف قد خلط خطأ واضحاً وغريباً بين الجناس والمشاكلة، على الرغم من الاختلاف بينهما، فجميع أمثلة المشاكلة ساقها للاستشهاد على الجناس من دون أن يبين الفرق بينهما، وأغلب الظن أن المؤلف هذا حذو الرّماني في تعامله مع الجناس، من دون أن يشير إلى تبنيّه له، فالرّماني حدّ الجناس بأنه "بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة"، ويقسمه على قسمين: جناس مزوجة، وجناس مناسبة، فالمزوجة ما كان من لفظين أحدهما حقيقة والآخر مجاز، أما المناسبة فما كان اشتقاقاً من اللفظ السابق^(٤)، فعليه أجرى الأمثلة، الآتية: "وجزاء سيئة سيئة مثلها" (سورة الشورى: ٤٠)، "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" (سورة البقرة: ١٩٤)، "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون" (سورة النمل: ٥٠)، "ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين" (سورة آل عمران: ٥٤)، "إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم" (سورة النساء: ١٤٢)، "مستهزؤون الله يستهزئ بهم" (سورة البقرة: ١٥-١٤)، "ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون" (سورة التوبة: ١٢٧)، فالملاحظ أن جميع هذه الأمثلة داخلة في حدّ المشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير، أو مناسب له، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا^(٥)، وهو ما سمّاه البحث بالتوليد، أي أن اللفظ اللاحق ومعناه يتولّد عن السابق، ويكون بسبب منه، إذ لولاه لما وجد، أما الجناس فيختلف اختلافاً تاماً عنها، ولا بدّ ههنا من أن نقف وقفة قصيرة مع اصطلاح الجناس، فأصل التجنيس والمجانسة هو الإتيان بجنس الشيء، وما يُماثله أو يُشاكله، فالمجانس المشاكل^(٦)، ولو اطلعنا على تعريف البلاغيين للجناس اصطلاحاً، نجده "أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى"^(٧)، أو أنه "تشابههما في اللفظ"^(٨)، أو هو "تشابه اللفظين في النطق

(١) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ٥٣.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٣٥ و٢٣٦.

(٣) ظ: م.ن: ٢٣٥.

(٤) ظ: النكت في إعجاز القرآن: ٩١.

(٥) علم البديع: د. بسيوني: ١٥٩.

(٦) ظ: تاج العروس: ٢٣٢/٨.

(٧) العمدة: ٢٨٣/١.

(٨) الايضاح: ٣٢٣.

واختلافهما في المعنى^(١) فجميع هذه الحدود تحيل على كون الجنس هو الموافقة، وتحيل خصوصاً على الجنس التام، وهو في نظرنا الأصل في باب الجنس، ولو تقبلنا تعريف المؤلف له بأنه "مقطعان صوتيان متفقان في الإيقاع مختلفان في المدلول، .. لفظان متحdan في الشكل مختلفان في المضمون"^(٢)، فإننا أمام سياق يأتي به لفظان متحdan في الحروف مختلفان في الدلالة، ولكن كل منهما في سياق مختلف؛ لكي يؤدي دلالاته المغايرة، أما المشكلة فإنها تأتي في نفس السياق وبسبب من نفس التركيب، ومن هنا فقد أصاب المؤلف تبعاً للبلاغيين في أن المصدر المؤكد لفعله لا يولد جناساً، بل يولد توكيداً، من نحو: "كلم تكليماً، وسلم تسليماً"، في قوله تعالى: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" (سورة النساء: ١٦٤)، وفي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (سورة الأحزاب: ٥٦)، وقول المهلهل الذي نقله المؤلف^(٣):

يأئها الجاني على قومه جناية ليس لها بالمطيق

ولكنه استثنى المصدر المبين لنوع فعله، فأدخله ضمن الجنس، وتحقيقه أن اللفظ المبين لنوع فعله له مغايرة في المعنى لفعله، ولنقل تخصيصاً لفعله، فهذا التخصيص أو المغايرة بمنزلة المعنى الثاني المخالف للمعنى الأول مع اتحاد اللفظين، من مثل قوله عز وجل: "ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر" (سورة القمر: ٤١ و٤٢)، فأخذ العزيز المقتدر غير أخذ الدليل المحقق، وغير أخذ البشر^(٤)، والذي نراه أن هذا النوع لا يختلف عن المصدر المؤكد لفعله، إذ لا يمكن عده من الجنس؛ لأن اللفظ متولد عن سابقه كالمشكلة، وآت في سياق نفس التركيب ذي الدلالة المتصلة، كالمضاف والمضاف إليه، وإن قيد الجنس التام لفظان أحدهما حقيقي والآخر مجازي، ومن الممكن أن يكونا حقيقيين كالمشترك اللفظي، إذا صيغ جناساً، والمعلوم أن المصدر المبين لنوع فعله خارج عن دائرة المشترك اللفظي؛ لكونه مشتقاً من لفظ فعله، فأنحصر كون الجنس فيه ينبغي أن يكون من لفظين أحدهما حقيقي والآخر مجازي، وهذا غير متحقق في هذا التركيب؛ لجهة الاشتقاق؛ ولكون الإسناد لضمير المتكلمين مشعراً بالفعل الصادر، فجهة التكلم في "أخذناهم"، هي الباري عز وجل وهو القدرة المطلقة، فلا بد أن يكون الأخذ متميزاً، بما يتناسب وقدرة المتكلم التي تقدمت بالإشارة، فبيان نوع الفعل لا يخلو من توكيد، فلا جناس إذاً.

(١) علم البديع: د. بسيوني : ٢٣٥.

(٢) البديع، تأصيل وتجديد: ٧٦.

(٣) ظ: م.ن: ٧٩.

(٤) ظ: م.ن.

أما الجنس الناقص، فإنه توسّع في مفهوم الجنس، وتوظيفاً للجانب الصوتي في أنواعه التي صنّفت إليه، فإن ابن المعتز ذهب إلى أنّ المجانسة هو أن تشبه الكلمة أختها في الحروف على السبيل التي ألف الأصمعي كتابه الأجناس عليها^(١)، فالأصل هو الجنس التام، أما الجنس الناقص فهو إلحاق الكلمة بأختها على أي نحو من التقارب، ونستطيع أن نسميه إيهام الجنس، إذ إنّ عبد القاهر كان مدركاً تماماً لأنّ ما يؤول إليه الجنس الناقص هو الإيهام، بمعنى أنّ المتكلم يوهّم السامع أنّه سيجانس، ولكنه يعدّل مسار الصياغة نحو المغايرة بعد أن يستوفي مراده من الإيهام بعد مطابقة جزء اللفظة اللاحقة لتمام اللفظة السابقة، محققاً لفت الانتباه لدى المستمع والدهشة التي تفجّؤه من انقلاب الصياغة، فمن تعليقه على بيت أبي تمام :

يَمْثُلُونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمِ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ^(٢)

" وذلك أنّك تتوهّم قبل أن يردّ عليك آخر الكلمة، كالميم من (عواصم)، والباء من (قواضب)، أنّها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية، وتعود إليك مؤكّدة، حتى إذا تمكّن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، ووصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنّه رأس مال"^(٣)، فالأمثلة التي من هذا القبيل كالصّوادي و الصّوادف، ومطاعين ومطاعيم، وحامي وحامل... من هذا القبيل، والملاحظ أنّ الجنس التام المستوفي استأثر باهتمام عبد القاهر حتى جعله من حلى الشعر ومعدوداً في البديع، لمقام الفائدة، دون محض التكرار الذي تنطوي عليه بعض أنواعه^(٤)، كما أنّ عبد القاهر قد رصد المسافة الذهنية للتوهّم، وتحدّد بمقدار الارتباط الذي يحدثه المتكلم بين اللفظين المتجانسين على هذا النحو، فجعلهما ضربين، الأول، المستحكم في تصوّر الانطباق كالتام، والثاني، المقارب^(٥)، وقد حاول المؤلّف أن يحدّد الجنس الناقص، فعرفه بأنّه "مقطعان صوتيان مختلفان في الإيقاع مختلفان في المدلول"^(٦)، فهذا التعريف لا تنطبق عليه الشروط المنطقية المحدّدة، وهي الجامعية والمانعية، فالحّد هو "الحاجز بين الشينين الذي يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر... وحدّ الشيء، الوصف المحيط بمعناه المميّز له عن غيره"^(٧)، فالعموم ملقّ بأفئائه على صفحة التعريف، فاللفظان المختلفان المتقاربان في المخارج

(١) البديع : ١٠٧ و ١٠٨.

(٢) شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٢٨٢/١، و ظ: أسرار البلاغة، ١٥.

(٣) أسرار البلاغة: ١٥ و ١٦.

(٤) ظ: م.ن: ٧-١٠.

(٥) ظ: م.ن: ١٦.

(٦) البديع، تأصيل وتجديد: ٧٦.

(٧) المفردات في غريب القرآن: ١١٤.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

يدخلان في هذا الحدّ، ثمّ ما هي درجة اختلاف الإيقاع؟، علماً أنّ شرطَ الجنس هو التوافق الإيقاعي بين اللفظين، وبمقدار اختلاف درجة الإيقاع، قوّة وضعفاً، يتحدّد نوع الجنس، تامّاً أو ناقصاً، لذلك نجد أنّ هذا التعريف قاصرٌ عن الغاية التي يرومها.

٨- استعرض المؤلّف كعادته أقوال القدماء حول "المشاكلة"، فأسهب في استقصائها، فكانت الاصطلاحات متداخلة، ومتشابكة بين الترديد والتصدير، أو ردّ الأعجاز على الصدور، والمقابلة، والمزاوجة، كما ذكر، فلم يتعرّض لبيان المائز بين هذه المصطلحات، وفكّ بعضها عن بعض حتى يخالها القارئ نمطاً واحداً متّحداً، بل إنّه زادها إبهاماً في جملة تعقيباته التي يذيلها عقيب استعراض أقوال القدماء، إذ جعل حدّها الاصطلاحي يسبح في أفق العموم كعادته، فجعلها كلمة " تتردّد في العبارة مرتّين، مع إمكان استبدالها في المرّة الثانية بغيرها، التي تؤدّي معناها نفسه... "(١)، فتكرّر اللفظة أو الكلمة مرتّين مع قيد إمكان الاستبدال، يدخل فيها الجنس التامّ، وردّ الأعجاز على الصدور، والتعطّف، فلم يذكر مائزاً يخصّص المشاكلة، ويخرج غيرها منها، مع ملاحظة أنّ اللفظة المشاكلة تأتي عقب أختها السابقة مباشرة، دون فصلٍ كبير، بما يشعر بالتولّد عنها، وهذا في نظرنا المائز الأساس للمشاكلة عن ما يوافقها في هذا التكرّر.

٩- وقع المؤلّف في خطأ واضح لما نسب للزمخشري إشارته إلى نمطٍ من المشاكلة قائماً على إطلاق (٢) الجواب على السؤال، ونعته الزمخشريّ، حسب فهم المؤلّف، بـ "فنّ من كلامهم بديعٌ وطرارٌ عجيب"، ومثّل له - المؤلّف-، بقول السائل معرّضاً ببخله: أكرمتَ ضيفك؟ فيشاكله المجيب، إنّي أكرّمُ الناس جميعاً (٣)، وبمراجعة كلام الزمخشريّ، يجده يتكلّم عن عموم فنّ المشاكلة، لا خصوص إطباق السؤال على الجواب، وذلك في معرض شرحه لقوله سبحانه تعالى: " إنّ الله لا يستحي أن يُضرب مثلاً ما بغوضةً فما فوقها" (سورة البقرة: من الآية: ٢٦)، إذ يقول: " وكذلك معنى قوله (إنّ الله لا يستحي)، أي: لا يترك ضرب المثل بالعوضة، ترك من يستحي أن يتمثّل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي ربّ محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديعٌ وطرارٌ عجيب، منه قول أبي تمام: من مبلغ أفناء يعرب كلّها أني بنيت الجار قبل المنزل (٤)

(١) البديع، تأصيل وتجديد: ١٠١.

(٢) في أصل كلام الزمخشري، إطباق لا إطلاق، كما سطره المؤلّف، وكما سنورده من كلام الزمخشري.

(٣) البديع، تأصيل وتجديد: ١٠١.

(٤) ظ: شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٢٦٩/٢، وفيه: ابتنيث، بدلاً من بنيث، وفي هامشه أورد المحقّق تعليقاً عليه، عن أبي العلاء، قال: " جعل الجار يبتني كما تبتني الدار، وهذا مجانس لقوله تعالى: " ومكروا ومكر الله؛ " لآته جعل جزء مكرهم على المكر مكرأ.... وذلك مثل قولهم للرجل إذا راوه يخطئ ثوبه وقد انهدم له بيت: خياطة بيتك أوجب من خياطة ثوبك... ومثل هذا كثير. يُستعار للشيء المقارب غيره فيُنقل إلى ما يقاربه..." ظ: هامش (١) ص ٢٦٩، وهذا بعينه حدّ المشاكلة الذي ذكرناه.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وشهد رجلٌ عند شريح فقال: إنَّكَ لسبَّطُ الشهادة، فقال الرجل: إنَّها لم تجعد عني، فقال الله بلادك! وقبل شهادته، فالذي سوَّغ بناء الجار، وتجعيد الشهادة هو مراعاةُ المشكلة، ولولا بناء الدار لم يصحَّ بناء الجار، وسبوطُ الشهادة لامتنع تجعيدها، والله درُّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدِّ مدارجه..^(١)، فإنَّ المتصفح لكلام الزمخشري يجده يتحدث عن عموم المشكلة، وإنَّها فنُّ أصيل في كلام العرب، وزادها القرآن براعةً لما جاء على نحو سياقها، أمَّا إطباق الجواب على السؤال فلا خصوصيةً له، كما استفادَه المؤلف.

وقد تُعكس المشكلة، فتأتي اللفظة المشكلة متقدمة، وحقها التأخر، كالقول المنقول عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): "ما فُتِح لأحدٍ منكم باب دعاء إلا فُتِح له فيه باب إجابة، فإذا فُتِح لأحدكم باب الدعاء فليجتهد فإنَّ الله لا يملُّ حتى تملُّوا"^(٢)، فالأصل في التركيب: إن تملُّوا فإنَّ الله لا يملُّ، فملُّ الله الكفُّ عن ثوابه وجزائه المعلق بالعمل، إذا لم يتفضل ابتداءً، وملل عباده السأم والتضجر، ولا يصحُّ إطلاق اللفظ بهذا المعنى على الباري عزَّ وجلَّ، وإنما أطلق لمشاكلته حال عباده مع المغايرة في المعنى، فالملاحظ أنَّ ثمَّ سبقاً ذهنياً رصد الصياغة، ورصد الواقع الذهني للمتكلِّم، وأسَّس عليه، وهو من منتهى البلاغة، وعلى الرِّغم من أنَّ المؤلف أورد هذا المثال "الأنموذج"^(٣) إلا إنَّه لم يُشر لظاهرة العكس الواردة فيه.

١٠- أشار المؤلف في حقل الطباق إلى نوع منه، نقلَ تسميته عن الدكتور شوقي ضيف، ولم يعلِّق على أصل تسميته، وهو "طباق الذاكرة"^(٤)، فالأسود يستدعي الأبيض، والسماء تستدعي الأرض، وهكذا، وفي الحقيقة فإنَّ هذا الطباق هو مقتضى المعنى الضدِّي الذي يكتنزه الطباق في داخله من تقابل الضدَّين، والضدُّ بالضرورة يستدعي الضدَّ، للمقابلة والتناظر، فالضدَّان هما "الشيئان اللذان تحت جنسٍ واحدٍ، وينافي كلُّ واحدٍ منهما الآخر في أوصافه الخاصة، وبينهما أبعد البعد...والضدُّ هو أحد المتقابلات، فإنَّ المتقابلين، هما الشيئان المختلفان للذات، وكلُّ واحدٍ قبالة الآخر ولا يجتمعان في شيءٍ واحدٍ..."^(٥)، وهذا التعالق التقابلي بين الأضداد يكونُ داعماً للإيقاع، من خلال الإيحاء بالتوازي الدلالي الذي يُحدثه، بل إنَّ للتركيب التقابلي أثراً في الوظيفة الإقناعية للخطاب من خلال تحقيقه لإدراك المطلوب بسهولة ويُسر، وخصوصاً إذا ما تجاوزت المتقابلات وضُمَّت لبعضها^(٦)، فالتسمية والأثر ليسا بجديدين.

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: ١ / ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٢) ظ: وسائل الشيعة: ٢٨ / ٧، ويُنظر: صحيح بخاري: ١٦/١.

(٣) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ١٠٢.

(٤) ظ: م.ن: ١١٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٣٠٤.

(٦) ظ: بنية الخطبة في نهج البلاغة: ١٢٨ وما بعدها.

١١- اشتمل حقل المبالغة الذي أورده المؤلف على جملة نقاط منهجية ارتأينا تبويبها كالآتي:

أ- نقل المؤلف عن ابن عباس عدم تصريحه بمصطلح المبالغة، ومفهومها، إنما شرح معناها بما يدخل في معنى المبالغة، " يقول ابن عباس في قوله تعالى: " قولٌ معروفٌ ومَغْفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىٌ والله غنيٌ حلِيمٌ " (سورة البقرة: الآية ٢٦٣) " الغني: الذي كمل في غناه، والحليم، الذي: كمل في حلمه"^(١)، فيعلق المؤلف بقوله: "إنما شرح معناها بما يدخل في معنى المبالغة بأدقّ تعبير، وهو بلوغ الغاية والكمال في الأمر"^(٢)، وفي الحقيقة نجدُ تكلفاً في حمل كلام ابن عباس على ما يدخل في المبالغة، بمعناها المعروف، فإنّ بلوغ الشيء كماله في الغنى والحلم هو غايةُ الخلق، وهو أمر داخل في الإمكان الوجودي، ولا تتطرق له الاستحالة، وبحسب نسبته إلى المتّصف به، فهو أمرٌ مدرَكٌ محاطٌ بالعلم، أمّا المبالغة، فهي الإفراط بالشيء على نحو تصعب الإحاطة به علماً وعملاً، وهي المبحوث عنها في البديع والشعر، أمّا نسبة المبالغة للتكثير في الفعل بمعنى صدوره على نحو الكثرة والتكرّر، حسب ما أفاده سيبويه (١٨٠هـ)^(٣) والأخفش الأوسط (٢١٥هـ)^(٤)، فهي الحدّ الطبيعيّ لصدور الفعل، فلا مبالغة بالمعنى الفنيّ لها.

ب- نقل المؤلف عن ابن جني (ت٣٩٢هـ)، أنّ الزيادة في المبنى تقتضي الزيادة في المعنى " فإذا أرادوا المبالغة في جمالٍ ووضاءٍ رجل، قالوا: وُضَاءٌ، وجُمَالٌ، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة؛ لزيادة معناه"^(٥)، وفي الحقيقة هذه القاعدة اطّردت في كتب اللغة، ولكنها غير مطّردة في منطق اللغة؛ لأنّ القاعدة إذا شدّ عنها أحد أفرادها انخرمت، فكيف إذا شدّ عنها جملة من أفرادها؟، وذلك من نحو كلمة: حذر فإنّها مبالغة اسم الفاعل حاذر، فالمبالغة حصلت بالنقص لا بالزيادة، فضلاً عن التفاوت في المبالغة بين نفسٍ صيغ المبالغة، كـ " فَعُولٌ، وفَعْلَانٌ، وفَعِلٌ " ونحوها، فصبر أكثر مبالغةً من صبور، على حين تحقّقت الزيادة في الثاني، وكذا غضبان، وغضيب.

ت- أخطأ المؤلف في عدّ السيّدين الشريفين، المرتضى والرّضي، معتزليّين، وعلى طريقة المعتزلة، ومتتلمذين على رأسها في الاعتزال، وهو القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥هـ)، ذكر ذلك في غير مورد^(٦)، بل عدّ الشريف الرضي معتزلياً شيعياً، فجمع له المذهبين، وفي الحقيقة أنّ الشواهد التاريخيّة، والواقعيّة، تذهب إلى

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، محمد بن جرير الطبري: ٨٩ / ٣.

(٢) البديع، تاصيل وتجديد: ١٢٣.

(٣) ظ: الكتاب: ٨٣ / ٤.

(٤) ظ: معاني القرآن: ١٤٦ / ١.

(٥) ظ: البديع، تاصيل وتجديد: ١٣٦.

(٦) ظ: م.ن: ص ١٣٤ هامش (٤)، و ١٣٧، ١٧٨.٢٦٠.

خلاف ذلك تماماً، وفي تقديرنا أنّ الشبهة جاءت للمؤلف من عدّة روافد، منها تأثره بأحمد أمين الذي نسب ذلك للسيد المرتضى كما في ظهر الإسلام^(١)، والثاني ما كتبه الدكتور عبد الرزاق محي الدين حول السيد المرتضى، وهي أطروحته للدكتوراه الموسومة، بـ"أدب المرتضى من سيرته وآثاره، التي نوقشت في كلية الآداب جامعة القاهرة بتاريخ ١٢/٤/١٩٥٦م، وهو الآخر قد تأثر بما جاءه عن أحمد أمين في ظهر الإسلام^(٢)، وهذا الخلط إنّما جاء من الأوائل، في عدّهم الاعتزال رفضاً وتشيعاً^(٣)، إذ نقل ابن حجر عن ابن حزم أنّه كان معتزلياً إمامياً^(٤)، وهذا اشتباه واضح ويمكن دفعه بأمور:

- ١- لم ينقل واحدٌ من المؤرخين تتلمذ الشريفين الرضيين على يد القاضي عبد الجبار المعتزلي، بل المتواتر المستفيض هو تتلمذهما منذ نعومة أظفارهما على الشيخ أبي عبد الله ابن المعلم محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣هـ)، ولذلك قصّة مشهورة نقلها غير واحدٍ من المؤرخين، منهم ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج البلاغة^(٥)، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٦)، وتقلّد الشريف المرتضى زعامة مذهب الإمامية، ومقالات المرجعية، وعمره آنذاك سبعة وعشرون عاماً، لما تميّز به من نباهة فذة، وذكاء وقاد، وإحاطة بعلوم الشريعة وسنة النبي وأهل بيته، عليهم السلام، في وقت مبكرٍ أهّلته لتسنّم هذا المقام الرفيع.
- ٢- يذهب كلّ من الإمامية والمعتزلة إلى حجية العقل، واعتباره مصدراً أساساً في تحصيل العلم بالأشياء^(٧)، إذ هو السبيل إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار^(٨)، فكانت نتائج وثمار الجهد العقلي متقاربة في العقائد، مع التباين في جملة منها ممّا سنذكره، وهو ما حمل البعض على نسبة كثير من زعماء الشيعة إلى الاعتزال.
- ٣- ذكر غير واحدٍ من المؤرخين والكتاب، أنّ للشريف المرتضى مؤلفاتٍ على مذهب الشيعة، ولم ينبزوه بالاعتزال، وبعضهم من المتحاملين على الشيعة، كالذهبي، إذ يذكر صاحب كشف الظنون في ترجمته، "قلت: قال ابن شعبة في تاريخه، تاريخ الإسلام، قال الذهبي: وللشريف المرتضى مصنّفات جمّة على مذهب الشيعة، وهو أخو الشريف الرضي وكلّ منهما رافضي"^(٩)، وممّن ذكر ذلك أيضاً ابن خلّكان^(١٠)،

(١) ظ: ظهر الإسلام : ٤٠/٢.

(٢) ظ: هكذا رأيتهم، د. محمد حسين الصغير: ١٠٨ و ١١٠.

(٣) ظ: لسان الميزان، لابن حجر: ٢٧٤/٤.

(٤) ظ: م.ن.

(٥) ظ: شرح نهج البلاغة: ٤١/١.

(٦) ظ: لسان الميزان، لابن حجر: ٢٧٤ / ٤، ونقل فيه تتلمذهما على الشيخ المفيد.

(٧) ظ: هكذا رأيتهم: ١١٠ و ١١١.

(٨) ظ: كنز الفوائد: لأبي الفتح الكراجكي (ت ٤٩٩هـ): ١٨٦.

(٩) كشف الظنون: حاجي خليفة: ٧٩٤/١، ويُنظر: معجم المطبوعات العربية، إيلان سركيس: ١١٢٤/١، في ترجمة السيد المرتضى.

(١٠) ظ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣١٣/٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

والذهبي - أيضاً- في تاريخ الإسلام، وذكر أنّ فيه تظاهراً بالاعتزال، وفي هذه العبارة إيماءة بعدم صحة الزعم بالنسبة للاعتزال، وربما دعت له الظروف السياسية آنذاك^(١).

٤- لم يُذكر في مؤلفات الشريف المرتضى أنّ له مصنّفات على مذهب الاعتزال، وفي الانتصار لمقولاتهم، مع كثرة خصومهم، وتوفّر المقتضي للدفاع والردّ في ذلك الوقت الذي كان يتميّز بالاحتدام والجدال الفكري، بل على العكس من ذلك فإننا نجد أنّ للشريف المرتضى عدّة مؤلفات في الردّ على المعتزلة، ودفع مقولاتهم في جملة من المسائل، وبالأخصّ في الردّ على زعيمهم، الذي صيّروه استاذاً له، ونقض كثيراً ممّا أبرم، ومن ذلك كتابه "الشافى في الإمامة"، و"تنزيه الأنبياء" وكتاب "الموضح عن جهة إعجاز القرآن"، الذي أشار إليه في كتابه الذخيرة، قائلاً: "وهذا ممّا اعتقده صاحب الكتاب المعروف بـ"المغني"، ونقضناه عليه في كتابنا الموسوم بـ"الموضح عن جهة إعجاز القرآن"^(٢)، فمن المعلوم أنّ كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل هو من مؤلفات القاضي عبد الجبار المعتزلي^(٣)، والسيد المرتضى يُصرّح بالنقض عليه، والطريف أنّ ذكره للقاضي جاء عارياً عن أبسط مراسم التبجيل والتعظيم المتعارفة بين العلماء، فضلاً عن أن تأتي في سياق ذكر التلميذ لأستاذه، الذي يقتضي مزيداً من الأدب والرعاية، وحفظ الألقاب، وهذا ما يؤكّد عدم تتلمذه عليه ولا يوماً واحداً.

٥- يصرّح السيد المرتضى في كتبه أنّ "أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام وخطبه، وإنّها تتضمّن من ذلك ما لا مزيد عليه، ولا غاية وراءه، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه، علم أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعد في تصنيفه وجمعه، إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول ... وروي عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام من ذلك ما لا يكاد يُحاط به كثرةً، ومن أحبّ الوقوف عليه وطلبه من مظانّه أصاب منه الكثير الغزير، الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة، ونتاج للعقول العقيمة"^(٤)، ومن هذه الأصول تفرّعت عقائد قال بها الشيعة، وخالفهم فيها المعتزلة، كعصمة الأئمة، ومسألة تعلّق العلم بالمعدوم، بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ يعلم الشيء الذي لم يكن، لو كان كيف يكون، بمقتضى آيات كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: "ولو رُدُّ لعادوا لما نُهوا عنه" (سورة الأنعام: من الآية: ٢٨) الذي قال به الشيعة^(٥) ورفضته المعتزلة على أحد زعمائها، ومسألة الجبر والاختيار، ومسألة الإمامة، ومسألة الشفاعة، ومبدأ الإحباط، بمعنى أنّ الطاعات السابقة على

(١) ظ: تاريخ الاسلام للذهبي: ٣٣/٢٩.

(٢) الذخيرة: ٣٧٨ و٣٨٨.

(٣) ظ: الأعلام، لخير الدين الزركلي: ٢٧٣/٣.

(٤) أمالي المرتضى: ١٠٣/١.

(٥) ظ: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني: ١٤٣.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المعاصي يسقط منها بمقدار المعاصي، وتبقى المعاصي على حالها، فمن أطاع عشرين مرة وعصى عشر مرات، يسقط من طاعته بمقدار معاصيه، وتبقى معاصيه على حالها، ولو زادت معاصيه على طاعته تذهب طاعته بكاملها، ولهم في ذلك قول آخر^(١)، وأنكره الإمامية لقوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (سورة الزلزلة، الآية: ٧ و٨)، إلى غير ذلك من المقولات المخالفة لما عليه الإمامية، والمبسوطة في الكتب المختصة^(٢)، فتأصيل هذه الأصول والاعتقادات مبثوث في كتب السيد المرتضى، على حين لا تجد إشارة إلى الدفاع عن مبدأ المنزلة بين المنزلتين أو الوعد والوعيد، وغيرها من أصول المعتزلة، في شيء من كتبه، وسنكتفي بهذا المقدار من ردّ هذا الاشتباه، إذ إنّ له مظانّه التي استقصت ذلك بالدراسة والتتبع.

ث- نقل المؤلف عن الزمخشري قولاً حول صيغ المبالغة، وسلّم له، مع ملاحظة أنّه غير تامّ الدلالة^(٣)، يقول الزمخشري: "الرحمن فيها من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ لذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون أنّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى"^(٤)، وقد تقرّر سابقاً أنّ قاعدة زيادة المبنى تقتضي زيادة المعنى غير مطّردة، وأنّ الاستدلال، بالقول: رحمن الدنيا والآخرة، يدل على السعة والشمول، للرحمن، على حين رحيم الدنيا خلاف ذلك، مردود؛ لأنّه وردّ العطف على الرحمن بالرحيم مع هذه الإضافة، إذ جاء في الدعاء: "رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما"^(٥)، وقيل، الرحمن لعموم الناس، والوجودات، والرحيم لخصوص المؤمنين، ولكنّه مردود أيضاً بصريح القرآن الكريم: "إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ" (سورة البقرة: من الآية ١٤٣)، "مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ" (سورة إبراهيم: من الآية ٣٦)، والمستفاد أنّ الرحمن تدلّ على عموم الرحمة، فلا يُقال إنّ الله بالناس أو بالمؤمنين لرحمن، بل: لرحيم، فهي صفة مختصة بالله تعالى، وبمنزلة اللقب له تعالى، والفارق بين

(١) ظ: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ٢١٤-٢١٦.
(٢) للتفصيل في عقائد المعتزلة، وبيان اختلافها الجذري عن عقائد الشيعة، وبيان السبق الزمني للشيعة ومقولاته العقائدية، على الاعتزال ومقولاته، المتأخّرة زمنياً، نحيل على كتاب الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، للبحاثة والمؤرخ الإسلامي، هاشم معروف الحسني، المذكور سابقاً، فقد استقصى القول في المقولات العقائدية لأبرز الفرق الإسلامية، وهي الشيعة والمعتزلة والأشاعرة، مع إثبات أنّ الإمامية مستقلّون في تفكيرهم وآرائهم استقلالاً كاملاً في جميع الأدوار والمراحل، التي مرّوا بها، وأنّ الاختلاف مع المعتزلة اختلاف في كبريات المسائل الاعتقادية، فليست الشيعة من المعتزلة في شيء، ولا هم منهم في شيء، إلا ما كان بينهما من الاعتداد بالعقل كما أشرنا....

(٣) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ١٦١.
(٤) الكشف: ٤١/١.
(٥) ظ: الصنف لابن أبي شيبة: ٩٧/٧، والمعجم الكبير للطبراني: ٢٠/١٥٥ و ١٥٩، ومجمع الزوائد، للهيثمي: ١/١٨٥، جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي: ٦/٢٠٦، ١٤٥، ٢٠٩/٧ و ٢٧٢، و ٢٩٤/١١، و ٣٤١/١٨، والصحيفة السجادية، دعاؤه (عليه السلام) في استكشاف الهموم، ووسائل الشيعة: ٨/، ٨٦، و ٤١٧/٩، و ٣٣٦.

الصفحتين: أن الرحيم يدلُّ على لزوم الرحمة للذات، وعدم انفكاكها عنها، والرحمن يدلُّ على ثبوت الرحمة فقط^(١).

١٢- بالغ المؤلف في غير ما مورد في نسبة تأثر قدامة بالثقافة اليونانية^(٢)، حتى كأنه طالبٌ دحلٍ، ولسنا بصدد بحث هذا الأمر، فقد تقدّم منا الكلام في ذلك مجملًا، في الفصل الثاني من هذه الطوايا، ولكنّ اللافت للنظر أن المؤلف - مع حملاته تلك- ينقل تبرئة الدكتور عبد الرحمن بدوي لقدامة من تأثره بالفكر اليوناني، وبكتابي أرسطو "فن الشعر" و"فن الخطابة" خاصة، والتي يُثبتها الباحث الغربي بونبكار Bon bakkar ! الذي يرى أن قدامة لم يتأثر بأي من كتابي أرسطو، بل المتأثر الحقيقي هو حازم القرطاجني (٦٨٤هـ)، إذ هو أول من أدخل نظريات أرسطو وطبقها على البلاغة العربية^(٣)، وإذا قبلنا تبرئة بونبكار لقدامة، فإننا نتحفّظ على اعتبار حازم مطبقاً لمبادئ البلاغة الأرسطية على البلاغة العربية، لسبب بسيط هو أن التراث البلاغي العربي الذي وصل إلى حازم في حدود القرن السابع الهجري كان قد قطع أشواطاً من التنظير والنظر في النصوص البلاغية العربية على اختلاف مستوياتها البلاغية، ابتداءً من القرآن الكريم مروراً بالنصوص البلاغية العالية كالحديث النبوي، وإن كان الاستشهاد به محدوداً وضئيلاً لا يتناسب وحضوره الثقافي ضمن الوسط الإسلامي، ثم نصوص وخطابات الإمام علي (عليه السلام)، التي نجد لها حضوراً في كتاب الطراز العلوي خصوصاً، ولو قارنا الملاحظات التي ذكرها أرسطو في كتابه الخطابة، وفي باب العبارة خصوصاً، الذي يعتبره المثبتون للتأثر الأساس في تطبع البلاغة العربية بطابع اليونانية، لوجدنا أن نسبة ما طرحه البلاغيون واللغويون العرب من تفاصيل في الاستعارة، والتشبيه، والمجاز، والبدیع، والربط، والتناسب، وتطابق المقام والحال للمقال، وغيرها هي نسبة الربع على أكثر مقدار، مع ملاحظة بساطة ووضوح المفاهيم التي طرحها أرسطو بسبب من أمثلتها التي ساقها، مقارنة بالأمثلة الشعرية والخطابية العربية، التي تحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر لكشف بناها التركيبية، والتفتيش عن صورها الداخلية المتسقة في نظام من الدفائن الأسلوبية، كالتورية والكناية، والمجاز العقلي، والتشبيه التمثيلي، ونحوها، كما هو واضح للمتأمل.

١٣- لم نجد لأراء صاحب الطراز، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)، شيئاً يذكر في عموم دراسة المؤلف، على الرغم من عنايته الشديدة بجانب التأصيل، حتى غلب هذا الجانب على الدراسة، فكانت متمحّزةً للتأصيل، وليس للتجديد، إلا التعقيب، فتجد في المسألة الواحدة تتواتر عليك مختلف الآراء، للعديد من

(١) ظ: البيان في تفسير القرآن، السيد الخوني: ٤٣٠ و ٤٣١.

(٢) ظ: البديع، تأصيل وتجديد: ٣٦ و ١٤٦.

(٣) ظ: م.ن: هامش (٢) صفحة ١٤٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الشخصيات البلاغية والنحوية واللغوية، والمفسرين والصحابة...، فلماذا يا ترى هذا الإغفال لأفكار هذه الشخصية البلاغية، التي تميزت بطرح جملة من الأفكار والشواهد المتقدمة في البلاغة العربية؟.

١٤- وآخر ما يمكن تسجيله على هذه الدراسة، وارتأينا تأخيرَه؛ لارتباطه بمسائل عامة ترتبط بالتأريخ، وتصحيح المعلومة التاريخية المغلوطة، وخصوصاً ممّن لا يُعذر، وهو من ارتبط بالبحث، والتدقيق، والتمحيص، من رجالات القلم، وأرباب الأدب والفهم، دون الغرّ الضعيف، ممّن لا تستقيم سليقته في تدقيق ما يتلقّى، وتمحيص ما يتنقّى، وهذا الآخر، هو ما استعرضه المؤلف ضمن عنوان (الوفاء بالمعنى والإيقاع بين المتجانسين)^(١)، فعلى الرغم من كون دراسته ابنتيت على لحظ أثر الإيقاع في تنظيم التراكيب البديعية وصياغتها، إلا إنّنا نجده متعجلاً في طرحه لهذا الجانب ومقتضياً له، مولياً وجهته إلى دراسة لاحقة بعنوان البديع (في شعر شوقي)^(٢)، ومقتضى المنهج لا يعذره في ذلك؛ لأنّ الدراسة لأبد أن تستوفي دعواها، ولكنّ الباحث لَمّا.

قد ذكر المؤلف ثلاث آيات تناول فيها هذا العنوان، وحديثنا يخصّ الآية الثالثة منهنّ، فيما تناولها بمنزلة الشاهد على الجنس الناقص الذي يُحقّق فيه الإيقاع وفاءً بالمعنى، وهي قوله تعالى: "وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" (سورة الأنعام، الآية ٢٦)، وسننقل ما نقله المؤلف عن القرطبي حول هذه الآية، ونتناول ما وقع فيه المؤلف من غرابة منهجية، قال: "حكى القرطبي في تفسير هذه الآية، أنّ النهي هو الزجر، والنأي: البعد عن ابن عباس والحسن، وقيل: هو خاصّ بأبي طالب ينهى الكفار عن أذية محمّد صلى الله عليه وسلّم، ويتباعد عن الإيمان به، عن ابن عباس أيضاً. وروى أهل السير قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يُصلّي، فلمّا دخل في الصلّاة قال أبو جهل لعنه الله -: من يقوم إلى هذا الرجل فيُفسد عليه صلاته؟، فقام ابن الزبير فأخذ فرثاً ودماً فطخ به وجه النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فانفتل النبيّ صلى الله عليه وسلّم من صلاته، ثمّ أتى أبا طالب عمّه فقال: (يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي) فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: عبد الله بن الزبير، فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلمّا رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل جلّلته بسيفي ففعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بُنيّ من الفاعل بك هذا؟ فقال: (عبد الله بن الزبير)، فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً فطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) فقال النبيّ

(١) ظ: البديع تأصيل وتجديد: ٨٦.

(٢) ظ: م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

صَلَّى الله عليه وسلم: (يا عم نزلت فيك آية) قال: وما هي؟ قال: (تمنع قريشاً أن تؤذيني وتأتى أن تؤمن بي) فقال أبو طالب:

والله لئن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا... إلخ^(١)، ونود ههنا إيراد كلام المؤلف على الرغم من طوله؛ لنوضح نقاط الاضطراب المنهجية فيه، وغرابة ما يفيضه قلم الهوى من الحيد عن الموضوعية، يقول معلقاً على ما أورده من نص القرطبي: "والجناس في هذه الآية الكريمة بين "ينهون" و"ينأون"، وهما مقطعان صوتيان غير تامين، ومختلفان في المعنى، ونلاحظ أن الجار والمجرور المتعلق بالفعلين واحد، وهو "عنه" أي أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يحدث له النهي عنه، والنأي عنه، والنهي أمر بالابتعاد بالقول، والنأي ابتعاد بالفعل والجسد، والنهي أمر يصدر إلى الآخرين من الكفار، والنأي أمر يصدر من الكفار إلى أنفسهم، والنهي قول بلا قدرة، والنأي، قدرة احتوت قولاً، وإيقاع النهي قريب جداً من النأي؛ لأنهما كانا يحدثان في وقت واحد، وهم مصدر النهي والنأي، وهو صلوات الله عليه وسلامه مصب النهي والنأي؛ لذا جاء الإيقاع قريباً، وجاء الاختلاف في حرفين يخرجان من الحنجرة وكأنهما فعلا يصدران عن شيء واحد، كما يصدر النهي والنأي عن أبي طالب وأمثاله! ثم يكون النهي أخص من النأي؛ لأنه قول بلا فعل، ويأتي النأي أعظم؛ لأنه فعل يترجم قولاً، ونلاحظ أن الجملة الأولى قد اشتملت على المسند إليه "هم"، والمسند "ينهون"، والقيد "عنه"، بينما حذف المسند إليه من الجملة الأخرى، وبقي المسند "ينأون" وبقي القيد "عنه"؛ لأنه صلوات الله عليه وسلامه أهم منه وأجل، ثم نلاحظ الازدواج أي اتفاق إيقاع جملتين متتاليتين، "ينهون عنه وينأون عنه"، واتحاد الإيقاع يوحي بأن الفعلين كانا يصدران بنفس القوة والعنف والغل، وب نفس الدرجة من الهمجية؛ ولذا جاء الجنس؛ لأنهما فعلا من جنس واحد هو الحقد الأسود، جاء الجنس ناقصاً وما كان يصلح إلا أن يأتي ناقصاً للوفاء بالمعنى والوفاء بالإيقاع بلا تكلف^(٢).

فخلاصة هذا التطويل هو توافق الإيقاع الناتج من قرب المخرج، والمحقق للجناس الناقص، وحال الكفار في النهي والنأي، والملاحظ أن المؤلف في كلامه قد أثبت كون الصادر عن الكفار حالاً مركبة من النهي والنأي، أي أنهم ينهون بالقول وينأون بالفعل، فكلاهما صادر عنهم على التوافق والتوازي لا التضاد، وهذا كلام مستقيم وصحيح وخصوصاً إذا لاحظنا السياق الذي جاء فيه هذا المقطع القرآني، فإنه يتحدث عن المجادلة والمحااجة والخصومة واللجاجة من قبل الكفار، يقول سبحانه وتعالى: "ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين*

(١) البديع تأصيل وتجديد: ٨٦ و ٨٧.

(٢) م.ن: ٨٨ و ٨٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" (سورة الأنعام، الآية ٢٥ و ٢٦) ، فالسياق يصفُ الكفار الذين حالهم المجادلة والمعادنة والخصومة واللجاج، الذين يصفون ما صدر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأساطير الأولين، وهذا هو التوجيه الصحيح للمقطع القرآني، فجاءت فورة القرآن الكريم منسجمة مع حالهم ووصف استكبارهم، فهم ينهون عنه الآخرون ويتعدون عنه في نفس الوقت؛ لأنهم مجادلون مخاصمون معاندون، وهذا الحال في حقيقته الواقعية والتأريخية لا ينسجم مع السيد أبي طالب عليه السلام، ومواقفه الداعمة للنبي الأكرم منذ اللحظة الأولى للقيام المحمدي حتى لفظ أنفاسه الأخيرة الزاكية، وهذا ما يظهر بوضوح من خلال الموقف الذي أثبتته المؤلف، وغيره من المواقف في القول والفعل، بل ينسجم معه ما نسبته المفسرون إلى أن الكلام في عموم الكفار، وهو القول الآخر الأقوى الذي حذفه المؤلف ولم ينقله، بل جاء بالقول الآخر المضعف بصيغة "قيل" كما هو معروف لدى أرباب الحديث، فجاء قوله ركيكاً، إذ يفهم منه أن ما نقل عن ابن عباس والحسن هو التفسير اللغوي للنهي والنأي، كما أثبتناه في نصّه السابق، وهذا في الحقيقة من غريب التدليس، ونصّ القرطبي في ذلك هو قوله: " قوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) النهي الزجر، والنأي البعد، وهو عام في جميع الكفار، أي ينهون عن اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وينأون عنه، عن ابن عباس والحسن" (١)، وهو نفسه ما جاء عن الطبري وغيره، يقول الطبري، في تأويل هذه الآية: " هؤلاء المشركون، ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم [وآله] والقبول منه، وينأون عنه: يتباعدون عنه" (٢)، ويؤيد مواقف أبي طالب عليه السلام، شعره الكثير الذي يزخر به ديوانه في نصرة الإسلام، حتى وفاته ومجيء الخطاب الإلهي إلى النبي بالهجرة: " أخرج من مكة فقد مات ناصرك" (٣)، ومنه ما أعرض المؤلف عن ذكره، إذ إن فيه علائم الإيمان الصحيح واليقين الصادق، والفداء والوفاء، وقد زيد على هذه الأبيات البيت الأخير، نكاية بأبي طالب وتعريضاً بالإمام علي عليه السلام، وهو - كما يظهر - ناشئ عن السياق العام للأبيات والحادثة التي وردت فيها، وقلق ناب عن نظامه الذي هو فيه، إذ إن الذي يصدر عنه كل ذلك، هل يبقى شيء ليخشاه، أو ملامة فيثقيها، وهو المصحح بنصرته الفادي بأولاده لابن أخيه؟، يقول:

فاصدغ بأمرِك ما عليك غضاضةً وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي فلقد (صدقت) وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤٠٥/٦.

(٢) جامع البيان: ٢٢٧/٧.

(٣) ينابيع المودة، لذوي القربى، للقدوزي الحنفي: ٤٥٥/١.

لولا الملامة أو حذارٍ مسبّة لوجدتني سمحاً بذاك يقيناً! (١)

كما أننا لو أردنا توجيه البيت الأخير لكان متساوياً مع إيمانه المتأصل غير منافٍ ليقينه، وهو أنه، لولا معرّة قريش وجبروتها لأصحرت بإيماني وأبنته، وما كتمته، إذ كان عليه السلام، ممّن يكتّم إيمانه.

ومما يؤكّد أثر السّياق في فهم هذا المقطع القرآني، فضلاً عن النصوص الخارجيّة العاضدة، ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي، من كون الضمير في المتعلّق "عنه"، راجع إلى القرآن، لا إلى الرسول صلى الله عليه وآله، مؤكّداً أنّ إجماع أهل البيت (عليهم السلام) على إيمان أبي طالب يكفي دليلاً على ذلك وإن خالفهم غيرهم؛ لأنّهم عدل القرآن والمأمور بالتمسك بهم (٢).

ولسنا بصدد الإسهاب في هذا الموضوع، بقدر ما نحنُ بصددِ تصحيح المغلوطة التاريخيّة، التي جرى عليها غير واحدٍ من الكتاب، تبعاً لمن تقدّمهم، من غير ما تمحيص أو تدبّر، مع كثرة ما كُتب في ردّ هذا الأمر الذي هو من أغرب ما جاد به التأريخ الإسلامي، في نسبة الكفر للسيد أبي طالب شيخ البطحاء بن عبد المطلب سيّد الوادي وربّ الإبل، وقد صنّفت كثيرٌ من المؤلّفات في ردّ تلك التهمة وإثبات هذه البديهة، لولا الإعراض عن مصافحة ما طرحته، ومقاربة ما سطرته، فلذلك نوصي بمتابعتها ومفاتشتها ليسفر الصّبحُ لذي عيين (٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٤٠٦ / ٦.

(٢) ظ: الميزان: ٥٧ / ٧ - ٦١.

(٣) ألّفت حول هذا الموضوع جملةً جمّة من المؤلّفات، استعرضت التهمة وبيّنت وجهها والغرض منها وردّتها بأدلة دامغة من التأريخ والشعر والوقائع، نذكر منها:

- ١ - أبو طالب عم الرسول، لمحمد كامل حسن المحملي.
- ٢ - أبو طالب مؤمن قريش، للأستاذ الأديب الشيخ عبد الله بن علي الخنيزي القطيفي المولود سنة (١٣٥٠ هـ)، مطبوع عدة مرّات حكم عليه من أجله قضاة الشرع السعوديون بالإعدام، لولا أن أنجته الصرخات التي توالى من البلدان الإسلامية.
- ٣ - إثبات إسلام أبي طالب، لمحمد معين بن محمد أمين بن طالب الله الهندي السندي التتوي الحنفي، المتوفى سنة (١١٦١ هـ).
- ٤ - أخبار أبي طالب وولده: للعلامة الحافظ أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني الأخباري (١٣٥ - ٢١٥ و قيل ٢٢٥ هـ).
- ٥ - أسنى المطالب في نجاة أبي طالب، للعلامة أحمد زيني دحلان، الفقيه الخطيب مفتي الشافعية (١٢٣٢ - ١٣٠٤ هـ).
- ٦ - إيمان أبي طالب، لأحمد بن القاسم، مات سنة (٤١١ هـ).
- ٧ - إيمان أبي طالب، للشيخ أبي الحسين أحمد بن محمد بن أحمد ابن طرخان الجرجاني الكاتب.
- ٨ - إيمان أبي طالب، للشيخ الرجالي أبي علي أحمد بن محمد بن عمار الكوفي المتوفى سنة (٣٤٦ هـ).

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

- ٩ - إيمان أبي طالب : للفقيه المتكلم السيد الجليل أبي الفضائل جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر ابن طاووس العلوي الحسيني الحلبي، المتوفى سنة (٦٧٣ هـ).
- ١٠ - إيمان أبي طالب : للشيخ المحدث أبي محمد سهل بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن سهل الديباجي البغدادي (٢٨٦ - ٣٨٠ هـ).
- ١١ - إيمان أبي طالب، لأبي نعيم علي بن حمزة البصري ، المتوفى سنة (٣٧٥ هـ).
- ١٢ - إيمان أبي طالب وأحواله وأشعاره، للميرزا محسن بن الميرزا محمد المعروف بـ (بالا مجتهد) القره داغي التبريزي ، من أعلام القرن الثالث عشر.
- ١٣ - إيمان أبي طالب : للشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن محمد ابن النعمان المفيد ، المتوفى سنة (٤١٣ هـ).
- ١٤ - إيمان أبي طالب، للسيد حسين المجتهد المفتي الموسوي العاملي الكركي، المتوفى سنة (١٠٠١ هـ).
- ١٥ - بغية الطالب لإيمان أبي طالب، يُنسب للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي، المتوفى سنة (٩١١ هـ).
- ١٦ - بغية الطالب في إسلام أبي طالب، للعالم الجليل المفتي السيد محمد عباس بن السيد علي أكبر الموسوي التستري الكهنوي (١٢٢٤ - ١٣٠٦ هـ).
- ١٧ - بغية الطالب في بيان أحوال أبي طالب، وإثبات إيمانه وحسن عقيدته : للسيد محمد بن حيدر بن نور الدين علي الموسوي الحسيني العاملي .
- ١٨ - بغية الطالب لإيمان أبي طالب، للعالم محمد بن عبد الرسول البرزنجي الشافعي الشهر زوري المدني (١٠٤٠ - ١١٠٣ هـ).
- ١٩ - البيان عن خيرة الرحمن في إيمان أبي طالب وآباء النبي صلى الله عليه وآله وعليهم لأبي الحسن علي بن بلال بن أبي معاوية المهلب الأزد .
- ٢٠ - الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، للعالم الفقيه السيد شمس الدين أبي علي فخار بن معد الموسوي ، المتوفى سنة (٦٣٠ هـ).
- ٢١ - ديوان أبي طالب وذكر إسلامه، لأبي نعيم علي بن حمزة البصري التميمي ، المتوفى سنة (٣٧٥ هـ) .
- ٢٢ - الرغائب في إيمان أبي طالب : للعلامة السيد مهدي بن علي الغريفي البحراني النجفي .
- ٢٣ - شعر أبي طالب بن عبد المطلب وأخباره : للأديب الشاعر أبي هفان عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي العبدي ، من شيوخ ابن دريد الأزدي المتوفى سنة (٣٢١ هـ)، طبع في المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف سنة (١٣٥٦ هـ) بشرح أبي الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة (٣٩٢ هـ) .
- ٢٤ - الشهاب الثاقب لرجم مكفر أبي طالب، للعلامة الحجة الشيخ الميرزا نجم الدين جعفر الشريف ابن الميرزا محمد بن رجب علي الطهراني العسكري (١٣١٣ - ١٣٩٥ هـ)، مخطوط .
- ٢٥ - شيخ الأبطح، للعلامة الفاضل السيد محمد علي بن العلامة الحجة عبد الحسين الموسوي آل شرف الدين الموسوي .
- ٢٦ - شيخ بني هاشم، للفاضل عبد العزيز سيد الأهل ، طبع سنة (١٣٧١ هـ).
- ٢٧ - فصاحة أبي طالب، للسيد الشريف المحدث أبي محمد الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الأطروش .
- ٢٨ - فضل أبي طالب و عبد المطلب وأبي النبي صلى الله عليه وآله لأبي القاسم سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، المتوفى سنة (٢٩٩) أو (٣٠١ هـ) .
- ٢٩ - فيض الواهب في نجات أبي طالب ، للشيخ أحمد فيضي ابن الحاج علي عارف بن عثمان بن مصطفى الجورومي الحنفي (١٢٥٣ - ١٣٢٧ هـ) .
- ٣٠ - القول الواجب في إيمان أبي طالب ، للعلامة الشيخ محمد علي ابن الميرزا جعفر علي الفصيح الهندي .
- ٣١ - مقصد الطالب في إيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله وعمه أبي طالب : للميرزا شمس العلماء محمد حسين بن علي رضا الرباتي الجرجاني المشهور بجناب ، طبع في بومباي سنة (١٣١١ هـ) .
- ٣٢ - منى الطالب في إيمان أبي طالب : للشيخ المفيد أبي سعيد محمد بن أحمد بن الحسين بن أحمد الخزاعي النيسابوري .
- ٣٣ - منية الراغب في إيمان أبي طالب ، للعلامة الشيخ محمد رضا الطيبي النجفي .
- ٣٤ - منية الطالب في إيمان أبي طالب ، للسيد الجليل حسين الطباطبائي اليزدي الحائري الشهير بالواعظ ، المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ) .
- ٣٥ - منية الطالب في حياة أبي طالب، للسيد حسن بن علي بن الحسين القبانجي الحسيني النجفي.
- ٣٦ - مواهب الواهب في فضائل أبي طالب ، للعلامة الشيخ جعفر بن محمد النقدي التستري النجفي (ت ١٣٧٠ هـ).
- ٣٧ - الياقوتة الحمراء في إيمان سيد البطحاء، للسيد طالب الحسيني آل علي خان المدني، الشهير بالخرسان، (مخطوط). يُنظر في هذا الثبوت من التصنيفات، هدية العارفين للبغدادي، والذريعة، للطهراني، وإيمان أبي طالب للشيخ المفيد مقدمة التحقيق.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

هذا تمام الكلام وجملته فيما رأيناه من فحوى هذه الدراسة، وهي كما أسلفنا قد تمحّضت للتأصيل، ولم تتحقّق فيها دعوى التجديد، إلا ضمن إشارات عامّة عابرة أشرنا إليها ضمن العرض. ولعلّ من الملاحظات التي تستحقّ الذكر للمؤلّف وتحسب له:

١- تمييزه بين الإيقاع الصوتي والإيقاع الموسيقي، إذ الأوّل، تشكيل جهاز النطق لمخارج الحروف، والثاني، هو الأثر النفسي الناتج عن امتزاج مقاطع صوتيّة بمعنى من المعاني^(١)، من متكلّم معيّن، وفي موضوع معيّن، ولمستمع معيّن.

٢- تفريقه بين التعليل، وطرفاة التعليل، أو حسن التعليل، فالأوّل، كلّ صياغة فنيّة تبرّر وجهة نظر صاحبها، والثاني: كلّ صياغة فنيّة تبرّر وجهة نظر صاحبها تبريراً يهدف للملاحة والظرف^(٢).

٣- طرحه لمفهوم المسافة الإيقاعية بين المقاطع الصوتيّة، وخصوصاً فيما يتعلّق بالجناس والسجع، بمعنى الفترة الزمنيّة التي تستغرقها اللفظة المجانسة أو المسجّعة، لتحقّق مع نظيرتها الجناس أو السّجع^(٣).

(١) ظ: البديع تأصيل وتجديد: ٤٢.

(٢) ظ: م.ن: ١٨٤ و ١٩١.

(٣) ظ: م.ن: ٧٦ و ٧٧ و ٨٣ و ٨٤.

٧- التكرير^(١) بين المثير والتأثير، د. عز الدين علي السيد:

لم يتبن مؤلف هذه الدراسة دعوى التجديد في البديع بوصفه اشتغالا خاصا ينتظم منهجه، ولكنه استعرض ظاهرة التكرار ونواحيها التركيبية في أفقها الدلالي العام، في اللغة والأدب والبلاغة، وفي مساحات التفكير الإنساني بصفته الشمولية، ومن هنا انطلق إلى البديع بوصفه صياغات تكتنز في بنيتها وتكوينها التركيبي بعدا تكراريا في جملة جمّة من فنونه، فكان لحظه لهذه الصفة الخاصة وتقصي تطبيقاتها من فنونه داعيا لنا إلى تناول هذه الدراسة بالإشارة إلى مجالات المعالجة التي تناولها مؤلفها.

وسنقف من الدراسة على ثلاثة مفاصل: المفصل الأول، في مفهوم التكرار عند المؤلف، والثاني في دواعيه، والثالث، في تقسيماته وأغراضه وحركة البديع بين مفاصله.

كنا سابقا قد تعرّضنا للتكرار في طوايا تحليلنا لدراستي الدكتور جميل عبد المجيد، والدكتور محمد عبد المطلب، لكونهما تناولا التكرار بوصفه عنصرا معجميا يمثل علاقة تكوينية أساسية لبني البديع، وتناولنا مفهوم التكرار عندهما وحركته النصية، فلا نجد بنا حاجة إلى إعادة ما سردناه، ولكننا سننطلق من رؤية المؤلف للتكرار وبيان تصوّراته لفاعلية هذا الفعل القولي، بوصفه قدرة كلامية تصدر عن الإنسان لتغذي مشاعره وأحاسيسه من خلال التعبير عنها أصدق تعبير.

ينطلق المؤلف من عدّ التكرير ظاهرة إنسانية وكونية عامة تلّف الوجود، فهي تعرك حركته وتمتزج بمسيرته، وفي كثير من مفاصله، واللغة بوصفها نشاطا فكريا بشريا، اشتملت على التكرير في نواحي ألفاظها المعبرة عن معانيها، ومن لطيف الإشارة أنّ مصطلح التكرار اشتمل لفظه على تكرار الحرف، وخصوص تكرار الراء؛ وذلك لاشتمال مخرجه على الرعشة التي تقتضي تكرّر ضرب اللسان بسقف الفم عند النطق به^(٢). وإنّ التكرير في اللغة يبدأ من أصغر وحدة صوتية مجردة عن المعنى فيها، وهي "حرف الهجاء" في اللغة العربية أو "الفونيم" بتعبير الأسلوبيات الحديثة^(٣)، فالتكرير الصوتي للحرف في الكلمة يأخذ مجالات مختلفة من خلال الصيغ الصرفية للأفعال والأسماء التي يتكرّر فيها الحرف الواحد^(٤)، والتكرير عند المؤلف يوازي التماثل، بل إنه يؤثر استعمال التماثل بدلا من التكرير، لولا الضرورة العرفية اللغوية التي ألقت اصطلاح التكرير أو التكرار، وتعليقه لذلك، هو أنّ الحرف أو اللفظ المنطوق أو المكتوب يذهب بذهاب حيّزه من

(١) تعددت المصطلحات النقدية الحديثة حول هذا المصطلح، فترادفت عليه تسميات عدة، فكان "التواتر، التردد، الشيوخ، الكثرة، الترداد، التكرارية.. والتكرير لدى جوزيف شريم خاصة، أمّا مفهومه في العربية فكان واضح الدلالة على المراد، ومتريداً بين الإعادة، والتكرار. ظ: إشكالية المصطلح، يوسف وغليسي: ١٦٦-١٧٢.

(٢) ظ: التكرير بين المثير والتأثير: ١١.

(٣) الفونيم: وحدة وظيفية لا تقبل التجزئة على مستوى التمثيل التركيبي، وهو ما يسمّى بالعربية بـ حروف المباني، أو الصوت، أو الوحدة الصوتية، أو الصوت اللغوي... ظ: إشكالية المصطلح، يوسف وغليسي: ٤٦٢.

(٤) ظ: التكرير بين المثير والتأثير: ١٠ وما بعدها.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الزمان والمكان، فليس هو نفسه العائد بل مثيله في الشكل أو الصوت^(١)، وهذا الأمر صحيح نسبياً إلا إن حقيقة التكرار تقتضي التوالد كما ذكرنا، بمعنى أن الأمر المكرر راجع في وجوده اللغوي اللفظي للمكرر عليه، حتى عاد كأنه هو، فلا نجد معنى لكون اللفظ المنطوق أو المكتوب ذاهباً بذهاب حيزه من الزمان والمكان، وخصوصاً إذا علمنا أن التكرار في كثير من صورهِ ليس إعادةً محضةً لنتاج قولِي سابق، بل هو تكريسٌ لواقعٍ دلاليٍّ جديدٍ محققٍ به، وإن أفاد قيمةً سمعيةً وصوتيةً تأنفقها الأذن وتسلو لها النفس.

فعندما يُقال: حذارِ التواني، يختلفُ عن قولنا: حذارِ حذارِ التواني، من خلال لحظِ الناتج الدلالي المتحقق من كلٍّ منهما.

من هنا ستختلفُ نظرُتنا عن التكرار في البديع، الذي تناول منه المؤلف فنوناَ عدةً أدرجها ضمنَ التكرار، كما سيتبين.

ومما تنبغي الإشارةُ إليه أن معالجة المؤلف للتكرار قد أخذت بعدين: الأول، يمثل البعد العام للتكرار، الذي يعالج التكرار بوصفه مظهراً من مظاهر التتابع الصوتي، ومطلق الإعادة فتجده في هذا الباب يعالج تكرار الحرف في الكلمة، ويبين صورهِ وصيغهِ المختلفة^(٢)، والثاني يمثل البعد الخاص للتكرار القائم على إعادة التركيب رجعاً على سابقه، وهو التكرار الفني المتداول بلاغياً، والملاحظ أن الأساس الذي يعتمدُ التكرار في كلا بعده هو الإعادة، فإعادة الشيء مرةً بعد أخرى وتكرّر حصوله، ولكن ليس كلُّ متكرّرٍ مقتضياً للمماثلة التامة بين المكرر والمكرر عليه، وهذا الأمر يبحث في المعاني لا في الألفاظ، فمثلاً مسألة الصلاة في الشريعة الإسلامية، خمس فرائض تتكرّر يومياً، فهل أن هذا التكرار مبنيٌّ على التماثل في الحقيقة أم على التغير؟ بمعنى أن حقيقة الصلاة اللاحقة كحقيقة الصلاة السابقة، وفي الحقيقة أن التغير أمرٌ متحقق؛ لأن التكرار في الصلاة بمعنى التماثل مخالفٌ للكمال المطلوب من هذا الفعل العبادي، إذ مقتضى الصلاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن لم تنهَ صلاته عن المنكر وتأمّره بالمعروف انطبق عليها التكرار المتشابه، ولتأكيد كون الصلاة لا على نحو التكرار، مقتضى ما روي من أن المصلّي ينبغي أن تكون صلاته صلاةً مودّع^(٣)، فمقتضى التوديع أن هناك ثمرةً لن تتكرّر بمضي وانقضاء صلاة هذا اليوم، وهذا في أحد فهمي النص، وفي الآخر يُمكن القول إن التوديع بمعنى إمكان المفارقة بالموت القاطع للمنفعة، وعلى كلا التقديرين فإن التجدد ملحوظ، وشبيهٌ بهذا الحال شأنُ الجديدين (الليل والنهار) فإنهما يكرّان راجعين متتابعين، إلا إنهما متجددان، ولشأن ما سُمّي بالجديدين، فتكرارهما ظاهريٌّ، ولكن باطنهما تغيّرٌ وحدث.

(١) ظ: التكرير بين المثير والتأثير: ٧.

(٢) ظ: م.ن: ١٠ وما بعدها وكذلك ص ٨٥.

(٣) ظ: مستمسك العروة الوثقى، السيد محسن الحكيم: ٦١٧/٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

دواعي التكرير: جعل المؤلف من سعة المعاني وضيق الألفاظ داعياً من دواعي التكرار، بمعنى أنّ الألفاظ تضيق عن المعاني فيقع الحافر على الحافر، " فإنّ المعاني من ناحية أوسع مدى من الألفاظ، وهذا يستدعي إعادة الألفاظ على أوجه مختلفة من الهيئات أو الدلالات المجازية والرمزية؛ لاستيفاء المعاني"^(١)، وهذا الأمر يحكي باب التوسع في اللغة، فيدخل المجاز، والاستعارة، والمشارك اللفظي، والكناية، وغيرها، أمّا التكرار فإنّما يدخل ضمن هذا الباب بالنظر إلى إطاره العام، ومما يندرج تحت المشترك اللفظي مثلاً، كإعادة لفظة، الجون للدلالة على معنيين متقابلين (الأبيض والأسود)، أو استعمال لفظة العين بدلالاتها المختلفة كما استشهد لها المؤلف مستعرضاً أمثلة للالتزام في الجنس^(٢)، نورد منها ، قول ابن تمام السبكي^(٣):

هنيئاً قد أقر الله عيـني فلا رقت العدا أهلي بعيني (الباصرة/الحسد)

وقد وافى المبشّر لي فأكرم بخير ربيئة وافى وعين (الجاسوس)

يُخبرني بأنّ أخـي أتاه مناه وسعده من كلّ عين (الجهة)

فلو سمح الزمانُ لكنتُ أعطي له ما فيه من ورقٍ وعين (الذهب)

ألا يا شامة الشام افتخاراً بمن بسناه يغشو كلّ عين (الباصرة)

فتى إن عُدّت الأعيان قالت له الايام : إنك أنت عيني^(٤) (الأمثل)

فإنّ التكرار جاء من لحظ المشترك اللفظي مع إعطاء قرينة لفظية صارفة للمعنى المراد، كما هو موضّح في التظليل (اللون الغامق)، أمّا التكرار الخاصّ بمعنى إعادة العنصر نفسه، أو التركيب ذاته، فيختلف، إذ لا يمكن أن نتصوّر أنّ الداعي إليه ضيق الألفاظ عن المعاني، بل هو يأتي غالباً للتوكيد، ويدخل في التوكيد أغلب الأغراض الجزئية التي ذكرها المؤلف^(٥) للتكرار، إن لم يكن كلّها، وهي: (التكرار للمبالغة، والتكرار للقسم، والتحذير، والإغراء، والتعليل، والبيان والتصويب، والتفخيم، والتهويل والتعجب، والتحسر والحزن، والتهكم، والتحدي، والتشريك والموافقة، والمفارقة، والتلطّف والاستمالة، ...)، كما أنّ حقيقة التوكيد هي التثبيت والرسوخ، فالذي يؤكّد شيئاً إنّما يبتغي تثبيته في النفس، ورسوخ مضامينه، ولعلّ كثيراً ممّا ورد من تكرار في القرآن الكريم مرجعه إلى هذا الأمر؛ لأنّ النفس نزاعة للتملّص والغفلة والسهو والنسيان، وهذا ما يفسّر جملة من تكرير الشعائر المعينة والطقوس الدينية على مرّ الزمن؛ التماساً لذلك الأثر المرتقب.

(١) التكرير بين المثير والتأثير: ٧.

(٢) ظ: م.ن: ٢١٠ - ٢١٤.

(٣) هو بهاء الدين ابو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الشافعي، ولد بالقاهرة سنة ٧١٩ هـ استجاز له والده مشايخ عصره في مصر والشام، اشتغل بالفقه والنحو والأصول ولي القضاء بالشام جمع بين الفقه والأدب والحديث توفي عام ٧٧٣ هـ، ظ: الوافي بالوفيات: للصفدي: ١٦١ / ٧.

(٤) ظ: م.ن: ٢١٤.

(٥) ظ: م.ن: ١١٧ - ١٣٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المثير والتأثير: تعدُّ هاتان الجنبتان الأساس الذي بنى عليهما المؤلف دراسته حول التكرير، إلاَّ إنَّ الجانبَ التنظيري منه حولهما قليلٌ نسبيّاً، ولعلَّ السبب في ذلك هو وضوح مطلبيهما، وكثرة تداوله وتناوله، وخصوصاً في باب التناسب والتواءم، ومطابقة مقتضى الحال، التي كدَّ في الحديث عنها الجاحظ في معرض نقله كلام بشر بن المعتمر^(١)، فالمثير هو الداعي النفسيُّ المستحثُّ لتوجيه القول الوجهة المعيّنة المناسبة، وهو أمرٌ خارجيٌّ، بمعنى يأتي من الخارج الوجودي(الواقعي)، ليتوجَّه إلى النفس، فيحرك كوامنها، ويستحثّها القول، والإفاضة، أمّا التأثير، فهو لحاظٌ داخليٌّ ذاتي ينطلق من داخل نفس المتكلِّم، لتنظيم القول وإحكامه بنحوٍ يستدعي التأثير في الآخر الخارجي، ليجذبه إلى دائرته، ومملكته الفكرية والشعورية أو العاطفية، وهذا التفريق بين ما هو داخليٌّ، وخارجيٌّ، لا يعني الانفكاك والاستقلال وعدم التمازج والتأثير والتأثر، بل إنَّ للمستحثَّ الخارجي أثراً في تفعيل الداخل النفسي، بل يمكن القول إنَّه بمنزلة المرأة التي تعكس الخارج، ولكن تعكسه وهو متسرِّبٌ ثيابَ اللفظ، ومتأنِّقٌ بأردية من المفردات المرصَّعة بوسائل البلاغة والبيان، فيأتي نفثة المصدور في الدلالة على الأمور، مع ملاحظة أنَّ المسافة الزمنية بين المثير والتأثير، أو الخارجي والداخلي مسافةٌ جدُّ قصيرة، وتكاد تكون غير معدودة في الزمن، وهذا تفسُّره لنا طاقة البداهة والارتجال، والموقف الاندفاعي السريع الذي طبع الشعراء الأوائل خصوصاً، فمن هنا تساءل المؤلف عن تلك القدرة: " ... فمن أين يأتي للمرئجل المفاجأ بموقفٍ ما بلاغةً خطبة قصيرة أو طويلة لو أعطيناها حقَّها من النقد التحليلي لوجدنا العجب العاجب الذي يفوق صنعة المتصنِّع في كثير من الأوقات؟"^(٢)، من هنا نجد المؤلف يعتبر التكرير أسلوباً تعبيرياً يُصوِّر انفعال النفس بمثير من أشباه ما ذكره من الأغراض الجزئية التي أومأنا إليها، وسببه أنَّ المتكلِّم يُكرِّر ما يُثير اهتماماً عنده وهو يُحبُّ في الوقت نفسه أن ينقله إلى الآخرين من المخاطبين ومن بحكمهم^(٣)، ومَعَ هذا البيان الواضح لأهمية المثير في حدوث التكرير، فقد جعل المؤلف من طلب الإيقاع مثيراً أساسياً للتكرير، إذ يقول: "المثيرُ للتكرير على الإطلاق إمَّا يعود على الإيقاع، وإمَّا يعودُ على موضوعه، ولا يُتصوَّر أن يخلو أحدهما عن اقترانه بصاحبه، ولعلَّ هذا النظر هو أساس بناء البديعيين محسناتهم التي يقع فيها التكرير على ما هو لفظيٌّ وما هو معنويٌّ..."^(٤)، ونودُّ ههنا أن نناقش في أمر بناء البديع في جملة من فنونه، هل هو على الإيقاع أم على التكرار الخاص، أم على التكرار العام؟، فالمُلاحَظ أنَّ التكرار الخاص غير متحقِّق في تلك الفنون على التفصيل؛ لأنَّه إذا تحقَّق صار تكراراً ولم يكن فناً بديعياً ذا مصطلح معيَّن، ولأنَّ التكرار الخاص قائمٌ على الترداد، وهو ما عرَّفته الناقدة نازك الملائكة فيما نقل عنها المؤلف في

(١) ظ: البيان والتبيين، ١/ ١٢٩ و ١٣١.

(٢) التكرير بين المثير والتأثير: ٨٣.

(٣) ظ: م.ن، ١٣٦.

(٤) م.ن: ٨٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

كتابته قيد الدراسة، أنه" إلحاحٌ على جهةٍ هامّة! في العبارة، يُعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، وذلك كامن في كلّ تكرار يخطر على البال، وهو بذلك ذو دلالةٍ نفسيةٍ قيمةٍ تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس النصّ، ويحلّل نفسيّة كاتبه؛ لأنّه يضع بين أيدينا مفتاح الفكرة المتسلّطة على الشاعر..."^(١) فالناقدة تعدّ هذا قانوناً أساسياً يحكم التكرار، وتَمّ قانونٌ آخر يحكمه، تذكره لنا الناقدة، وهو خضوعه لقانون التوازن^(٢)، بمعنى أنّ الترداد يحقق توازناً صوتياً متماثلاً، ومولداً جرساً موسيقياً بسبب من التناغم الذي حصل وكأنّه رجّع الصدى، فهذه حقيقة التكرار، أمّا ما لم يشتمل على هذين القانونين فليس من التكرار في شيء. أمّا التكرار العامّ فهو مطلق التتابع، ومثله تكرار الإيقاع المفضي إلى التوائم الصوتي مع غضّ النظر عن اللفظ، من نظير تكرار اللفظ بالوزن الصرفي" استُفعل" وبصيغة المبني للمجهول، كما ينقل عن الجاحظ قوله:" من صنع شعراً، أو وضع كتاباً فقد استُهدف، فإن أحسن فقد استُعطف، وإن أساء فقد استُقذف"^(٣)، فالتكرار يكاد يكون تاماً، خلا الاختلاف في حرفين، محققاً جناساً ناقصاً ثلاثياً، إلا إنّ منشأ الإيقاع الصوتي الذي يغشى الأذن، فالتكرار البديعي تكرارٌ صوتيٌّ بالدرجة الأساس، وهو ما اصطالحنا على تسميته بإيهام التكرار، ومن هنا فالبدیع يستثمر الطاقة الصوتية المتأثية من مخالطة التكرار، وتوليد البنية البديعية من خلال العنصر اللفظي السابق الذي تتكئ عليه اتكاءً أساسياً. وقد تناول المؤلف جملة جمّة من فنون البديع أدخلها دائرة التكرير، إلا أنّه اعتمدَ سردَ اصطلاحاتها وأمثلةها من بطون الكتب البلاغية الأم، من دون أن يُتبعها بمزيد من تمحيص الدلالة، وبيان علاقة المثير والتأثير في تكوين البنية البديعية البديعة، فجاءت الفنون البديعية المعتمدة على التكرير عنده كالآتي:(الجناس، العكس والتبديل، تشابه الأطراف، ردّ الأعجاز على الصدور، التكرير بالمعنى الخاص، الترديد، التذييل، التعطف، المشاكلة، الإرساد أو التسهيم، الازدواج، السلب والإيجاب، التطريز، المشاركة، المراجعة، التخيير، التوأم، التفريع، التفريق، الجمع مع التفريق، التقسيم)، وقد اكتفى المؤلف بسرد الشواهد الفنية لهذه الأنواع، كما ذكرنا، من دون عمقٍ بيانيٍّ لأسلوبية المثير والتأثير في مفصلية تكوين تلك البنى، ويُعذر له بأنّه لم يكن من وكده أن يتبنّى التجديد، وإنّما عمدَ إلى دراسة التكرير بوصفه ظاهرة عامّة في النشاط الإنساني، وفي الفعل الكلامي خاصة، فاستعرض البديع وجملةً من نماذجها الفنية لتعكس رونق التكرار الصوتي وفاعليته في التأثير.

(١) التكرير بين المثير والتأثير: ٢٨٠.

(٢) ظ: م.ن.

(٣) ظ: العمدة، ١٠٣/١، و زهر الآداب وثمر الألباب للحصري، تعليق زكي مبارك: ١٣٨/١.

٨- البلاغة العربية تأصيل وتجديد، د. مصطفى الصاوي الجويني:

وانكسر القلم... إذ جفَّ الحبر... وشكَّت الأوراق سُقم المنهج... وتلَوَّى الفكر من تمَّوج النظر.. مشاعر اعترتني وأنا أحاولُ عرضَ محاولة التجديد ذي.

وبمنزلة المقدمة نقول: إنَّ التجديد مسؤولية كبيرة، وعمل لا بدَّ أن يمتلك من الجدِّ وُبعد النظر، وحصافة الفكر، ورهافة الحسِّ، الشيء الكثير قبل أن يطرح نفسه على أريكة التراث، ثمَّ إنَّ التأصيل بلا تجديد انقطاعٌ للتراث، والتجديد بلا تأصيل انقطاعٌ عنه، فإذا كانت الدعوى (تأصيلٌ وتجديد)، فُهم أنَّ المراد التزاوج والتنقيب في التراث للخروج بالجديد الملائم والشافي الراوي للعليل والغليل. ولكن هل اتسمت دعوى التجديد التي أطلقها الدكتور الجويني بتلك السمات وهل حملت مورثات جيئية لتغيير النسل؟ وإذا تركنا التجديد وتغاضينا عنه، فهل كان التأصيل بالمستوى اللائق لجهود أساطين البلاغة العربية خلال سبعة قرون من الجهد والكدَّ والفكر؟.

ومن أجل معرفة منهج المؤلف في التأصيل والتجديد فقد كفانا هو وصفه وسمته، يقول: "فالكاتب الذي أقدمه اليوم أردتُ منه إلى أمرين: أن أقدمَ الأصول البلاغية، أي الأسس الرئيسية من علوم البلاغة الثلاثة، المعاني والبيان والبديع مع استبعاد الجانب الفلسفي الجامد منها، وهذا ما وضعته تحت عنوان "التأصيل"، ثمَّ أتبعته بتأمّلاتٍ وأفكارٍ تُعيد النظر في تلك الأصول وتحاول التجديد فيها تنقيباً عن مواطن الجمال، وهذا ما أدرجناه تحت عنوان "التجديد"^(١)، فالمتوقَّع من التأصيل هو إبرازُ الوجه المشرق للجهود البلاغي الذي تقدّم به الأوائل، واستعراض آرائهم في المسألة الواحدة وبيان ما بها من صحةٍ أو سُقمٍ، وما ينطوي تحتها من ميلٍ أو هوى، وما تعكسه من أنماط التفكير ودلائل على العصر، وقد مضت بعض الدراسات في هذا النحو كالدراسة القرية التي تقدّمت، وهي دراسة الدكتور منير سلطان "البديع تأصيل وتجديد"، إذ التأصيل كان حاضراً في مفاصلها على نحو مقبول منهجياً، إلا إننا لا نكاد نجدُ في دراسة الدكتور الجويني من ذلك شيئاً إلا نادراً ولشخصيات محدودة استقطبت عنده واستأثرت لديه، بل المفاجئ إقحامه في التعريف بالاصطلاحات لبعض الشخصيات المؤرّخة للمؤلّفات والمؤلّفين، والمتأخّرة نسبياً، إذ لا يصحّ تقرير حدّها بعد استقراره لدى المتقدّمين، ونعني بذلك، تطرّقه لمصطلح البديع لدى حاجي خليفة صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧هـ)، فما علاقة المؤرّخين بعلم البديع، وهل يُطلب منهم، أو أن يُعدَّ هذا تجديداً؟ يقول: "أمّا مؤرّخو المكتبة العربية فنقف عند واحدٍ منهم هو حاجي خليفة، صاحب كشف الظنون، فنجدّه يعرض لعلم البديع في موضعين أحدهما ٢٣٢ ج ١، فيقول في فصلٍ عنوانه "علم بدائع القرآن" ذكره المولى أبو الخير من جملة فروع علم

(١) البلاغة العربية، تأصيل وتجديد: ٦.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التفسير، ويعلق هو بأنه" لا يخفى أنه هو علم البديع إلا أنه وقع في الكلام القديم، وفي موطن ثانٍ يعرض حاجي خليفة لعلم البديع وبيان قيمته بين علوم البلاغة، فنسمع عنه ما نصّه ٢١٢ ج ١ : " هو علم يُعرف به وجوه تفيد الحُسن في الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام، ووضوح الدلالة على المرام، فإنّ هذه الوجوه إنّما تُعدّ محسّنة بعد تينك الرعايتين، وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير..."^(١) ثمّ يستعرض كلامه حول حسنها الذاتي أو العرضي وموقعها من القبول أو الرفض....وليت شعري فقد استوفى القدماء هذا الكلام ومدّوا عليه الظلّ، فما الجديد الذي قدّمه حاجي خليفة لعلم البديع حتى يستوفي المؤلف قوله فيه، ويعمد على خلاف المنهج العلمي فيستند إلى قول مؤرّخ فيه، مديراً ظهره لأرباب صنّعه؟ بل توارد الخطأ عليه في نسبة كتاب في البديع لأبي أحمد العسكري(ت ٣٨٢هـ)، فاقترضى من المؤلف التتويه إلى خطئه!....وهكذا تتردّد الملاحظات المتتابة والمنقطعة عن سياقها أحياناً في ما أورده المؤلف من تأصيل، وفي بعض تأصيله يُوردُ عُنواناتٍ غريبةً لا تمثّل إلى نصاعة البحث البلاغيّ بصلّة، كعُنوان نساء وأزياء، وصيد وحيوان، في مبحث علم البيان^(٢)، كما أورد فنوناً محدودةً من البديع كالتورية، وحسن التعليل، والسجع والالتفات، على استحياء. فهذا هو التأصيل! .

أمّا التجديد فنودّ أن نورد نصّ ما أورده ممّا اعتدّ به في هذا المجال وعدّه تجديداً، لتكون الصورة نقلاً مباشراً.

((القسم الثاني/ مباحث التجديد:

أولاً: البلاغة وفنّ التشكيل: رؤية فنيّة، كان النظام يرى أنّ الخبر الصادق أو الكاذب هو ما اعتقد المخبر أنّه صادق أو كاذب، بينما الجاحظ يطابق الخبر على الواقع، فيقسّمه ثلاثة أقسام، صادق، كاذب، وليس صادق أو كاذب^(٣). [ما علاقة هذا الكلام بالبديع!].

الطباق: متوازيات ومتقابلات في الخطوط.

الإيجاز والإطناب: خطوط طويلة وقصيرة. [ما علاقة هذا بالبديع!].

التورية: أسلوب تظليلي^(٤) فيه نوعٌ من المخادعة الضوئيّة واللعب بالظلّ والنور؛ لأنّه يخدعك بمعنى قريب غير مراد عن معنى مراد.

الجناس: نوعٌ من التنويع الموسيقي على اللحن الأساسي، لتقارب مادي، لفظتين [هكذا في الأصل!] من معنى واحد.

(١) البلاغة العربية، تأصيل وتجديد: ١٧٨ و ١٧٩.

(٢) ظ: م.ن، ١٣٩ و ١٤١.

(٣) هكذا في الأصل، والأصوب: وليس صادقاً ولا كاذباً.

(٤) هكذا في الأصل، والأصوب في نظرنا: تظليلي، بمعنى إبعاد الآخر عن المراد الحقيقي.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

السجع: نغمٌ موسيقيٌّ متمثلٌ.

الالتفات: تلويّنٌ بالضمائر يماثل التلوين التشكيلي.

حسن التعليل: هنا يلعب الخيال دوره في التعليل.

وفي علم المعاني: التقديم والتأخير وأساليب الاستفهام التي تخرج عن مقتضى الظاهر وأساليب الأمر الخارجة عن مقتضى الظاهر، كلّها تشكيل للفظ في سياقها لتعطي معنىً بعينه وتقصّد إلى قيمة جمالية.

أسلوب الحصر: هو تحديد للعبارة مثل تحديد الشكل بخطوط أو دوائر.

ثانياً: نقدٌ جماليٌّ جديد في دراسة البديع:

١- دراسة تاريخية تطورية لعلم البديع.

٢- دراسة مصطلحات البديع لغوياً واصطلاحياً؛ للتعرف على منابعه الفنية.

٣- دراسة البديع في مجالات الإبداع الأدبي والنقدي:

أ. ففي الطباق مثلاً ندرسه عند قمة، هو أبو تمام الشاعر.

ب. وفي المقامة ندرس لوني السجع والجناس.

ج. وفي الدراسات النقدية ندرس السرقات الأدبية باعتبار البديع مقياساً لبيان الأصيل من المقلّد.

.....

المسمّط: أن يبتدئ الشاعر ببيتٍ مصرّع، ثمّ يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثمّ يُعيدُ قسماً واحداً من جنس ما ابتدأ به، هكذا إلى آخر القصيدة، مثال ذلك.... [ويورد مثاله عن امرئ القيس].

المزدوج: مصراعين مصراعين فقط، إلا إنّ وزنه كلّه واحد.

١- فنّا الكتابة والشعر، صارا يباريان فنّ الزخرفة الإسلامية في الرقش والتلوين، وإمتاع الحسن.

٢- هل الجناس والحلى البديعية كانت بسيطة في مصر، معقدة في الشرق البعيد، مثال ذلك ما نجده عند قابوسي بن شمكير.

٣- من بلاغة أرسطو بين العرب واليونان والعرب في جانب اللفظ، والأعاجم في جانب المعنى.

ملاحظة طائفة عن ابن أبي الإصبع:

"ابن أبي الإصبع يشكّل المعاني القرآنية وفق الألوان الأدبية في الشعر، فيرى فيه هجاء ومدحاً... إلخ" [ثمّ يورد كلاماً عن ابن المعتز من كتابه البديع حول لزوم ما لا يلزم مبيّناً وهم الكتاب في إسناد عتاب المرء نفسه إلى ابن المعتز].
ثالثاً: الطباقي، إنّ الطباقي الفيافي^(١) الذي ابتكره أبو تمام، مثل قوله:
رَعَتْهُ الْفِيَّافِي بَعْدَ مَا كَانَ حَقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الْروِضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ
وتأثره المتنبي فأشاعه في شعره، من مثل قصيدته التي مطلعها:
لكلّ امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
[ثمّ يورد نصّ المقامة الأهوازية، لينتهي التجديد بها]]^(٢).

هذا هو التجديد، وهذه رؤية المجدّد، وليت شعري، هل تربّي هذه الملاحظات ذوقاً بلاغياً لدى الناشئة، وهل تُثير فيهم حسّاً فنياً، وهل تنمّي قدراتهم على التعبير عمّا يختلج وأفكار عصرهم ومتطلّباته، إذ الملاحظ عليها الإشارات المتقطّعة المنقطعة عن سياقها، والعبارات المقتضبة المُقتضبة للمعاني، والأفكار الغريبة المتغرّبة في سياقها الجديد، مع التداخل الملحوظ بين المعاني والبديع، بل الملاحظات المعلّقة في سماء الفكر لا يدرى إلّا تشير، فيا ترى هل هذا التّمط من التجديد يسدّ الجوع ويغذي الطموح، ويا ترى هل هذه هي البلاغة التي نشأت في أحضان القرآن وتغذّت من نميره، إنّ هذا الأفق من التجديد يجعلنا نُدرجه في خانة الدراسات التي امتطت التجديد عنواناً وفارقتة بنياناً، وصافحته شخصاً وفارقتة فكراً... إنّ أهمّ شيءٍ يتعلّق بالتجديد في نظر البحث، هو ابتناؤه على خطّة عامّة تغيّر أساساً من أسسه، وتفتّح له أفقاً مدروساً محكماً لتصوراته العامّة، ولا يتقاطع والغاية الأساس التي بُني عليها ذلك العلم، وقد قدّمنا في التمهيد مظاهر من تلك الأسس التي يتحقّق فيها التجديد. ولا يفوتنا أن نذكر فضيلتين لهذه الدراسة في طرحها التجديدي، على الرغم ممّا ذكرناه عنها، الأمر الأول، هو صحّة ما جاء في المفردتين [أ و ج] من النقطة الثالثة، ولو أنّ المؤلّف ركّز اهتمامه عليهما وأسهب في شرحهما وتحليلهما لكان شأناً من الشأن. والأمر الثاني: تأكّيده على أهمية النصّ الأدبي وتحليله في خلق الذوق الفنيّ والإحساس المرهف، لا الاصطلاحات والتحديدات، انطلاقاً من وظيفة البلاغة في الإمتاع والإقناع، وليتنا لمسنا هذه النتيجة فيما ذكره من نقاطٍ رآها مظاهر تجديد.

(١) هكذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: طباقي الفيافي.

(٢) البلاغة العربية، تأصيل وتجديد، د. مصطفى الصاوي الجويني: ١٩٦ إلى ٢٠٠.

٩- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، نحو كتابة تأريخ جديد للبلاغة

العربية، الدكتور محمد العمري:

يُحيل عنوان هذه الدراسة على محورين أساسيين، الأول: هو الموازنات الصوتية، والثاني، هو: كتابة تأريخ جديد للبلاغة العربية، ومن خلال لحظ المناسبة بين العنوان الرئيس وعتبه يتبين أن المؤلف يروم كتابة التأريخ الجديد للبلاغة العربية انطلاقاً من الموازنات الصوتية، وتقصي أثرها، ووظائفها لدى البلاغيين الأوائل، ومحاولة رسم ملامح بلاغة قائمة على الصوت الدلالي، بوصفه مقوماً بنائياً، من خلال تتبع موقف الموازنات في التراث البلاغي العربي، عن طريق طرح جملة من الأسئلة من قبيل: "لماذا اهتم بعض البلاغيين بالموازنات أكثر من غيرهم؟ ولماذا انصرف عنها بعضهم وعادها البعض؟ ما مدى اندماج الموازنات الصوتية في مفهوم التعادل والمناسبة الدلالية لتكوين مفهوم ذي بعدين صوتي ودلالي؟ ما هي ميكانيزمات إنتاج المصطلح التوازني؟" (١)، ويحدد المؤلف غايته من دراسة الموازنات بالقول إن "استخراج وتبيين موقع الموازنات في الرؤية البلاغية العربية هو في الوقت نفسه كشف لبنية هذه البلاغة؛ ذلك أن موقع الموازنات إنما يتحدد بالمقارنة مع مواقع العناصر الأخرى المشاركة معها في تكوين الخطاب الشعري..." (٢)، ويبين المؤلف منهجه في مؤلف لاحق له، وهو (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)، مفيداً "إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء مكتسبات المنهجية الجديدة، ولاسيما مكتسبات اللسانيات" (٣)، ومن أجل أن نتعاطى مع هذه الرؤية سلباً أو إيجاباً لابد لنا أولاً من تصوّر الإطار العام لها، كما لابد من بيان معطياتها على نحو العرض السريع المبرز لأساسيات تلك الرؤية، ثم يتعقبها ما نراه من مناقشات سنوردها عليها.

بدءاً اشتملت هذه الدراسة على قسمين:

القسم الأول: المفهوم والمصطلح، تناول فيه المؤلف مفهوم الموازنات الصوتية، والمصطلحات المنبعثة عن هذا المفهوم من خلال تقصي المصطلح عند أبرز رجاله المتعاطين له. كما سيظهر.

القسم الثاني: الموقع، وهو بيان لمكانة الموازنات في منظومة العمل البياني، والبلاغي على اختلاف اتجاهاته، وتباين وجهات النظر حولها قبولاً ورفضاً.

(١) الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية: د. محمد العمري: ٤.

(٢) م.ن.

(٣) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: ٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

وقبل ذلك استند المؤلف في تأسيس هذه الرؤية إلى جنس الشعر، ورصد بنيته الصوتية، فجعل المقوم الصوتي الإيقاعي للشعر متكوّناً من ثلاثة عناصر أساس^(١):

الأول: الوزن المجرد (العروض).

الثاني: التوازن والتوازنات (العناصر اللغوية المشخصة، كالتجنيس والترصيع، والقافية بوصفها جزءاً من هذا النظام، وفقاً لرؤيته).

الثالث: الأداء الصوتي الخارجي (النغم، والنبر، والوقف).

جعل المؤلف من الموازنة في التراث البلاغي مفهوماً مترجّحاً بين العموم والخصوص، فالعموم في وقوعها وصفاً لكل من اللفظ والمعنى، والخصوص اشتمل على ثلاثة تصوّرات^(٢)، ولا نرى كبير فرق بينها وإن ميّزها المؤلف عن بعضها.

١- إعتبار الموازنة باباً كبيراً من أبواب البيان بمعناه العام، مشتملة على المقابلة بين الصيغ الصرفية والتفعيلات، وجعل هذا التصور عند ابن أبي الحديد.

٢- إعتبار الموازنة توازناً غير مسجوع.

٣- إعتبار الموازنة نوعاً من المقابلة، كما هي عند ابن رشيق.

أما مفهومها التفصيلي فهو بنظره ما جاء عن العسكري في الصناعتين، من كون الموازنة صفة لمقومات صوتية هي: الازدواج، والسجع وكل مظاهر التوازن بين الصيغ والقرائن^(٣)، ومن خلال نقله لجملة من النصوص بوصفها شواهد على بيان التحديد الاصطلاحي للسجع والتوازن والازدواج، وعلى الرغم من نقله لتلك النصوص إلا أنه لم يبيّن وجهة نظر العسكري الحاسمة بينها، فالسجع عند العسكري هو توافق الفواصل في الحرف الأخير (الرّوي)، أما الازدواج فهو تداخل السجع في السجع بتعبيره، أي أن تعدّد الأسجاع يحقق الازدواج، أما الموازنة، فهو تقابل الجمل في العدد وإن اختلفت في الوزن^(٤). ثم ينتقل إلى ابن رشيق، إذ يطرح الأخير مصطلح الموازنة بوصفه جنساً أعلى يشمل جميع المتقابلات، وهو - في نظرنا - تعديل بسيط على طرح العسكري، وقد تبناه المؤلف إلا أنه لم يُشير إليه، فيقول: "ومهما توسّع مفهوم الموازنة والتوازن عند البلاغيين العرب فإنه لا يعدو التعادل والتقابل بين الأنساق الزمنية القائمة على الكمّ المجرد (الوزن العروضي)؛ أو الكمّ المشخص المتجلى في الأنساق الترصيعية القائمة على التقابل بين أنواع الحركات والمدّ ولم يشمل الجانب الجرسى التجنيسي إلا في نطاق ضيق... ونحن

(١) ظ: الموازنات الصوتية، التقديم، ٣.

(٢) ظ: م.ن، ٧.

(٣) ظ: م.ن.

(٤) ظ: كتاب الصناعتين، ٢٣٣-٢٣٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

في عملنا هذا -.... نستثمر معنى التعادل والتقابل في أصل كلمة الموازنة لنجعلها تتسع أيضاً لأنواع التجنيس الذي يقوم هو الآخر على توازن طرفين لغويين في صوامتهما ووقوعهما في مواقع متقاربة تحقق المقابلة^(١).

ثم يعقب المؤلف هذا الكلام ببيان مشروعية هذه الخطوة بالقول: "وترجع مشروعية عملنا إلى كون العنصر الصوتي في الشعر - مهما تعددت تجلياته!- يعود إلى جوهر واحد هو التوازن بالمعنى الذي حدّده^(٢)"، وهو في نظره يرجع إلى مصطلحين أساسيين هما الترصيع والتجنيس، وبهذا صنّف المصطلحات الموازنة في ثلاث خانات: الأولى، تشمل على طرفين متكافئين، ومصطلحاتها: الموازنة والتوازن والمماثلة والمتوازي والمقابلة والمناسبة والتناسب والتجنيس والتطابق والحالات التوازنية غير الصريحة مثل حسن الرصف والانسجام والسجع. الثانية، انقسام وحدة إلى أجزاء تحتفظ ببعض خصوصيات الأصل مثل التقسيم والتجزئة والتقطيع والتشطير والمشطّر والازدواج وتشابه الاطراف... الثالثة، ورود وحدة أو وحدات ذات خصوصيات متماثلة مرتّين فأكثر، التكرار والتكرير والتعديد والتعطف والمجنّح... ورد الأعجاز على الصدور^(٣)، ثم يستعرض المؤلف النسق العام للتوازن عند ثلاث شخصيات، تمثّل الأولى والثانية نمطاً في دراسة التوازن والوازنة في مستويات مختلفة صوتية ودلالية، وهاتان الشخصيتان هما ابنُ رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي، متناولاً مفهوم المقابلة والتقسيم وأبعادهما الصوتية عند الأول، ومفهوم المناسبة والتناسب وأبعاده عند الثاني، أما الشخصية الثالثة فهي الشخصية النزاعة إلى التحديد، وشقّ الاصطلاحات، والتركيب، متمثلة بالسجلماسي صاحب المنزع، وقد تناول مصطلح التكرير عنده بوصفه جنساً عالياً يضمّ عدّة فروع، منها المناسبة والمشاكله، وما يندرج تحتها^(٤)، وقد ختم المؤلف قسم بحث المصطلح متناولاً إنتاج المصطلح التوازني، معالجا تعدّد المصطلح الصوتي عند أبرز رجالات البلاغة وأسباب ذلك، ذاكراً مروره بمرحلتين: الأولى مرحلة الوضع والنقل، والثانية، مرحلة استقرار المصطلح عند السكاكي ومن تبعه، وأسباب هذا التعدّد بنظره تعود إلى: ١. سبب تاريخي ثقافي تابع لاختلاف البيئات التي أنتجت المصطلح، ٢. سبب تكويني داخلي راجع لاختلاف زاوية النظر^(٥)، ومن نماذج تلك المصطلحات يطالعنا [المطابق، والمغايرة والمغاير، المماثلة والمماثل، المضارعة والمضارع، التصريف، المجانس، المناسبة، التلفيق...]^(٥).

(١) الموازنات الصوتية: ٩.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن: ١٠.

(٤) ظ: م.ن، ١١-٢٢.

(٥) ظ: م.ن، ٢٨.

(٦) ظ: م.ن، ٢٦-٣١.

أما الموقع فقد وقعت دراسته من قبل المؤلف ضمن ما يأتي:

١- تمهيد طرح فيه ضرورة إعادة النظر في مفهوم البلاغة العربية، وهي في نظره البلاغة المعدة في كتاب (علوم البلاغة) لمصطفى المراغي بوصفه كتاباً منهجياً استقى معارفه البلاغية عن مصدرين أساسيين هما، مفتاح العلوم للسكاكي، وسرّ الفصاحة للخفاجي، المعتبر فصاحته التي طرحها فصاحة جاحظية^(١).

٢- بسبب من ذلك فقد احتلت الموازنات موقعاً هامشياً ناتجاً عن الاستراتيجية العامة لنظرية المعنى التي ولدت في أحضان نظرية الإعجاز^(٢).

٣- هذان المصدران المؤسسان لمفهوم البلاغة "هما مصدران يهتمان بالنصّ القرآني (وليس شعراً على كلّ حال) أو بالنصّ النثريّ الشّفوي"، وهما يرتبطان باتجاهين فكريين دينيين هما الأشاعرة والمعتزلة وهما يلتقيان بالاهتمام بالمقام ومراعاة الأحوال أي بالخطاب الإقناعي الذي لا تلعب فيه الموازنات إلا دوراً مساعداً"^(٣)!

٤- من أجل تدليل مسار تقصّي ودراسة الموازنات انتخب المؤلف عدّة زوايا في النظر تمثّلت في:

أ- البديع ونقد الشعر: وهو بيان الملاحظات النقدية العامة التي كان يمارسها الشعراء على الشعر، وزناً وقافية وما يستتبعها من عيوب، والموازنة بين الشعراء، والبحث في خصوصيات القدماء والمحدثين، فكان ذلك هو الميدان الذي أنتجت فيه المصطلحات التوازنية^(٤).

ب- البيان أو بلاغة الإقناع: تداول فيه نظرية البيان عند نموذجين أساسيين متمايزين في موضوعه، وهما البيان والتبيين للجاحظ، والبرهان في وجوه البيان لابن وهب (ت ٣٣٧هـ)، فتطرّق لوجهيّ نظرهما في توظيف المقوم الصوّتي ومدى حضوره في كتابيهما^(٥).

ت- البلاغة العامة: وحدّها بكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، في محاولة الجمع بين اتجاهي البديع والبيان السابقين، فأفرز كتابه الحديث عن الفصاحة والبلاغة والبديع، منطلقاً من وظيفة البلاغة الممتزجة بالإعجاز، فتحدّدت في الوظيفة النقدية، والوظيفة التعليمية^(٦)، عاطفاً القول على كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، الذي مارس عدّة جوانب، منها دراسة الأصوات وتفاصيلها، والتفريق بين الفصاحة والبلاغة، والبحث في حقيقة الفصاحة وجهتها... ثمّ عرّج المؤلف على تقصّي الحيز الذي شغله

(١) ظ: الموازنات الصوتية، ٣٥ و ٣٦.

(٢) ظ: م.ن، ٣٥.

(٣) م.ن: ٣٦.

(٤) ظ: م.ن، ٣٩ و ٤٨ و ٤٩.

(٥) ظ: م.ن، ٤٩-٦٢.

(٦) ظ: م.ن، ٦٢-٦٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

المقّوم الصوتي في النظرية البلاغية عند ابن سنان، المتمثلة في بحث شروط الفصاحة [للألفاظ المفردة، والمركبة، وبلاغة المعاني المفردة] حسب خطاطة المؤلف^(١).

ث- في نظرية المعنى وبلاغة الإعجاز: تداول فيه معركة الإعجاز، وما ترتب عليها من إقصاء للمقّوم الصوتي في جملة من مقولاتها، كان من أبرزها مقولة الجرجاني في المعنى، وإبعاد المقّوم الصوتي عن ساحة البلاغة^(٢)، متقصياً آفاق تلك النظرية عنده، ومبيناً جهة الإعجاز التي قصدها الجرجاني، وهو طرح متقدم إلا أن المؤلف عالجه بأسلوبه ولغته المائلة إلى التحليل والربط.

ج- في نظرية الأدب: وظيفة التوازن: تداول فيه المؤلف تعاطي الفلاسفة المسلمين لكتاب "فن الشعر" لأرسطو، وما أفرزه من رؤى من خلال شرحه، وتلخيصه، ومحاولة مقارنته بالأنموذج الشعري العربي، فانطلق المؤلف من نظرية المحاكاة، مبيناً أثرها في تحقيق الناتج الشعري، والعلل الأخرى المولدة للشعر، ونظرة الفلاسفة لعناصر بناء الشعر، وحركة المقّوم الصوتي، وعلاقة المحاكاة في إنتاجه^(٣).

هذا خلاصة ما قدمه المؤلف في معالجته لموقعية المقّوم الصوتي في التراث البلاغي، وإنما قدمناه لتتضح الرؤية العامة التي انطلق منها، وسنحاول إفاضة جملة من الملاحظات على هذه المنهجية، ومع بيان مواضع الخلل في نظرنا في بعض مفاصلها العامة بقدر طاقتنا وما تنطوي عليه معرفتنا.

الرؤية النقدية: تمخّضت رؤيتنا النقدية حول نظرية الدكتور محمد العمري في الموازنات الصوتية، وفاعلية المقّوم الصوتي في الرؤية البلاغية العربية عن جملة من الملاحظات، ارتأينا تثبيتها بالنقاط الآتية:

١- يشكّل العنوان الذي أطلقه المؤلف على دراسته جدلية كبيرة، من جهة كونه قد جعل من الموازنات الصوتية -وهي تمثّل بعداً جزئياً في منظومة الاشتغال البلاغي العام-، جعلها حاكمة على الاشتغال البلاغي وموجهة له في كتابة تأريخ للبلاغة العربية، فلو قبلنا العنوان الرئيس للدراسة، وهو الموازنات الصوتية، باعتبارها تقصّي حركة المقّوم الصوتي في التراث البلاغي، وبيان مدى فاعليته، واشتغاله ضمن مفاصلها الرئيسية، لا يمكننا أن نقبل العنوان الفرعي للدراسة وهو "نحو كتابة تأريخ جديد للبلاغة العربية"، فالتوازن الصوتي جزء العمل لا كلّه، وفرع الأداء لا أصله، وشواهد ذلك واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد عناية في تقصّيها وتبيينها، فالقرآن الكريم اعتنى بالصوت عناية اقتضاء لا عناية أصالة، بمعنى أن الموقف إذا اقتضى رعاية

(١) ظ: الموازنات الصوتية : ٦٨-٧٥.

(٢) ظ: م.ن، ٧٥.

(٣) ظ: م.ن، ٨٩-٩٣.

الجانب الصوتي كان لابد من ظهوره، وإلا فإنه سيهوي بعملية التواصل البياني، ويصبح محض أداء صوتي لا يروم منه الباث شيئاً إلا تواتر النغم والإيقاع، ومثاله الجرس الصوتي الواقع في سورة الناس، المتمثل بتكرار حرف السين، الذي يتسم بصفة الصفير؛ لأنه يخرج ممّا بين الثنايا وطرف اللسان^(١) فيزدحم الهواء، ويخرج له رنين وصفير، وهذا التردد الصوتي الخفيض يتناغم مع الدلالة العامة للسورة المتحدثة عن حديث النفس و الشيطان الخفيين. من هنا فإن الصوت أو دلالة الصوت تشكل مظهراً جزئياً، فكيف يصح بناء تأريخ للبلاغة العربية قائماً على تقصي جزء معين من أجزائها الكثيرة التي خاضت بها الأقلام وعركتها الأفكار، وخصوصاً إذا لاحظنا أنّ المؤلف اعتدّ بمظهرين أساسيين للمقوم الصوتي وكاد أن يقصي ما دونهما، وهذان المقومان هما: التجنيس، والترصيع، فضاقت بذلك زاوية النظر أكثر، ويمكننا هنا أن نقدّم تقريباً يبين ضعف مرتبة الصوت في البعد الوجودي الخارجي بالنسبة للمراتب الأخرى السابقة عليه، من خلال ما تقرّر من أنّ للأشياء أربعة وجودات، وجودين حقيقيين، ووجودين جعليين (وضعيين)^(٢)، فالوجودان الحقيقيان هما، الوجود الخارجي والوجود الذهني، فالوجود الخارجي هو الأعيان الخارجية المدركة والمشاهدة^(٣)، وهو ما تترتب على الماهية فيه آثارها المقومة لحقيقتها والمكملة لشيئيتها^(٤)، أمّا الوجود الذهني فهو العلم بالوجود الخارجي، وانطبأ صورته في الذهن^(٥)، والموجود في الذهن هو صورة الماهية، ومثالها، المجردان عمّا لها من آثار ولوازم^(٦)، كما أنّ الفارق أيضاً بين الوجود الذهني والخارجي أنّ الأشياء في الخارج متميزة ومنحازة بعضها عن بعض بخلاف وجودها الذهني فإنه يمكن تصوّرها في الذهن بلا امتياز لبعضها عن بعض^(٧)، أمّا الوجودان الآخران فهما وجودان يتحققان بوضع واضح وباعتبار معتبر^(٨)، فاللفظ متحقّق بإرادة النطق، والكتابة متحقّقة لإثبات ما يلفظ، فدلالة الوجود الذهني على الوجود الخارجي دلالة حقيقية، أمّا دلالة الوجود اللفظي على الذهني ودلالة الوجود الكتبي على اللفظي فهي دلالة وضعيّة^(٩)، والملاحظ أنّ تفاوت المرتبة الوجودية لهذه المراتب الأربع متحقّق، فإنّ أقواها مرتبة الوجود الخارجي، ثم يليه الوجود الذهني، فإنّه أدنى مرتبة وهو متقوم بالوجود الخارجي، ثم الوجود اللفظي وهو متقوم بالوجود الذهني، ثم الوجود الكتبي، وهو متقوم بالوجود اللفظي، بمعنى أنّ

(١) ظ: سرّ الفصاحة: ٢٠.

(٢) ظ: المنطق: ٣٢.

(٣) ظ: م.ن، وخلاصة علم الكلام، د. عبد الهادي الفضلي: ٤٠.

(٤) ظ: خلاصة علم الكلام: ٥٣.

(٥) ظ: المنطق: ٣٢.

(٦) ظ: خلاصة علم الكلام: ٥٣.

(٧) ظ: مصباح الأصول: السيد محمد سرور الواعظ: ٨٧/٣.

(٨) ظ: المنطق: ٣٢.

(٩) ظ: مختلف الشيعة، العلامة الحلي: ٣٧٠/٧.

الحاجة متحققة للآحق من السابق، وهذا سيفرج قضية علاقة اللفظ بالمعنى ويوضح حقيقة الارتباط بين اللفظ والمعنى، وهذا التقريب طرحه ابن وهب الكاتب وتابعه عليه ابن سنان الخفاجي، على نحو غير تفصيلي، ولكنه يتناصّ معه، فابن وهب يذهب إلى طرح فكرة مدركات الناس وطرق التعبير عنها حاصراً إيّاها بثلاثة أمور مدمجاً الأول والثاني معاً، فالتفكير والتأمل في الكون يُنتج الاعتبار وخزن المعارف المعتبرة يحقق الاعتقاد (الذهن)، والتعبير اللغوي عنه هو العبارة (اللفظ)، ونقل المعارف ونشرها هو الكتاب (الوجود الكتبي)^(١)، أمّا الخفاجي فقد تناول هذا الموضوع محققاً نسبته إلى علم المنطق ومستعيناً بثمرته، فتناوله في تقرير مسألة الكلام في المعاني المفردة، ذاكرةً أنّ وجودها له أربعة أنحاء، "الأول، وجودها في أنفسها، والثاني، وجودها في أفهام المتصوّرين لها، والثالث، وجودها في الألفاظ التي تدلّ عليها، والرابع وجودها في الخطّ الذي هو أشكال تلك الألفاظ المعبر بها عنه"^(٢)، من هنا نقرّر أنّ الوجود اللفظي هو مرتبةٌ منتزعة عن الوجود الذهني (المعنى)، فهي مرتبة ضعيفة بالنسبة إليه، أمّا المقوم الصوتي (الترصيع والتجنيس بنظر المؤلف)، فهما لازمٌ من لوازم التصرف في الوجود اللفظي، فهو بهذا أضعف، من هنا يأتي اعتراضنا في كون التأصيل البلاغي لا يصحّ أن يستند إلى مرتبة متفرّعة عن مرتبة ضعيفة في الوجود، ولا نريد بذلك أن ننفي المحورية الدلالية للصوت، إذ إنّ مقتضى مراعاة اللفظ للمعنى محقق لحسن الاختيار الذي انطلقت عنه العربية وأسست له^(٣)، وهذا بدوره سيقود إلى مراعاة الجانب الصوتي الخاص في اللفظ الذي يؤدي المعنى المعين لتلك الحال، وهو ما بنى عليه ابن جنّي، بالقول: "كلّما ازدادت العبارة شبيهاً بالمعنى كانت أدلّ عليه، وأشهد بالغرض فيه"^(٤)، فمن هنا فإنّ التركيز على الجانب الصوتي في التأريخ البلاغي - وإن اقتضى رصد جوانبه الدلالية-، إلا أنّ فيه مصادرةً لجوانب جمّة في الفكر البلاغي، وتشكيل الخطأ، ولعلّ محاولة المؤلف هذه محاولةً للتناصّ مع التراث الشكلائي البنيوي، الذي جعل من المقوم الصوتي، وتعميم التعادل الصوتي الدلالي محوريةً لعمله، وقد أشار المؤلف إلى ذلك^(٥).

٢- أرجع المؤلف المصطلحات التي تحيل على مفهوم التوازن عند القدماء إلى أمرين : الأول، تكافؤ عنصرين وتناظرهما في نوع الحركات والسكنات والمدّ (الترصيع)، والثاني، تكافؤهما وتناظرهما في أنواع الصوامت (التجنيس)^(٦)، والغريب أنّه قبل ذلك تقدّم بالقول بأنّ معنى التعادل والتقابل في أصل كلمة "الموازنة" لم يتّسع لأنواع

(١) ظ: نقد النثر، لقدامة بن جعفر: ١١، وينظر: الموازنات الصوتية: ٥٩.

(٢) سرّ الفصاحة: ٢٢٦.

(٣) ظ: البلاغة والأصول، محمد مشبال: ٨٠.

(٤) الخصائص: ١٥٤/٢.

(٥) ظ: الموازنات الصوتية: ٤ و ١١.

(٦) ظ: م.ن، ٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

التجنيس، إلا إنه من باب الاتساع أدخله ضمنها إذ لا مشاحة في الاصطلاح! ^(١)، وقد ارتأى وضع تلك الاصطلاحات في ثلاث خانات ^(٢):

١- مفهوم وجود طرفين متكافئين، ويدخل فيه: (الموازنة، والتوازن، والمماثلة، والمقابلة، والمناسبة، والتناسب، والتجنيس، والمطابق....).

٢- انقسام وحدة إلى أجزاء، وفيه: (التقسيم، والتجزئة، والتقطيع، والتشطير، والمشطر، والازدواج..).

٣- ورود وحدة أو وحدات ذات خصوصيات متماثلة مرتين أو أكثر، وفيه: (التكرار، والتكرير] وغريبٌ عطفُ المغايرة هذا!!![، والتعديد، والتعطف، وردّ الأعجاز على (الصدر...).

وفي الحقيقة فإنّ هذا التقسيم لا داعي له ولا ثمرة تترتب عليه، خصوصاً مع تبني المؤلف مفهوماً عاماً عن الموازنة وهو المقابلة والتعادل، ولئن كان المقوم الصوتي يعتمد على الوزن العروضي، والتوازن أو الموازنات، والأداء النغمي، كما قدّم، فإنّ هذه العناصر ليست دائماً التحقق في كلّ نظم شعريّ، فإن سلّم العروض، فقد لا تسلم الموازنات، والأداء الذي يتطلب إلقاءً شفافياً حياً، وإلا لتكررت تجربة شعراء البديع، وما أسهبوا فيه من استخدام مهجن لفنونه، ثم إنّ إدخاله لهذه العناصر المتعددة ضمن عنصرين هما التجنيس والترصيع، تمحلّ واقتضابٌ ليس في محلّه، ولعلّ مفهوم المقابلة هو الأنسب لكلّ تقابلٍ صياغيٍّ أو وزني.

٣- وبسبب من هذا التقسيم، سيعود بنا المؤلف إلى تأسيس بلاغة قائمة على الشعر، وجعل الشعر هو القطب والمحور في تأسيس المقولات البلاغية، بل إنّ الاقتصار على الصوت وجوانبه في معالجة الشعر هو الآخر تضيق للدائرة، وضياح للكثير من تشكلات الخطاب ونماذجه الكبرى.

٤- جعل المؤلف من الموازنات سلماً كثيراً الدرجات، منه ^(٣):

أ- الموازنة بين الصوائت، أي بين أنواع المدّ وأنواع الحركات (الترصيع).

ب- الموازنة بين أنواع الصوامت (التجنيس).

ت- الموازنة بين الحركات والسكنات (التفعيلات والأوزان العروضية).

ث- الموازنة بين مقاطع القصيدة كما في الموشحات مثلاً بين الأقفال والأبيات.

والملاحظ أنّ الموازنة في هذه النماذج هي موازنة في حدودها الضيقة غير الاصطلاحية، إذا ما ستثنينا الترصيع، ولا ندري كيف تكون الموازنة بين الصوائت

(١) ظ: الموازنات الصوتية: ٩.

(٢) ظ: م.ن، ٩ و ١٠.

(٣) ظ: م.ن، ١١.

(أصوات المدّ والحركات)^(١) منتجةً للترصيع الذي يتحقّق بديعياً "إذا ما كان في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر، مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية"^(٢)، وعند السجلّماسي "إعادة اللفظ الواحد بالنوع في موضعين من القول فصاعداً، هو فيهما متّفق النهاية بحرفٍ واحد، وذلك أن تصيرَ الأجزاء، وألفاظها، متناسبة الوضع، متقاسمة النّظم، معتدلة الوزن، متوحّى في كلّ جزئين منهما أن يكونَ مقطّعهما واحداً"^(٣)، فالصّائت إنّما يمكن تحقّقه في الجزء الأخير، أو الكلمة الأخيرة من المقطع المشكّل بمجموعه الترصيع، فهو جزءٌ من كلّ مجموعيٍّ، وقد جعله المؤلّف كلّاً، فضلاً عن ذلك فإنّ أنواع الموازنات التي ذكرها إنّما تعدّ تسامحاً في الموازنة، فالوزن العروضي، وتكرار الأقفال، والتجنيس، لا تحقّق موازنة بالمعنى البلاغيّ المعروف، إذ لا ثمرة دلاليّة تتوخّى منها، وهو من تكلف التوازي.

٥- من أجل محاولة توطيد رؤية المؤلّف حول الموازنات الصوتيّة نجده قد تكلف في توجيه دلالة بعض النقول التاريخيّة البلاغيّة، مقحماً إيّاها في الحقل الصوتيّ إقحاماً، على الرّغم من وضوح دلالتها، من ذلك ما نقله من روايات تتناول مسألة عيوب القافية، كالإقواء والإكفاء والسّناد، جاعلاً إيّاها البيئة الخصبّة لإنتاج المصطلحات التوازنيّة، فهذا -إن صحّ- فإنّما هو أمرٌ نسبيّ، فهو قليل، وقد تجنّبه فحول الشعراء، فهو لا يدخل في باب الموازنة، ذلك الباب الكبير القائم على التقابل والتعادل - كما اصطّح عليه المؤلّف-. ومن تلك النقول أيضاً، ما أورده المؤلّف عن الجاحظ في البيان والتبيين، وسننقل نصّ ما أورده الجاحظ، مقارناً بما حمّله عليه المؤلّف ليتّضح المراد من قوله، يثبت الجاحظ باباً آخر ضمن (باب شعر وغير ذلك من الكلام ممّا يدخل في باب الخطب): "ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضّلون إصابة المقادير، ويذمّون الخروج من التعديل"^(٤)، ثمّ ينقل: "وقال أحدُ الشعراء لصاحبه: "أنا أشعرُ منك، قال: ولم؟ قال: لأنّي أقول البيت وأخاه، وأنتَ تقول البيت وابن عمّه، وعاب رؤية شعر ابنه، فقال: " ليس لشعره قران، وجعل البيت أخوا البيت إذا أشبهه وكان حقّه أن يوضع إلى جنبه"^(٥).. [ثمّ يُورد نماذج شعريّة لبيان موازنة اللفظ للمعنى] فهذا ممّا يدلّ على توسّعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض، واشتقاق بعضه من بعض"^(٦)، وبعد أن يُورد المؤلّف هذا الكلام أو بعضه، يقول: "هذه العبارة غامضة، فهل الحمل والاشتقاق منصرفان إلى المعنى أم إلى الأصوات؟ الاحتمال الأول راجحٌ من خلال ما سبق ولكنّ الثاني ممكنٌ أيضاً يدعمه إيراد المؤلّف في هذا السياق قول

(١) ظ: اللغة في الدرس البلاغي: ٣٩.

(٢) البلاغة الاصطلاحية: ٣٨٢.

(٣) المنزع البديع: ٣٠٩.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ١٩٨.

(٥) م.ن، ١/ ١٩٩.

(٦) م.ن، ١/ ٢٠٠، وينظر: الموازنات الصوتيّة: ٤٥.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

رؤية في شعر ابنه" ليس لشعره قران"، والقران والاقتران عند الجاحظ يتجهان إلى تأليف الحروف والألفاظ^(١) فعلى الرغم من كون الجاحظ قد جعل الاقتران للألفاظ والحروف^(٢) إلا إن سياق الباب وما أورده من شواهد، بل وصريح جملة من عباراته التي قدّمنا بعضها يدلُّ على كون المراد من الاقتران هو اقتران المعاني والألفاظ، إلا إن محاولة تأكيد الجانب الصوتي حملت المؤلف على التعميم الذي يخرج عن الموضوعية.

٦- من الملاحظ أن الدراسة جاءت مترصدةً للموازنات الصوتية في التراث البلاغي العربي، انطلاقاً من محاولة تحريرها من الانزواء الذي اعترأها بسبب من المنهجية التي جعلها المؤلف منحصرة في كتاب علوم البلاغة لمصطفى المراغي، الذي حلَّ المؤلف مادته البلاغية إذ نسبها إلى رافدين أساسين، الأول بلاغة السكاكي في مفتاح العلوم، وهي المعروفة بإقصائها للموازنات عن نظرية المعنى وجعلها جزءاً من البديع^(٣)، والثاني، فصاحة الكلام والمتكلم الخفاجية، التي جعلها منتميةً للجاحظ في معالجته للخطاب الشفوي^(٤)، والغريب في ذلك أن المؤلف جعل هذين الرافدين من الروافد المهمة " إمّا بالنصّ القرآني (وليس شعراً على كلّ حال) أو بالنصّ النثري الشفوي، وشروط تحقّقه شفوياً تعلّقت بجهاز نطق الخطيب، أو هيئته، أو بالألفاظ وخفّتها على اللسان والسمع، فالنّياران يغيبان الشعر في استراتيجيتهما العامة ويغيبان مكوّناتاً من مكوّناته الأساسية المميّزة له في ممارستهما.."^(٥)، على حين أن المطلع على المنهجية العامة لكلا الرافدين يجد أن المسار الشعري هو الغالب والموجّه لدقّة التقعيد والتقنين، فهذه الدعوى التي تقدّم بها المؤلف معكوسة المقدمات منقلبة النتيجة، وربّ اطلاعٍ سريعة على متني هذين الكتابين، وغيرهما من كتب البلاغة، إلا ما استثنى ممّا ذكرناه، تكون برهاناً على ذلك، ومع ما تقدّم فقد جعل المؤلف " الطرح النظري لوظيفة الجانب الصوتي في شموليته، باعتباره عنصراً بنائياً في الشعر فإنما نجده عند الفلاسفة المسلمين، ومن تأثر بهم في إطار نظرية المحاكاة"^(٦)، فعلى الرغم من هذا الحكم العام الذي تقدّم به المؤلف نجد أن معالجته للنقطة الخامسة في منظومة موقعية الموازنات التي طرحها، وهي " في نظرية الأدب: وظيفة التوازن"^(٧)، قد اقتصر على ترصد ما ذكره ابن سينا، وابن رشد، والفارابي حول مفهوم الشعر وعلل تولّد

(١) الموازنات الصوتية: ٤٥.

(٢) ظ: البيان والتبيين: ٧٧ / ١.

(٣) ظ: الموازنات الصوتية: ٣٥.

(٤) ظ: م.ن، ٣٦.

(٥) م.ن.

(٦) م.ن: ٣٨.

(٧) م.ن: ٨٩.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الشعرية، وهي نظرة اتّسمت بتحليل الشعر انطلاقاً ممّا ذكره أرسطو في الموضوع، ففي الحقيقة نودّ أن ننوّه إلى:

أ- أنّ ما نقله عن رؤية الفلاسفة المسلمين، وتحليلهم لعلل نشأة الشعر هو عينه كلام أرسطو وتحليله، فلم يخرجوا عن حدود ما علّله وذكره، من أسباب نشأة الشعر، وهي المحاكاة والالتذاذ بها، والوزن، إذ إنّ "الشعر - على العموم - ولده سببان، وأنّ ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية، فإنّ المحاكاة أمرٌ فطريٌّ موجود للناس منذ الصغر،.... ثمّ الالتذاذ بالأشياء المحكيّة أمرٌ عامٌّ للجميع... وإذا كان وجود المحاكاة لنا أمراً راجعاً إلى الطبيعة، وكذا وجود الإيقاع والوزن.. فإنّ من كانوا مجبولين عليها منذ البدء قد أخذوا يرقون إليها قليلاً قليلاً حتّى ولّدوا الشعر من الأقاويل المرتجلة،.." (١)، ولم يُشر المؤلّف إلى ذلك، بل اكتفى بنقل رؤية ابن سينا في الموضوع، وهي في حقيقتها وليدة عن ذلك الأفق.

ب- إنّ حقيقة ما طرح من معالجة للشعرية وتحققها، ومقارنتها بالخطابية، وأنّ الشعرية قد تعرض لها خطابية والعكس، ناظرٌ إلى محض الوزن والتخييل، فليس من معالجة للجانب الصوتي إلا ما كان من الوزن، وانتظام الأقوال المتخيّلة في منظومة إيقاعيّة متوحّدة، وهذا الجانب ليس فيه جديد، إذ اكتتفته الدراسات العروضية منذ الخليل بن أحمد، فيا ترى هل أنّ حكم المؤلّف في كون الموازنات الصوتية طرحت في أحضان معالجة الفلاسفة المسلمين، وبقولٍ أصرح، بين أفياء نظرية أرسطو في الشعر؟، مع ملاحظة أنّ الجانب الصوتي الدلاليّ عند العمري هو ما كان من التجنيس والترصيع فقط، وبهذا يكون ما طرحه المؤلّف في نقطة "البديع ونقد الشعر" أكثر عمقاً وارتباطاً بالجانب الصوتي الأصيل، بل أكثر أصالة.

٧- تناول المؤلّف مصطلح البلاغة العامة قاصداً بها تلك الدراسات التي تناولت دراسة الكلام (طبعاً الكلام الشعري بالدرجة الأساس) دراسةً جامعةً بين الاتجاهين الأولين، وهما، البيان الجاحظي الشفوي الخطابي، والاتجاه البديعي، وتتبع المقوم الصوتي فيهما، وقد رشّح شخصيتين مثّلتا هذا التوجّه، الأولى، وهي شخصيّة أبي هلال العسكري في الصناعتين، وهي المؤسسة، والثانية شخصيّة ابن سنان الخفاجي، وهي المتممة، أو الموسّعة للجانب الصوتي، وهذا الرّصد ممتاز في هذا السياق، وقد تتبّع المؤلّف السياق الصوتي عند ابن سنان، فأثارت دهشته نقطة سجّلها لابن سنان، إلاّ أنّه لم يرقّ بها ليعترف لابن سنان بالسّبق الصوتي المتأصل، والمنفرد ضمن منظومة الدراسة الصوتية، التي كان يروم المؤلّف رصدها في التراث من خلال الموازنات الصوتية، ونحن في نظرنا أنّ ابن سنان كان رائداً في هذا المجال، وحصيماً في تتبّعه لدراسة المقوم الصوتي المفرد الحر، وتتبعه في جذوره وتشكلاته المختلفة، وسيُتضح

(١) فن الشعر: ٣٦ و ٣٨.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

لنا ذلك بعد تعليقنا على ما ذكره المؤلف، - سننقل الكلام على طوله؛ لأنّ فيه تمام المراد- يقول: "ونسجل هنا، بكثير من الدهشة جعل نقد الكلام فرعاً من دراسة الأصوات، إذا قصد من هذه الدراسة الاهتمام بالمخارج والصفات، وغيرها ممّا يمسّ الأصوات في انفصالها عن المعاني. ونعتقد أنّ ما يقصده المؤلف بالأصوات - وهذا مجرد اجتهاد- هو (باب العبارة) أي الدلالة باللفظ، والصوت، أو جانب منه، إنّ هذا الاحتمال الوحيد الذي يمكن استساغته هنا، وإن كانت تفاصيل حديث ابن سنان عن الأصوات ذات نُكهة جاحظية، أي الحديث عن فصاحة المتكلم وفصاحة اللفظ"^(١).

إنّ إعادة النظر وإجالتّه في كتاب سرّ الفصاحة للخفاجي ستحيل على أنّ ابن سنان كان واعياً لاستعراضه مراتب التطور أو التكوّن الصوتي، من خلال تقصّي مخارج الحروف ودراسة صفاتها، همساً وجهرأ، شدّة ورخاوة، واستقالّة واستعلاء ... وإنّ وعيه ينصبّ في قضية الإعجاز في الحقيقة، وبيان رأيه فيها، فالكتاب- كما يرى البحث- ينطوي على رؤية عقائدية حاول ابن سنان التعبير عنها، فهو وإن لم يصرّح بالنقض على من قال بالكلام النفسيّ من الأشاعرة، تلك المقولة المتعلقة بكلام الله عزّ وجلّ، وهل هو قديم أم محدث، وما دار حولها من معارك كان للسياسة يدٌ في تحريك دقّتها^(٢)، إلا إنّ أفكار البلاغيين آنذاك قد لاكتها، وعركتها، فكان لابن سنان سهمٌ في كنانته صوّبه نحو ذلك الهدف، فتناول الأصوات بالدراسة والتفصيل، ليومئ إلى أنّ الكلام هو ألفاظ، والألفاظ متقوّمة بالأصوات، والأصوات أمور مدركة معقولة، وما عُقل وأدرك فهو موجود ولكنّ وجوده على نحو العرض لا الذات، يقول: "والصوت معقولٌ، لأنّه يُدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يُدرك، وهو عَرَض وليس بجسم، ولا صفة لجسم، والدليل على أنّه ليس بجسم أنّه مدركٌ بحاسة السمع، ..."^(٣)، ثمّ يُفيضُ في الموضوع إلى أن يصل إلى ذكر الكلام وبيان المراد به فيحقّق في أنّ الكلام جنس يُطلق على المفيد وغير المفيد، ويفنّد رأي سيبويه ومن وافقه في حمل الكلام على المفيد دون غيره، فيسرد الشواهد والأدلة من كلام العرب وينقل إجماعهم على أنّ مرادهم من الكلام هو مطلق الكلام المصوّت، الشامل للمفيد وغير المفيد^(٤)، ليخلص إلى نتيجة يوضّح بها رؤيته العقائدية، بالقول: "فأمّا من ذهب إلى أنّ الكلام معنّى في النفس من المجبّرة، فإنّ الذي حملهم على هذا المذهب الواضح الفساد ظهور أدلّة نظار المسلمين على حدوث هذا الكلام المعقول، وتقديم بعض حروفه على بعض، فلم يتمكّنوا

(١) الموازنات الصوتية: ٦٩.

(٢) حول هذا الموضوع توجد دراسة حديثة طبعت مؤخراً استقصت هذا الجانب وتناولت اطرافه، وأبرز مقولاته مع مناقشتها، وبيان لموقف الجرجاني حول القضية، إلا إنّ الباحث لم يتعرّض لابن سنان بالذكر، على حين إنّ معالجة ابن سنان -كما نرى- تصبّ في نفس الأفق. ظ: فهم الخطب القرآني بين الإمامية والأشاعرة، د. صباح عيدان عبادي، ٢٦٢ وما بعدها.

(٣) سرّ الفصاحة: ٦.

(٤) ظ: م.ن: ٢٢-٣٠.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

من الاعتراف بأنه من جنس الأصوات المتقطعة مع القول بأن كلام الله قديم....^(١)، ثم يستعرض ابن سنان مقولة الكلام النفسي، ويناقشها مناقشة مستفيضة، ويقيم الشواهد العقلية على إبطال القول بها^(٢)، فيظهر أن محاولة ابن سنان لتقصي الصوت في أنحاء المختلفة كان بمنزلة المقدمة لما أراد تقريره في رد مقولة الكلام النفسي التي تعاطاها المتكلمون من الأشاعرة آنذاك، والتي قال بها معاصره الجرجاني^(٣)، ويمكننا ملاحظة جملة من إشارات إلى هذا الأمر من قوله في سياق الرد:

أ- " وليس لهم أن يمتنعوا من وجود الكلام في الصدى، لأنه عندهم معنى في النفس، لأننا قد بينا أن الكلام هو هذه الأصوات المخصوصة فيما تقدم."^(٤)

ب- "... والذي يدل عليه [هو تقريره لكون الحكاية غير المحكي وإن كانت مثله، والقارئ لا يسمع منه إلا ما فعله، والقراءة غير المقروء، والكتابة غير الكلام، وإنما هي أمارات للحروف..] أننا قد بينا فيما تقدم أن الكلام هو الصوت فلا شبهة في أنه باق لما بيناه أيضاً، وإذا كان الكلام هو الصوت – والصوت لا يجوز عليه البقاء- فكيف يقال إنه يوجد في قراءة كل قارئ ومع الكتابة وغيرها؟..."^(٥).

إذاً فابن سنان جعل من مقدمته الصوتية منطقاً لتوضيح رؤيته في الكلام النفسي، كما أن لها أثراً آخر يرتبط بما تعاطاه من وصف الفصاحة في الألفاظ المفردة، وضرورة كونها واضحة المخرج متلائمة الأصوات^(٦)، من هذا يظهر أن جعل ابن سنان نقد الكلام فرعاً عن دراسة الأصوات^(٧)، هو نفس تناوله لسر الفصاحة، من جهة، ومقدمة لبيان رؤيته تلك، لا " (باب العبارة)، أي الدلالة باللفظ والصوت، أو جانب منه"^(٨)، التي جعلها المؤلف غامضة عائمة لا يفهم المراد منها، ولم يفصل القول فيها، إذ إن الصوت هو لازم من لوازم اللفظ، وباب العبارة عند ابن سنان، كما هي عند ابن وهب، تمثل المرتبة المتنزلة عن المعنى الذهني كما تقدم. وقد تمثل بعض باحثي الإعجاز المعاصرين اتجاه ابن سنان في نظره الصوتية، إذ تناول الإيقاع القرآني، فكان " ما يتألف من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة، ومن تناسق

(١) سر الفصاحة: ٣٠ و ٣١.

(٢) ظ: م.ن، من ٣١ إلى ٣٨.

(٣) ظ: فهم الخطاب القرآني: ٣١٩ و ٣٢٠.

(٤) سر الفصاحة: ٣٦.

(٥) م.ن، ٣٧.

(٦) م.ن، ٥٤ و ٥٥ و ٩١.

(٧) ظ: الموازنات الصوتية: ٦٩.

(٨) م.ن.

الفصل الثالث..... مصادر التجديد/تحليل وموازنة

الإيقاعات بين كلمات الفقرة، ومن اتجاهات المدّ في الكلمات، ثمّ اتجاهات المدّ في نهاية الفاصلة المطّردة في الآيات، ومن حرف الفاصلة ذاته" (١).

٨- أفرز المؤلف من خلال دراسته للمقوّم الصّوتيّ عند الجرجاني، أنّه " لم يطرح قضية المعنى كمبدأ متحكّم في كلّ مكّونات الفصاحة، ومنها المكوّن الصّوتيّ، بل إنّ جعل الصوت عوضاً لغيره، وجعل حضوره في غيره كافياً لإبعاده، ولو نظر إلى تفاعل العنصرين الصّوت والدلالة دون أن يغمط أحدهما حقّه لكان لنظريّته قيمة كبيرة" (٢)، وهذه نظرة صائبة ومحقّقة، إذ إنّ الإعجاز الصّوتيّ، لا شكّ في كونه داخلاً ضمن سياق الإعجاز، فكيف يمكن استثنائه كما فعل الباقلانيّ، وأصلّه الجرجانيّ؟!.

من خلال جميع ما تقدّم من ملاحظات فإنّنا نرى أنّ المؤلف قد أحسن في محاولة تفصّي الموازنات الصوتية في التراث البلاغيّ، وبيان موقعها منه، إلا إنّ محاولة حمل البلاغة العربيّة على منهجية الموازنات الصوتية نعدّها محاولة ظالمة، ومهمّشة لكثير من الرؤى والآفاق، وخصوصاً إذا ما لاحظنا ضيق الدائرة التي تحرّك ضمنها المؤلف، وهي قصر الموازنات على الترصيع والتجنيس فقط، لذلك نرى أنّ تذييل المؤلف لعنوان كتابه بـ" نحو كتابة تأريخ جديد للبلاغة العربيّة" لا يستقيم.

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٨٥، وينظر، فهم الخطاب القرآني: ٣٢٨ و ٣٢٩، الإعجاز الصوتي، والإيقاعي والسردّي.
(٢) الموازنات الصوتية: ٨٣.

نتائج البحث

وبعد هذه الإفاضة فقد تكلل البحث بجملة من النتائج شكّلت خاتمته، نوجزها بما يأتي:

١- ليس بالضرورة أن ينطوي التجديد على تغيير المعالم الأساس لعلم من العلوم، بل إنّ آفاق التجديد متعدّدة ومتنوّعة، تشتمل على وسائل وآليات متعدّدة، كالتنقيح والتهذيب، والاختصار، والحذف، والإضافة في حدود معيّنة، فليس التجديد أن يُعمد إلى إدخال قراءاتٍ وحيثيّات قوليّة وفكريّة، قد تتقاطع والسيّاق التداوليّ، أو الثقافي، والمعرفي في كثير من الأحيان، ولعلّ مقولة قتل القديم فهماً، تمثّل المنهج اللاحب لمن أراد شقّ غمار التجديد وولوج أبوابه بطريق سليمة.

٢- القرآن الكريم هو الكتابُ المعرفيّ الأساس الذي تبلورت عنه الثقافة البلاغيّة، قوانين ومقولات، إبان فورة التقنين التي عاشها القرن الثالث، والرابع الهجريين، فكانت معركة الإعجاز، والنظر في أعطاف القرآن لاستكناه مظاهر إعجازه، السبب في بلورة المقولات البلاغيّة، بل السبب أيضاً في تسليط الضوء على جنس الشعر الذي استأثر بالنظر والتحليل على الرغم من كون النصّ المقصود بالدراسة هو القرآن الكريم، فمن هنا انبثقت جملة كبيرة من الرؤى وفُرت إمكانات متعدّدة لبلاغة الشعر وأسلوبيّته، على حين ظفر النصّ القرآنيّ باليد الصّغرى، فلا تكاد تجد شأنًا بلاغيّاً قرآنيّاً محضاً أو على نحو التغليب، ولا تتعثر بنظريّة بلاغيّة قرآنيّة، إلا ما كان من شأن مباحث الإعجاز التي أفرزت إمكانات الشعر ووسائله، من هنا لا بدّ لمن رام التجديد أن يعيد النظر في البلاغة القرآنيّة، ويُحرّر إمكاناتها، ويستنطق بلاغتها في مطابقة الحال لمقتضى السياق المقامي والمقال، ليتسنى له الانتفاع بالبيان القرآني الذي يتّسم بالغضاضة والديمومة الزمنيّة.

٣- أفرز البحث أنّ محاولة تقصّي ودراسة الإعجاز القرآني، والتي أفرزت اتجاهين فيه، هما الاتجاه الذاتي في الإعجاز، واتجاه الصّرفة، أنّ كلا الاتجاهين قد أغفلا حقيقة هذا الكتاب العظيم، من جهة عدم استيعاب حقيقة التحدي التي أصحر بها القرآن الكريم في أفياء العرب، متحدّياً بلاغتهم، ومن ثمّ فإنّنا نجد أنّ نسبة كبيرة من هذه الدراسات التي عالجت الإعجاز كانت محصّلة للحاصل، متعاطية لما برهن عليه القرآن وما ثبت إعجازه، بتسليم العرب له قيادهم، والشأن الأساس في ذلك هو عدم ملاحظتهم كون الإعجاز قد تحقّق على العرب بسبب من معاني القرآن التي اتّسمت جملةً منها بالجدة عن بيئة العرب، وبالامتداد الزمنيّ الواسع، فهاتان الطائفتان من المعاني كانتا مندمجتين في لفظه المبارك، والمعلوم أنّ البليغ لو أراد أن ينظم كلاماً بليغاً لا بدّ له من تصوّر معناه في نفسه، كما قرّره الجرجاني، ثمّ يلبسه ثوبه المناسب به ليخرج طبقاً للحال، أو المقال، أمّا إذا خلت نفسه عن معناه،

وتأه في بحر نداءه، فأني له أن يعركه فيتحداه؟ ، فوقفنا على أن العرب لم يدركوا حقائق معانيه، فاستعصت عليهم الألفاظ، فامتنت المعارضة، في وجه من وجوها. ٤- أفرز البحث أيضاً محاولة تكريس النسق الشعري بوصفه نسقاً ثقافياً حاملاً لمحاولات حضارية وتراثية، وأنماط تفكير ألفها العرب قبل نزول القرآن، إذ لم نجد بلورة للنسق القرآني البديل الذي طرح نفسه بديلاً عن النسق الثقافي السائد أولاً، وكاسراً لصولة الشعر بصفتيه الوزنية والدلالية ثانياً، وقد تبنت السلطات المتتابعة وظيفة هذه المحاولة، مؤصلة للجانب الشعري ومحكمة لنسقيته، مغيبة للقرآن بوصفه النسق الثقافي الأعلى، ما كرّس إمكانات بلاغية ونقدية خاصة بالشعر، والشعر وحده، وقد حكمت سائر الأجناس القولية الأخرى، كما كان لمحاولات التدوين الأولى اليد الطولى في تهيئة المادة اللازمة لهذا التكريس، وإن ادعت بعض المحاولات الوصول إلى حقيقة النص القرآني من طريق طرق باب الشعر؛ لأنه عربي.

٥- قدّم البحث رؤية جديدة، ومحقة لدعوى أرجحية الشعر في الثقافة الإسلامية، ومحاولة ترصد مواقف مؤيدة لهذه الرؤية، من خلال استنطاق نصوص نبوية استظهروا منها ذلك، وقد بين البحث أن في هذه المحاولة من التلبس الشيء الكثير، فلم تسلم تلك النصوص من نقض دلالتها، فضلاً عن وجود نصوص جلية محكمة أخرى كاشفة لدلالة الضد، أهملها كثير من الباحثين، والمحققين، قدامى ومحدثين، ما أدى إلى ترداد تلك الرؤية في كثير من كتب الأدب والنقد، وهي رؤية غير تامة الدلالة لما بيناه.

٦- نتيجة لما سبق فقد أفرزت البلاغة العربية جملة من المفاهيم والرؤى البلاغية تقاطعت في مستواها البلاغي مع بلاغة القرآن، كمفهوم التشبيه البليغ، وهو ما حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، وظاهره قوة التشبيه قياساً بالتشبيه مكتمل العناصر، وهذا خلل منهجي يتقاطع وتشبيهات القرآن، بل حتى بعض النصوص الأدبية، ومثله السجع طولاً وقصراً.

٧- من أجل تحقيق رؤية بلاغية متكاملة لا بدّ من إعادة النظر في قضية اللفظ والمعنى، وبيان حقيقة العلاقة بينهما بعيداً عن أيّ محاولات أجنبية عن الموضوع، عقائدية أو غيرها؛ لأن دراسة العلاقة بين اللفظ والمعنى تمثل الوجه الصحيح للإنتاج القولی والفعل الكلامي، مع إعادة النظر في الخيال، الذي يمثل قوة جُبلت على المحاكاة وتصوير المعاني بصور مناسبة لها، ما يستدعي ارتساماً لفظياً معيناً تبعاً لذلك.

٨- يُعدّ مصطلح البديع أسبق مصطلحات البلاغة ولادةً ونشأة، وإن كان تكون مصطلح البيان تزامن مع تولّد البديع إلا أن مصطلح البديع نشأ ملتصقاً مع حقيقة الأداء البلاغي المتمثل بالأساليب والصياغات الجديدة التي استأثر بها بعض الشعراء

- المحدثين، وهو ما فتح الباب واسعاً للبلاغة الشعرية أن تنطلق باتجاه النقد والتقنين، وتفتيق المصطلحات، بل يمكن عدُّ البديع أساساً في إثبات أصالة البحث البلاغي عند العرب، ونقض دعوى يونانيته؛ لأنه ارتبط أساساً بأساليب خالصة في العربية تبعتها معالجات نقدية متمحضة في الأدبية الخالصة، كمحاولة ابن المعتز في كتابه البديع.
- ٩- أكد البحث أنَّ البديع ليس محضَ محسنات زخرفية، ووسائل تحسين للقول، بل إنه في جملة من فنونه يخرج عن هذا الإطار خروجاً ملحوظاً ليساهم في انتاج الدلالة انتاجاً لا يمكن أن تتحقق من دونه، وقد انكشف هذا الأمر من خلال دراستنا لمقاربة الأداء الوظيفي لفني المقابلة والانعكاس، كما أشرنا إلى أنَّ السبب في وصم البديع بالتحسين إنما جاء بوصفه ردّة فعل على محاولات المحدثين من الشعراء لتقليب شعرهم والعناية به بنحو هزلي، ما أثر حتى على دارسي الإعجاز فيما بعد، إذ أقصوه من درسم الإعجازي، نظراً لسوء السمعة الفنية التي اكتسبها بسبب من متعاطيه، على الرغم من كونه أساساً في الصياغة عند العرب القدماء.
- ١٠- أكد البحث ضرورة عدم الفصل بين علوم البلاغة الثلاثة، بل ينبغي أن تُتناول ضمن نسقٍ نظاميٍّ واحد، إذ لا يُتصور الفصل بينها، وإنَّ الدراسات التي تناولتها مفصولةً جاءت بنتائج جزئيةً مبتورة، إذ إنَّ العمل الفني في مراحل انتاجه الذهني من قبل منشئه لا يُتصور انفصاله، إلا بمقدار التصوّر الذهني الأولي.
- ١١- حملت جملة من الدراسات التجديد عنواناً ظاهراً فقط من دون أن تتمخض عن رؤية بلاغية متجددة، وهو ما اعتبره البحث ردّة فعل على الدراسات الموهلة في الحداثة، إذ جعل العنوان بمنزلة القوة الجاذبة لقراءة الموروث، بما هو.
- ١٢- تكاد تتفق جملة الدراسات المجددة، على تغيير النظرة للبديع بوصفه محض محسنات وزخرفة لفظية، إلى القول بأثره الدلالي على الناتج القول، مع اختلاف طرق المعالجة في تحقيق هذه الرؤية، بين إثبات الوحدة النصية، أو التوليد والتحويل داخل التركيب، أو محض التحليل الدلالي، وغيرها، وهي محاولة حسنة في رد الاعتبار لهذا العلم من علوم البلاغة.
- ١٣- وعطفاً على ما سبق نرى أنه من الممكن تهذيب تعريف علم البديع بلاغياً بالقول بأنه: "وجه أو أساليب صياغة فنية يراد منها إخراج القول إخراجاً مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته، وتحسين لفظه"، ما سيجعل منه مشاركاً لقسيميه في انتاج الدلالة.
- ١٤- إنَّ كثيراً من الدراسات التي تناولت البديع قصّد التجديد تناولته مبتوراً، بمعنى أنها لم تعد إلى تهذيب تفريعاته وتشققاته، بل اقتصرت على فنون جزئية محدودة بما تحقق بها رؤيتها التي تطرحها في التجديد، وهذا ما قلل من جدوى المحاولة على الرغم من ثمرتها الجزئية.

- ١٥- إنّ من أجدى المحاولات التجديديّة في هذا العلم بنظر البحث هي تلك المحاولات التي عمدت إلى تصنيف فنونه ضمن جملة من العنوانات الكلية، أو فنقل الحقول العامّة التي تجمعها وحدة دلاليّة مشتركة، تندرج تحتها جملة من الفنون، فهذا سيسهل دراستها أولاً، ويقلّص من تراكمها العددي ثانياً.
- ١٦- ماتزال الوحدة النصيّة بحاجة إلى بلورة، وتعميق من خلال معالجة النصوص التي تمثّلها تمثيلاً صحيحاً، فعلى الرّغم من تجدد وتكرّر دعوى النصيّة إلّا أنّنا لم نلمس واقعيّة لتلك الدعوى إلّا في حدود ضيقة، فضلاً عن أنّ الوحدة النصيّة بحاجة إلى تأسيس مقولتها على رؤية نظريّة قائمة على الوصفية أولاً، ثمّ الاتجاه بها معيارياً لإفراز قواعدها العامّة التي من خلالها تتحدّد الوحدة النصيّة للنصّ.
- ١٧- وأخيراً فإنّ رصد دراسات التجديد وتنقيحها وتهذيب أفكارها، محاولة لابدّ منها ليتمّ سبر غورها، وتمحيص صحّة دعواها، وقد جاءت هذه الدراسة مدّعيّة السير في هذه السبيل، فاتحة الباب لها، لعلّها تُشفع بدراسات أكثر فاعليّة وجدوى. ولعلّ في طيّات البحث من النتائج ما تركت لمتلقّيه ممّا يتعلّق بمعالجة تلك الدراسات. ومن الله التوفيق.

ملحق

ثَبْتُ تَعْرِيفِي بِالْمَصْطَلَحَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ

ثبت تعريفي بعض المصطلحات البديعية الواردة في البحث:

اقتضت منا منهجية البحث التعريف بجملة من بُنى البديع التي وردت ضمن البحث، والتي لم نتعرض لبيان حدّها الاصطلاحي مع جملة ما ذكرناه منها، بسبب من منهجية البحث أيضاً، فارتأينا استعراضها بالتعريف والمثال المقتضب؛ ليتسنى الرجوع إليها، نظراً لكثرة مصطلحات البديع، وتشعبها، ما يُسبّب الخلط فيما بينها عند المطالع^(١):

١. **تجاهل العارف:** وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقةً، تجاهلاً منه به ليُخرج كلامه مُخرج المدح أو الذم، أو ليدلّ على شدة التدلّ في الحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير، أو التوبيخ،.... مثاله، قوله تعالى: "أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ دُونِ النَّاسِ" (سورة المائدة ١١٦)^(٢).

٢. **الهزل الذي يُراد به الجد:** وهو أن يقصد المتكلم مدح إنسان، أو ذمه، فيخرج المقصود مُخرج الهزل المعجب، والمجون المطرب: كقول أبي نواس:

إذا ما تميمي أذاك مفاخرأ فقل: عدّ عن ذا كيف أكلك للضب^(٣).

٣- **حسن التضمن:** وهو أن يضمن المتكلم كلامه كلمةً من بيت، أو من آية، أو معنى مجرداً من كلام، أو مثلاً سائراً، أو جملةً مفيدة، أو فقرة من حكمة، كقول الإمام عليّ عليه السلام، في جواب كتاب لمعاوية: "وما الطلقاء وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين، وتبيين درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هيهات لقد "حنّ قدحٌ ليس منها، وطفق يحكمُ فيها من عليه الحكم لها"^(٤).

٤- **الاستطراد:** هو أن يكونَ المتكلم في معنى، فيخرج من بطريق التشبيه، أو الشرط، أو الاخبار، أو غير ذلك، إلى معنى آخر يتضمّن مدحاً، أو قدحاً، أو وصفاً، أو غير ذلك، كقول حسان:

إن كنتِ كاذبةً التي حدّثتني فنجوت منجا الحارث بن هشام
تركّ الأحبة أن يقاتلَ دونهم ونجى برأس طميرة^(٥) ولجام^(٦)

(١) اعتمدنا في هذا الثبت التعريفي على كتاب تحرير التحبير لابن أبي الاصبع المصري غالباً، والإيضاح والصناعتين قليلاً.

(٢) تحرير التحبير: ١٣٥ و ١٣٦.

(٣) م.ن: ١٣٨ و ١٣٩.

(٤) م.ن: ١٤٠.

(٥) الطميرة: الفرس العادية أو المهينة للعدو السريع.

(٦) ١٣٠ و ١٣١.

٥- **التفوييف:** هو عبارة عن إتيان المتكلم بمعانٍ شتى من المدح، أو الغزل، أو غير ذلك، من الفنون والأغراض، كلٌّ فنٍّ في جملةٍ من الكلام منفصلةٍ عن أختها بالتجميع غالباً، مع تساوي الجمل المركبة في الوزنية، ويكون بالجمال الطويلة والمتوسطة والقصيرة، كقول عنترة:

إن يلحقوا كركر وإن يُستلحموا اشدد وإن نزلوا بضنكٍ فانزل^(١)

٦- **الترديد:** هو أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردّها بعينها ويعلّقها بمعنى آخر، كقوله تعالى: "حتى يُؤتى مثل ما أُوتي رسلُ الله الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالته" (سورة الأنعام ١٢٤)، وقوله تعالى: "ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" (سورة الروم ٦ و٧)، ومن تردّد حرف النداء قول المتنبي:

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ليثَ الشّرى يا حمامُ يا رجلُ^(٢)

٧- **الإطراد:** وهو أن تطرد للشاعر أسماء متتالية يزيد الممدوح بها تعريفاً؛ لأنها لا تكون إلا أسماء آبائهم تأتي منسوقة صحيحة غير متقطّعة، من غير ظهور كلفة في النظم، ولا تعسف في السبك، بحيث يشبه تحدّرها بإطراد الماء؛ لسهولة وانسجامه كقول الأعشى:

أقيسُ بنُ مسود بنِ قيسِ بنِ خالد وأنت الذي ترجو حبائك وائلُ^(٣)

٨- **التدبيج:** هو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألواناً يقصدُ الكناية بها، أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح، أو وصف، أو نسيب، أو هجاء، أو لبيان فائدة الوصف بها، كقوله تعالى: "ومنّ الجبالِ جدُّ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود" (من سورة فاطر، ٢٧)، فإنّ المراد بذلك- والله أعلم- الكناية عن المشتبه، والواضح من الطُّرق؛ لأنّ الجادة البيضاء هي الطريق الملحوب التي كثر السلوك فيها جداً، وهي أوضح الطرق وأبينها، ولهذا قيل: ركب بهم المحجّة البيضاء، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء التي كأنّها في الخفاء والالتباس ضدّ البيضاء في الظهور والوضوح، ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى في الظهور البياض، والطرف الأسفل في الخفاء السواد، والأحمر بينهما على حكم وضع الألوان في التركيب، وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة، والهداية بكلّ علم نُصب للهداية تنقسم هذه القسمة أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم، فحصل فيها التدبيج وصحة التقسيم، وهي مسوقة للاعتداد بالنعيم على ما هدت إليه من السعي في طلب

(١) تحرير التحرير: ٢٦٠ و٢٦١.

(٢) م.ن: ٢٥٣ و٢٥٤.

(٣) م.ن: ٣٥٢.

المصالح، والمنافع، والفرار من المضارّ والمعاطب، ومن التدبّيج الحسن في الشعر قول الحريري: " مذ ازورّ الحبيب الأصفرُ واغبرّ العيشُ الأخضرُ اسودّ يومي الأبيض وابيضُ فودي الأسود، حتى رُئي لي العدو الأزرق، حبذا الموتُ الأحمر" (١).

٩- الإدماج: هو أن يُدمَج المتكلّم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني، ليوهم السامع أنّه لم يقصده، وإنّما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه، كقول ابن نباته: ولا بدّ لي من جهلة لوصاله فمن لي بخُلٍّ أودع الحلم عنده

فإنّه أدمجَ الفخر في الغزل، حيث جعل حلمه لا يفارقه بتّة، ولا ترغب نفسه عنه جملةً وإنّما عزم على أن لا يودّعه (٢).

١٠- القول بالموجب: وهو أن يخاطب المتكلّم مخاطباً بكلام، فيعتمد المخاطب إلى كلّ كلمة مفردة من كلام المتكلّم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلّم؛ لأنّ حقيقته ردّ الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه، كقول ابن حجاج:

قلت: طولتُ قال لي: بل تطول. ت، وأبرمتُ قلت: حبل ودادي (٣)

١١- التنكيث: وهو أن يقصد المتكلّم إلى شيء بالذكر دون أشياء كلّها يسدّ مسدّه لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود تُرجّح اختصاصه بالذكر دون ما يسدّ مسدّه، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد، كقوله تعالى: " وإنّه هو ربُّ الشعري" (سورة النجم ٤٩)، فإنّه سبحانه وتعالى خصّ الشعري بالذكر دون غيرها من النجوم، وهو ربُّ كلّ شيء؛ لأنّ العرب كان قد ظهر فيهم رجلٌ يعرف ابن أبي كبشة عبد الشعري، ودعا خلقاً إلى عبادتها فأنزل الله تعالى "وإنّه هو ربُّ الشعري" (٤).

١٢- التوشيع: وهو أن يأتي المتكلّم، أو الشاعر باسم مثني في حشو العجز ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثني، يكون الأخير منهما قافية بيته، أو سبعة كلامه كأنهما تفسير ذلك، كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): "يشبُّ ابنُ آدم وتشبُّ فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل"، وكقول الشاعر:

أُمسى وأصبحُ من تذكاركم وصباً يرثي لي المشفقان: الأهل والولدُ

قد خدّد الدمع خدي من تذكركم واعتادني المضيان: الوجد والكمد (٥).

(١) تحرير التحرير: ٥٣٢ و ٥٣٣.

(٢) م.ن: ٤٤٩ و ٤٥٠.

(٣) م.ن: ٥٩٩.

(٤) م.ن: ٤٩٩.

(٥) م.ن: ٣١٦.

١٣- التطريز: وهو أن يبتدأ المتكلم، أو الشاعر بذكر جملٍ من الذوات غير مفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قدره في تلك الجملة الأولى، فتكون الذوات في كل جملة متعددة تقديرًا، والجمل متعددة لفظًا، والصفة الواحدة المخبر بها عن تلك الذوات متعددة لفظًا، وعدد الجمل التي وصفت بها الذوات لا عدد الذوات عدَد تكرارٍ واتحادٍ لا تعدادٍ وتغاير، كقول ابن الرومي:

أمورك بني خاقان عندي عجابٌ في عجابٍ في عجاب
قرونٌ في رؤوسٍ في وجوهٍ صلابٌ في صلابٍ في صلاب^(١)

١٤- التسميط: وهو أن يعمد الشاعرُ تصويرَ بعض مقاطع الأجزاء أو كلها في البيت على سجع يخالف قافية البيت، كقوله:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا^(٢)

١٥- التوأم: (أو التوشيح، والتشريع) وهو أن يكون للبيت قافيتان، متى اقتصر به على القافية الأولى كان من ضروب ذلك البحر الذي عمل الشاعر بيته منه، فإذا استوفى أجزاءه وبناه على القافية الثانية كان البيت من ضربٍ غير ذلك الضرب من ذلك البحر، وغالبه أن يختلف الرويان وإن جاز توافقهما، كقول الشاعر:

وإذا الرياحُ مع العشيّ تناوحت هُدج الرئال، تكبهنّ شمالا
ألفيتنا نفري العبيط لضيفنا قبل القتال، ونقتل الأبطال^(٣)

١٦- تشابه الأطراف (التسبيغ): هو أن يعيدَ لفظَ القافية في أول البيت الذي يليها، والتسبيغ زيادة في الطول، وسُمي بتشابه الأطراف؛ لأنّ الأبيات تتشابه أطرافها، كقول أبي نؤاس:

خزيمةٌ خيرُ بني خازم وخازمٌ خيرُ بني دارم
ودارمٌ خيرُ تميمٍ وما مثلُ تميمٍ في بني آدم
إلا البهاليلُ بنو هاشمٍ وهم سيوفُ لبني هاشم^(٤)

(١) تحرير التعبير: ٣١٤.

(٢) م.ن: ٢٩٥.

(٣) م.ن: ٥٢٢ و ٥٢٣.

(٤) م.ن: ٥٢١.

١٧- **النزاهة:** عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش، حتى يكون الهجاء كما قال فيه أبو عمرو بن العلاء.... " الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يقبُح عليها"، كقول جرير:

فُعُضَّ الطرفَ إنَّكَ من نُميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً^(١).

١٨- **الإرداف والتتبع:** وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ويعبر عنه بلفظ هو ردفه، وتابعه، أي قريب من لفظه قرب الرديف من الردف، كقوله تعالى: " **واستوت على الجودي**" (من سورة الآية ٤٤)، فإن حقيقة ذلك جلست على هذا المكان فعدل عن لفظ المعنى الخاص به إلى لفظ هو ردفه، وكقول امرئ القيس:

ويُضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نوؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل^(٢).

١٩- **التتميم والتكميل:** وهو أن توفي المعنى حظّه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره، كقوله تعالى: (**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييئه حياة طيبة**) (سورة النحل: الآية ٩٧)، وكقوله تعالى: (**وسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين**) (من سورة المائدة، الآية: ٥٤)، وكقول الشاعر:

ومقام العزيز في بلد الذل ل إذا أمكن الرّحيل مُحال^(٣).

٢٠- **الرّجوع:** هو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه، كقول القائل، ليس معك من العقل شيء، بلى، بمقدار ما يوجب الحجة عليك، وكقول الشاعر:

إنّ ما قلّ منك يكثرُ عندي وكثيرٌ ممّن تحبُّ القليل^(٤).

٢١- **التفريع:** وهو نوعان: أحدهما أن يبدأ الشاعر بلفظة هي إمّا اسم وإما صفة، ثم يكررها في البيت مضافة إلى أسماء، وصفات يتفرّع من جملتها أنواع من المعاني في المدح، وغيره ، كقول المتنبي:

أنا ابنُ اللّقاءِ أنا ابنُ السّخاءِ أنا ابنُ الضّرابِ أنا ابنُ الطّعانِ
أنا ابنُ الفياضِ أنا ابنُ القوافي أنا ابنُ السّروجِ أنا ابنُ الرّعانِ
طويلُ النّجادِ طويلُ العمادِ طويلُ القنّاةِ طويلُ السّننانِ

(١) تحرير التحرير: ٥٨٤ .

(٢) م.ن: ٢٠٧ و ٢٠٩.

(٣) الصناعتين: ٣٥٥ و ٣٥٦، وتحرير التحرير: ٣٥٧.

(٤) م.ن: ٣٦١.

حَدِيدُ اللَّحَاطِ حَدِيدُ الْحِفَاطِ حَدِيدُ الْحُسَامِ حَدِيدُ الْجَنَانِ

والآخر، أن ينفَرَّعَ عن المعنى، أو اللفظ معنىً واحدٌ من أصلٍ واحدٍ إمّا في بيتٍ، أو أبياتٍ، وإمّا في جملةٍ من الكلام، أو جملٍ، وهو أن يصدر الشاعر، أو المتكلّم كلامه باسمٍ منفي بـ "ما" خاصّة، ثم يصف الاسمَ المنفيّ بمعظم أوصافها اللَّائقة به، إمّا في الحُسْن أو القبح، ثم يجعله أصلاً يفرّع منه معنىً في جملةٍ من جارٍ ومجرور متعلّقة به تعلّق مدحٍ، أو هجاءٍ، أو فخرٍ، أو نسيبٍ، كقول الأعشى:

ما روضةٌ من رياضِ الحزنِ معشبةٌ
غناءٌ جادٌ عليها مسبلٌ هطلٌ
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقُ
مؤزَّرٌ بعميمِ البيتِ مكتـهـلٌ
يوماً بأطيبَ منها طيبَ رائحةٍ
ولا بأحسنَ منها إذ دنى الأُصلُ^(١)

٢٢- **الإلغاز والتعمية:** وهو أن يريَد المتكلّم شيئاً فيعبّر عنه بعباراتٍ يدلُّ ظاهرُها على غيره، وباطنها عليه، مثل قول الشافعي: "لا بأسَ بالمرأة إذا احتاجت أن تبيعَ زوجها لننفق ثمنه"، وكقول المعري ملغزاً في الهريسة:

أَتَتْنَا وَمَا لَاحَ الصَّبَاحُ وَقَدْ سَرَتْ	إِلَيْنَا الدَّجَى إِنَّ الْحَرَائِرَ لَا تَسْرِي
مَنْعَمَةٌ بِيضَاءَ مَا نَفَحَـاتَهَا	بِعَطْرِ وَلَكِنْ هُنَّ أَشْهَى مِنَ الْعَطْرِ
لَهَا وَالِدٌ عَانٍ وَأُمٌّ كَرِيمَةٌ	وَحَاضِنَةٌ سَوْدَاءُ جَائِشَةُ الصَّدْرِ
إِذَا أُودِعَتْ سِرًّا غَلَا فِي ضَمِيرِهَا	فَبَاتَتْ مِنَ السِّرِّ الْمَصُونِ عَلَى الْجَمْرِ ^(٢)

٢٣- **المقارنة:** وهي أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه، أو المبالغة، أو غير ذلك من المعاني في كلامه بوصلٍ يخفى أثره ويدقُّ موضعه، إلا عن الحاذق المدين النظر في هذه الصناعة، كقوله تعالى: **(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون)** (سورة الأنعام: الآية ٣١)، ومنه قول أبي تمام:

فَإِن أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاغِرًا عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ^(٣)

٢٤- **المناقضة:** وهي تعليق الشرط على نقيضين، ممكن، ومستحيل ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن؛ ليوثر التعليق عدم وقوع المشروط، فكأن المتكلم ناقض نفسه في الظاهر إذ شرط وقوع أمر بوقوع نقيضين، كقول النابغة:

(١) تحرير التحرير: ٣٧٢ و ٣٧٣.

(۲) م.ن: ۵۷۹.

(٣) م.ن: ٦٠٣ و ٦٠٥.

وإنك سوف تحلم أو تنأهى إذا ما شبت أو شاب الغراب^(١)

٢٥- **جمع المؤنث والمختلفة:** أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعانٍ مؤنثة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فصل لا ينقص بها مدح الآخر، فيأتي لأجل الترجيح بمعانٍ تخالف معاني التسوية، كقول زهير:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لـجـقـا

أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا^(٢).

٢٦- **التجريد:** وهو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفةٍ أمر آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها، وهو أقسام، منها ، كقولهم: "لي من فلان صديق حميم" ، وقول الشاعر:

وشوواء تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل^(٣).

٢٧- **الرجوع:** هو العود على الكلام السابق بالنقض لنكته، كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى، وغيرها الأرواح والديم^(٤).

٢٨- **الاستتباع:** وهو المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر، كقول أبي الطيب:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالدا^(٥).

٢٩- **اللف والنشر:** وهو ذكر متعدي على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يردّه إليه، كقول ابن الرومي:

أراؤكم، ووجوهكم، وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم

فيها معالم للهدى، ومصباح تجلّو الدجى، والأخريات رجوم^(٦).

٣٠- **النزاهة:** عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش، حتى يكون الهجاء إذا ما أنشدته العذراء في خدرها لا يقبح عليها، كما يقول أبو عمرو بن العلاء، ومنه قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا^(٧).

(١) تحرير التعبير: ٦٠٧.

(٢) م.ن: ٣٤٤ و ٣٤٥.

(٣) الإيضاح: ٣٠٧، الشوواء: الفرس القبيح المنظر، الفنيق، الفحل المكرم، المرحل، المشخص.

(٤) م.ن: ٣٠٠.

(٥) م.ن: ٣١٦.

(٦) م.ن: ٣٠٢.

(٧) ظ: م.ن: ٥٨٤.



مصادر البحث ومراجعته

مصادر البحث ومراجعته

✓ القرآن الكريم.

✓ أبحاث في بلاغة القرآن الكريم، محمد كريم الكوّاز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

✓ الإنقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

✓ الإحكام في أصول الأحكام علي بن محمد الأمدي (ت ٦٣١هـ)، تعليق، الشيخ عبد الرزاق عفيفي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

✓ أدب الإملاء والاستملاء أبي سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ)، شرح ومراجعة: سعيد محمد اللحام، بإشراف : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

✓ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، نشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م.

✓ الاستدلال البلاغي، د. شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.

✓ أسرار البلاغة، الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) تحقيق هـ. ريتز، دار احياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

✓ الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية" البنيوية والتوليدية"، د. محمد محمد العمري، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

✓ الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، تأليف وإعداد الدكتورة ابتسام أحمد حمدان، مرجعة وتدقيق أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربي- حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

✓ الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، تأليف وإعداد الدكتورة ابتسام أحمد حمدان، مراجعة وتدقيق، أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربي بحلب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

✓ الأسس المنطقية للاستقراء، دراسة جديدة للاستقراء تستهدف استكشاف الأساس المنطقي المشترك للعلوم الطبيعية وللإيمان بالله تعالى، تأليف، سماحة آية الله

- العظمى السيد محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق، لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ✓ الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ✓ إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- ✓ الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ✓ أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة د. محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م.
- ✓ أصول التفسير والتأويل، مقارنة منهجية بين آراء الطباطبائي وأبرز المفسرين، السيد كمال الحيدري، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- ✓ أصول العقائد في الإسلام، تأليف السيد مجتبي الموسوي اللّاري، تعريب، محمد هادي اليوسفي الغروي، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- ✓ أصول الفقه، الشيخ محمد رضا المظفر(ت ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م)، طبع وتوزيع جبار الحاج عبود، الطبعة الرابعة ١٩٧١م.
- ✓ أصول النظرية البلاغية د. محمد حسن عبدالله، مكتبة وهبة، القاهرة، (د.ت).
- ✓ الأصول دراسة إستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو- فقه اللغة- البلاغة، د. تمام حسان، عالم الكتاب، القاهرة-أميرة للطباعة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- ✓ الأصول في النحو، محمد بن سهل ابن السراج(٣١٦هـ)، تحقيق، د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، د.ت.
- ✓ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق، السيد، أحمد صقر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر ١٩٦٣م.
- ✓ الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي (ت ١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، أيار - مايو ١٩٨٠م.
- ✓ إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، تحقيق، جواد القيومي الاصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، رجب ١٤١٤هـ.

- ✓ اقتصادنا، السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٢ هـ)، تحقيق : مكتب الإعلام الإسلامي - فرع خراسان، مؤسسة بوستان كتاب قم (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، الطبعة الثانية سنة الطبع ، ١٤٢٥ - ١٣٨٢ ش.
- ✓ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، للشريف المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ)، تصحيح وتعليق: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ✓ الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت حدود سنة ٤٠٠ هـ) ضبط وتصحيح، أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة- بيروت، (د.ت).
- ✓ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ✓ الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ)، تحقيق، د. مازن المبارك، ، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ✓ الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) حققه وعلق عليه وفهرسه د. عبد الحميد هنداي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية (طبعة مزيدة ومنقحة)، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- ✓ إيمان أبي طالب، الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) تحقيق، مؤسسة البعثة، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .
- ✓ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلم العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ✓ البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ✓ البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ م.
- ✓ البديع تأصيل وتجديد، الدكتور منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ١٩٨٦ م.
- ✓ البديع في ضوء أساليب القرآن، دكتور عبد الفتاح لاشين، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م .
- ✓ البديع والتوازي، دكتور عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، المنطرة- أبراج مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

- ✓ البديع، تأليف أبو العباس عبد الله ابن المعتز (ت ٢٩٥هـ)، تقديم وشرح وتحقيق، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- ✓ البديعيات في الأدب العربي، نشأتها- تطورها- أثرها، إعداد علي أبو زيد، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ✓ البلاغة الاصطلاحية، دكتور، عبده عبد العزيز قلقيله، أستاذ النقد الأدبي والبلاغة كلية الآداب جامعة الملك سعود، دار الفكر العربي، شارع جواد حسني، القاهرة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٩م.
- ✓ البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، مطبعة سليمان زادة، إيران- قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-١٣٨٢ش.
- ✓ بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس، ١٩٩٢م.
- ✓ البلاغة العربية أصولها وامتدادها د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت - لبنان ١٩٩٩م.
- ✓ البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، د. عبد العاطي غريب علي غلام، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ✓ البلاغة العربية تأصيل وتجديد، الدكتور مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٥م.
- ✓ البلاغة العربية قراءة أخرى، الدكتور محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- ✓ البلاغة العربية، تأريخها، مصادرها، نشأتها، د. علي عشري زايد، مكتبة الشباب، ١٩٨٢م.
- ✓ البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة السادسة، ١٩٨٣م.
- ✓ البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي) نموذج ابن جني، محمد مشبال، إفريقيا الشرق- المغرب، ٢٠٠٧م.
- ✓ البلاغة والتطبيق د. احمد مطلوب و، د. كامل حسن بصير، مطابع بيروت الحديثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.
- ✓ بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي)، د. محمد عبد المطلب، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- ✓ البيان العربي (دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى) د. بدوي طبانة، مكتبة الانجلو مصرية- القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

- ✓ البيان القرآني عند الجاحظ د. هاشم محمد هاشم، جامعة الأزهر (د.ت).
- ✓ البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت ١٤١٣هـ)، منشورات التوحيد للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، الكويت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ✓ البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ✓ تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٤ - ١٩٩٤م.
- ✓ تاريخ الإسلام، الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق، د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ✓ تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١١هـ) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، مراجعة وتصحيح نخبة من العلماء (د.ت).
- ✓ تأريخ العربية، تأليف د. عبد الحسين محمد الفتلي، و د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، و د. طارق عبد عون الجنابي، منهج معدّ لطلبة المرحلة الثانية، قسم اللغة العربية، جامعة بغداد.
- ✓ تأريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- ✓ تأريخ بغداد أو مدينة السلام، تأليف أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ✓ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، آية الله السيد حسن الصدر، شركة النشر والطباعة الغرافية المحدودة، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- ✓ التبيان في تفسير القرآن، تأليف شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح، أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ✓ تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق الدكتور حفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث العربي، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- ✓ تدوين السنة الشريفة، محمد رضا الجالي، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٣٧٦ ش.
- ✓ تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الفتني (ت ٩٨٦هـ)، تقديم محمد عبد الجليل السامرودي (د.ت).
- ✓ التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، وليد قصّاب، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥.

- ✓ تصحيح الاعتقاد في دين الإمامية للشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، تحقيق عصام عبد السيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
- ✓ تصحيقات المحدثين، لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (ت ٣٨٢هـ)، تحقيق: محمود أحمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ✓ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ✓ التعبير الفني في القرآن الكريم، د. بكرى الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- ✓ تفسير ابن كثير، لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تقديم، يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ✓ تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن محمد العاملي (ت ١١٠٤هـ)، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، قم، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
- ✓ التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره الى القرن السادس، حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.
- ✓ التفكير البلاغي في كتب الإعجاز عند المحدثين، (أطروحة دكتوراه)، قصي ابراهيم نعمة الحصونة، كلية الآداب/ جامعة البصرة، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ✓ تقييد العلم، لأحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق وتعليق، يوسف العش، نشر، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م.
- ✓ التكامل الاجتماعي للإنسان، آية الله الشهيد مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الاسلامي- قسم العلاقات الدولية، سبهر، ١٤٠٣هـ.
- ✓ التكرير بين المثير والتأثير، د. عز الدين علي السيد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- ✓ تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ✓ التواصل البلاغي من المصرح به إلى المسكوت عنه، د. احمد طايبي، منشورات زاوية، مطبعة أمنية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ✓ التوسع في الموروث البلاغي والنقدي، دراسة في مفهوم الابداع باللغة عند العرب، د. حسين عقلة الجداونة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع أربد- الاردن، الطبعة العربية الأولى ٢٠١١م.
- ✓ جامع أحاديث الشيعة، آية الله العظمى السيد حسين البروجردي (ت ١٣٨٣هـ)، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٧هـ.

- ✓ جامع البيان عن تأويل آي القرآن محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تقديم : الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج، صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ✓ جامع الشتات، الميرزا القمي (ت ١٢٣١هـ)، تصحيح مرتضى الرضوي، انتشارات كيهاني، الطبعة الأولى، ١٣٧٢ ش.
- ✓ الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) تصحيح: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ✓ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف السيد أحمد الهاشمي، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية والعشرون، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ✓ جواهر الألفاظ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ✓ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، نشر دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
- ✓ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٣٠هـ - ١٠٩٣هـ)، المطبعة الأميرية بولاق، الطبعة الأولى (د.ت).
- ✓ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
- ✓ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ✓ الخطابة لأرسطو، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام- الجمهورية العراقية، ١٩٨٠.
- ✓ خلاصة علم الكلام، الدكتور عبد الهادي الفضلي، دار المؤرخ العربي ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ✓ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
- ✓ دراسات في البلاغة والشعر، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ✓ دراسات منهجية في علم البديع، دكتور الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، طحانوب - قليوبية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ✓ دراسات نقدية وبلاغية، جدل التراث والمعاصرة د. ناصر حلاوي، جمع ودراسة د. حامد ناصر الظالمي، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

- ✓ دراسات ورؤى في تأريخ البصرة، د. جواد كاظم النصر الله، دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، العراق- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
- ✓ دراسة النحو العربي في ضوء الغاية المعرفية، د. احمد رسن، دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، العراق- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
- ✓ ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس (ت٢٨٣هـ)، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ✓ ديوان أبي الطيب المتنبي (ت٣٥٤هـ)، شرح عبد الرحمن البرقوقي (ت١٩٤٤م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
- ✓ ديوان الأعشى الأكبر ميمون بن قيس (ت٧هـ) اعتنى به، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- ✓ ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق، محمد التونجي، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ✓ ديوان البحري، أبي عبادة الوليد بن عبيد الله (ت٢٨٠هـ)، دار المعارف، ١٩٦٣م.
- ✓ ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ✓ ديوان الشريف الرضي محمد بن علي بن الحسين (ت٤٠٤هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، (د.ت).
- ✓ ديوان الشمّاح بن ضرار الذبياني، حقّقه وشرحه، صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- ✓ ديوان الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
- ✓ ديوان الفرزدق، همّام بن غالب بن صعصعة (١١٤هـ)، شرحه وضبطه وقدم له، الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ✓ ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ✓ ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- ✓ ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه الأستاذ مصطفى عبد الشافي، محققة عن شرح حسن السندوبي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- ✓ ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ✓ ديوان عبيد الله بن قيس الرُّقَيّات، تحقيق وشرح، د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.

- ✓ ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه، محمد جبار المعبيد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- ✓ الذخيرة في علم الكلام، السيد المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ)، تحقيق، السيد أحمد الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١١ هـ.
- ✓ الرافد في علم الأصول، تقريراً لأبحاث آية الله العظمى السيد السيستاني، للسيد منير الخباز، نشر مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني، مهر - قم ، الطبعة الأولى، جمادي الآخرة ١٤١٤ هـ.
- ✓ رجال الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، طبع ونشر مؤسسة الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.
- ✓ رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي النجاشي الأسدي (ت ٤٥٠ هـ)، طبع ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، تحقيق السيد موسى الشبيري الزنجاني، ١٤١٦ هـ.
- ✓ الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، كلية الآداب والفنون والإنسانيات - تونس ، دار المعرفة للنشر- الجمهورية التونسية، ط٢، ٢٠٠٧ م.
- ✓ **الرسائل والأطروحات الجامعية:**
- ✓ الرياض النضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد المحب الطبري (ت ٦٩٤ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ت).
- ✓ زُهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني المغربي (ت ٤٥٣ هـ)، تعليق زكي مبارك، طبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة.
- ✓ سرّ الفصاحة، للأمير عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفي سنة ٤٦٦ هـ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ✓ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٦٥ هـ)، تحقيق وتعليق، سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- ✓ سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، إشراف وتخرّيج ، شعيب الأرناؤوط، الجزء السادس، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

- ✓ سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، إشراف وتخرّيج، شعيب الأرنؤوط، الجزء السابع، تحقيق: علي أبو زيد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.
- ✓ سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، إشراف وتخرّيج، شعيب الأرنؤوط، الجزء العاشر، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.
- ✓ شرح ابن عقيل، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل، العقيلي، المصري، الهمداني (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر وتوزيع، دار التراث القاهرة، الطبعة العشرون، ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
- ✓ شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ)، تعليق، الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح، السيد علي عاشور، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.
- ✓ شرح الصولي لديوان أبي تمام، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- ✓ شرح الكافية رضي الدين الاسترأبادي (ت ٦٨٦هـ)، تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر مؤسسة الصادق - طهران، جامعة قار يونس، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- ✓ شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، مراجعة د. يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠ م.
- ✓ شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط وتصحيح، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠ م.
- ✓ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، تأليف جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ✓ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٦٥هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، ١٣٧٨ هـ- ١٩٥٩ م.
- ✓ شعر دعل بن علي الخزاعي (١٤٨هـ- ٢٤٦هـ) صنعه الدكتور عبد الكريم الأستر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- ✓ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، د. أحمد عبد الستار الجوّاري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م.
- ✓ الشعر والشعراء، لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٨ م.
- ✓ الصبغ البديعي، الدكتور أحمد إبراهيم موسى، طبعة دار الكتاب العربي، ١٩٨٦ م.

- ✓ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ✓ صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبع بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة استانبول، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ✓ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الفكر بيروت- لبنان، (د.ت).
- ✓ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، العلامة المحقق جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت- لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- ✓ الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) (ت ٩٥هـ)، تقديم، السيد محمد باقر الصدر، منشورات الفجر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- ✓ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٣هـ)، أحمد بن حجر الهيتمي المكي، (ت ٩٧٤هـ)، خرّج أحاديثه وعلّق حواشيه ، وقدم له، عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر مكتبة القاهرة، لصاحبها: علي يوسف سليمان، ميدان الأزهر بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ✓ صوت الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، السيد حسن السيد علي القبانجي، مؤسسة إحياء التراث الشيعي- النجف الأشرف الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ✓ الصورة الفنية (في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) ، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ .
- ✓ طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي ابن السبكي (ت ٧٧١هـ)، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية الشهيرة.
- ✓ طبقات الشعراء، لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ١٩٥٦م.
- ✓ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تقديم، إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان (د.ت).
- ✓ طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) شرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ✓ طراز الحلة وشفاء الغلة في شرح حلة السيرى في مدح خير الورى، تأليف أبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرّعيني الغرناطي (ت ٧٧٩هـ)، مخطوط، مكتبة جامعة الرياض ، رقم ٢٩٥١.

- ✓ ظهر الإسلام، أحمد أمين، الطبعة الأولى، القاهرة.
- ✓ الظواهر المسرحية عند العرب، علي عقله عرسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨١م.
- ✓ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ)، القاهرة، ١٣٧٠هـ.
- ✓ العلاقات الدلالية و التراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية) الدكتور عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، أبراج مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ✓ علم البديع د. عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ✓ علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيّود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ✓ علم الدلالة، أ. ف. آر. بالمر، تحقيق مجيد الماشطة، منشورات الجامعة المستنصرية، بغداد ١٩٨٥.
- ✓ علم الدلالة، تأليف الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨م.
- ✓ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت.).
- ✓ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ✓ عوالي اللآلئ، لابن أبي الجمهور الأحسائي (ت ٨٨٠هـ) تحقيق: الحاج آقا مجتبی العراقي الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ✓ عيار الشعر، تأليف أبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، مراجعة، نعيم زرزور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ✓ عيون أخبار الرضا، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق وتقديم، حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ✓ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان، الطبعة الثانية (د.ت.).
- ✓ فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.

- ✓ فلسفة اللغة تأليف سيلفان أورو ترجمة عبد المجيد جحفة دار الكتاب الجديد المتحدة ٢٠١٠م الطبعة الأولى في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا .
- ✓ الفلسفة واللغة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، د. الزواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م. .
- ✓ فن القول، أمين الخولي، تقديم صلاح فضل، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٩٦م.
- ✓ فن القول، أمين الخولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.
- ✓ الفهرست، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق، الشيخ جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة ، الطبعة الأولى، شعبان المعظم ١٤١٧ هـ.
- ✓ فهم الخطاب القرآني بين الإمامية والأشاعرة، دراسة مقارنة في ضوء ركائز الأسلوبية، الدكتور صباح عيدان حمود العبادي، دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- ✓ في النقد الجمالي، د. أحمد محمود خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت- دمشق، ١٩٩٦م.
- ✓ في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، تأليف سعيد توفيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- ✓ فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١هـ)، تصحيح، أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
- ✓ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) تقديم الشيخ نصر الهوريني، دار العلم للجميع، بيروت -لبنان.
- ✓ قراءة في تعدد القراءات، مناقشة لمبادئ التعددية في كلمات الدكتور عبد الكريم سروش، علي أحمد الكربابادي، دار الصفا للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- ✓ القرآن في الإسلام، تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ترجمة السيد أحمد الحسيني، مركز اعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الاسلامية في إيران، طهران ١٤٠٤هـ.
- ✓ قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد فاكّر المييدي، مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ، الجمهورية الاسلامية في إيران، طهران ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ✓ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)، ضبطه وصحّحه، باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ- ١٩٩٧م.

- ✓ الكافي، الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق، علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية - طهران ، الطبعة الرابعة، ١٣٦٥ ش.
- ✓ الكامل في ضعفاء الرجال، لأبي أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ)، قراءة وتدقيق، يحيى مختار غزاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة محرم ١٤٠٩ - ١٩٨٨ م.
- ✓ كتاب أرسطو طاليس في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القُنَّائي، من السُّرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري محمد عيَّاد، الناشر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م.
- ✓ كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الإصفهاني، (ت ٣٥٦ هـ - ٩٧٦ م)، تحقيق د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، الأستاذ بكر عباس، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- ✓ كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٨ م.
- ✓ كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، ١٩٤٣ م .
- ✓ كتاب الخلاف، تأليف شيخ الطائفة الإمام أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق، المحققون: السيد علي الخراساني ، السيد جواد الشهرستاني، الشيخ محمد مهدي نجف، المشرف، الشيخ مجتبي العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- ✓ كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق. علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- ✓ كتاب الضعفاء الكبير تصنيف الحافظ أبي جعفر محمد بن عمرو بن حمّاد للعقيلي (ت ٣٢٢ هـ)، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ.
- ✓ كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف السيد الإمام يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليميني (ت ٧٤٩ هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ✓ كتاب دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الامام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي المتوفى (٤٧١ أو ٤٧٧ هـ)، قرأه وعلّق عليه، محمود محمد

- شاكر، نشر، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ✓ الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
- ✓ الكشف عن حقائق التأويل ووجوه الأقاويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- ✓ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان (١٤٠٢هـ - ١٩٨٠م).
- ✓ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥هـ) ضبط وتفسير، الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة، الشيخ صفوة السقاسنة، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ✓ كنز الفوائد، لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩هـ)، مكتبة مصطفى، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.ش.
- ✓ الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، تقديم محمد هادي اليوسفي، مكتبة الصدر - طهران، (د.ت).
- ✓ لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.
- ✓ لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، نشر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
- الشيعية بين الأشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني، دار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.
- ✓ اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية د. عبد القادر الفاسي، الكتاب الأول، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٣م.
- ✓ اللسانية التوليدية والتحويلية، د. عادل فاخوري، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- ✓ اللغة في الدرس البلاغي، أ. د. عدنان عبد الكريم جمعة، دار السياب، (لندن)، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- ✓ المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، د. أحمد جمال العمري، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ✓ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، قدّمه وعلق عليه، الدكتور. أحمد الحوفي و، الدكتور. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).
- ✓ مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.
- ✓ المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، (كتاب مشترك) دار قرطبة، البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٣ م.
- ✓ المجازات النبوية، الشريف الرضي محمد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ) تحقيق وشرح، طه محمد الزيتي، منشورات مكتبة بصيرتي- قم .
- ✓ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- ✓ مختلف الشيعة، العلامة الحلي الحسن بن المطهر (٧٢٦هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة. الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ✓ مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، صفي الدين البغدادي (ت ٧٣٩هـ) تحقيق، علي محمد الجاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.
- ✓ المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، د. عبد العزيز حمودة، مطابع الوطن، الكويت سلسلة عالم المعرفة، جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ، اغسطس ٢٠٠١ م.
- ✓ المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العربية، الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م.
- ✓ مستمسك العروة الوثقى، آية الله العظمى السيد محسن الحكيم قدس سرّه، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ.
- ✓ مسند أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، دار صادر - بيروت لبنان (د.ت) .
- ✓ مصباح الأصول، تقرير بحث السيد الخوئي، للسيد محمد سرور الواعظ البهسودي، مكتبة الداوري- قم، الطبعة الخامسة، ١٤١٧ هـ.
- ✓ مصباح المتهجد، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ✓ المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي، (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق وتعليق، سعيد اللحام، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- ✓ المصنّف، تأليف أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق وتخريج وتعليق، حبيب الرحمن الأعظمي ، منشورات المجلس العلمي (د.ت).

- ✓ المصون في الأدب، حسن العسكري (ت ٣٨٢هـ)، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ✓ معالم الاهتداء إلى الوقوف والابتداء، خليل محمود الحصري، دار ابن الهيثم، القاهرة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- ✓ معاني الأخبار، للشيخ الجليل الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري مؤسسة النشر الإسلامي التابع لجامعة المدرسين بقم المشرفة، ١٣٦١هـ.
- ✓ معاني القرآن، سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق، د. فايز فارس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
- ✓ معجم البلدان، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ✓ المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق وتخرّيج، حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة. (د.ت.).
- ✓ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، تأليف الدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ✓ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، تأليف الدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ✓ معجم المطبوعات العربية، إيلان سرقيس، (ت ١٣٥١هـ) مكتبة آية الله المرعشي النجفي - قم المقدسة، ١٤١٠هـ.
- ✓ معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى - بيروت - لبنان، و دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٩م.
- ✓ معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت ١٤١٣هـ)، الطبعة الخامسة، طبعة منقحة ومزيدة، ١٤١٣ - ١٩٩٢م.
- ✓ المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، بنغازي- ليبيا، طبعة مزيدة ومنقحة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- ✓ مفتاح العلوم، تأليف أبي يعقوب يوسف ابن أبي بكر بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، دراسة، أكرم عثمان يوسف، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مطبعة دار الرسالة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ✓ المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، ضبط، هيثم طعيمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- ✓ مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ)، تقديم وإشراف: كاظم المظفر، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر - قم - إيران، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ - ١٩٦٥ م.
- ✓ مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، الدكتور حامد صالح خلف الربيعي، جامعة أم القرى، فهرسة مكتبة الملك فهد أثناء النشر، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ✓ مقدمات منهجية في تفسير النصّ القرآني، الأستاذ الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد، منشورات المنتدى الوطني للفكر والثقافة، الضياء للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ✓ مقدمة العلامة ابن خلدون، المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، مطبعة مصطفى محمد، مصر شارع محمد علي (د.ت).
- ✓ مقدمة في النقد الأدبي د. علي جواد الطاهر، منشورات المكتبة العالمية - بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ م.
- ✓ المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عزّ وجلّ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، دراسة وتحقيق، د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ✓ المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عزّ وجلّ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، دراسة وتحقيق، جاید زيدان مخلف، جمهورية العراق وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ✓ من آفاق الفكر البلاغي عند العرب، دكتور عبد الحكيم راضي، نشر مكتبة الآداب- القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م.
- ✓ من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية، السيد محمد تقي الحكيم، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ✓ مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني، د. ستار جبر حمود الأعرجي، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٨ م.
- ✓ مناهج بلاغية، الدكتور أحمد مطلوب، بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ✓ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تأليف أبي محمد القاسم الانصاري السجلماسي، من نقاد القرن الثامن الهجري بالمغرب، تقديم وتحقيق علّال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط- المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م.
- ✓ المنطق، تأليف العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٩٣ هـ)، الناشر حبيب، مطبعة ياسدار إسلام، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ. ق.
- ✓ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ)، تحقيق محمد الحبيب، ابن خوجة، تونس ١٩٦٦ م.

- ✓ الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، نحو كتابة تأريخ جديد للبلاغة العربية، د. محمد العمري، منشورات مجلة دارسات. سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- ✓ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧٠هـ)، الجزء الأول، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٢م.
- ✓ الموشح، في مأخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٦٥م.
- ✓ الموضوعات لابن الجوزي (ت ٥٧٩هـ)، ضبط وتقديم وتحقيق، عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- ✓ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق، علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.
- ✓ الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤١٢هـ)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم المقدسة .
- ✓ النحو الوافي، مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، تأليف عباس حسن، انتشارات ناصر خسرو- قم، الطبعة الثامنة، ١٣٨٤هـ-١٤٢٦هـ.
- ✓ النصّ الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، د. وجيه قانصوة، دار الفارابي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- ✓ النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، نعمة رحيم العزاوي، منشورات وزارة الثقافة والفنون - جمهورية العراق، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- ✓ النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، مكتبة النهضة، مصر، القاهرة، (د.ت).
- ✓ نقد النثر أو كتاب البيان، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
- ✓ النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، د محمد زغلول سلام، طبعة دار المعارف.
- ✓ نهج البلاغة شرح محمد عبده، منشورات ذوي القربى، قم، الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ.
- ✓ نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي (ت ٤٠٤هـ)، ضبط وفهرسة د. صبحي الصالح، انتشارات أنوار الهدى، مطبعة ياران، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥ هـ.ق.
- ✓ هكذا رأيته، الأستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير، مؤسسة المعارف للطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

- ✓ الوافي بالوفيات ، للصفدي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق، أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى، بيروت دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- ✓ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق ، إحسان عباس دار الثقافة، لبنان، (د.ت).
- ✓ ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سلمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤هـ)، تحقيق ، سيد علي جمال أشرف الحسيني، الطبعة الأولى، نشر دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ .

الرسائل والأطروحات الجامعية:

- ✓ الأشكال البديعية في خطاب الإمام الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) في كتاب الأصول من الكافي للكليني، أطروحة دكتوراه، بإشراف، د. فالح كامل اسكندر، ود. ضياء الثامري، جامعة البصرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
- ✓ بنية الخطبة في نهج البلاغة، دراسة في ضوء نظرية أرسطو في الخطابة، رسالة ماجستير (مخطوطة)، طارق محمد حسن، بإشراف، م. م ماجد عبد الحميد الكعبي، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
- ✓ التفكير البلاغي في كتب الإعجاز عند المحدثين، (أطروحة دكتوراه)، قصي ابراهيم نعمة الحصونة، كلية الآداب/ جامعة البصرة، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ✓ علم البديع نشأته وتطوره، (رسالة ماجستير) جليل رشيد فالح، كلية الآداب- جامعة بغداد ١٩٧٢م.

المجلات:

- ✓ المدخل إلى بلاغة المحسنات، محمد الولي، مجلة "فكر ونقد"، المدير المسؤول ورئيس التحرير: محمد عابد الجابري، الموقع www.aljabriabed.com، العدد (٣٤).
- ✓ الشعرية اللسانية والشعرية الأسلوبية، محمد القاسمي، مجلة "فكر ونقد" المدير المسؤول ورئيس التحرير محمد عابد الجابري، الموقع www.aljabriabed.com ، العدد (٥٨).
- ✓ الأسلوب بين التراث العربي والأسلوبية الحديثة، د. محمد بلّوحي ، مجلة التراث العربي- مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب- دمشق العدد (٩٥) - السنة الرابعة والعشرون - أيلول ٢٠٠٤ - رجب ، ١٤٢٥.
- ✓ وصية أبي تمام الإسناد والتوثيق، د. عبد الكريم محمد حسين، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الانسانية، رئيس التحرير، د. محمد شفيق البيطار، الموقع، www.damascusuniversity.edu.sy، المجلد (١٩) العدد (٤+٣)، ٢٠٠٣م.

مواقع الشبكة الإلكترونية:

✓ موقع ملتقى البلاغة العربية، أطروحة (محاولات التجديد في البلاغة العربية في العصر الحديث، د. عبد الله مسّاوي).



ملخص الأطروحة باللغة الانجليزية

In the Name of Allah, the Entirely Merciful, the Especially Merciful

Thank is for Allah, for He is beginning favors. And His blessings and peace are upon His messenger Mohammed and his family, the lamps of the darkness, the lords of Arabs and foreigners, and the commanders of nations and universes. And then...

Indeed, the rhetorical research has fertility in the lingual intellect generally, for the power, it has, to straighten human tongue – and forming it, the tongue, in the form that actualizes its aim in expression, and revealing what is meant, and for it helps in seeing the linguistic aesthetic aspect with best circumstance and rightest utterance. And, indeed, Arabic eloquence has a unique share and wide range in human tongue path towards that destination. The rank of Arab eloquence, of the others, is like the pearl of the crown, and like the rectitude in argument, for it has being watered from the greatest channel, and it has a sheath to sheathe its utterance swords, which is the great holy Qur'an.

No doubt, Arabic inheritance needs treatment in this field, so that its material can be displayed in a form that meets what the eloquence power and the communication through saying and uttering have reached. This is done with keeping its fundamental bases upon which it had been built, and with treating what is necessary to be treated. Hence the importance of renewal comes. It is the way of generating from the inheritance, not the treatment based on interring, what belongs to the others, in our special system, regardless of the environmental and cultural reality from which that new generated.

Therefore, Studies and treatments in Arabic eloquence have sequenced, for some men feel that it is important to renew its subjects and change its blood so that its heart can beat with life. So, such studies came varied in their depth of treatments. Some are conscious and actual, as others are unripe and useless based on being completely affected by the others, with no activating for the accuracy of what was dissertated in the inheritance, and treatments it presented.

Hence, this study titled “The Prospects of Innovation in the Contemporary Rhetorical Intellect / Bade'e Studies As a Choice” came, to treat these studies that adopted the renewal and tried to change the bloods, as they claimed. The researcher has chosen (Bade'e) among its brothers (eloquence and meanings), for two causes: first, there are a lot of studies treated the renewal unattached with its brothers. Second, because rhetoric nowadays tended towards Bade'e, bringing considering back to this science of rhetoric which was prisoned by its incorporeal marginality. So, modern studies tried to return sale ability and popularity back to it, as they considered it as the beginning point from which Arabic rhetoric grown, in regarding it as the first discussed subject in its field, through these technical forms and devised expressive styles.

So, this study is to treat these studies and declare the extent of what innovation claims achieved. Also to declare the scientific avail of some treatments, for some are unripe and empty of originality, when the others are nasty for the taste, because they promised but haven't yet fulfilled. So, among this and that, this study came. It is arranged in a preface, three chapters, and conclusion.

The preface is on two introductions: first, treats the general prospect of innovation, and some of its causes and justifications, expressing the directions of innovation and some major attempts in this field. Second, relates on the first chapter, for it treats some knowledge bases that stamped the inherited Arabic rhetorical. With such discussion it gives the necessarily regarded bases of innovation, emphasizing the centralization of holy Qur'an from Him rhetoric existed. But It was absent in its general approach. Therefore, an attempt, which rides the saddle of innovation, should consider the rhetoric of this great text, and even should match its walk and water itself from its purity, by throwing its pails in these pure springs to be watered.

Where the first chapter treats the absence of series of holy Qur'an and the presence of another series, which is poetry. Thence, most rhetorical essays began, and all the efforts and endeavors were focused on, though holy Qur'an is the originalizing of rhetoric, that motivates intentions by its miraculous eloquence, when It was and is and will last generous in this science. At the same time, the equal texts were missed, the holy sayings of the prophet Mohammed and his family, for they are the equal of the holy Qur'an, and Muslims are commanded by their prophet Mohammed to adhere to them, with the control of very limited technical taste based on relativity. Sometimes, it is governed by the freaks and fundamentalism factors, and other times by leadership and colonelcy ones.

The second chapter is to treat (Bade'e), material of the study. It declares its lexical and idiomatic reference, and its development from Ibnil-Mo'taz till it anchors in Al-Kateeb Al-Qizweeny. Also it treats the improving prospect which expresses that the free improving vision is unfair. yet it bears in its folds a great capability, to produce and incubate the denotation, which is not less than semantics and eloquence, yet by which [Bade'e] perpetuity, communication and continuity in rhetoric are fulfilled.

The last chapter treats the most important references which studies rhetorical innovation. Therefore, many principal references were chosen to be treated by analysis and comparison, because most of these references were practiced in scientific research as connotation and extraction. So, the study declares, in this chapter, some blames of these studies, in comparison with what came from predecessors' ideas in this field, approximating the views, and declaring some methodical notes that the research underwent, alleging straightening what the research sees deviant from the shrewd rhetorical view, shedding light on some of these studies which seemed, by some of which,

that they are adopting a claim but don't present an evidence, nor details for the applications. So, they were " Much Ado About Nothing", as the saying says .

As usual, in academic researches, the study has been tailed by some consequences which are detailed in the conclusion. The most remarkable outcome is that an attempt for an innovation should consider the precedent texts in the rhetorical domain, i.e.: holy Qur'an and its equivalent, the holy sayings of the prophet Mohammed and his family, Allah blessing them all. For they are the kernel of rhetoric, the highest pearls, the evidence of marvels, the secret of eloquence, and the fathers of the two professions, knowledge and actions. Therefore, there is no way; these rhetoric samples must be debated with the power of the theoretical research, in order to purify rhetoric from many fabrication unoriginality.

Also, among the research results is that, indeed, (Bade'e) represents the focus from which rhetoric comes, for it is technical framings that reflect its men's ability that makes them deal with language technically. And this stimulates to push rhetoric wheel towards the level of actual outcome. Furthermore, the research reaches straitening procedures for many deliberated studies on the academic research level, declaring some methodical blames according to the scientific research.

Finally, thanks and praise to Him Who has granted me the power, and kept me away from troubles along this journey. So, oh God, I thank thee for thy continual help, and following support, and thine increasing providing. Then, thank is connected to reach my lords, the protectors of my favors, and my guidance to the truth, Mohammed and his family God blessing them all. The, I thank my teacher, who has sponsored this journey with big toleration and patience for his student, Dr. Faliḥ Kamil Iskender. And, too, thanks for my parents and family, for they have tolerated the burden of this travel. And for any who gave a hand, presented a help, and participated and supported physically or spiritually. And I'm less than to reward them, but I pray for Allah to do so, for He is has this power, and the last of my call will be, Praise to Allah, Lord of the worlds.

The researcher
Tariq Mohammed Hassan
2013-1435



Ministry of Higher Education
&
Scientific Research
University of Basrah / College of Arts



*THE INNOVATION
IN THE CONTEMPORARY RHETORICAL
INTELLECT
BADE'E STUDIES
ANALYSIS AND ARBITRAGE*

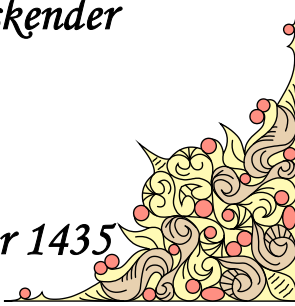
*Thesis by a student
Tariq Mohammad Hassan Matar*

*To the Board of the Faculty of Arts at the University of Basra,
As a Part of the Requirements for the Doctor of Philosophy
Degree in Arabic language and Literature*

*Under the supervision of
Assistant Professor Dr. Falih Kamil Iskender*



December 2013



safar 1435